15 امرأة أجنبية يروين قصصهن

زوجي رجل مصري





أناليز إسماعيل

Annelies Ismail

منى جبريل

Mona Gabriel



زوجي رجل مصري

15 امرأة أجنبية يروين قصصهن

زوجي رجل مصري

المؤلفتان

أناليز إسماعيل | منى جبريل

Annelies Ismail | Mona Gabriel

ترجمة

سحر صلاح إبراهيم

الناشر

الدار المصرية السعودية

للطباعة والنشر والتوزيع ـ القاهرة

لصاحبها العقيد شيرين ثابت

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر
إعداد إدارة الشئون الفنية

إسماعيل ، أناليز

زوجي رجل مصري/ أناليز إسماعيل

القاهرة: الدار المصرية السعودية للطباعة والنشر والتوزيع ، (٢٠١٠)

٤٢٠ ص ؛ ٢٤ سم

رقم الإيداع : ١٧٠٥٦ / ٢٠١٠

تـدمـك : 8 - 17 - 472 - 977 - 978

١- إسماعيل ، أناليز - المذكرات

أ- العنوان

٩٢٠

الناشـر
الدار المصرية السعودية
للطباعة والنشر والتوزيع ـ القاهرة
لصاحبها العقيد شيرين ثابت

E-Mail: elmsria.alsodia@hotmail.co.uk
www.qubaaalhadetha.com

16أ عمارات العبور ـ شارع صلاح سالم
الدور الثالث ـ مدينة نصر ـ القاهرة

تليفاكس : 02/22621365 تليفون : 02/24025777

محمول : 002/0123140315 - 002/0123171722

شكر وإهداء

لا يسعنى فى هذا المقام إلا أن أتقدم بخالص الشكر والتقدير لكل من ساهم معى فى إنجاح هذا العمل وخروجه بهذا الشكل للقارئ العربى وأخص بالشكر السيدة / منى الصغير - رئيس الإدارة المركزية للرقابة بالتلفزيون المصرى والسيد / مصطفى المراغي والسيدة / غادة أحمد فؤاد ضمن فريق العمل بالرقابة الأجنبية بالتلفزيون المصرى لمجهوداتهم المثمرة والتى تعد نواة للتواصل فى أعمال أخرى من شأنها أن تعزز التواصل بين الحضارات.

أناليز إسماعيل

الاسكندرية 07-2010

الـفـهــرس

الموضوع | الصفحة

تمهيد

كانت البداية بالإسكندرية عام 2006 حين تعرفت على سيدات من ألمانيا وسويسرا والنمسا وغيرهن من اللاتي يحملن جنسيات أخرى، وجميعهن متزوجات من رجال مصريين وبعضهن عشن في مصر لسنوات عديدة، روين لي حكاياتهن التي تتناول تفاصيل شديدة الخصوصية وتتسم بالواقعية؛ الأمر الذي أوحى لي بفكرة إعداد وتأليف هذا الكتاب الذي يضم تلك السير الذاتية التي تستعرض حياتهن الشخصية بعد أن قمت فقط بتغيير بعض التفاصيل والأسماء بناء على رغبتهن، العديد من تلك الحكايات تتناول قصص الحب التي عشنها ولم يعشن غيرها، وبعضها يجسد قصص الحب التي اشتعلت شرارتها من النظرة الأولى، أنا واحدة منهن؛ متزوجة من رجل مصري منذ عام 1965، ولقد عشنا معاً معظم سنوات عمرنا بألمانيا، وبعض السنوات القليلة بالولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا، وكانت حياتنا حافلة بالأحداث المشوقة والمتنوعة، ولكنها لم تخل من الصعاب، ولكن ما إن استمعت لقصص هؤلاء السيدات حتى كادت كلماتي تعجز- أكثر من مرة- عن الوصف والتعبير، كثيرات منهن قمن بتنشئة أبنائهن بمصر وسط ظروف صعبة داخل مجتمع لم يألفنه بين أناس يتحدثون بلغة غريبة يصعب تعلمها، وعشن حياة زوجية مختلطة امتزجت فيها الثقافة والدين، وأغلب تلك الحالات جمعت بين زوج مسلم وزوجة مسيحية، لقد قدمن بالفعل مثالاً حياً واقعياً يعكس قدرة المرء على التغلب على الكثير من مصاعب الحياة بالحب والتسامح.

كان من الطبيعي أن تنتهي بعض الزيجات بالطلاق والتفكك الأسري،

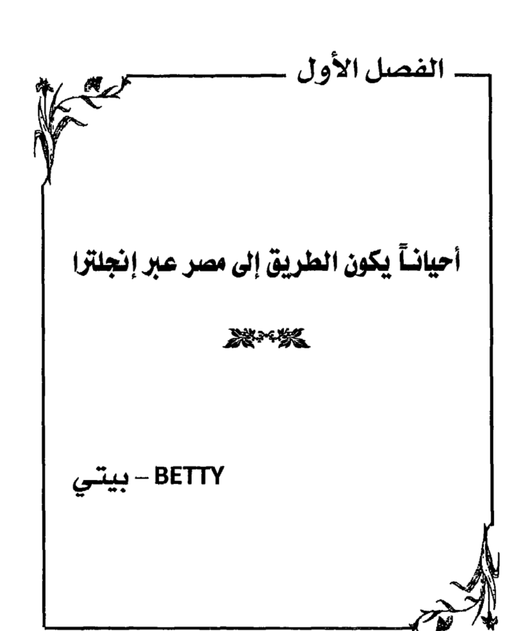
ولكنني أعتقد أن المرأة التي تستطيع أن تخطو تلك الخطوة الجريئة التي لا تخلو من المجازفة لابد وأن تكون امرأة ذات قدرات خاصة، تستطيع من خلال امتلاك العزيمة تخطي المعوقات بصورة تحول دون استسلامها لليأس إذا ما واجهتها أبسط المشكلات.

كل السيدات اللاتي قابلتهن أجمعن على شئ واحد وهو أن الظروف غير الطبيعية التي تعرضن لها قد أثرت حياتهن بالتجارب، وقليل منهن من صرحن بندمهن على اتخاذ مثل هذا القرار.

- نهدى هذا الكتاب إلى كل هؤلاء السيدات اللاتي يتسمن بالشجاعة والجرأة.
- أتقدم بخالص الشكر والعرفان لزوجي منعم إسماعيل الذي كان له عظيم الفضل في تشجيعي ومساندتي منذ البداية من خلال نقده البناء الذي دعمني وجعلني في النهاية قادرة على صياغة تلك القصص بطريقة منطقية ومفهومة:
- وكذلك أتوجه بالشكر لابنتي منى جبريل التي ساهمت معي في وضع السياق الخاص بالطبعة الألمانية " النص الأصلي" لتبدو القصص سلسة ومقروءة، هذا الكتاب هو ثمرة تعاوننا الأولى، وآمل ألا تكون الأخيرة.

أناليز إسماعيل

الإسكندرية – فبراير 2009



الفصل الأول

أحياناً يكون الطريق إلى مصر عبر إنجلترا

BETTY – بيتي

اسمها بيتي Betty، وقابلتها للمره الأولى ذات يوم بعد منتصف النهار بمنطقه العجمي وكانت بصحبة سيدات ألمانيات، وحين طرحت عليها – بدافع الفضول – بعض الأسئلة الخاصة بحياتها الشخصية، روت لي حكاية حبها، وأشد ما استرعى انتباهي تجاربها التي عاشتها بمصر، وأكثر ما أبهرني تفاصيل معايشتها للمصريين، وعلى الرغم من كوني متزوجة من رجل مصري منذ أكثر من أربعين عامًا، إلا أن حكايتها ظلت عالقة في مخيلتي، فاستأذنتها في أن أدونها، فوافقت على الفور، وبعد المزيد من الأحاديث والكثير من السرد للحكايات الشيقة تولدت لدي فكرة هذا الكتاب.

بيتي هي أكبر السيدات اللاتي تحدثت معهن سناً، كانت حينما التقينا تبلغ من العمر 79 عاماً، طويلة القامة ذات قوام ممشوق، ورغم مشيتها الحذرة وخطواتها المتحسبة بعد إجراء عمليتين في ركبتيها، إلا أنها خفيفة الحركة، كانت أحياناً تتلعثم أثناء الحديث، وكنت في الغالب أعيد على مسامعها تساؤلاتي – وها هي قصتها كما كتبناها معاً :

" لقد كان ذهابي إلى مصر أمرًا مقدرًا "؛ ما زلت أذكر ذلك اليوم الذي اصطحبتني فيه صديقتي إلى إحدى العرافات التي جلست أمامي لتستبصر طالعي؛ أخذت تهمهم وتتمتم بطلاسم مبهمة ثم أردفت قائلة :

– " سوف تعيشين تحت أشجار النخيل ! "

كنت وقتها أبلغ من العمر 12 عاماً، وبالطبع لم آخذ كلماتها بمحمل الجد، لدرجة أنني نسيت ما بصرت به تلك العرافة؛ ولكن في نهاية الأمر تحققت نبوءتها.

ولدت بمدينة هامبورج Hamburg عام 1928، توفى والدي وهو في

ريعان الشباب، كنت وقتها طفلة صغيرة، وفي عام 1943 تحولت مدينتنا إلى أطلال يغطيها الركام ويعلوها الرماد بسبب قصف الغارات، مرضت أمي بسرطان الدم، وتم احتجازها في المستشفى، وتطلب الأمر نقلها على وجه السرعة لمستشفى آخر، ولكنها أصيبت أثناء نقلها بعدوى الالتهاب الرئوي، الأمر الذي أودى بحياتها بعد ذلك بفترة قصيرة، وهكذا أصبحت يتيمة وأنا في الخامسة عشرة من العمر أعاني من أجواء الحرب.

كانت لي عمة – إلا أنها – عانت كثيراً من ويلات الحرب؛ فقدت زوجها وولديها أثناء المعارك القتالية، لم يكن في مقدورها أن تقدم لي يد العون؛ إذ كانت تعمل جاهدة على تدبير قوت يومها، وهكذا لم أستطع الاعتماد عليها.

وعلى الرغم من تلك المعاناة وتلك الظروف القاسية، نجحت بصورة أو بأخرى في استكمال تعليمي، وتلقيت التدريب الذي يؤهلني للعمل كمدرسة حضانة، وبعد ذلك بفترة التحقت بدورة تدريبية بالقرب من مدينة جيستبرج Jesteburg بولاية لينينبرج هيثLunenburg Heath .

ذات يوم عدت أدراجي إلى هامبورج Hamburg لأكتشف بعدها أن أخي قد ترك شقتنا ورحل عن المدينة، هكذا أخبرني الجيران بطريقة مقتضبة وأسلوب فظ، وقفت أمام باب الشقة الموصد ولم أدرِ حينها إلى أين أذهب، ولم أستطع أن أحدد وجهتي. تلاقينا أنا وأخي بعد ذلك مصادفة ولكننا بعد ذلك لم نتقابل كثيراً، وهكذا أصبحت وحيدة تماماً، دون مأوى في هامبورج؛ ولكن لحسن الحظ، ما إن ذهبت إلى جيستبرج Jesteburg وتعرفت على لِيلِي Lili التي أصحبت أعز صديقاتي، حتى شعرت بالألفة

سريعاً، كانت تدعى إليزابيث Elisabeth تماماً مثل اسمي، ولكي لا يحدث خلط بيننا كانت تعرف باسم ليلي Lili وكنت أعرف باسم بيتي Betty .

كانت ليلي تقيم مع عمتها إليسى Else التي أحبتني واحتضنتني وآوتني في بيتها، وسرعان ما شعرت بالانتماء لتلك العائلة، وهكذا أصبحت العمة إليسي بالنسبة لى بمنزلة أم بديلة، وقد توطدت صداقتنا واستمرت إلى أن توفيت عن عمر يناهز 92 عاماً.

في عام 1947 اشتركت أنا وليلي في افتتاح حضانة أطفال بمدينة جيستبرج Jesteburg ، وكنت وقتها قد بلغت التاسعة عشرة من العمر، وكان لزاماً علينا أن نتكفل بكافة المصاريف التي تتطلبها إدارة المكان في الوقت الذي لم تقدم لنا الدولة أي نوع من أنواع الدعم، وكنا نتقاضى من أولياء الأمور" 10 ريتش مارك "عن كل طفل، حين أسترجع بذاكرتي تلك الأيام الخوالي التي قضيناها بالقرية أجدها جميلة، الجميع كانوا يعرفوننا وكل واحد في القرية أحب الخالة ليلي والخالة بيتي، لم تكن هناك وفرة في الطعام ولكن ما كنا نتقاضاه كان يكفي احتياجاتنا، أما المزارعون فكان لديهم ما يكفيهم، ولم يتعرض أحد للموت جوعاً، إلى أن بدأت عملية الإصلاح الاقتصادي عام 1948، وترتب على ذلك تغيير العملة النقدية، لتنقلب الأمور فجأة رأساً على عقب، وبين ليلة وضحاها وبسبب الأزمة المالية التي تعرضت لها البلاد، لم يعد في مقدور الناس تسديد نفقات الحضانة، وهكذا تغيَّب الأطفال عن الحضانة، واضطررنا لإغلاقها نهائياً، والسؤال الذي كان يطرح نفسه بقوة في ذلك الوقت: ما الذي يستوجب علينا فعله؟

فلم يعد لنا في ألمانيا أي مورد للرزق، وفي نفس الوقت علينا أن نتدبر أمور معيشتنا بصورة أو بأخرى، طرأت لنا فكرة الذهاب إلى إنجلترا، حيث

فرص العمل متوفرة والمصحات العلاجية بحاجة لمربيات ومساعدات تمريض، فقامت ليلي بإدراج اسمها ضمن قائمة " البحث عن عمل"، وبعد فترة وجيزة حصلت على وظيفة بإنجلترا لتعمل كمربية أطفال في مزرعة، كنا نتواصل ونتراسل، ولم تمض فترة طويلة حتى تلقيت منها رسالة تخبرني فيها أنها وجدت لي وظيفة شاغرة وأن ذلك يستدعي ذهابي إلى إنجلترا.

سافرت إلى إنجلترا عام 1949 ، غادرت هامبورج متوجهة إلى مدينة هيل Hull، ركبت السفينة بمفردي وللمرة الأولى، ولا أذكر كثيراً من التفاصيل الخاصة بتلك الرحلة، إلا أنني أذكر الإبحار عند المعبر، وكيف كان الأمر فظيعاً ومخيفاً مما تسبب فى إصابة جميع المسافرين – وأنا منهم – بدوار البحر، لقد كان من الطبيعي أن أشعر بالغثيان؛ فتلك كانت المرة الأولى التي أسافر فيها بحرًا، حين وصلت لإنجلترا كنت منهكة أشعر بالإعياء الشديد، وكان على أن أستقل القطار عبر دارلينجتون Darlington نحو نيوكاسل Newcastle، لم يسبق لي السفر خارج ألمانيا ومعرفتي باللغة الإنجليزية لا تتعدى المنهج الذي تعلمته أثناء سنوات الدراسة، بالإضافة إلى بعض الدروس الخصوصية القليلة التي تعمدت حضورها قبل رحلتي إلى إنجلترا، حين جلست في القطار بدأت أشعر بالغربة النفسية وعدم التواصل، فاكتفيت بمراقبة من حولي من المسافرين، كان هناك سيدتان منهمكتان في شغل الإبرة تصنعان من الصوف السميك بلوفر أو ربما وشاحًا، ولكن طريقتها في الشغل كانت معقدة ومختلفة عن الطريقة التي عرفتها في ألمانيا، شيئاً فشيئاً وجد اليأس طريقه إلى نفسي، وبدأت أفقد شجاعتي، فأنا بمفردي في هذا العالم الجديد والغريب، أفتقد الخبرة ولا أملك المهارة اللغوية الكافية التي تؤهلني للتواصل مع غيرى، ومما زاد الأمر سوءً – حين وصل القطار إلى نيوكاسل – أن ليلى لم تكن في انتظاري كما وعدتني؛ لقد كانت

بالفعل مفاجأة غير متوقعة، وبعد فترة من البحث والانتظار، ظهر أمامي رجل هندي وخاطبني باللغة الإنجليزية، وأدركت رغم صعوبة الكلام أنه صاحب العمل الجديد الذي سأعمل لديه، اصطحبني ووضع حقائبي داخل سيارته وظل يتحدث طيلة الطريق دون توقف، ولم أفهم شيئاً مما قاله وحين توقف لوهلة عن الحديث سألته قائلة :

- " أين إليزابيث؟ ".

ساعتها فقط أدرك الرجل أنني لم أفهم شيئاً مما قاله؛ فلقد كانت تفاصيل حديثه طيلة الوقت تدور حول ليلى والسبب وراء عدم حضورها، الأمر الذي جعلنا نضحك، وحين وصلنا إلى منزله قدمني إلى أسرته المكونة من زوجته وطفليه، ورغم أنها إنجليزية إلا أنني لم أفهم حديثها شأنها في ذلك شأن زوجها الهندي !

استغرقت رحلتي من ألمانيا إلى نيوكاسل Newcastle خمسة أيام لم أتناول خلالها سوى القليل من الطعام، كنت أتضور جوعاً بعد تلك الرحلة الطويلة، وكنت آمل في طبق حساء ساخن، ولكن للأسف لم يتحقق لي ذلك، فقد كان العشاء الذي قدموه لي ما هو إلا سلطة باردة بالمايونيز مكونة من: بنجر أحمر، طماطم، خيار، وبعض قطع اللحم البارد، كان مذاقه غريباً لم أعهده من قبل ولم استسغه.

كنت مجهدة، وما إن وجدت طريقي إلى الغرفة المخصصة لي، حتى استسلمت لنوم عميق، وفي صباح اليوم التالي بدأت في مباشرة مهام عملي، علمني رب المنزل كيف أشعل نار المدفأة، ومنذ ذلك الحين كان عليَّ أداء تلك المهمة ضمن بعض الأعمال المنزلية الأخرى، هذا بالإضافة إلى رعايتي للطفلين، ربما يبدو الأمر سهلاً، لكن الحقيقة كانت على خلاف ذلك في كثير

من الأحيان؛ إذ كان الطفلان يتسمان بالعناد والرعونة والتصرفات الهوجاء، ويتعمدان مخالفة ما أقول بحجة أنهما لا يستطيعان فهمي، كما أن أمهما كانت تعاملني باستعلاء، وكأنها كانت تتعطف عليّ.

كانت المزرعة التي تعمل بها ليلى بعيدة، ولكن بالرغم من بعد المسافة، تقابلنا في أول فرصة سنحت لكلينا، وكانت يوم إجازاتنا، وعند ركوبنا الحافلة داخل نيوكاسل اتبعت طريقتي المعتادة وقفزت داخل الحافلة، وما إن فعلت ذلك حتى شعرت ليلى بالإحراج الشديدة وصاحت قائلة وهي تطوح بذراعيها وتشير لي باستنكار:

- " إنزلي على الفور! "، في إنجلترا الأمر يختلف؛ عليك أن تنتظري دورك" الطابور الإنجليزي الشهير"، وإن لم تلتزمي بذلك فلن أخرج معك ثانية "، فتداركت الأمر سريعاً، لقد كانت سعادتي لا توصف حين قضينا طيلة اليوم سوياً في نيوكاسل، تلك كانت المرة الأولى التي أرى فيها ليلى بعد فترة طويلة، وكان لدينا الكثير لنقوله، وأكثر ما أسعدني أنني تحدثت الألمانية مجدداً، وبعد انقضاء اليوم رجعت بمفردي إلى موقف الحافلات، وبالطبع وقفت في الطابور مثل أي فتاة ملتزمة.

لم تعد لدي مشكلة في فهم اللغة الإنجليزية، ولكن الأمر لم يخل من بعض الأخطاء القليلة المرتبطة بسوء الفهم والمثيرة للضحك، على سبيل المثال ذات ليلة كانت ربة المنزل تنتظر بعض الزائرين، وكان عليها الخروج لشراء بعض الاحتياجات قبل قدومهم بفترة وجيزة، فطلبت مني أن أبدأ طهي العشاء وسألتني:

- "هل يمكنك عمل سفن ؟."

فأجبتها بلهجة واثقة :

ـ بالطبع يمكنني ذلك.

فتوجهت للمطبخ وبدأت في عمل سفن باستخدام حبات البطاطس، فأنا موهوبة في النحت وأتمتع بالمهارة اليدوية، فقمت بعمل القوارب الشراعية بأشكالها المختلفة، ولم يكن لدي أدنى فكرة عن سبب طلبها هذا؛ فلم يكن في مقدوري بأية حال من الأحوال أن أفهم المقصد وراء كل شئ، حين عادت السيدة إلى المنزل، وحملت المشتروات إلى المطبخ سألتني:

ـ "هل صنعت السفن؟ "

فأجبتها بمنتهي الفخر:

ـ " نعم ها هي السفن".

وعرضت عليها قطع الأسطول البحري الذي صنعته من حبات البطاطس، فكادت السيدة تنفجر من الضحك، وأصبحت تلك الحكاية طرفة ترويها لكل من تحادثه عبر الهاتف :" لقد صنعت بيتي سفناً " !!! [1]

وفي واقعة أخرى كان مطلوباً مني أن أقوم بتحمير السمك في الزبد، هذا بعد أن سألتني سيده المنزل صراحة إذا ما كنت أعرف كيفية عمل ذلك فأجبتها :

ـ "نعم" .

فلم يكن الأمر صعباً على الإطلاق، تلك المرة فهمت معنى BUTTER "الزبد" ولكن للأسف لم يسر الأمر كما رغبت، بل ما حدث كان كالآتى؛ بمجرد أن تركتني شرعت على الفور في إعداد السمك، في بادئ الأمر بحثت

(1) ملاحظة: يعني لفظ "CHIPS" باللهجة البريطانية مقليات فرنسية، بينما يعني باللهجة الأمريكية رقائق بطاطس، وفي بريطانيا يعني مقرمشات " CRISPS" .

عن الزبد فلم أجده، ثم عثرت على ثلاثة قوالب محفوظة بالثلاجة، وكما كانت تفعل السيدة فعلت؛ استخدمت الكثير من الزبد في إعداد الطعام، وحين عادت للمنزل وجدتني قد استخدمت المخزون الذي يكفي لشهر كامل، فغضبت واستاءت، ففي تلك الفترة كان يتم توزيع الزبد ضمن الحصص التموينية.

لم يكن وجودي داخل هذا المنزل أمراً مريحاً بالنسبة لي، ولم يكن تعاملي مع ساكنيه بالشئ اليسير، فالأطفال لا يمتثلون لما أقول، كما أن ربة المنزل تحمل لي بداخلها ضغينة ولا تصرح بها.

كانت لي صديقة ألمانية تعمل كمربية أطفال، عثرت لي على عمل مماثل لدى أسرة جديدة فتنفست الصعداء وانتقلت للعمل لديهم، كان رب الأسرة طبيباً متخصصاً في الأمراض التنفسية، وكانت زوجته تعمل ممرضة، شعرت بالارتياح الذي كنت أفتقده لفترة طويلة. لقد أحببت الأطفال لدرجة كبيرة وأمضيت عامين داخل هذا المنزل أنعم بالإقامة داخل غرفة لطيفة، ولكنني ما لبثت أن شعرت بالإرهاق والضجر، وقتها بلغت من العمر 22 عاماً وملكت زمام أمري وأحرزت تقدماً مالياً، وبدأت أتصور نمطاً آخر لحياتي التي أرغب أن أعيشها.

قررت العودة لألمانيا، وقمت بزيارة عمتي إليسي في جيستبرج، ثم زرت إحدى صديقاتي في هامبورج، وكنت ما زلت متأثرة بنمط الحياة الإنجليزية، لقد اعتدت في بريطانيا الوقوف في الطابور لكي أستقل القطار، ولكن القطار لم ينتظرني وغادر من دوني، فالأمر مختلف في ألمانيا، وعلى المرء أن يتصرف بصورة مغايرة، ولكن الوقت كان كفيلاً لكي أعتاد نمط الحياة بألمانيا مرة

أخرى، ولكنني لم أشعر بالراحة في بلدي هامبورج، فكتبت إلى ليلي رسالة أحدثها فيها عن أحوالي بألمانيا فردت برسالة قصيرة قالت فيها :

- " تعالى إلى إنجلترا ".

عدت أدراجي إلى إنجلترا وعملت هذه المرة لدى أرملة لديها طفلان، وكانت مهمتي تنحصر في رعاية الطفلين، ولكن سلوك تلك المرأة لم يتناسب مع اتجاهي الأخلاقي، ولأنني متحفظة للغاية استنكرت أمر استقبالها للعديد من أصدقائها الرجال في ذات الوقت [1]، ولكن يجب أن أعترف أنها كانت تحسن معاملتي، وخصصت لي غرفة جميلة داخل منزلها، وشعرت بالحب والألفة الشديدة تجاه طفليها.

لم يعد يستهويني أمر العمل كمربية أطفال، وأردت أن أحقق لنفسي شيئاً آخر، فقررت أن أغير حياتي المهنية، فالتحقت بدورة تدريبية تؤهلني للعمل كممرضة، في ذلك الوقت كانت لغتي الإنجليزية قد تحسنت كثيراً، فاجتزت اختبار اللغة الإنجليزية دون أية صعوبات، وأصبحت طالبة تمريض وعشت وسط زميلاتي داخل سكن الممرضات، وكنا ننام في عنبر يضم عدة أسرة، وحينما كنا نرغب في تناول طعام آخر غير الذي نتناوله داخل كافيتريا المستشفى، كنا نقوم بطهي أي صنف نرغبه بالمطبخ المشترك داخل السكن، وهكذا اعتدت الحياة وشعرت بالطمأنينة وسط زميلاتي طالبات التمريض وتأقلمت سريعاً.

كانت ترودي Trudi هي أعز صديقاتي وكانت ألمانية مثلي، وكنا نخرج معاً للتنزه داخل حديقة" هايد بارك "Hyde PARK بعد انقضاء يوم العمل داخل المستشفى، كان الذهاب بالحافلة لا يستغرق وقتاً طويلاً، وهناك كنا

(1) الآن يطلق عليها : علاقات غير شرعية .

نقضي الوقت داخل الحديقة في الاستمتاع بالنسيم العليل وتبادل الأحاديث، وأحياناً كنا نستمع للخطباء عند " زاوية الخطباء "؛ كانوا يتناولون أموراً شتى تشمل الدين والدنيا، ولكنهم لا يتعرضون من قريب أو بعيد للأسرة الملكية؛ فالحديث عنها محظور تماماً، وخصوصاً فيما يتعلق بانتقادهم أو السخرية منهم.

ذات مساء شعرت ترودي بالتعب، ولم تستطع مرافقتي للهايد بارك فذهبت بمفردي، وهناك – وبينما كنت أتنزه – أخرجت من جيب معطفي سيجارة – كنت حينها أدخن السجائر شأني في ذلك شأن كافة طالبات التمريض- أردت إشعال السيجارة لكنني لم أعثر داخل جيبي على أعواد ثقاب، تلفت حولي أبحث بعيني عسى أن أجد من يشعل لي السيجارة، وسألت: هل من أحد معه ثقاب ؟ وحانت اللحظة الموعودة حين اقترب مني شاب يحمل ولاعته وأشعل سيجارتي وأبقى على الولاعة مشتعلة لفترة، لقد أراد أن يدقق النظر في وجهي- هذا ما صرح لي به فيما بعد- بدأ الحديث بيننا، وحين قال لي إنه قادم من أمريكا الجنوبية بدا الأمر غريباً بالنسبة لي، وعلى الفور اعتقدت أنه مصري، فقد سبق لي أن رأيت بعض المصريين، فهناك أطباء من مصر يعملون معي في المستشفى، ثم أردف قائلاً: إنه أتى بمفرده منذ بضعة أيام ويشعر بالوحدة الشديدة، فتفهمت شعوره لأنني مثله لطالما أحسست بالوحدة، وأخبرته أنني جئت من ألمانيا واستمر حديثنا حتى حان وقت عودتي للسكن، وانصرفنا بعد أن قررنا أن نتقابل في اليوم التالي في نفس المكان بالهايد بارك.

لم يكن في استطاعتي حينها أن أقرر إذا ما كنت بالفعل أرغب في رؤيته مجدداً، لهذا أردت أن أترك الأمر لأفاعيل القدر، فذهبت إلى موقف الحافلة في مساء اليوم التالي وقلت لنفسي سأستقل أول حافلة تأتي، وإذا

كانت الحافلة متجهة إلى الهايد بارك، فسيكون مقدراً لي أن ألقاه هناك، أما إذا كانت الحافلة متجهة إلى أي مكان آخر فسأذهب إلى حيث تأخذني، وجاءت الحافلة وكانت متجهة إلى" هايد بارك"، حيث مكان اللقاء وكان هناك ينتظر قدومي.....

ومنذ ذلك الحين أصبحنا نتقابل بصفة شبه يومية، إذا ما أتيحت لي الفرصة، وذات يوم اعترف لي أنه قادم من مصر، وليس أمريكا الجنوبية، وحتى يومنا هذا، أجهل السبب الحقيقي وراء زعمه الأول؛ ربما كان يمزح معي، كان يدعي إبراهيم، توطدت علاقتنا أكثر وتحدثنا طويلاً، وبعد مضى ثلاثة أيام على تعارفنا سألني إن كنت أقبل الزواج منه والذهاب معه إلى مصر، لقد كان عرضه مفاجأة بالنسبة لي، وبالطبع رفضت، فلم أتصور نفسي أسافر بعيداً إلى تلك البلاد الغريبة، وعلى الرغم من كون إنجلترا غريبة بالنسبة لي، إلا أنني شعرت وقتها أنني أعيش في وطني، ولكن إبراهيم لم يستسلم أمام رفضي، ولم يفقد أمله سريعاً وظل يردد على مسامعي نفس السؤال وكانت إجابتي في كل مرة بـ "لا"، وظل الحال هكذا عدة أسابيع، نتقابل ونتمشى معاً ونتبادل أطراف الحديث، وفي كل مرة كنت أكرر رفضي القاطع، وذات مرة ذهبت بصحبته إلى الفندق الذي يقيم فيه، ولا أعرف فيما كنت أفكر ساعتها، فمن الطبيعي أن يحاول إبراهيم العمل على تطوير العلاقة ولكن محاولاته لم تساعده في تحقيق رغبته لأنني رفضته، وعلى الرغم من ذلك استمرت لقاءاتنا وظل كل شئ كما هو عليه.

اقترب موعد إجازتي السنوية وأردت أن أقوم بزيارة ليلي في مزرعة نيوكاسل، فتقابلت مع إبراهيم في الهايد بارك في مساء اليوم الأخير قبل بداية الإجازة، وذهبنا للتنزه كما عهدنا سوياً، ثم اصطحبني إلى الحافلة وتبادلنا كلمات الوداع ثم تبادلنا التلويح بالأيادي وقلت له:

ـ " تصحبك السلامة ".

فأجابني :

ـ " تصحبك السلامة ".

كنت أعلم أنه على وشك الرجوع إلى الإسكندرية، فلم يعد هناك مدعاة لبقائه بعد أن انتهت مهمته في إنجلترا، إذ كان عليه العودة لمباشرة أعماله التجارية؛ فهو يملك محلاً لبيع وشراء الأجهزة الكهربائية المستعملة، وفي ذلك الوقت لم تكن هناك وفرة في الأجهزة، ولم يكن من السهل الحصول عليها، ومع ذلك استطاع إبراهيم شراء العديد من الأصناف التي لم تكن متوفرة في مصر، كما أنه تعلم أشياء عن التقنيات الحديثة، وقد حان وقت رجوعه لبلاده، وها هو يستعد للرحيل، وربما يحول القدر دون أن نلتقي ثانية، ساعتها أدركت حقيقة الأمر، وأصبح إبراهيم بالنسبة لي كالحلم الذي يتلاشي.

ركبت الحافلة وعدت إلى السكن لأجمع حقائبي ومتعلقاتي، فقد كان على أن أسلم غرفتي للإدارة قبل بدء إجازتي، وفي ليلتي الأخيرة بالمستشفى سمحت لي الإدارة بالنوم في سرير ترودي لأنها مناوبة ليلاً، كان صديقها شاباً إنجليزياً لطيفاً يملك سيارة، فاتفقا معاً على أن يرافقاني في صباح اليوم التالي إلى محطة القطار.

دخلت غرفة ترودي وجلست على سريرها، ليلتها لم يغمض لي جفن؛ فقمت وجلست إلى المائدة، كنت أعاني الأرق والسهاد، وجدت نفسي أكتب رسالة "إليه"، ثم مزقتها قطعاً صغيرة وانهمرت دموعي، ثم كتبت رسالة أخرى وانخرطت مجدداً في البكاء، لقد كان شعوراً فظيعاً يغلفه الحزن، لقد أصابني الأسى حين أدركت أن ساعة الفراق قد حانت؛ إذ كنت على يقين

أن إبراهيم لم يكن بالنسبة لي شخصاً عابراً في حياتي، سوف أفتقده كثيراً، وأفتقد أخلاقه الدمثة التي تزين شخصيته، ياله من شخص صادق !

ما إن عادت ترودي من عملها صباح اليوم التالي ونظرت في وجهي حتى عرفت حقيقة الأمر، كنت أتنهد بحرقة، وكانت أنفاسي مسموعة حين اقترنت بدموعي، فنصحتني بالذهاب إليه ومقابلته مرة أخرى، ولكنني كنت مترددة، فلقد رفضته كثيراً على مدى الأسابيع الماضية، والآن كبريائي تقف حائلاً دون أن أقدم على تلك الخطوة، ولكن ترودي كان لها عظيم الفضل في إقناعي، فاستحقت مني دوماً جزيل الشكر والثناء على وقوفها بجانبي، وأخيراً قررت تلبية نداء القلب والرضوخ لأمر الحب.

خرجنا معًا؛ أنا وترودي، وتوجهنا أولاً إلى محطة القطار لمراجعة مواعيد تحرك القطارات المتجهة إلى نيو كاسل، ثم ذهبنا إلى الفندق الذي يقيم فيه إبراهيم، فإن كان قد سافر بالفعل فهذا يعني أن القدر قد حال دون لقائنا، أما إذا كان لا يزال بالفندق!.. ترى ما الذي يخبئه القدر لنا ؟! كانت الأفكار تتلاحق بين جنبات عقلي وكأنها فى سباق عدو، وكنت ما زلت متأثرة بتداعيات الليلة السابقة، اختلطت بداخلي الأحاسيس وامتزجت بالقلق، أما قلبي فكاد حينها يقفز من صدري، فقد كان إبراهيم لا يزال موجوداً ولم يغادر الفندق بعد، دخلت إليه في غرفته بعد أن امتدت يدي لتفتح هذا الباب الموصد على مصراعيه كي أراه، كان مرتدياً كامل ثيابه مستلقياً في فراشه، شاحب الوجه ومجهد العينين، من يدري ! ربما كان يبكي هو الآخر.

نظر إليّ نظرة حانية، ولم يتفوه سوى بعبارة واحدة :

ـ " هل أنت قادمة معي؟

فأجبته ببساطة شديدة :

- "نعم" .

لقد كانت تلك اللحظة حاسمة لكلينا، لقد انقشعت الغيوم التي كادت تحجب رؤيتنا لمستقبلنا معاً، وبين عشية وضحاها تغيرت الخطط الموضوعة، وألغيت رحلتي إلى نيوكاسل، وكان علينا أن نشرع في تجهيز الأوراق اللازمة لعقد القران، ولأننا أجانب كان لابد من إحضار أوراق رسمية وشهادات عديدة من جهات مختلفة، وتطلب الأمر سعيًا طويلاً وجهدًا شاقًا في عدة اتجاهات على مدار أسابيع كانت كفيلة بتحطيم الأعصاب، إلى أن تم زفافنا في **لندن سيتي هول**، وتناولنا طعامنا في مطعم لطيف في لندن، وكان من بين المدعوين صديقتاي ليلي وترودي، وأمضينا جميعاً يوماً تغمره السعادة.

كان علينا بعد ذلك أن نرتب أمر رحلتنا من إنجلترا إلى مصر، وحان الوقت وتزامن مع حلول أعياد الميلاد (الكريسماس)، وركبنا السفينة المتجهة من ميناء دوفرDover إلى ميناء بورسعيد بمصر، استغرقت الرحلة خمسة أيام فقط، ولكنها بالنسبة لي كانت بمنزلة الدهر، وكنا نحاول التغلب على الشعور بالملل بممارسة بعض الألعاب الجماعية، حتى الآن ما زلت أذكر تلك اللعبة بوضوح؛ إذ كان على شخص أن يختفي في مكان ما، بينما يقوم آخر بالبحث عنه؛ لعبت دوري في الاختفاء، فجاء شاب إنجليزي وأمسكني من وراء شجرة الكريسماس، وطبقاً للعادات الإنجليزية قبلني الشاب وضحكنا، لم أكن أعلم أن هذا التصرف سوف يثير غضب إبراهيم، فقد اعتبره شيئا غير مقبول ولا يدعو للضحك،- وعلى العكس- لقد بدا منزعجاً وكادت الغيرة تخنقه، لقد كان هذا الموقف كفيلاً بإظهار أول بوادر اختلاف المفاهيم، ومنذ

ذلك الحين كنت دائماً حريصة وحذرة من تكرار مثل هذا الموقف، فالمصريون لا يمزحون في مثل هذه الأمور.

رست السفينة بميناء بورسعيد بعد خمسة أيام قضيناها في الرحلة البحرية، شعرت بالسعادة والتشويق حين وطأت قدمي أرض مصر؛ موطني الجديد، وقد سيطرت على مخيلتي فكرة غامضة وتساؤل حائر عما ينتظرني في المستقبل، كان الميناء يعج بالحركة الصاخبة والضوضاء التي لا تتوقف، والمثير للدهشة أن كل شخص يعرف وجهته ويعرف كيف يجد طريقه وسط تلك الزحمة بسهولة عجيبة.

كان في استقبالنا واحد من أبناء شقيقة إبراهيم الذي استضافنا في شقته الصغيرة بضعة أيام، وأثناء تلك الفترة رأيت - للمرة الأولى - نساء يرتدين ملابس سوداء، اعتقدت في بادئ الأمر أنهن راهبات، ولكن إبراهيم أوضح لي أن هؤلاء النساء ريفيات، وأن هذه الملابس السوداء هي زيهن التقليدي، على عكس نساء المدينة، فلم أجد بينهن من تضع على رأسها " إيشارب" يغطي رأسها وهو ما يعرف بالحجاب بعد ذلك.

أخيراً ذهبنا بالسيارة إلى الإسكندرية حيث توجد شقة إبراهيم، أبواه متوفيان وشقيقتاه متزوجتان؛ الكبرى متزوجة منذ فترة طويلة ولديها أولاد كثيرون، وقد كان الشاب الذي استقبلنا في الميناء هو أحد أبنائها، أما الصغرى فقد تزوجت مؤخراً، وقد كان لزاماً على إبراهيم أن يطمئن إلى زواج شقيقتيه أولاً قبل أن يفكر هو في الارتباط والزواج، ولا يزال هذا التقليد متبعاً بين المصريين حتى اليوم.

عشنا في شقة إبراهيم بالإسكندرية، ولكن إبراهيم أراد أن يبني بيتاً لنقيم فيه، فراح يبحث عن قطعة أرض فضاء ليبنيها، وأخيراً اشترى قطعة

أرض قريبة من سيدي بشر (وهي أحد أحياء الإسكندرية)، وحالياً تلك المنطقة المكتظة بالمنازل والمزدحمة بالسكان – ولكن في ذلك الوقت كانت المنطقة مهجورة تطل على البحر ولم يكن أمامنا سوى رمال الشاطئ، وكانت الصحراء المحيطة بنا مترامية يعيش فيها البدو، شرعنا فى بناء منزل متواضع مكون من ثلاث غرف ومطبخ وحمام، وانتقلنا إليه بعد ستة أشهر، ما زلت أذكر حديقتنا التي استزرعناها، فقد نقلنا إليها تربة وزرعنا فيها أشجاراً، وشجيرات، وزهورًا، ورياحين، وتفتحت براعم الأقحوان والمسك، كما تفتحت ورود أخرى في فترة وجيزة، يا لها من أرض طيبة ينبت بها كل شئ إذا اهتممت به ورويته بانتظام !، زرعنا أربع شجرات من فصيلة " إكوليبيتوس " التي نمت وتفتحت سريعاً، وكنا كثيراً ما نجلس تحت تلك الأشجار نستظل بظلها وننعم بأريجها وعطرها ونستمتع بشذى الزهور الأخرى، لقد كانت حديقتنا كالجنة الصغيرة التي تشهد أرجاؤها على الأيام الخوالى وتكاد تنطق بأجمل ذكرياتي.

كنا نتردد على البدو في بعض الأحيان، وكان الكرم من شيمهم، يستقبلوننا بحفاوة ويدعوننا إلى خيامهم، يتقاسمون معنا الطعام ويسمحون لنا بمشاركتهم في احتفالاتهم، كان سلوكهم فطريًا، يتجمعون في حلقات ويضربون الدفوف ويقومون بالغناء ويؤدون الرقص الإيقاعي، وأحياناً يرقصون باستخدام العصى، احتفالاتهم كانت عفوية ولكنها رائعة، لم يقيموها خصيصا من أجل السياح؛ فتلك كانت تقاليدهم المتبعة في الاحتفالات، شاهدت عاداتهم عن قرب ولي معهم ذكريات وتجارب وخبرات مكتسبة لم تُمح من ذاكرتي.

شهدت بداية حياتي في مصر أموراً كثيرة كنت أجهلها، فلم تكن اللغة وحدها هي المشكلة التي عانيتها، إذ بدأت تتكشف أمامى عادات

وتقاليد المصريين شيئاً فشيئاً، كان إبراهيم يصطحبني للتسوق وكنت أنتهز الفرصة لملاحظة كل شئ قدر استطاعتي، فتعلمت حروف اللغة العربية والأرقام من السوق، إلى أن جاء اليوم المشهود الذي توجهت فيه بمفردي إلى بائع الخضروات، وأشرت إلى الباذنجان والطماطم والبصل، وكنت أتفاوض مع البائع بشأن الأسعار وفي النهاية قام بوضع كافة مشترياتي بالسلة التي أحملها، غمرتني سعادة الأطفال وشعرت بالفخر فها أنا أستطيع أن أواجه تحديات الحياة بجرأة، وبعد إتمام الشراء وعند انصرافي أهداني التاجر وردة حمراء.

عدت إلى المنزل وبدأت في تحضير الطعام، وعندما عاد إبراهيم كانت السعادة مازالت تغمرني وأنا أروي له تفاصيل ما حدث أثناء التسوق وكلي زهو بقدراتي الجديدة واستعرضت أمامه كل ما اشتريته وكل ما أعددته من طعام، وبالطبع اكتشف إبراهيم على الفور" الوردة الحمراء" فسألني:

- من أين أتيت بهذه الوردة ؟

فأجبته على الفور دون تفكير أو تردد:

- " لقد قدمها لي بائع الخضروات".

ولقد كانت تلك غلطة كبيرة أثارت غضب إبراهيم لدرجة أنه منعني من الذهاب إلى هناك ثانية، ولم تهدأ أعصابه إلا عندما وعدته ألا أكرر ذلك، كانت الغيرة الشديدة سمة من سمات إبراهيم، لم أدرك أبعادها منذ البداية، ولكن الأيام كانت كفيلة بإظهارها وتوضيحها في أبلغ صورها، كان يغلق باب المنزل وبوابات الحديقة عندما يخرج، وكان علي ألا أسمح بدخول أي شخص إلى المنزل في غيابه حينما أكون بمفردي، ففي مصر يعتبرون المرأة حينما تكون بمفردها مصدراً للغواية، ذلك الانطباع العام يعرضها للقيل

والقال، ويكون كفيلاً بتلويث السمعة؛ فمثلاً إذا وقفت المرأة وحدها في أي مكان تكون عرضة للشبهات، ويمكن أن يظن بها الناس كل سوء وقد يعتبرونها امرأة لعوب تحاول اصطياد " زبائن". لذلك كان يتوجب على المرأة إن كانت تسير بمفردها في الشارع أن تمضي في طريقها مسرعة وأن تغض بصرها وألا تلتفت حولها كي تسلم من الشكوك، فهذه هي نظرة المجتمع للمرأة الوحيدة، وغالباً ما تأخذ غيرة الرجال هذا المنعطف، والرجال يعتبرون الغيرة في تلك الحالة بمنزلة الدرع الذي يقي المرأة.

ذات يوم قمنا بدعوة أسره إبراهيم لزيارتنا في المنزل، ولكن شيئاً ما طرأ استدعى ضرورة ذهاب إبراهيم للعمل، فقلت لنفسي إنه أمر عادي، وليس هناك مشكلة فبإمكاني أن أتدبر أموري وحدي، لذلك فكرت فيما يجب عمله وتقديمه للضيوف، ثم انهمكت في تنظيف المنزل وتجهيزه للزائرين، وطهي وإعداد الطعام، وكان كل شيء قد تم ترتيبه على المائدة حين طرقوا الباب وبدأوا يتوافدون إلى المنزل واحداً تلو الآخر، كانوا يتبادلون التحيات والسلامات بصوت عال ويرددون مراراً وتكراراً : كيف الحال؟ كيف الأحوال؟ كيف تسير الأمور؟

تكرار هذا السؤال وإن تعددت الصيغة أمر عادي للغاية، وعادة يكون الرد: "بخير، الحمد لله". كان يومها الجو معتدلاً؛ فلم يكن شديد الحرارة أو شديد الرطوبة، لذلك فضلت أن أجهز المائدة في الحديقة، وحين جلس الجميع في أماكنهم بدأت أنقل الأطباق المشهية بينهم بمنتهى الذوق، ليختار كل واحد ما يريد، ولكن كل واحد منهم كان يختار قدراً بسيطاً، لدرجة أنني ظننت أنهم لا يأكلون كثيراً، ثم مررت عليهم الأطباق مرات عديدة، وفي كل مرة كانوا يختارون مقداراً صغيراً، وعندما بدا لي أنهم لن يتناولوا أكثر من هذا، أعدت الأطباق والأواني إلى المطبخ ثم قدمت الشاي والحلوى، وكانت

عبارة عن فطائر خبزتها في المنزل بنفسي، لم يتناولوا منها كثيراً، وفي نهاية الزيارة هموا بالانصراف كل إلى بيته.

حينما عاد إبراهيم إلى المنزل ذلك المساء سألني عن الزيارة:

ـ وكيف سارت الأمور معي؟

فأجبته قائلة :

ـ كل شيء صار على أكمل وجه ولكن يبدو أنهم لا يأكلون كثيراً.

فبادر إبراهيم بسؤالي:

ـ " وهل غرفت لهم الطعام في أطباقهم؟ "

فأجبته :

ـ "لا لم أفعل ذلك".

ساعتها أدركت فحوى الأمر، فهذه الأمور ليست من عاداتنا في ألمانيا، وأنا حديثة العهد بها ولكنها في مصر مطلوبة ولكنني نسيت أن أفعل ذلك بسبب التوتر وانعدام الخبرة في التعامل معهم، ومحاولة كسب رضاهم، لابد وأنني قد تركت الآن انطباعا بأنني بخيلة، ولكن لحسن الحظ أننا تداركنا الأمر فيما بعد، وشرحنا للأقارب ما حدث من سوء فهم، ومنذ ذلك اليوم عرف كل من يأتي لزيارة بيتي أن عليه القيام بخدمة نفسه، ولم يكن هذا الأمر مدعاة لحنقهم أو شعورهم بالغضب تجاهي، ولكنهم اعتبروه من التقاليد الأجنبية الغريبة، أما بالنسبة لي فكان الأمر مغايراً تماماً فلم أعتد قط أن أنهي طبقي المملوء على آخره حين أكون مدعوة لزيارة الآخرين، إذا كنت أجد صعوبة في تقطيع طعامي وتناوله حينما يكون الطبق ممتلئًا عن آخره،

كما أنني اعتدت في ألمانيا إنهاء طبقي، ولكن مع الكميات التي توضع على موائد المصريين يكون تحقيق ذلك أمراً مستحيلاً؛ فالعادات تختلف باختلاف الشعوب، ولكننا مع طول العشرة يمكننا أن نعتاد ونألف العادات التي نحسبها غريبة.

رزقنا بابننا طارق عام 1954، بدأت أعراض الولادة أثناء وجودنا على شاطئ البحر في منطقه الشاطبي، كنا بصحبة شقيقة إبراهيم وأسرتها، وكان إبراهيم ينوي العودة بي إلى منطقة سيدي بشر بعد انقضاء الرحلة، ولكنه بدلاً من ذلك ذهب بي إلى المستشفى بالشاطبي وأدخلني عنبر" التوليد"، حيث لا يسمح للرجال بالدخول، وكنت أتمشى داخل العنبر أثناء آلام المخاض وسط دهشة المرضات اللاتي كن يطلبن مني بإلحاح شديد أن أعود لغرفتي لأرقد على ظهري في السرير، ولكن خبرتي السابقة كممرضة أفادتني كثيراً لأنني شهدت الكثير من حالات الولادة، لقد تمت الولادة بسهولة ويسر، وما أن رأيت وليدي داخل لفائفه حتى بدأت في تفحصه والاطمئنان على صحته، وقتها شعرت بالطمأنينة؛ فقد كان طارق في حالة صحية جيدة.

في العام التالي أنجبت الابن الثاني الذي أسميناه خالدًا، وهكذا زادت مسئولياتي وأعبائي المنزلية، ولم يكن هناك من يقوم بمساعدتي، وكان علي الاهتمام بالطفلين والقيام بأداء الأعمال المنزلية الأخرى، في ذلك الوقت لم يكن هناك حفاضات مصنعة ومعدة للاستخدام الواحد كالمتوافرة هذه الأيام، بل كانت الحفاضات مصنعة من القماش تستخدم ثم تغسل بالماء والصابون، ويتم تعقيمها بالغلي في ماء يوضع داخل قدر فوق الموقد، هذا بجانب غسل الملابس الأخرى، إلا أن إبراهيم كان يساعدني في هذا الوقت

الضاغط، فكان وهو في طريقه إلى المنزل عائداً من عمله يتسوق من البقال والجزار ويشتري لي كل ما أحتاجه، وعلى الرغم من صعوبة تلك الفترة إلا أنها كانت جميلة تحمل بين جنباتها ذكريات ارتبطت بإبراهيم؛ لقد كان بالفعل نعم الزوج ونعم الأب.

في بداية حياتنا الزوجية كنت أتحدث مع إبراهيم باللغة الإنجليزية، لأنه لم يكن في مقدوره التحدث بالألمانية، ولم يكن في مقدوري التحدث بالعربية، إلا إنني كنت مثابرة على تعلم اللغة العربية، وبالفعل شيئاً فشيئاً ومنذ وصولنا إلى بورسعيد استطعت أن أجيد التعبير عما أريد قوله، وهكذا صار الأمر بصورة تدريجية وأحرزت تقدماً واضحاً مع مرور الوقت، وبعد ذلك أصبح كل حديثنا باللغة العربية، كنت في البداية أتحدث مع أطفالي بالإنجليزية، وأدركت أن عليهم التواصل مع أبيهم باستخدام اللغة العربية، فلم أتحدث معهم بالألمانية إلا عندما كبروا قليلاً، واليوم يتحدث أبنائي اللغة الألمانية بطلاقة بالإضافة إلى اللغة العربية واللغة الإنجليزية.

وكما يحدث مع كثير من العائلات، كان زوجي يتوجه للعمل في الصباح ويعود للمنزل في المساء، فهو يملك متجرًا لبيع وشراء كل الأجهزة الكهربائية المستعملة، كان يشتري القديم ويصلحه ثم يعيد بيعه، فمثلاً كان يشتري مواقد الجاز والثلاجات، في ذلك الوقت كانت هناك ندرة في الأجهزة الجديدة، وبالتالي كان أي شيء يتم إصلاحه وإعادة بيعه لكي يتم استخدامه من جديد كلما أمكن ذلك، لقد كان إبراهيم مشغولاً دائماً بعمله الذي كان يدر عليه ربحاً وفيراً يكفي لحياة مستقرة ومعيشة متيسرة، وهكذا استطعنا شراء سيارة.

لم أعهد حياة الترف في ألمانيا أو إنجلترا، ولم أكن معتادة على أصناف

الطعام المختلفة التي يتم إعدادها من الباذنجان أو البامية، كما لم يسبق لي استخدام توابل مثل " الكمون " وغيره، ولكنني نجحت- بمساعدة شقيقة إبراهيم- في طبخها، فالمطبخ المصري غني بالأكلات اللذيذة، وقد أحببت المذاق الذي تضيفه البهارات، فهو شهي للغاية، أما إبراهيم، فقد كان على عكس ذلك؛ لقد أحب المطبخ الألماني للغاية.

لم تشهد تلك السنوات وفرة في المواد التموينية والسلع الغذائية، لكن زوجي كان قادراً على شراء كافة احتياجاتنا، بينما كانت هناك وفرة في الفاكهة والخضر بشكل كبير، كان شاطئ سيدي بشر الواسع هو أكثر الأماكن التي أحببناها، وكنا نتردد عليها كثيراً، كان الصغار يحبون اللعب برمال الشاطئ ويحبون البحر، كنا نحب المشي فوق الرمال، وكنا نعبر خطوط الترام لنصل إلى الشاطئ حيث البحر، وكنا نحمل أطفالنا إلى هناك، فعربات الأطفال لم تكن متوافرة حين ذاك في مصر، كنا نسبح في البحر، أما الأطفال فكانوا يلعبون ويلهون على رمال الشاطئ، تلك الرحلات كانت رائعة وممتعة بالنسبة لنا وقد سعدنا بها كثيراً، أما اليوم فقد طرأت الكثير من التطورات على منطقة سيدي بشر، حيث امتلأت بالمباني والشقق السكنية، ولم يتبق من الشاطئ سوى مساحة صغيرة تطل على البحر، أما المسابح الخاصة الصغيرة فغالباً ما تكون شواطئ خاصة.

شهدت حديقة منزلنا الجميلة أسعد سنوات عمرنا، فلم نحتج للاشتراك في نواد رياضية، كما هو متبع هذه الأيام، كانت عطلات نهاية الأسبوع موعداً للخروج من المنزل أو تبادل الزيارات مع الأصدقاء والأقارب، فالمصريون مغرمون بالزيارات العائلية، أيضا كنا نخرج أحياناً إلى وسط المدينة لنجلس في حديقة عامة أو نزور حديقة الحيوان، تلك النزهات كانت جميلة ومريحة للأطفال، كنا نتوجه لمطعم " أحمد الطيب" بعد الانتهاء من

النزهة؛ حيث يمكننا تناول الفول والفلافل " الطعمية "، وكان نادل المطعم يعاملنا بطريقة خاصة جداً؛ لأنه اعتاد رؤيتنا، وكانوا في المطعم يرحبون بأطفالي بشكل خاص، لقد كان ذهابي للمطعم من دواعي سروري، لأنه كان يوفر عليَّ عناء إعداد الطعام.

كانت حياتنا الاجتماعية غنية بالمعارف من الجيران، وتنوعت لتشمل البدو والعائلات اليونانية، بالإضافة إلى عائلة من مالطة، وطبعاً جيراننا المصريين وكان أحدهم لديه محل بالإسكندرية، وكان كل صباح يركب عربته الكارو التي يجرها حمار متوجهاً إلى محله، والطريف فى الأمر أن ابني خالد كان يحب هذا الحمار كثيراً، وكلما رآه أراد مثله فكان يطلب من إبراهيم أن يبتاع له واحداً، ولم يرفض زوجي طلب ابننا خالد أبداً، ولكن رده كان دائماً مقتصراً على عبارة واحدة "إن شاء الله"، ولكن يبدو أن خالدًا قد ضاق ذرعاً بأسلوب المماطلة هذا فصاح ذات مره غاضباً: " لا أريد إن شاء الله حماراً " ولكني أريد حماراً حقيقياً. وقتها فقط أدرك خالد أنه لن يحصل على الحمار الذي لطالما رغبه.

مرت الأيام سريعاً، وحان وقت التفكير في تعليم الأطفال، فذهب الطفلان أولاً إلى حضانة فرنسية، كان ذلك هو الاختيار الأمثل كما اعتقدنا وقتها، وبعد ذلك تم إلحاقهما بمدرسة مصرية وصارت الأمور على نحو جيد في تلك المدرسة.

في عام 1962 رزقنا بابننا نبيل، وفي عام 1972 جاءت إلى الدنيا ابنتنا هانجا Hanja، وهكذا وبعد زيادة عدد أفراد أسرتنا، ضاق علينا بيتنا الصغير، وبدأنا في بناء بيت آخر في نفس قطعة الأرض التي يوجد بها منزلنا الصغير، كان المنزل الجديد مبيتاً للزائرين، وما إن كبر الأطفال، حتى خصصنا لكل واحد منهم غرفة نوم خاصة به.

كل يوم من أيام عمري التي قضيتها مع إبراهيم كان بمنزلة البرهان القوي على أن قراري الذي اتخذته - يوم قبلته زوجاً لي- كان قراراً صائباً، فلم أندم قط على قدومي معه من إنجلترا، لقد كان زوجاً حبيباً لقلبى عزيزاً على نفسى، وكان أباً مثالياً حنوناً يفضل قضاء وقته بين أولاده، يلعب ويلهو معهم، ويكرس سنوات عمره من أجلهم، ويبذل جهداً ويكد في سبيل توفير حياة كريمة لي ولأبنائه، كما لم أنس قط الدور الذي لعبته صديقتى ترودي في إقناعي وتشجيعى على المضى قدما فى ارتباطى بإبراهيم؛ لذلك مازلت أحفظ لها هذا الجميل وأعترف لها بالفضل الجزيل، ولقد استمر تواصلنا بعد أن عادت إلى ألمانيا وتزوجت هناك، كما أنها زارتني هنا في مصر، حقا "إن ذكرى الصديق المخلص تدوم للأبد" .

في عام 1971 تم إغلاق الشارع الذي يقع فيه محلنا بسبب تطوير الحكومة لبعض المرافق، مثل هذه الأمور عادة ما تستغرق وقتاً طويلاً في مصر؛ إذ قد تمتد فترة الإصلاحات والتطوير إلى عدة شهور، وربما عدة سنوات، فلم تعد تمر من أمام المحل أي وسيلة مواصلات، وبالتالى لم يعد يتردد عليه الزبائن، فساءت أحوال التجارة ولم يعد الأمر كالسابق، واضطر إبراهيم أخيراً للتنازل عن المحل، وهكذا لم يعد لنا أى مورد للرزق وأفلسنا، ولم يكن لدى إبراهيم أي عمل آخر بالإسكندرية، فقررت العودة إلى ألمانيا عام 1972 لأعمل هناك في إحدى الحضانات، كانت ابنتي هانجا مازالت رضيعة فأخذتها معي بينما تركت الأولاد في رعاية أبيهم في مصر، وكان علي أن أتدبر نفقات المعيشة للأسرة بأكملها، وبعد 6 أشهر حضر زوجي بصحبة الولدين الصغيرين إلى ألمانيا، أما الولد الكبير فلم يستطيع الحضور بسبب أدائه واجب الخدمة العسكرية، كان يتوجب علينا أن نقتصد في المصاريف، وبعد انقضاء عام عدنا إلى مصر، إن الحياة في ألمانيا غيرت إبراهيم تماماً، إذ

كان لزاماً عليه أن يتعامل مع الأمر الواقع وهو أنني امرأة خرجت لتعمل وتكسب عيشها، فذلك الأمر مألوف جداً في ألمانيا، وهكذا اعتاد الفكرة وتقبلها في النهاية.

وعندما رجعنا إلى مصر بدأت في عملي الجديد، كنت أقوم بتجهيز وإعداد المأكولات الشهية، كما كنت أقوم بتجهيز وجبات الحفلات والمناسبات الخاصة، وسرعان ما نالت أطباقي شهرة واسعة وخصوصاً الأصناف الممتازة من الأطباق الشهية وفطائر "الدونتس" والجيلي والكيك التي قمت ببيعها داخل المدرسة الألمانية.

بعد انتهائه من الدراسة الثانوية- التحق ابني الأول طارق بالمعهد التجاري، بينما التحق الابن الثاني بكلية التجارة، وعندما تخرج في الكلية بدأ رحلة البحث عن عمل، ولكنهما - الاثنان - راقت لهما فكرة السفر والعمل في ألمانيا، وقد وافق إبراهيم على سفرهما في البداية، ولكنه عانى بعد ذلك لفراقهما؛ وكان من الطبيعي أن يحضرا لزيارة مصر بين الحين والآخر، ولكنهما يعيشان في ألمانيا، أما خالد فلم يتزوج، ويتولى إدارة مطعم في هامبورج، وبالمناسبة، كانت زيارة العمة إليسى في جيستبرج هي أول ما قام به ولداي عند ذهابهما لألمانيا، وقد عاشا معها فترة وقدمت لهما يد العون وساعدتهما في إيجاد فرص عمل، لقد كانت العمة إليسي- بالفعل- هي الأكثر عوناً وحباً كما لو كانت أقرب الأقربين.

شهد عام 1982 الصدمة الكبرى في حياتي؛ إذ توفى إبراهيم إثر أزمة قلبية، لقد عشنا معاً، وكان بالنسبة لي خير رفيق لدرب الحياة، واليوم قد أصبحت وحيدة من دونه، أفتقده كثيراً وأحن شوقاً لذكرياتي الجميلة معه، عندما توفي إبراهيم قرر خالد وطارق العودة مباشرة إلى مصر ليكونا بجواري،

ففي مثل تلك الأزمات يجب أن يتم لم شمل الأسرة، لقد أدركا مدى احتياجي لتواجدهما بجواري بعد الرحيل الأليم والمفاجئ لأبيهما، ولكنني لم أشأ أن أحرمهما من حياتهما الطيبة المستقرة بألمانيا، واكتفيت بقدومهما كل فترة لقضاء إجازتهما في مصر.

بعد فترة وجيزة من استقراري في مصر عام1954، كنت على صلة مع العديد من الشخصيات الألمانية، وعندما تكونت جمعية ألمانية في مصر عام1991، كنت مشاركة معهم منذ البداية، وتعرفت على سيدات لطيفات، وكثيرات منهن – مثلي- تزوجن من مصريين وهكذا كانت لنا اهتمامات وقواسم مشتركة، فنحن الآن نلتقي باستمرار ونخرج معاً للتنزه، أو نجلس معاً في زيارة خاصة نشرب القهوة، هذا بالإضافة إلى لقائنا الشهري بمعهد جوتهGoethe، لقد دعمتني هذه الجمعية وساعدتني كثيراً، ومن خلال تلك اللقاءات ألتمس التواصل مع صديقاتي، وهكذا لم أشعر قط بالوحدة، واستمرت علاقاتي بمعارفي في ألمانيا.

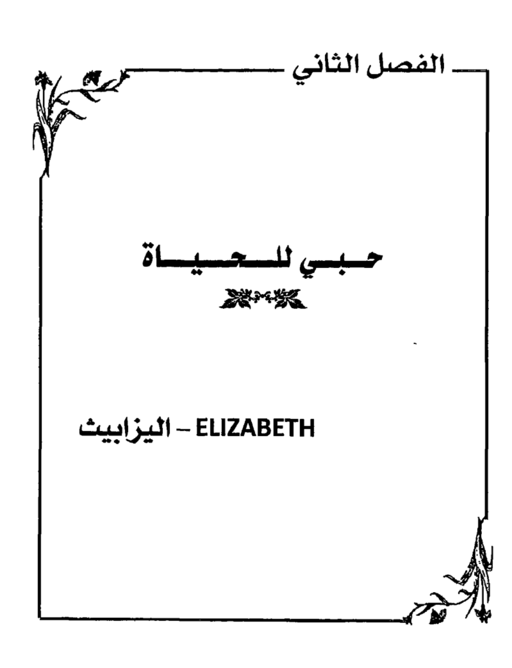
يعيش نبيل وهو أصغر أبنائي بالإسكندرية وهو متزوج ولديه طفلان، أما هانجا ابنتي الصغرى فقد تزوجت أيضاً في الإسكندرية ولديها طفلان: الكبير يبلغ من العمر عشر سنوات والصغير عمره عام ونصف.

أتردد كثيراً على بيت ابنتي وأجد متعة خاصة في رعاية حفيدي الصغير، وهكذا تمضي حياتي بين أحفادي، وما أجملها تلك الساعات التي أقضيها معهم!

سافرت إلى أوروبا فى صيف عام 2006 وأمضيت فيها ثلاثة أشهر، زرت خلالها ألمانيا والنمسا وإنجلترا، وعلى الرغم من اعتراض أولادي على السفر بمفردي لقضاء رحلة طويلة، إلا أنها كانت رحلة مهمة بالنسبة لي،

فقد زرت بعض صديقاتي؛ زرت صديقتي ليلى في إنجلترا وصديقات أخريات في ألمانيا، فلم يعد لي أقارب لكي أتواصل معهم، ومن يدري ربما تكون تلك هي آخر رحلة طويلة أقوم بها ؟!، لقد كانت بالفعل رحلة شديدة الروعة، استرجعت خلالها ذكرياتي الماضية والأيام الخوالي، ولكن شيئاً ما سيبقى يفصح عن نفسه وهو أن وطني هنا في مدينة الإسكندرية التي شهدت أجمل سنوات حياتي، فعندما غادرت ألمانيا للمرة الأولى، لم أترك ورائي أهلاً ولا أقارب، ولكن اليوم أصبحت مصر بالنسبة لي هي البيت والأهل والوطن.

*****



الفصل الثاني

حـــبـــي للــــحــــيـــاة

ELIZABETH – اليزابيث

قصة إليزابيث Elizabeth مختلفة وليست عادية، ولا تشبه في وقائعها باقي القصص الأخرى التي روتها السيدات الأخريات، لذلك فكرت ملياً واستغرقت طويلاً قبل أن أقدم على صياغتها ضمن القصص التي وردت بهذا الكتاب؛ لقد أردت أن أسرد قصتها كما روتها لي، بعد أن حصلت على موافقتها، لأن كلينا يعلم أنها تحوي الكثير من الحقائق؛ بعض تلك الحقائق يرتبط ارتباطاً وثيقاً بمصر، والعديد من تلك الحقائق يمكن أن تحدث في أي بلد آخر.

لقد كان مقدراً لإليزابيث Elizabeth أن تواجه حادثة مأسوية ألقت بظلالها القاتمة على حياتها، وعلى الرغم من ذلك، فقد انتهت فصول تلك المأساة – من وجهة نظرها- بنهاية سعيدة، ولكن أشد ما بهرني في قصة إليزابيث هي الإرادة التي جعلتها قادرة على تحمل الأحداث المروعة التي اجتاحتها؛ الأمر الذي جعلني أتساءل: كيف استطاعت تلك المرأة أن تحكم قبضتها على زمام أمورها، وكيف أمكنها مواصلة حياتها في مصر بعد كل ما مرت به من عذاب التجارب القاسية التي كان يصعب عليها سردها، وكان يصعب على سماعها؟! وها هي قصتها :

قابلت شريف في مينز Mains عام 1962 ، ولم أكن أدري وقتها أنه زوج المستقبل، كنت أبلغ من العمر 24 عاماً، وأعمل في مكتب محام، تركت منزل الأسرة، وانتقلت للسكن بمفردي في غرفة مفروشة في مينز، وكان شريف يقيم أيضاً في مينز لدى ابن عمه، درس شريف الفلسفة في مصر، وبعد تخرجه وحصوله على المؤهل الجامعي أراد أن يعمل مدرسا؛ لكن الأمر لم يكن سهلاً لأن خريجي الفلسفة يجدون صعوبة في العثور على وظائف، وبالتالي كانت رحلة البحث عن عمل غير موفقة بالنسبة لشريف، لكن كان لابد له أن يجد مورداً للرزق، فطلب من ابن عمه المقيم في ألمانيا أن يبحث له عن عمل،

وبالفعل وجد له وظيفة في ديملر Daimler ولم يكن الأمر صعباً وقتها، وهكذا حضر شريف إلى ألمانيا، كانت لي صديقة تدعى كاترين Katrin ، وكانت قد تمت خطبتها لابن عم شريف، وهكذا كان من الطبيعي أن نذهب لملاقاة هذا الشاب القادم من مصر بعد فترة من وصوله لألمانيا، خرجنا جميعاً لتناول الطعام، ولقد شهد هذا اللقاء الأول بداية الوقوع في الحب، وبلا أدنى شك أدركنا يومها أننا مغرمان، وأن كلينا متيم بالآخر، وأصبحنا بعد ذلك نتقابل ونخرج معاً شأننا في ذلك شأن كل المحبين، إلى أن جاء اليوم الذي زارني فيه شريف في غرفتي المفروشة، وعندما علمت صاحبة الدار بتلك الزيارة استاءت وأنذرتني على الفور بضرورة ترك الغرفة، وهكذا لم يعد أمامنا سوى خيار واحد؛ وهو أن نتزوج في أسرع وقت ممكن.

كان يتحتم على شريف مقابلة والديّ قبل الإقدام على أية خطوة، ومن حسن الحظ أن اللقاء الأول الذي جمع بين والديّ وشريف كان له صدى إيجابي؛ حيث نال استحسانهم ومحبتهم، إلا أن هناك أمراً كان يشغل بالهم ويقلقهم؛ وهو أن ابنتهم مقدمة على الزواج من رجل غريب قادم من بلاد بعيدة، لكنهم ما لبثوا أن أدركوا أنه شخص على خلق وجدير بالاحترام.

وهكذا صارت الأمور، وبعد مضي ما يقرب من ثلاثة أشهر، تم عقد قراننا في مكتب زواج مدني، وأقمنا حفلاً صغيراً دعونا فيه أصدقاءنا المقربين وتناولنا جميعاً البيتزا، وبعد إتمام كل شيء، أخبرت والديّ، ربما كان السبب وراء ذلك أنني لم أكن على ثقة تامة من رد فعلهما، ولكن تعويضاً عما فاتهما، أقمنا احتفالاً كبيراً، في منزل والدي في قريتنا في مقاطعة هيسين الشمالية Northern Hessen، حيث كان أبي يعمل موظفاً في مكتب البريد، بالإضافة إلى عمله الآخر في مجال طلاء المنازل وتصميم الديكور، وكان يهوى الموسيقى ويجيد العزف على عدة آلات مثل : الكمان والكلارينيت "المزمار" والبوق، وغيرها...

كانت عائلتنا كبيرة وكان لدي من الأشقاء سبعة، ستة أخوة وأخت واحدة، وآسفاه! لقد توفي الآن جميع أشقائي الذكور، ولم يعد لي سوى أختي الوحيدة الباقية على قيد الحياة، وهي تكبرني بثماني سنوات.

بقدر ما كان الحفل الأول الذي أقمناه في مينز Mains هادئاً وبسيطاً، بقدر ما كان الحفل الذي أقيم في قريتنا صاخباً وبهيجاً، ولقد شعرت وقتها بالسعادة البالغة؛ لأن جميع أفراد عائلتي أحبوا شريفًا وتقبلوه قبولاً حسناً بمجرد أن رأوه، حتى أن أبناء وبنات إخوتي كانوا منبهرين بالعم شريف ذلك النسيب الجديد الوافد من مصر.

وبعد أن تم الزفاف أقمنا أنا وشريف في شقة في مومباك Momback، والتحق شريف بوظيفة في محل مان Man للطلاء، وكان يبذل قصارى جهده ويؤدي مهامه الوظائفية على أكمل وجه، وهكذا ترقى سريعاً ليشغل منصب "مراقب"، واستطاع أن يوفر لنا حياة كريمة، ولم يكن ينقصنا شيء، أما أنا فكنت مازلت أعمل، ولم أنقطع عن عملي إلا بعد مرور عام على زواجنا حين رزقنا ابنتنا الأولى نادين عام 1962، ومنذ ذلك الحين لم أخرج للعمل ثانية، واكتفيت بدوري كربة منزل ترعى زوجها وطفلتها؛ لقد عشنا النمط النموذجي لما يجب أن تكون عليه الحياة بالنسبة لأسرة صغيرة ناشئة، وهكذا شهدت السنوات الأولى من زواجنا أوقاتاً هنيئة، وسرعان ما حدث الاندماج بين شريف وبين جميع أفراد عائلتي الكبيرة، لقد نال حبهم واحترامهم؛ لدرجة أن أمي كانت تراعي تقاليده وتحترم عاداته ومحظوراته كرجل مسلم، فلم تقدم أبدا لحم الخنزير على المائدة أثناء تواجده، على الرغم من أن هذا الأمر لم يكن اعتياديا؛ ففي الريف يتم تربية الخنازير وذبحها بواسطة الأهالي ويتم طهو لحومها وتقديمها كطبق رئيسي على المائدة، أما أنا، وبرغم

نشأتي الريفية، فلم أحبه ولم أستطعمه على الإطلاق منذ أن كنت طفلة، وبالتالي لم يكن عزوفي عن تناوله يمثل بالنسبة لي حرماناً أو خسارة.

وهكذا كانت تمضي الحياة في سلاسة وكنا نزور والديَّ بصورة ودية وطبيعية.

كان شريف أباً مثالياً وزوجاً حلوا المعشر، يفضل قضاء معظم الأوقات في المنزل، وكان دخله من عمله يوفر لنا المال الذي يكفينا ويجعلنا نحيا في سعادة ورضا، ولكن شريفا بدأ يشعر بالحنين للوطن ـ شأنه في ذلك شأن كافة المصريين الذين يشعرون بالإنتماء الشديد لمصر، فالمصريون لا يحبون الهجرة، وإذا سافروا للخارج ـ مع مرور الوقت ـ ينتابهم الإحساس بالغربة ويفتقدون دفء الوطن ويتملكهم الحنين وتهفو نفوسهم للعودة ولا يهدؤون إلا إذا عادوا بالفعل إليه، لذلك حاول شريف مراراً أن يقنعني بالرجوع إلى مصر، ورسم لي صورة جميلة وضاءة مزينة برتوش وردية عن ما يمكن أن تكون عليه الحياة التي تنتظرنا هناك، موضحاً محاسن الظروف التي يمكن أن تكون في صالحنا، وأكد لي على قدرته في تدبير وإدارة شئون حياتنا وخاصة في ظل وجوده بجانب والديه وعائلته وذويه الذين يعيشون جميعاً في قرية واحدة، لقد أراد شريف أن يبدأ عملاً مستقلاً، وكان يرغب في الاعتماد على نفسه لتحقيق ذاته وإثبات وجوده، معتمداً في ذلك على قدراته وكفاءته وإصراره على الوصول للنجاح داخل وطنه مثلما تحقق له في الخارج، لذلك حاول كثيراً أن يقنعني بضرورة الرحيل إلى مصر والإقامة فيها، لكنه وجد صعوبة كبيرة في إقناعي، حيث استغرق أمر إقناعي بضع سنوات قبل أن أرضخ لرغبته وأوافقه على السفر معه إلى مصر، ولكنني – تحت تأثير

إلحاحه ـ وافقت؛ فهو لم يعطني أدنى فكرة عن طبيعة الظروف أو الأوضاع داخل قريته التي سنعيش فيها.

شهد عام 1966 عودتنا إلى مصر، تركت خلفي كل أشيائي وأغراضي: الأثاث، المفروشات، والملابس الثقيلة فلم أكن أعلم أنني سأحتاجها بشدة فيما بعد.

كانت صديقتي كاترين Katrin تعيش في مصر في نفس القرية منذ فترة، وفرحت للغاية حينما علمت أنني ذاهبة إليها، وراحت تقنعني ولم تحذرني أو تحيطني علماً بطبيعة الأحوال هناك، ومازلت حتى يومنا هذا أجهل السبب وراء عزوفها عن مصارحتي، من يدري؟ ربما كانت أقل حساسية مني وأكثر قدرة على التأقلم، أو ربما كانت بحاجة إلى صديقة من ألمانيا تعيش بجوارها، الجدير بالذكر، أن كاترين Katrin مازالت تعيش في مدينه المنصورة حتى يومنا هذا، ومازلنا نتواصل فيما بيننا على فترات زمنية متقطعة.

قبل سفرنا إلى مصر قام شريف بشراء سيارة ماركة "مرسيدس"، لقد أراد أن نبيعها في مصر؛ فلم يكن يملك في ذلك الوقت رخصة قيادة، أما أنا فقد أخذت معي سيارتي وكانت ماركة " أوبل".

حين وصلنا إلى ميناء الإسكندرية، وجدنا كل أفراد العائلة في استقبالنا، كان انطباعي الأول عن مصر شديد الوقع على نفسي، انطباعًا بلغ حد الصدمة الحضارية، فالجو حار جداً، والميناء يعج بالناس، والحركة لا تهدأ، والفوضى الشديدة تعم المكان، واللغة التي يتفوه بها الناس كانت بالنسبه لى لغة غريبة لم أعهدها ولم أفهمها، كان مظهري كفيل بأن يلفت الأنظار إليَّ، فالجميع يحدقون في تلك الشقراء وكأنها مخلوق عجيب هبط

من كوكب آخر، وبالرغم من ذلك الانطباع، إلا أن الناس كانوا ظرفاء وطيبين وعلى سجيتهم.

سافرنا بعد ذلك إلى مدينة " شربين"؛ وهي مدينة صغيرة تقع على دلتا النيل، وما أن وصلنا إلى المنزل، بعد تلك الرحلة الطويلة، حتى شعرت بالارتباك، لقد كنا مرهقين واستبد بنا الجوع، كما أن الواقع الذي شهدته أفقدني القدرة على التعبير؛ فالحياة في شربين صعبة، ولا يوجد وجه مقارنة بين القرية هنا وبين القرية التي نشأت فيها في ألمانيا، لقد اعتاد الناس في شربين نمط الحياة البدائية البسيطة التي تكاد تخلو من مظاهر المدنية؛ فلا يوجد كهرباء، والمياه الجارية مقطوعة طوال النهار، ولا تأتي إلا في ساعات متأخرة من الليل، كما أن الأجهزة الكهربائية التي كنا نستخدمها في ألمانيا مثل: الثلاجة أو الغسالة – ليست متوفرة على الإطلاق، لقد كان من الصعب عليَّ أن أتأقلم مع هذه الظروف، لقد أصابتني تلك الحياة بالذهول؛ فكل شيء كان بدائيًا وغير مألوف ولم أعتده من قبل، كما أن حرارة الجو شديدة، وأسراب الناموس كانت تحاصرني وتندفع نحوي بأعداد كبيرة، لقد كان كلب الحراسة بالمنزل هو الكائن الوحيد الذي شعرت تجاهه بالألفة ووجدت في صحبته مهرباً من الواقع الذي أحاطني بالإحباط.

كان علينا أن نسافر إلى القاهرة حتى نقوم بتسجيل سيارتنا، وقد أقمنا عدة أيام عند أحد أبناء عمومة زوجي، ولم نرجع إلى مدينة شربين إلا بعد مرور ستة أسابيع؛ فلقد أصيبت ابنتنا نادين بالحصبة وكان وقتاً عصيباً.

كانت والدة زوجي سيدة لطيفة معي وكانت طيبة؛ تحنو عليَّ كثيراً واستشعرت بفطرتها عدم إحساسي بالراحة، وأدركت أن نمط روتين الحياة

قد أصابني بالملل، فلم تدخر السيدة وسعاً في محاولة إسعادي، وكانت تخبز الخبز الطازج كل صباح وتقدمه لي في محاولة منها لإدخال السرور على قلبي بصورة أو بأخرى، وكانت إذا تكلمت معي تتعمد رفع صوتها ظناً منها أنها بذلك تستطيع أن تُفهمني ما تقوله، ولكنني لم أكن أفهم شيئاً مما تقوله على الإطلاق، بالإضافة إلى أن صياحها هذا كان يزعجني، لذلك طلبت من شريف أن يخبرها بأن تتحدث بصوتها العادي، وألا تتعمد رفع صوتها، وصارت الأمور على نحوٍ أفضل بعد ذلك.

أهل زوجي يملكون أرضاً زراعية ويستعينون بمزارعين آخرين يقومون بزراعتها.

والد زوجي رجل قوي البنية فارع الطول تزيد قامته على 184سم ووزنه يفوق المائة كيلو جرام، أما زوجته فكانت عكسه تماماً؛ قصيرة القامة، وذات قوام نحيل، ولكنها كانت شعلة نشاط.

ظل شريف دوماً يشعر تجاه والده بالولاء الشديد، والعرفان بالجميل، إذ كان له الفضل في تنشئته وتعليمه حتى تخرجه من الجامعة، وكان شريف أول أفراد عائلته التحاقا بالكلية، على خلاف إخوته الذين كانوا أقل حظاً منه في التعليم، حيث عاشوا جميعاً في شربين حياة الفلاحين البسيطة.

أقمنا في القرية فترة استطعت فيها أن أتدبر أموري بالرغم من نقص الإمكانيات وعدم توافر أسباب الراحة، ومع الإصرار والمثابرة نجحت ـ بعد عدة محاولات فاشلة ـ في إعداد الطعام بعد أن تعلمت الطبخ على موقد غاز بشعلة واحدة، ولم يكن متوفراً في المنزل من السلع التموينية سوى الدقيق والسمن والبيض، ولم تكن الأغذية المعلبة أو الجاهزة متوافرة في ذلك الوقت مما زاد الأمر صعوبة، كنت قد أحضرت معي من ألمانيا كتاباً في فن الطهي؛

فكنت أستعين بوصفاته كلما تطلب الأمر، وبدأت أستخدم الأواني المصنوعة من الألمونيوم في عمل الفطائر والكيك، مع أن هذه الأواني توضع فوق الموقد ولا توضع في الفرن، وكانت أسرة شريف تسعد بكل ما أصنعه من فطائر وكيك، فالمصريون يحبون الحلويات ويرغبون في تناولها، كما أنهم لم يألفوا مثل هذا المذاق الجديد ولم يعهدوه من قبل، فكان بالنسبة لهم شيئاً محبباً، وهكذا، بدأت أعتاد الحياة في شربين، ولكنني كنت أشعر بالنقص كلما تذكرت رفاهية الحياة في ألمانيا، وأسباب الراحة التي أفتقدها، أما بالنسبة لشريف، فالوضع كان مختلفًا تماماً؛ إذ كان يشعر بالسعادة في بلده وسط أهله وذويه، وكان لابد لي أن أسعى لأجعل تلك الحياة أفضل واعتقدت أنني سأنجح في ذلك.

لم يتخل شريف ـ يوماًـ عن حلمه بالاستقلالية وأمله في إثبات وجوده، وجاء الوقت الذي شرع فيه في تحويل الحلم إلى حقيقة، فقد بعنا السيارة المرسيدس وحصلنا من وراء بيعها على مبلغ من المال كان يكفي لشراء قطعة أرض واستيراد بعض الأبقار من هولندا، وبدأ في تأسيس مزرعة للمواشي وتجارة الحليب، لقد اعتقد أنها مهمة يسيرة يمكنه أن يجمع من ورائها أرباحاً طائلة، ولم يستطع أن يرى أبعد من ذلك، ولم يدرك أن نجاح هذا المشروع يحتاج إلى اتباع أسس وإجراءات منظمة لجمع الحليب وتوزيعه وبيعه، وفي نهاية الأمر باء المشروع بالفشل، وقام شريف ببيع الأبقار، وهكذا، بات الأسى مهيمناً على أول محاولة لنا في سبيل تحقيق الاستقلالية.

كانت الحياة في شربين محدودة للغاية؛ فلا يوجد أي متاجر من أي نوع، وبالتالي لا توجد فرصة للتسوق وشراء المنتجات، فعند الحاجة لشراء المواد الغذائية اللازمة، كان الأمر يتطلب السفر إلى المنصورة، وفي فترة السبعينيات من القرن الماضي، كانت المواد التموينية ـ مثل السكر والزيت

والمسلى- شحيحة، وكان يتم توزيعها ضمن الحصص التموينية المخصصة لكل أسرة، وفيما عدا ذلك، فإن الفواكه والخضروات والبيض وغيرها كانت سلعا متوفرة، وكنا نتناول اللحوم يومى الخميس والجمعة من كل أسبوع، حيث كان يتم ذبح الماشية في هذين اليومين فقط، ونظراً لعدم وجود ثلاجة لدينا بالمنزل يمكننا أن نحفظ فيها ما نشتريه، كنا نكتفي بتناول اللحوم يومين فقط في الأسبوع.

ولكي ننعم بشيء من التغيير ونعمل على كسر روتين الحياة في شربين، استأجرنا شقة في جمصة؛ وهي مدينة صغيرة تقع على البحر المتوسط بين مدينتي الإسكندرية وبورسعيد وتبعد عن مدينة شربين بنحو 16 كم، كانت الشقة مكونة من غرفتين ومزودة بالكهرباء والمياه الجارية، وتوفر لدينا كل ما كنا نحتاجته : الثلاجة، الموقد الكهربائي، وحمام به دش، وكل ما اعتدت عليه في ألمانيا، وهكذا، استطعت أخيراً أن أطهو وأخبز بصورة طبيعية، وكنا نعيش في تلك الشقة في فصول الصيف فقط ولي فيها ذكريات سعيدة استمرت لعدة سنوات، وكانت لي صداقات كثيرة لعائلات من بلجيكا وإنجلترا، وكنا نسبح كل يوم تقريباً، لقد كانت جمصة مدينة أكثر نشاطاً من مدينة شربين وكانت تعج بالحركة.

كانت أسرة شريف تأتي لزيارتنا، وكانت والدة زوجي تنزل لتسبح في البحر بكامل ملابسها وتغطس لتجمع المحار (أم الخلول)، ثم تنزوي في مكان بعيد لتأكل ما اصطادته من المحار، لأنها كانت تعلم أني لا أحب السمك بل وأشمئز منه، أما أنا فكنت أسبح في البحر بجمصة وأنا أرتدى لباس البحر دون منع أو تحريم مثل كل الأخريات ،أما اليوم فالنساء في مصر يذهبن إلى البحر بكامل ملابسهن، لقد تغيرت كل هذه الأمور المتعلقة بالمظهر الخارجي،

ولم يكن هذا التغيير على نحو أفضل، لقد انقضت ثلاث سنوات وعشنا معظم تلك الأيام في القرية، أما الصيف فكنا نقضيه في جمصة.

شهد عام 1968 مولد ابنتنا نيفين في مدينة المنصورة، كنت في زيارة لشقيقة زوجي، حيث فاجأتني آلام المخاض، وتمت الولادة في المنزل بسلام، وكم كنت سعيدة بولادتي لطفلة جميلة متمتعة بصحة طيبة، ومثل كل الأمهات في مصر، اعتنيت بطفلتي وأرضعتها رضاعة طبيعية لفترة طويلة، فلم يكن أمامنا أي خيار آخر، إذ لم يكن هناك أي غذاء للأطفال متوافر في أي مكان بالبلد.

بدأ شريف يفكر جدياً في العودة إلى ألمانيا، فلم ينجح في مشروع تجارة الأبقار، وما أن أفصح لى عن نيته حتى رحبت بالفكرة على الفور، لقد كنت أحن شوقا لبلدي ألمانيا، وكنت أجد الحياة في مصر صعبة للغاية.

كان شريف قد اشترى قطعة أرض لوالده تعبيراً عن عرفانه بالجميل تجاه الأب الذي أعطاه الكثير؛ إذ قام بتنشئته، وأنفق عليه الكثير أثناء تعليمه في المدارس وفي الجامعة.

طلبت والدة زوجي أن نصطحب أحد أشقاء شريف إلى ألمانيا، لاقت تلك الفكرة معارضتي في البداية، لأن وجوده معنا يمثل مسؤولية إضافية وعبئًا بالنسبة لي، ولكنني في النهاية وافقت واستخرجت تأشيرتين لشريف وأخيه يوسف، وهكذا، رجعنا إلى ألمانيا عام 1969 وعشنا مع والديَّ، أما شريف فقد اتصل بالشركة التي كان يعمل بها سابقاً "مان" Man في مدينة مومباك Momback ، وكانت الشركة وقتها بحاجة إلى عمال مهرة، فسعدوا بعودته، وبدأ العمل فيها كسابق عهده.

بعد وصولنا إلى ألمانيا سعى الكثير من الناس لمساعدتنا والوقوف

بجانبنا حتى راعي الكنيسة (القسيس)، كل إنسان في ألمانيا كان على استعداد لتقديم يد العون، ولقد سارت الأمور على نحو سهل، وما أن تسلم شريف عمله حتى تمكنا من تأجير شقة في مومباك، أما يوسف، شقيق زوجي، فقد حصل على تصريح العمل في ألمانيا بعد شهرين من الإقامة، وبدأ في مزاولة عمله في نفس المؤسسة التي يعمل بها شريف، وكانت الحياة تسير وفقاً لنسق معين؛ ففي الصباح يخرج الاثنان معاً إلى العمل، بينما أبقى أنا مع الطفلتين في المنزل، ثم التحقت نادين بإحدى المدارس، وكانت كافة الأمور تسير على ما يرام، ما عدا شيء واحد؛ وهو أن شقيق زوجي كان جزءاً من المنزل، لقد كانت تكاليف الإيجار باهظة، ومع ذلك كان في مقدورنا تدبير أمورنا، وكان من البديهي أن يسهم يوسف في بعض نفقات المنزل، وخاصة، وهو يعيش معنا تحت سقف واحد ويأكل مما نأكله، ولكن عندما طرحت الفكرة على زوجي شريف، غضب جداً، فطبقاً للعادات المصرية، يعتبر هذا الأمر مجلباً للخزي؛ لأن الرجل لا يقبل أية نقود من أقاربه نظير استضافته إياهم- ناهيك عن طلب ذلك، ولكنني لم أفهم ولم أستوعب هذا الأمر، ومما زاد من دهشتي، أن يوسف كان يتقاضى راتباً جيداً ولا ينفق منه شيئاً، ولكني كنت أعلم أن أي جدال في هذا الأمر لن يساهم بصورة أو بأخرى في تغيير رأي شريف، وهكذا، استمر الوضع على ما هو عليه، إذ كان لزاماً علينا أن نساعده وندعمه مادام يقيم معنا، وبعد مرور عام، بدأ يبحث لنفسه عن شقة في مينز Mains.

كان شريف لا يحمل رخصة قيادة بعد، برغم أننا نملك سيارة، وكنا بين الحين والآخر نقوم بزيارة والدي في قرية نورث هيسين North Hessen وكانت تبعد عن مكان إقامتنا نحو (250كيلو متراً)، وكان زوجي يفضل قضاء وقته وسط أسرته ولا يحبذ الخروج من المنزل، على عكس أخيه يوسف

الذي كان دائماً على اتصال بالمصريين الآخرين في ألمانيا، وكان يخرج معهم دائماً.

أصيب شريف بوعكة صحية شديدة، وقرر الطبيب بعد فحصه أنه يعاني من وجود حصوة ملتصقة بالكلى، ولا يمكن مرورها بصورة طبيعية، ولم يكن الأمر سهلاً، لقد تطلب الأمر أن يخضع شريف لإجراء عملية جراحية على الفور، وبعد العملية الأولى حدث التصاق آخر، وبالتالي احتاج لعملية ثانية، وبفضل الله، سارت الأمور على ما يرام، وقد تعافى شريف من تلك المحنة واستعاد صحته.

كان شريف مسلماً ولكنه كان بعيداً عن التعصب الديني، إذ كان متسامحاً مع شعائري للغاية، كما كان يسمح لي بارتداء ما أريده حتى في مصر، فلم أضع على رأسي إيشارب ولم أفعل ذلك حتى يومنا هذا.

مع حلول عام 1972 وبعد مرور ثلاث سنوات قضيناها في ألمانيا، بدأ الحنين إلى مصر يحاصر شريف مجدداً، فقمنا بتجهيز أمتعتنا وسافرنا إلى مصر، وكان معنا بعض النقود التي ادخرناها، في تلك المرة قمت بتجهيز كل شيء بطريقة أفضل، وكنت أعرف ما يستوجب فعله، لقد أراد شريف أن يحاول مرة ثانية تحقيق حلمه في تأسيس عمله الخاص، ولهذا قام بشراء شاحنتين من ألمانيا، كنت أرغب تلك المرة أن أعيش في مدينة الإسكندرية بجوار شاطئ البحر، لقد كان رجوعي إلى مدينة شربين أمراً مستحيلاً، وكانت المنصورة هي القرية الأقرب، ولكنها وقتها كانت مدينة مهملة تعج بالفوضى، وتكاد تخلو من مظاهر المدنية، ومع ذلك، قضينا بعض الوقت في شربين والمنصورة، ثم انتقلنا إلى مدينة الإسكندرية، وفي أول الأمر عشنا مع أصدقاء لنا كي نتمكن من العثور على شقة، و أثناء بحثنا أعجبتنا شقة

واتفقنا مع المالك على استئجارها، ولكن، لم تكد تمضي ليلتنا الأولى في الشقة حتى هربنا في الصباح الباكر، إذ كانت الشقة تعج بالحشرات، وفي الصباح اكتشفنا أننا الأربعة قد تعرضنا للدغات الحشرات المختلفة في كل مكان، ومن حسن الحظ، أننا لم نقم بتحرير عقد الشقة ولم ندفع أي مبلغ من المال، فالأمور في مصر كانت تختلف كلياً عن الأمور في ألمانيا، وهكذا تركنا الشقة دون أية مشكلة، ثم رجعنا مرة أخرى إلى مدينة شربين وقضينا بعض الوقت في عملية البحث عن شقة حتى وجدنا ضالتنا المنشودة.

وأخيراً وجدنا شقة مفروشة في سيدي بشر، أحد أحياء الإسكندرية، أقمنا فيها، وتم قبول ابنتي بالمدرسة الألمانية، ولكن كان يجب عليها أن تتعلم اللغة العربية أولاً، فحصلت على دروس خاصة في اللغة العربية وتعلمتها بسرعة، أما ابنتي الصغرى نيفين فقد التحقت بالحضانة، وصارت الحياة هكذا، أصطحبهما إلى المدرسة كل صباح في السيارة على طريق الكورنيش وبعد الظهر أعيدهما إلى المنزل، في ذلك الوقت لم يكن الطريق مزدحماً بالسيارات كما هو الحال اليوم.

سافرنا مرة أخرى إلى ألمانيا في شهر ديسمبر، إذ كان علينا أن نغلق شقة يوسف، ولم يكن لدى ابنتي نادين الرغبة في السفر، فبقيت في الإسكندرية مع صديقتها، أما نحن الثلاثة "أنا، وشريف، ونيفين "، فقد سافرنا معاً وهناك طلب شريف شحن " شاحنتين" من ألمانيا إلى مصر، وفي 16 يناير (Jan 16) رجعنا مرة أخرى إلى ميناء الإسكندرية، وفي ذات اليوم هبت عاصفة رملية رهيبة على الساحل المصري، فجنحت السفينة وانحرفت مقدمتها، وتم إخلاء السفينة من الركاب وساعدنا الجنود ونقلونا في قوارب باستخدام السلالم المصنوعة من الحبال، لقد كان الطقس شديد البرودة، وكانت تلك الحادثة مخيفة للغاية، ولم يكن أمامنا سوى أن ننجو بأنفسنا،

وأن نترك أمتعتنا على متن السفينة، لقد استطعنا أن نأخذ فقط حقيبة صغيرة، وبعد فترة استعدنا كافة أمتعتنا، ولكنها كانت مشبعة تماماً بالماء.

استعاد شريف شاحناته واشترك مع أخيه يوسف في تجارة الشاحنات، لكن بعد فترة انفصل يوسف عن الشركة، بينما استمر شريف في العمل، واستعان شريف بفريق عمل مكون من عشرة أفراد تقريباً من موظفين وعمال وسائقي شاحنات بهدف تطوير وتوسيع الشركة، وكان موقع الشركة في مزرعة دجاج سابقة كنا قد اشتريناها بعد أن تم إخلاؤها من المباني، وأقام عليها مكاتب الشركة وورشة ميكانيكية وجراجات، ولقد ازدهر العمل تلك المرة، وبدأنا نسافر أنا وشريف بصفة منتظمة لشراء الشاحنات من ألمانيا ليتم نقلها إلى مصر عبر البحر المتوسط.

في عام 1974 حملت مرة أخرى، وأنجبت ابنتنا الثالثة في صيف 1975، ثم انتقلنا إلى منطقة لوران حيث استأجرنا شقة هناك، وبعد ذلك قام زوجي بشراء منزل باسم بناتنا، وقمنا بتجديد المبنى تماماً وأحضرنا نجاراً من ألمانيا خصيصاً، وعاش مع أسرته في شقة بنفس المنزل لكي يشرف على أعمال التجديد، حتى أن أطفاله التحقوا بالمدرسة الألمانية مع أولادي، بهدف توفير الجهد، وبدأ شريف يتردد على ألمانيا وحده في ذلك الحين؛ فالمورد الخاص بنا كان في مدينة أولم Ulm؛ ولكي نوفر على أنفسنا عناء الإقامة في فندق، قمنا بشراء شقة هناك، وفي السنوات التالية كنا نقضي فيها الإجازات الصيفية.

حضر أخي مايكل Michael من ألمانيا وعمل مع زوجي شريف في مجال التجارة بالإسكندرية، وكان ذلك يعني أن مايكل هو الوكيل المسئول عن العمل في غياب شريف، وكان من الطبيعي أن يعيش أخي معنا، لقد كان

لدي الكثير من أعمال المنزل ورعاية الأطفال، لذلك لم أتمكن قط من العمل معهم وفي عام 1979 أنجبت ابني أحمد.

طرأت العديد من المشكلات مع النجار الذي استقدمناه من ألمانيا فاستلزم الأمر أن نقوم بفصله في عام 1981، ودون أن يقوم بتصفية ديونه لنا، عاد أدراجه إلى ألمانيا.

تم اغتيال الرئيس السادات عام 1982، وترتب على ذلك الحدث حدوث تدهور في أحوال التجارة، وساد عدم الاستقرار في كل أنحاء البلاد، في ذلك الوقت كان لدى شريف الكثير من الأعمال، ولكن لم يكن في مقدوره إدارة كل شيء، فالأمر كان يفوق قدراته بكثير، وفجأة ظهرت المشاكل المرتبطة بالحسابات المالية، وقام شريف ببيع ثلاث شاحنات إلى أحد العملاء، الذي قام بتسديد جزء من المبلغ نقداً، أما باقي المبلغ فقد اعتمد في سداده على كمبيالات، وعندما ذهب شريف لتحصيل مبالغ الكمبيالات المستحقة، تم إعادتها إلينا نظراً لعدم وجود رصيد يكفي لسداد قيمة الكمبيالات، ولم نجد حلاً قانونياً لكي نحصل على أموالنا، الأمر الذي أصاب شريف بالقلق والاضطراب، فساءت حالته الصحية وتدهورت حتى أنه أصيب باكتئاب نفسي خطير، ولكني لم أدرك تلك الحقيقة إلا بعد مضي وقت طويل، ذهبت بشريف إلى طبيب وصف له علاجاً، وبالرغم من أن شريف كان يتناول العلاج، إلا أن حالته لم يطرأ عليها أي تحسن، بل ازداد الأمر سوءاً بعد أن أصابه الأرق ولم يعد ينام الليل، ثم اصطحبته إلى طبيب في ألمانيا كنا نعرفه منذ سنوات، ولكن زوجي لم يكن متعاوناً مع الطبيب ولم يكن صريحاً معه بشأن ما ينتابه من أعراض وخدعه كثيراً، ولم يتحدث مع الطبيب بشأن مشكلته، ربما كانت حالته الصحية هي السبب في ذلك، ولم يكن في

استطاعتي أن أتدخل كي لا أزيد الأمر تعقيداً؛ إذ كان من الممكن أن يغضب شريف وتثور ثائرته إذا ما عرف أنني تحدثت مع الطبيب بنفسي.

لقد تملكني الخوف بصورة لم أعتدها من قبل، ولم أكن أدرى السبب وراء هذا الشعور، ولكني كنت على يقين من شيء واحد، وهو أنني لا أستطيع الحياة في ظل هذا الوضع المقلق، ومما ساعد على تفاقم شعوري هذا، أنني عثرت في حقيبة شريف على عقود لشراء ثلاثين حافلة كهربائية من ألمانيا؛ لقد كنت على يقين تام أننا لا نملك ذلك المبلغ، حاولت أن أفهم الأمر فتحدثت مع شريف في محاولة مني لاستبيان الحقيقة التي أجهلها، لكن محاولتي ذهبت سدى، فقد أخبرني فقط بأنه سوف يتسلم أول شاحنة قريباً، لقد كانت لديه قدرة على التبرير، وبدأت أتساءل: كيف يفكر في إعادة بناء تجارته دون موظفين أو رأس مال؟ لقد كان الأمر برمته درباً من دروب المستحيل، فما فعله شريف كان أبعد ما يكون عن المنطق والمعقول، لذلك كان لابد من تدخل أخي مايكل، لقد كنت يائسة تماماً تتصارعني الأفكار، ويحاصرني الواقع، ولكنني في نهاية الأمر نجحت في إلغاء صفقة الحافلات، وقدمت للشركة شهادة طبية تفيد بمرض زوجي وعدم أهليته، وكنا قد تسلمنا حافلة واحدة، ولحسن الحظ كان في مقدورنا أن نقوم ببيعها سريعاً.

كان شريف ـ ذات ليلة ـ يعاني من الأرق ولا يستطيع النوم، فنهض من فراشه، ومشى على أطراف أصابعه، ثم خرج من غرفة النوم، لقد سمعت وقع أقدامه وهو يصعد الدرج إلى السطح، فتملكني الرعب، انتفضت على الفور من الفراش، وتابعت خطواته، فوجدته واقفاً على السطح شاخصاً ببصره نحو الخلاء، ثم تفوه قائلاً: " لقد كنت على وشك أن أقفز لولا أنك أتيت"؛ كان لتلك الواقعة بالغ الأثر السيىء في نفسي، ولم يكن في مقدوري أن

أفكر في شيء أفعله من أجل زوجي، تناسيت الأمر، ومع مرور الوقت لم أعد أفكر مجدداً فيما حدث؛ لقد كان لدي أمل في أن كل شيء سوف يتبدل على نحو أفضل، لكن يبدو أن الأمل قد تحول إلى سراب.

بعد نحو أسبوعين من تلك الواقعة، سافر شريف إلى شربين بمفرده، وهناك أقدم على أول محاولة انتحار، فقد تجرع مادة كاوية، ولكن أحد أقاربه عثر عليه في الوقت المناسب وتم أخذه للمستشفى حيث تلقى الإسعافات اللازمة وقاموا فوراً بعملية غسيل معدي لإنقاذ حياته، وعندما أخبرني أقاربه بما حدث، هرعت إلى المستشفى، ولم أكن الوحيدة بجواره؛ فقد تجمع حوله كثير من الناس يحاولون أن يقدموا له يد العون، لكن المشكلة كانت مرتبطة بمرض الاكتئاب؛ إذ إن المريض بالاكتئاب لا يهتم بأي محاولة يمكن أن يقدمها له الآخرون.

تحدثت معه أمه بلهجة جادة إذ قالت له :

- " يجب عليك أن تشعر بالسعادة، فلديك زوجة جميلة تحبك، ولقد رزقكم الله بأربعة أطفال متمتعين بالصحة والجمال،، عليك أن تشعر بالرضا والقناعة، فالمال ليس هو المشكلة ".

ولكنه للأسف لم يشعر إطلاقاً بالرضا عن ذاته، لقد كان الإحساس بالفشل يطوقه بالرغم من درجاته العلمية ومؤهلاته، ويبدو أن كل ذلك لم يجدِ نفعاً ولم يشكل له فارقاً.

أما أنا فكنت دائماً أؤكد له أنني أحبه، ولن أتخلى عنه أبداً، وسوف يجدني دوماً بجواره، كما قلت له : " إننا معاً يمكننا أن نتحدى أي مشكلة، فكل شيء بسيط وهين، الشيء الأهم هو أن تستعيد صحتك". لكن يبدو أن ما

كنت أردده على مسامعه كان يذهب أدراج الرياح.

كان أخي قد أمضى معنا نحو ثلاث سنوات وقرر أن يعود إلى ألمانيا، ولكنه في اللحظات الأخيرة عدل عن قراره خوفاً على حياتي وقال لي:

- " لا يمكنني أن أتركك بمفردك.. ماذا لو حدث شيء ".

فقلت له :

- " لا أتصور للحظة أن شريف يمكن أن يفكر في إيذائي بعد كل سنوات الحب التي جمعت بيننا، على الرغم من كل شيء، هو على يقين أنني بجانبه لأدعمه وأسانده دوماً، وأنا على يقين أن سعادتي هي أبلغ أمنياته".

ولكن كلامي هذا لم يقنع مايكل ولم يسهم في تغيير رأيه، فقد كان القلق يغلف مشاعره تجاهي، وقال لي:

- " إن بعض الذين يحاولون الانتحار يرغبون دوماً في اصطحاب أحب الناس إليهم ليشاركوهم نفس المصير".

وهكذا قرر أخي مايكل البقاء في مصر بجواري خوفاً على حياتي، ومازلت حتى يومنا هذا أدين له بالفضل على قراره هذا، ولا يمكنني قط أن أنسى مدى اهتمامه بي وإصراره على ملازمتي وعدم تركي بمفردي أصارع المجهول.

مرت ثلاثة أسابيع قبل أن يأتي هذا اليوم الرهيب، لقد بدا يوماً عادياً جداً، كان الهدوء يعم المنزل، وحين عاد الأطفال من المدرسة جلسنا جميعاً لتناول طعام الغذاء، وكان يوسف شقيق زوجي بصحبتنا حيث أتى لزيارتنا، وبعد أن شاركنا الطعام دخل إحدى الغرف ليستريح وينام قليلاً، بينما خرج

أخي مايكل إلى محل بالقرب من المنزل لكي يصلح شيئاً ما، أما أنا فقد انشغلت في أمور المنزل، ولكنني لاحظت فجأة أن شريف يبدو مضطرباً على غير عادته؛ إذ كان يأتي بحركات غريبة، ولا يكاد يستقر في مكان؛ إذ كان يمشي في عصبية بالغة، كان يقوم ويقعد، ثم ما يلبث أن يتحرك في غرفة المعيشة بطريقة غريبة، وفجأة رأيته يحمل في يده سكيناً كبيراً، كانت نظراته تبدو شاردة وكأن به مسًّا شيطانيًّا، انتابني الذعر حين اقترب مني، وتجمدت في مكاني لحظة اتجه نحوي وجذبني إليه بمنتهى القوة، وضع يده على فمي وكتم أنفاسي، كدت أختنق، دافعت عن نفسي حين حاول أن يذبح رقبتي بالسكين الذى يحمله، حاولت الصراخ لكن صوتى كان مكتوماً، انغرست السكين فى يدى اليمنى، ثم رأيت الدم ينبجس من جرح فى رقبتى، في تلك اللحظة أصابني الرعب وشعرت بقشعريره الموت تسرى فى أوصالي، فقد كنت على يقين أن أجلي قد حان....، وفكرت في أطفالي، في نفس تلك اللحظة التي تداعت فيها أفكاري وانهارت فيها أعصابي، دخلت ابنتي نادين، جحظت عيناها من هول ما رأت، وصرخت مذعورة:

- "بابا... بابا".

ثم جاء أخي مسرعاً من الباب الأمامي واندفع نحو غرفة المعيشة، وما أن رأى ذلك المشهد الدموي حتى صاح في وجه شريف قائلاً :

- "قاتل... لقد قتلت أختي.... أيها القاتل".

ثم خلصني من يديه، فما كان من شريف إلا أن اندفع بلا أدنى تردد وقفز من الشرفة، وسقط هاوياً فوق سيارة ولقي مصرعه في الحال، انتابني الذعر، وتسمرت في مكاني، وجاء أخي مايكل وأوقف النزيف وأنقذ حياتي وحملني بمساعدة السائق، وتم نقلي إلى أقرب مستشفى، ولكن غرفة الطوارئ

بها كانت مغلقة، فهرعنا إلى مستشفى آخر، ومن حسن حظي أن الطبيبة المناوبة كانت تعرفني، إذ كانت تقوم أيضاً بالتدريس في المدرسة الألمانية، فقامت على الفور وبمنتهى الحذر بربط الأوعية الدموية وتم إيقاف النزيف، نقلوا لي دماً، عوضاً عن الدم الذي فقدته إثر محاولة ذبحي بالسكين، أصبت بفقدان الوعي، ثم عانيت من صدمة عصبية، الأمر الذي أدى إلى إصابتي بانهيار عصبي، ولقد سمعت كل تلك الأحداث المريرة بعد فترة من الزمن، والشعور الذي كان يلازمني هو الذعر بشأن أطفالي وما قد يحدث لهم، لقد تولى الجيران أمر رعايتهم حتى تعافيت تماماً.

المستشفى الذي تلقيت فيه الإسعاف والعلاج كان مستشفى عاماً، وكانت الظروف والأوضاع بداخله مزرية، فالقطط الضالة تقفز فوق أسرة المرضى، ولكن طاقم الأطباء، وطاقم التمريض، كل منهم يؤدي دوره وواجباته على الوجه الصحيح وفي الوقت المناسب حتى أنهم أنقذوا حياتي، حيث كانت حالتي تستوجب إجراء جراحة عاجلة، ثم تم نقلي إلى مستشفى آخر، وتم علاج يدي من جروح السكين التي أصابتها، والتأمت الجروح، ولكنني فقدت الإحساس ببعض أصابعي منذ ذلك الوقت.

في اليوم التالي تم دفن شريف وفقاً للعادات السائدة في مصر، وكنت مازلت بالمستشفى لم أغادرها بعد، وقتها لم تكن لدي القدرة على استيعاب ما حدث، ولكني يجب أن أعترف أنني كنت محظوظة للغاية في ذلك اليوم الذي حضر فيه كل أصدقائي وصديقاتي لزيارتي، لقد كان تعاطفهم بمثابة الدعم الحقيقي، ولولا هذا التعاطف، ما كنت لأنجو من تلك الأزمة التي فجعتني أشد فجيعة، حتى الأشخاص الذين لم أكن أتوقع منهم أي مساندة، وقفوا إلى جواري، وساعدوني كثيراً.

لم يشرحوا لوالدة شريف كيف مات ابنها، ولكنهم أخبروها فقط أنه توفي، اعتصرها الحزن ولم تتحمل الصدمة، وأصيبت بسكتة دماغية لم تتعافى منها، وهكذا، خارت قواها، وماتت بحسرتها بعد ستة أشهر، ولكننا شرحنا لوالد شريف كل ما حدث بالتفصيل، وكان عليه أن يحتمل الحقيقة.

توالت الأيام والشهور ولا أدري كيف عشتها، ففي الأسابيع الأولى من الحادث المروع كنت فاقدة الإحساس وكنت أتحرك فقط لأداء الأعمال الروتينية اليومية، لقد ساعدتني ابنتاي الكبيرتان على تخطي تلك المحنة، وقدمتا لي يد العون في الأعمال المنزلية وكانتا تهتمان بالطفلين الصغيرين، وظل أخي معي فترة من الوقت، ثم حضرت أختي الكبرى من ألمانيا وأقامت معي في مصر لمدة ثلاثة أشهر، ولقد ساعدني الكثير من الأصدقاء والمعارف، على الرغم من كوني لا أستطيع تذكر كل التفاصيل.

كنت وقتها مازلت أشعر بالحنق تجاه شريف وكانت نوازع الغضب تحكمني، فقد هم بقتلي، ماذا لو كان قد أزهق روحي؟ وما هو المصير الذي كان سوف ينتظر أولادي؟

كان الفزع يصيبني كلما تذكرت واقع أمر فقدانهم لأبيهم !.. كانت الكوابيس تؤرق مضجعي، إذ كنت أحاول دائماً جاهدة أن أتخيل السبيل إلى منع ما قد حدث بالفعل، ولكنني بعد مرور عدة سنوات أدركت حقيقة الأمر، وبدأت أعرف كيف بدأ مرض شريف وكيف تدهورت حالته الذهنية، وكيف أصبح تفكيره مشوشاً، إن ما حدث كان أمراً مروعاً، ولكنني لم أكن أملك حياله شيئاً، ولم يكن الخطأ خطئي، لقد كان الأمر برمته فعل من أفاعيل القدر.

كان عليَّ أن أنفض عن ثوبي غبار الأسى، وأن ألتفت لأطفالي، فهم

الآن أهم شيء في حياتي، بل هم حياتي نفسها، ومن أجلهم كان علي أن أحب حياتي لكي أحيا من جديد، لكي أتواجد معهم ومن أجلهم، فهم يحتاجون لي أكثر من أي وقت مضى.

كان من الطبيعي أن تقلب تلك الأحداث المؤسفة مجرى حياتهم تماماً، كان ابني أحمد في الرابعة من عمره، وبالتالي لم يدرك طبيعة الكارثة التي حلت بنا، ولكن البنات الثلاث عانين من شدة وقع تلك الحادثة المروعة، وتطلب الأمر سنوات طويلة حتى تخطين ما حدث واستطعن مواصلة حياتهن والتطلع بأمل نحو المستقبل الذي ينتظرهن.

لقد شهدت نيفين ـ وهي الطفلة الثانيةـ كل ما حدث بأم عينيها، وكانت تبلغ ـ وقت الحادث ـ خمسة عشر عاماً، وقد عانت طويلاً من هول ما رأت، وتأثرت بشدة من وقع تلك الصدمة المفجعة.

بعد مرور عدة أسابيع بدأت أفيق واستعدت جزءًا من قدرتي على التفكير بذهن صاف، وبدأت أقلب في الأوراق المالية الخاصة بأسرتنا، واجهتني صدمة كبرى ثانية، فقد تراكمت فوق رؤوسنا جبال من الديون لمختلف البنوك، بجانب العديد من الأسهم المالية والسندات التي لم يتم سدادها بالكامل، بالإضافة إلى عشرات من الشيكات، والكمبيالات.

نادين كانت ابنتي الوحيدة البالغة من الناحية القانونية، ومن ثم كان يمكنها أن ترث مباشرة، أما بالنسبة للأطفال الثلاثة الباقين، فكان يستوجب الأمر أن أقوم بتسجيل جميع الممتلكات دون نسيان أي شيء، ونجحت في تحويل كل المستندات الرسمية من شريين إلى المحكمة المختصة بالتعامل مع أمور "الوصاية" و "الوصي" في مدينة الإسكندرية؛ قضيت ساعات طويلة في مكاتب المحكمة، حتى تم تسجيل كل شيء على حدة.

وطبقاً للقانون المصري بعد وفاة شريف، يكون للجد ـ بصورة تلقائية ـ حق الوصاية على أطفالي، وفي حالة وفاة الجد، فإن العم شقيق الزوج يكون له حق الوصاية، ولكني لم أقتنع بأن الوصاية من حق شقيق زوجي، لأنني أم الأطفال، وبالتالي يجب أن تؤول الوصاية لي وبصفة طبيعية، لذلك واجهت العديد من المشاكل القضائية المزعجة، لقد كان لزاماً عليَّ أن أخوض تلك الحرب التي انتهت لصالحي، وهكذا نجحت في نقل حق الوصاية على أطفالي، وأصبحت أنا الوصية القانونية؛ مما ساعد على إتمام التسويات الخاصة بالأمور المالية بطريقة أكثر سهولة.

لقد تم تسجيل كافة المستندات الخاصة بالمعاملات التجارية في مدينة المنصورة، وتم تحويلها إلى مدينة الإسكندرية، ولم يكن التعامل مع المكاتب الحكومية أمراً سهلاً بالنسبة لي، وخصوصاً أن معرفتي باللغة العربية محدودة، لذلك تمنيت لو ساعدني شقيق زوجي في إتمام تلك التعاملات، فهو قبل كل شيء صهري، وقد عاش معنا في ألمانيا، وكلانا يعرف الآخر بشكل جيد، وحين عرضت عليه الأمر وافق على الفور، وأبدى استعداده بأن يتولى متابعة ورعاية كل شيء نيابة عني، وقد وثقت فيه، ولكن للأسف، اتضح لي بعد ذلك أنه لم يكن يفكر سوى في نفسه ولم يكن يسعى إلا لمصلحته، كذلك اتضح لي أن كل عائلة زوجي يحملون لي بداخلهم ضغائن، ويبدو أن التفاف أبنائي حولي واستقلالي المادي قد أثار حنقهم وحقدهم، فعلى سبيل المثال وليس الحصر، لقد أراد صهري يوسف إحدى سياراتنا لنفسه، وحاول أن يستميل سائقنا لمساعدته، لكن السائق أوضح له بطريقة مهذبة ودودة أنني صاحبة الحق في استخدام السيارة لأنني سبق وقمت بتسجيل السيارة باسمي، وبالتالي أنا من يمكنه أن يقرر من يستطيع ركوبها واستخدامها، وأظهر السائق ليوسف الأوراق الرسمية التي تثبت صحة قوله، وعندما أدرك

يوسف أنه لن يضع قدمه داخل السيارة كاد الغيظ يقتله لكنه أخفى ما يضمر بداخله، لكن كل ما كان يدور بداخله بدا واضحاً على قسمات وجهه، ساعتها أدركت أنه شخص لا يمكنني الوثوق فيه أو الاعتماد عليه.

وهكذا استطعت أن أتدبر أمري، بمساعدة شقيقي مايكل، لكنه كان مثلي لا يتحدث العربية بشكل جيد، ولا أنسى فضل السائق الذي وقف بجواري، ولم يتركني أتعامل مع الجهات الرسمية والدوائر الحكومية بمفردي.

كان أول شيء علينا أن نفعله هو أن ننهي أعمال الشركة ونقوم بتصفيتها، لكن الأمر لم يكن سهلاً على الإطلاق، إذ كان هناك العديد من الشاحنات التي يجب بيعها، بالإضافة إلى قطع الغيار والمعدات والآلات المخزنة بالورشة التابعة للشركة، لذلك كلفنا شركة أمنية بحراسة كافة تلك الممتلكات ليلاً ونهاراً لضمان عدم السرقة، لقد استغرق الأمر- بصفة عامة ـ نحو أربع سنوات حتى تم بيع وتصفية كل شيء، ولقد ساعدني السائق كثيراً في إتمام كافة تلك الإجراءات، ليس فقط لدرايته باللغة، ولكن لأنه على معرفة تامة بخط سير الأمور والتعاملات في مصر، فهو يعرف جميع العملاء بصفة شخصية وأماكن إقامتهم وأماكن أعمالهم، ويعرف كيف يصل إليهم، وأهم ما في الأمر أننا يمكننا الاعتماد عليه والوثوق به مائة بالمائة؛ فقد نشأ في شريين مثل شريف وكان بالنسبة له الصديق المقرب؛ لقد استمر ولاؤه وإخلاصه لصديقه حتى بعد وفاته، ومن حسن الحظ أن هذا الإخلاص شملني أيضاً وأفادني وخدم مصالحي أنا وأولادي، الجدير بالذكر، أنني مازلت على اتصال بهذا السائق حتى يومنا هذا، وأحياناً يتصل بي للاطمئنان على أحوالي.

لقد استطعت ـ بصورة تدريجية ـ أن أحصل الكثير من الشيكات والكمبيالات، ولكن للأسف كانت هناك بعض الكمبيالات عديمة القيمة

ومازلت أحتفظ بها حتى يومنا هذا.

وبعد مرور أربع سنوات تمكنت من تصفية الشركة تماماً، فقد تم بيع الأبنية والمنشآت، أما الأرض فكانت مستأجرة من جهاز المدينة، لكن ثمن البيع لم يكن ليرضي أسرة زوجي؛ إذ كانوا يعتقدون أن المبالغ المدفوعة زهيدة جداً، ولكنهم لم يجدوا المشتري الذي يدفع ثمناً أعلى، وبالتالي لم يكن لديهم خيار أفضل، لقد كان لزاماً علي- في كل عملية بيع- أن أقدم تفويضاً من جميع الورثة، وبعد فترة قصيرة كنت على دراية بنظام المواريث الإسلامية، الأمر الذي جعلني أتعامل مع الجهات الرسمية والشهر العقاري بصورة أفضل، وخاصة أن أسرة زوجي كانت تفسر كل شيء لصالحها، ولقد شعرت أكثر من مرة بأن الأسرة تخدعني، فاتخذوا التدابير اللازمة حتى يتم خصم كل ما تراكم عليَّ من نفقات من المبلغ الأساسي من الميراث، أما بالنسبة لقطعة الأرض التي اشتراها زوجي في شربين قبل أن يلقى مصرعه فقد تم تأجيرها لشقيقته، ولم يكتفوا بذلك، لقد استمروا في خداعنا وإخفاء الكثير من الأشياء عنا، بل وصل بهم الأمر إلى تزوير توقيعي، وهكذا استطاعوا باستخدام الحيلة أن يحرموا أولادي من بعض حقوقهم الشرعية في ميراث أبيهم، لقد كان عليَّ إنقاذ ما يمكن إنقاذه؛ ذلك كان أقصى ما أمكنني فعله.

وأخيراً، وبعد مرور ثماني سنوات على وفاة شريف، استعدنا الهدوء تدريجياً، حيث تم استكمال كل التحويلات، وكان في مقدوري سداد كافة الديون ودفع الضرائب المستحقة والمتأخرة، وتسلُّم التسوية النهائية، وهكذا تم إنهاء كل شيء، وكانت سعادتي بالغة لأنني تمكنت من طي صفحة الماضي؛ حتى لو لم يتحقق لي كل ما تمنيته لمصلحتي ومصلحة أولادي، أستطيع أن أنعم بنوم هادئ بعد طول عناء، فالأموال التي تركها شريف

كانت كافية لتوفير حياة طيبة لي ولأولادي، فقد التحقوا بالكليات واستطعنا الحفاظ على شقتنا في لوران، وكذلك قمت بشراء شقة في العجمي، لكي نقضي فيها شهور الصيف.

توفي صهري يوسف عام 1989 في ألمانيا، إذ كان من المفروض أن تجرى له عملية جراحية في القلب، ولكنه توفي هناك قبل إجراء العملية بثلاثة أيام، وكان والد زوجي قد توفي قبله عام 1987 .

لقد فكرت كثيرا في حادث مصرع زوجي، وكيف كانت نهايته مروعة، وكثيراً ما استرجعت فيض الأيام السابقة، وخلصت من هذا التفكير ببضعة نتائج؛ لقد أدركت الآن عجز شريف عن مواجهة مشاكله بصورة عقلانية، لقد ساهمت أسرته في مأساته؛ إذ دللته كثيراً، لقد كان بالنسبة لهم مدعاة للفخر لأنه أول من التحق منهم بالجامعة، وكانوا يمتدحونه دائماً، و يتعاملون معه وكأنه معصوم من الخطأ، وكأن وجوده في الحياة مقترن بالصواب، وهكذا لم يكن لديه المقدرة على احتمال أخطائه، أما أنا فقد كنت على يقين تام أن الحب الذي جمع بيننا كان كفيلاً بأن يقف شامخاً في مواجهة المشكلات والعقبات، بل كنت أعلم أننا نستطيع معاً إدارة كل شيء "جاء بعد وفاته" وهو على قيد الحياة؛ من تصفية الشركة وتحصيل أموالنا. لقد كنت دائماً بجواره وكنا معاً قادرين على تدبير أمور حياتنا وتلبية متطلبات أطفالنا، لطالما كنت أود بشدة مؤازرته ودعمه في جميع صفقاته التجارية، والوقوف بجانبه في حل جميع مشكلاته، ولكنه لم يكن ليسمح بذلك، ربما لأنه لم يثق فيَّ بدرجة كافية، أو ربما لأنه لم يسمح لنفسه بأن يقر بمشاكله، وبدلاً من اعترافه بنقاط ضعفه، سقط في براثن المرض النفسي وأصيب بالاكتئاب.

والآن، وبعد مرور كل تلك السنوات، أتذكر أحداث الماضي كثيراً، لقد أمضينا معاً أجمل اللحظات التي تبادلنا فيها الحب، ذلك الحب هو الذي

شفع له في أخطائه، فما عدت حاقدة عليه أو غاضبة منه.

لقد ازداد حبي لمصر وتعلقي بها مع مرور السنين، وعندي اثنان من أبنائي يعيشون في مصر، لقد تزوجت واحدة من بناتي في الإسكندرية وأنجبت طفلين، وابني يعيش في شرم الشيخ وهو مطلق ولديه طفل يعيش مع أمه في الإسكندرية، وها أنا ذا لدي ثلاثة أحفاد قريبون مني، أما ابنتاي الأخريتان فتعيش إحداهما في ألمانيا والثانية في الولايات المتحدة الأمريكية، ومثل كل الأمهات، أحب رؤية أبنائي كلما أمكن ذلك، ولهذا أسافر إليهم في كل عام – على الأقل- مرة واحدة إلى ألمانيا، ومرة إلى الولايات المتحدة الأمريكية.

طوال تلك السنوات كانت اتصالاتي بألمانيات أخريات قليلة، لأن معظم وقتي كان مكرساً لعائلتي؛ إذ كان عليَّ أن أقدم لهم الكثير، فكان ذلك على حساب حياتي الاجتماعية، لي صديقتان ألمانيتان تعيشان في مصر، كانتا عوناً لي في معظم الأوقات العصيبة التي مررت بها في حياتي.

منذ عشر سنوات ـ لعبت الصدفة دوراً ـ في لقائي بسيدات ألمانيات في الإسكندرية، وكنت أتقابل بانتظام مع هذه المجموعة لنتبادل المعارف والخبرات، ومنذ أن كبر أولادي، أصبح لدي متسع من الوقت لنفسي، وأذهب بانتظام إلى "نادي سبورتنج الرياضي" لممارسة رياضة الجري والمحافظة على لياقتي البدنية، كما أقوم بكثير من الزيارات، وأتلقى العديد من الدعوات وألبيها، لقد ازداد حبي لمدينة الإسكندرية مع مرور الوقت، ولقد اعتدت الأمور التي كنت أحسبها صعبة في الماضي حين كنت في بدايه حياتي، لم يكن من السهل عليَّ أحياناً أن ألاقي في مصر بالقبول والترحاب من الجميع خصوصاً لأنني امرأة أجنبية وافدة من بلد أخرى، لكن إن كان في مقدور

المرء التحدث بنفس اللغة، فسوف يلاقي الاحترام من معظم الناس.

لقد عشت حياة صعبة، عانيت فيها أوقاتاً مريرة، فلم يكن مقدراً لي أن أعيش حياة ذات خط مستقيم، إذ كان عليَّ أن أحتمل منحنيات القدر، وأن تأخذني دوامة المصير، لكنني اليوم أشعر بالسعادة والفخر، لقد استطعت أن أشحذ قوتي لأحارب كل الصعوبات التي كابدتني، لقد فعلت كل ذلك من أجل أبنائي، لقد كانوا بالنسبة لي عوضاً عن نكسات الأيام العصيبة، وهم المكافأة الكبرى التي أثرت حياتي، والتي ذرفت من أجلها دمي ودموعي، وكنت على استعداد أن أضحي في سبيلها بالنفس والنفيس.

في العام القادم سوف أحتفل بعيد ميلادي السبعين، وفي تلك المرة أود أن أشعل الشموع بدلاً من أن أطفئها، فأنا أحيا وكلي رغبة وأمل أن أعيش المزيد من السنوات الجميلة بصحبة أولادي وأحفادي فهم بالنسبة لي سبب حبي للحياة .

*****



الفصل الثالث

بـريق عينيه

HEIKE - هايك

هايك Heike امرأة جميلة، صغيرة الجسم، أنيقة، ذات عيون زرقاء وشعر داكن طويل مسترسل على هيئة ذيل حصان، ورغم بلوغها أربعة وستين عاماً، إلا أنها تبدو أصغر من عمرها الحقيقي؛ بفضل الإطلالة الشبابية التي تزين قسمات وجهها، والرشاقة التي لا زالت تدب في جسدها، الخجل سمة من سماتها التي لابد وأن تكون قد لازمتها طيلة سنوات عمرها، حضرت إليَّ بصحبة أعز صديقاتها رينيت. هـ، وأخذت تروي لي قصتها، وكانت تتلعثم أحياناً فأعيد على مسامعها تساؤلاتي؛ ولقد كان هناك سؤال مثير يعكس أطروحة أفكاري: ما الذي يجعل شابة ألمانية متحفظة تودع بلادها، تاركة وراءها كل شئ عايشته وتشد الرحال إلى بلاد أخرى غريبة برفقة شاب مصري لتبدأ معه حياة جديدة تماماً؟! ترى ماذا كان الدافع الحقيقي ؟ هل تلبية لنداء القلب واستسلام لحب العمر؟ أم ببساطة شديدة رغبة في اكتشاف الجديد أو إشباع لروح المغامرة ؟

سأحاول – من خلال استعراضي لقصة هايك – أن أصل إلى إجابة شافية ترضى فضولي :

كنت في السابعة عشرة من عمري، حينما تقابلت مع زوجي لأول مرة عام 1960 في مدينة هامبورج Hamburg، كنت خجولة للغاية، ولقد كان لقاؤنا – في واقع الأمر – مثيراً للدهشة؛ حين لعبت الصدفة دور البطولة حتى يعثر كلانا على الآخر، وقتها كنت أعيش مع أمي وزوجها الذي تزوجته بعد وفاة أبي في الحرب العالمية الثانية، لي أخ شقيق وأخت غير شقيقة، كنت أتدرب على خياطة الفرو، هذه المهنة انقرضت ولم تعد معروفة في الوقت الحالي، وهي شبيهة بمهنة ترزي الفراء.

حدث اللقاء الأول الذي جمع بيني وبين فوزي في أحد النوادي، طلب مني أن أراقصه، وحين تلاقت أعيننا؛ أحسست أن سهام الحب قد أصابتني،

لقد كانت عيناه تشعان ببريق أخاذ، وبدافع فطري، أشحت بوجهي عنه لأتجنب هذا اللهيب الذي يندلع من عينيه، لكن دون جدوى، كان يعيد وجهي نحوه لأعاود النظر إليه، وبالطبع لم أكن أدري وقتها أنه مصري، لقد أراد أن يقابلني مرة أخرى، ولكني لم أذهب في الموعد المحدد، على الرغم من ذلك، لم تكن صورته تفارق خيالي، لقد فكرت فيه كثيراً، ولكن الأمر برمته كان فوق قدرتي واستيعابي، لقد كنت عديمة التجربة، مفتقدة للخبرة، وصغيرة على الحب، وعلى الرغم من ذلك، فقد طالت شرارة الحب قلبي وأوقدته، ولم يستطع هروبي أن يطفأه.

كان القدر حليفنا، إذ لعبت الصدفة دوراً هاما حين قابلته للمرة الثانية يسير في أحد شوارع هامبورج Hamburg، حينها تلاقت أعيننا وتعانقت أفئدتنا وارتبطت مصائرنا ولم يعد هناك أي سبيل للفراق.

كانت مشاعري تجاه فوزي جامحة، يغلفها الصدق والإخلاص، لكن حبه لي كان دوماً مقترناً بالغيرة الشديدة التي لم أستطع - رغم مرور السنوات- أن أجد لها مبرراً أو سبباً، لقد تطلب الأمر وقتاً طويلاً كي أعتاد تلك الغيرة التي كنت دوماً أحسب لها ألف حساب، وقد حاولت جاهدة أن أراعي مشاعره وأرفع من درجة يقظتي كي أتجنب أي موقف يشعل نار غيرته ويؤدي إلى صدام بيننا، وهكذا استطعت أن أتعامل مع تلك السمة المتأصلة في شخصيته.

لقد تم زواجنا سريعاً، لأننا أدركنا منذ أن التقينا أن الزواج هو الحل، وبالطبع في البداية واجهت معارضة من أمي التي كانت تتوجس خيفة من ارتباطي بشاب غريب، ولم تكن متأكدة من قدر اقتناعي، ولكن زوج أمي وقف وقتها بجانبي، وهكذا، استطعنا معاً، أن نغير وجهة نظر أمي حتى

باركت الزواج الذي تم عام 1960 في مكتب زواج مدني بمدينة هامبورج Hamburg، وكان عمر زوجي وقتها يبلغ 21 عاما، وبعد مرور عام رزقنا بمولود أسميناه فريد .

لقد شهد عام 1962 أول زياراتنا لمصر، وقتها تركنا ابننا في رعاية والديّ، وانتهزنا فرصة الإجازة للقيام بتلك الرحلة، وزرنا عائلة فوزي في مدينة المنصورة والتي تبعد عن الإسكندرية بنحو 180 كم وتقع على النيل.

حين تعرفت على عائلة فوزي لم يقم فوزي بتقديمي لهم بصفتي زوجته، بل بصفتي صديقة مقربة، فلم يكن وقتها على يقين من رد فعل والديه تجاه زواجنا، وخاصة وهناك اتفاق مسبق على نية زواجه من إحدى قريباته إرضاء لرغبة والديه، وهو تقليد متبع وعرف ما زال سائداً في مصر حتى اليوم، إذ يقوم الوالدان باختيار زوجة المستقبل للابن، ويعدون الترتيبات اللازمة، وعلى الابن أن يرضخ للأمر ويلبي رغباتهم كشكل من أشكال الطاعة.

أمضيت الليل مع إحدى أخوات فوزي ونمت في غرفتها، وأدرك فوزي أن إخفاء الأمر ليس هو الحل، فأعلن فوزي أمر زواجنا لأسرته وأوضح لهم الحقيقة، وبلغ به التأثر حد البكاء؛ فهو يحب والديه ويكن لهما كل تقدير واحترام، ولم يشأ أن يخيب فيه رجاءهما، وهكذا صارت الأمور؛ فقد تقبلوا الأمر الواقع واستوعبت الأسرة الموقف بشكل إيجابي حين حدثناهم عن ابننا فريد وعرضنا عليهم كل الصور التي أحضرناها معنا، وكانت سعادتهم لا توصف، واستقبلوني بينهم كزوجة لابنهم بترحاب شديد، وقضينا معاً وقتاً ممتعاً حتى آخر يوم في إجازتنا، ثم عدنا أدراجنا إلى ألمانيا.

استمر فوزي في دراسة الطب في مدينة هامبورج، أما أنا فاستأنفت

عملي في مجال الفراء، وكانت أمي ترعى ابني جزءاً من الوقت، وقد استأجرنا شقة مستقلة، وكنا سعداء جداً.

لم يتمكن فوزي – للأسف – من إحراز أي تقدم في مجال دراسته نظراً لوجود اختلاف بين نظام التعليم في ألمانيا، ونظام التعليم في مصر، بالإضافة إلى عدم إتقانه للغة الألمانية، لهذا قررنا العودة إلى مصر كي يستكمل دراسته بها.

شهد عام 1966 رحلة عودتنا إلى مصر، حزمنا حقائبنا وسافرنا إلى فينسيا في سيارة مرسيدس ثم ركبنا السفينة المتجهة إلى الإسكندرية، وكانت السيارة المرسيدس مسجلة باسمي واستوردناها رسمياً إلى مصر، لكن الأمر استغرق مدة طويلة حتى يتم إنهاء إجراءات التخليص الجمركي، إذ كان علينا أن نسافر للقاهرة عدة مرات لاستخراج كافة المستندات والأوراق الرسمية، ثم بعنا السيارة في مصر، وكان ثمنها كفيلاً بأن يؤمن لنا حياتنا ويوفر لنا احتياجاتنا لفترة من الزمن، وكانت عملية استيراد السيارات وبيعها في مصر في تلك الفترة عملية معروفة يلجأ إليها كثير من الأجانب لأنها وسيلة مضمونة ومأمونة العواقب لكسب المال، وتخلو من المخاطر.

كانت جمارك السيارات المستوردة عالية جداً، وهو السبب وراء ارتفاع الأسعار، أما أنا فكنت معفاة من الجمارك لأنني أجنبية، وهكذا، استطعت بيع السيارة في مصر بسعر ممتاز، وحصلت على ربح جيد.

كانت بداية الحياة صعبة بالنسبة لي في مصر، حيث أقمنا مع أسرة فوزي التي حاول كل فرد فيها أن يسعدني قدر استطاعته، لكن رغم ذلك، استغرقت وقتاً حتى اعتدت نمط الحياة وطبيعة الأشياء، لقد كانت أسرة طيبة وأحسنوا معاملتي، وكان فوزي له من الإخوة عشرة أشقاء، لكنهم –

بالطبع - كانوا جميعاً يتحدثون العربية، وكان والد زوجي تاجر قطن، دائماً ما يسافر إلى مدينة الإسكندرية لإنجاز أعماله، حيث كانت تجارة القطن وسوق المال والبورصة موجودة بالإسكندرية فى ذلك الوقت، لقد كان طيباً حلو المعشر، فمثلاً كان يشتري لي الزبد والمربى لأنني في البداية لم أعتد تناول الفول على الإفطار، مع إنه غذاء صحي وبعد تناوله يعطي شعورًا بالشبع طيلة اليوم، وكان يجلس معي في غرفة المعيشة ويعلمني نطق بعض الكلمات العربية مثل : " كرسي، عيش، ميه " ويجعلني أردد وراءه كل كلمة حتى أحفظها وكان يتمتع بصبر طويل.

كانت الشقة التي تقيم فيها أسرة زوجي مثل كل الشقق في ذلك الوقت، الخادمات تنام على الأرض في المطبخ، وشروط النظافة الصحية غير متوفرة، لقد كان المنزل يعج بالحشرات الزاحفة والطائرة، وكان يتعين على المرء الحذر باستمرار كي لا يلمس شيئاً ملوثاً، أما المرحاض فلم يكن بالمواصفات التي اعتدت عليها في ألمانيا، وكان يصعب على استخدامه، لقد كانت تلك الظروف صعبة وتمثل تحدياً بالنسبة لي، ولكنني كنت صغيرة وعاجلاً أم آجلاً كان يتعين على أن أعتاد كل شئ، وكانت سعادتي لا توصف حينما انتقلنا للإقامة في شقة مستأجرة بالإسكندرية، لقد بعنا السيارة واشترينا أثاثاً وتبقى معنا بعض المال الذي اعتمدنا عليه في سد النفقات لفترة من الزمن.

عاد فوزي ليستأنف دراسته لطب الأسنان في جامعة الإسكندرية، أما أنا، فقد مارست حياتي الطبيعية كزوجة وأم وقمت بواجباتي كربة منزل، ولكنني أحسست بالغربة عن بلادي، وشعرت بالوحدة وسط الناس من حولي، وافتقدت الإحساس بالتواصل والتعايش اليومي مع من يستطيعون فهمي والتحدث بلغتي، ومما زاد من هذا الشعور هو عدم توافر أي مجلات أو

جرائد ألمانية في هذا الوقت يمكن شراؤها من أي مكان، وكذلك لم يكن هناك أي قناة تليفزيونية ألمانية تبث برامجها، وهكذا كنت أقضي معظم وقتي في تنظيف المنزل، إذ إن طبيعة المناخ في مصر تساعد على اتساخ المنزل، وأحياناً يكون الجو في الإسكندرية رطبًا عاصفًا، وهكذا كان عليَّ أن أنظف الشقة بالكامل يومياً للتخلص من الغبار العالق بفعل الرطوبة.

رينيت هـ Renate H. كانت صديقتي الوحيدة وبدأت علاقاتنا عن طريق زوجي الذي كان يعرف زوجها وقت كان في هامبورج، ومع مرور الوقت عرفتني على نساء ألمانيات أخريات، في تلك الفترة، التحق ابني الكبير فريد بإحدى المدارس الإنجليزية، وكانت الحافلة تأتي لتأخذه كل صباح، وتعيده حوالي الساعة الثانية بعد الظهر.

شهد عام 1968 مولد طفلنا الثاني شريف، في ذلك الوقت كان لدينا خادمة صغيرة تبلغ من العمر عشر سنوات قادمة من الريف وكانت تساعدني في جميع أعمال المنزل؛ أذكر أنني ـ حين حضرت للمرة الأولى ـ أخذتها إلى الحمام لتستحم، وتنظف شعرها من القمل، كى أتفادى العدوى، وخصصت لها غرفة صغيرة داخل الشقة، وكانت تأكل مما نأكل، وظلت معنا عدة سنوات، لقد كانت أعمال المنزل شاقة في تلك الآونة، ولم تكن الغسالات الكهربائية متوفرة، فكان يتحتم علينا أن نغسل الملابس بطريقة يدوية في الحمام، ويتم جمع الجوارب والحفاضات ليتم غليها في صفيحة الغلية فوق الموقد في المطبخ، وبعد ذلك استعنت بمدبرة منزل تدعى فاطمة كانت تأتي إلينا مرة في الأسبوع، وظلت تتردد علينا مدة 25عاماً، وكان يمكنني الاعتماد عليها، أما الآن فقد اختلف الوضع عما كان في السابق، فمن الصعب أن تجد من يساعدك وتعتمد عليه ويمكنك الوثوق فيه، إذ يمكن أن تجد نفسك بين ليلة وضحاها بمفردك لتعاني الأمرين.

عندما جئنا إلى مصر عام 1966 كانت ظروف الحياة صعبة للغاية، وكانت هناك أزمة تموينية وندرة في السلع الغذائية، وكان يتم توزيع العديد من أصناف البقالة ضمن الحصص التموينية، ولكي تحصل على شيء تريده يجب أن تقف في الطابور لساعات طويلة أمام الجمعيات التعاونية التابعة للحكومة، ويتم صرف السلع لكل أسرة من خلال بطاقة تموين يتم ختمها، وما يتم توزيعه من مواد غذائية لا يكفي المعيشة، فمثلاً يتم توزيع الدقيق والزيت والسكر والمسلى الصناعي على البطاقات، وأحياناً يوجد سمك معلب أو بلوبيف، أما اللحوم والدواجن فيتم توزيعها في أيام معينة، وهكذا كنت أقضي ساعات طويلة أمام المجمعات الاستهلاكية أنتظر دوري في طابور طويل لكي أحصل على مواد البقالة والتموين، أما الفاكهة والخضروات فكانت متوفرة دائماً.

شهد عام 1967 نشوب الحرب بين مصر وإسرائيل، وتأثرنا بجو الحرب؛ إذ كان لزاماً علينا أن نطفئ كل الأنوار في المنازل حتى لا نتعرض لقصف الطائرات الحربية أثناء الغارات الليلية، وذات ليلة سمعنا نبأ عن إغلاق مطار الإسكندرية لكننا لم نسمع دوي المناورات الحربية، ولم يكن لدينا تفاصيل عن المناوشات أو المعارك الدائرة.

في عهد جمال عبد الناصر، عاشت مصر عزلة سياسية عن الغرب، وانحازت للاتحاد السوفيتي، وسادت سياسة القمع لأي معارضة ضد النظام الحاكم.

كان فوزي في ذلك الوقت يداوم على حضور محاضرات بالجامعة، وكان له العديد من الأصدقاء وزملاء الدراسة من دول أخرى، وكانت له اتصالات خاصة مع بعض الطلاب الأجانب المميزين والمتفوقين دراسياً،

وكان من الطبيعي أن يكون لهؤلاء الطلاب أفكار ومعتقدات سياسية تتعارض مع النظام السياسي لعبد الناصر، لكن فوزي لم يكن له أي نشاط سياسي وكان يهتم فقط بدراسته ويرغب في الحصول على شهادته العلمية سريعاً، ورغم ذلك كانت علاقته بهؤلاء الطلاب كفيلة بجعله هدفاً للمخابرات السرية المصرية؛ فقد كان حارس العمارة التي نقطن فيها يتجسس علينا، لم يكن هناك أي داع أو أي سبب يجعلنا مصدراً للشك؛ فنحن نعيش حياة نمطية ولكن بعض أصدقاء فوزي كانوا ناشطين سياسيين، ربما كان لأحد أصدقاء فوزي يد في ذلك، الحقيقة مازالت مجهولة حتى يومنا هذا !.

في منتصف إحدى الليالي عام 1970 سمعنا فجأة أحداً يطرق باب شقتنا بطريقة عنيفة، فنهضنا مذعورين من الفراش، فتح فوزي الباب، ولحقت به بعد أن ارتديت ملابسي لاستبيان حقيقة الأمر، قالوا لي إن عليَّ تحضير حقيبة ملابس لزوجي، ولكني رفضت، إذ اعتقدت أن هناك خطأ ما ربما يكون في العنوان؛ وقلت لنفسي أن فوزي سيعود للمنزل في الصباح، وهكذا أخذوه معهم كما هو وهو يرتدي البيجاما، لقد كانوا يُسمون بـ"زوار الفجر".....!.

قضى فوزي أول ليلة في قسم الشرطة، وكانت الزنزانة تعج بالحشرات الزاحفة، ولم يستطع أحد من الرجال المقبوض عليهم أن يغمض له جفن، فقط جلسوا على بعض الكراسي الموجودة؛ لقد كانت الظروف مخيفة للغاية، وفي الصباح تم تعصيب أعينهم ونقلهم إلى محطه القطار، ولم يحادثهم أحد ولم يخبرهم أحد بالتهم الموجهه إليهم، لقد تم ترحيل فوزي إلى سجن القلعة بالقاهرة، ووضع في زنزانة انفرادي، وكان عليه أن يحتمل هذا الوضع طيلة شهر كامل، لم يكن في مقدوري الوصول إليه أو التحدث معه، ولقد شعرت

وقتها بالوحشة والوحدة الانعزالية، كاد القلق يفتك بي، وكانت الأفكار تتصارع بين جنبات عقلي؛ فربما لن أتمكن من رؤيته مجدداً، ماذا سيكون مصيري أنا وأولادي؟ ماذا لو لم يطلقوا سراحه؟ لقد كان شعوراً بغيضاً وتجربة قاسية ومن فرط قسوتها لا أتمنى أن يمر بها أي إنسان حتى لو كان هذا الإنسان ألد أعدائي.

كان الوقت يزحف ببطء مثل شخص كسيح، وكان فوزي في معاناة حقيقية يتم استجوابه بصورة يومية، وكان ينتابه إحساس أنه مراقب وأن هناك من يتلصص عليه من خلال ثقوب فى جدران الزنزانة، كان يقوم بغسل ملابسه يومياً لكي يحافظ على نظافته الشخصية من ناحية، ومن ناحية أخرى كي يجد شيئاً ليفعله، وهكذا مرت ساعات السجن كالدهر حتى جاءت لحظة الإفراج عنه، وحينما عاد للمنزل، لم يعد كسابق عهده، فقد اختلفت طبيعته وطباعه، لم يتحدث كثيراً عن تفاصيل الشهر الذي قضاه خلف القضبان، وكأنه أراد بذلك أن يطوي تلك الصفحة إلى الأبد وينسى ما تكبده منذ لحظة اعتقاله وحتى لحظة عودته، ولكنني- من منطلق عشرتي معه- أدركت أنه لم يعد زوجي الذي عرفته وأحببته وتزوجته، فقد أصبح صعب المراس، ولم يعد يفترض في الآخرين حسن النوايا، ولم يعد منطوياً على نفسه كما كان، بل وأصبح أكثر عصبية.

اختفى حارس العمارة الذي كان يراقبنا، فجأة وبدون مقدمات، ولم نره بعد ذلك مطلقاً.

اجتاز فوزي عام 1970 اختبارات السنة النهائية بكلية طب الأسنان- جامعة الإسكندرية وحصل على مؤهله الجامعي، وكان عليه أن يقضي أولاً فترة التكليف ويعمل في المستشفيات الحكومية براتب شهري يبلغ 30جنيهاً

مصرياً، أي ما يعادل 6 دولارات أمريكية في الوقت الراهن، ولكن هذا الراتب لم يكن ليكفي متطلبات المعيشة، كما أن المبلغ الذي حصلنا عليه من بيع السيارة المرسيدس كان قد أوشك على النفاد، ولحسن الحظ، أن أسرة فوزي كانت ميسورة الحال وكانت تساعدنا وإلا ما استطعنا أن نعيش، ما كان لدينا كان يكفي المعيشة ولكن لم يكن يكفي لفتح عيادة أسنان، كان علينا أن نفكر ملياً كي نجد وسيلة نحقق بها الاستقلال المادي، وكانت ألمانيا هي الفكرة التي لمعت وقتها في أذهاننا، وهكذا، سافرت وحدي إلى بلادي عام 1974، تاركة زوجي وأطفالي في الإسكندرية لأعاود العمل في مهنة الفراء، وفي نفس الوقت لأبحث لزوجي عن فرصة عمل، وبعد مضي ستة أشهر حضر فوزي إلى ألمانيا ليعمل في إحدى مكاتب مسح الأراضي، وتمكن من كسب مبلغ لا بأس به من المال، ولكنه لم يحقق طموحه بالعمل في مجاله كطبيب أسنان، وعدت أنا إلى أطفالي بالإسكندرية، وهكذا أمضينا عدة سنوات عانينا فيها من الفراق؛ هو في ألمانيا وأنا مع الأولاد في مصر، كي نتمكن من الحصول على دخل كاف للأسرة، وفيما بعد وجد فوزي وظيفة أخرى كطبيب أسنان عمل فيها لحساب أطباء أسنان آخرين، وكان علينا وقتها أن نتدبر أحوالنا ونقوم بتوفير جزء من الدخل الشهري كي نتمكن من فتح عيادة في مصر، ولكن كان هذا الحلم وقتها مازال بعيد المنال، وكان تحقيقه يحتاج بعض التضحية وكانت التضحية متمثلة في البعد والفراق؛ إذ كنا نقضي الصيف معاً في ألمانيا ونتنعم بضعة أسابيع بالسعادة، وبعد الإجازة أعود مع أولادي إلى مصر ويبقى فوزي ليعمل في ألمانيا، ويعاود الأولاد الذهاب إلى المدرسة، وهكذا كان من واجبي أن أتدبر بمفردي شؤون المعيشة في الإسكندرية دون زوجي ولم يكن هذا الوضع يسيراً عليَّ، وخصوصاً وأنا أجد صعوبة في التخاطب واستخدام اللغة، ولا أجد سبيلاً للاندماج والتعايش مع

المصريين، واستمر هذا الوضع إلى أن عاد فوزي إلى مصر عام 1979 بعد أن توفر معه مبلغ جيد من المال، وتمكن من فتح عيادة أسنان في مدينة المنصورة حيث تعيش أسرته التي كانت معروفة جداً لدى الجميع، وتمنينا لو نستفيد من تلك السمعة؛ كانت تلك فكرتي وقد سعدت جداً وشعرت بالفخر حين تحقق هذا الأمر ونجح العمل في العيادة بشكل جيد، وسارت الأمور كما نشتهي، وأخيراً أصبح لدينا دخل جيد وتحقق لنا الأمان المالي الذي يكفي لاستمرار حياتنا، وهكذا عشت في الإسكندرية مع أولادي الذين داوموا على حضور المدرسة، وكان فوزي يأتي إلينا في نهايات الأسبوع، ومضت حياتنا سلسة وجميلة، وما زلنا نقيم في شقتنا بالإسكندرية حتى يومنا هذا، ولكن خلال فترة إقامتنا بها كان علينا إجراء عدة إصلاحات بها بسبب الأضرار التي طالتها بفعل مياه الصرف الصحي، وهي المشكلة الرئيسية في العمارات السكنية بمصر، وتحدث نتيجة وجود خط مواسير صرف صحي مشترك لجميع الشقق السكنية الموجودة بالعقار؛ فعندما تنسد المواسير ينفجر الصرف الصحي داخل شقتنا، وحين تكررت هذه المشكلة فكرنا في أن يكون لنا خط مواسير صرف صحي مستقل كي نتفادى تكرار مثل هذا الأمر المقزز، وكانت المياه المتسخة تصب من الأدوات العليا وتهبط فوق غسيلي النظيف المنشور على الحبل لتلوثه، كل هذه المشاكل التي تبدو بسيطة كانت تشكل صعوبات ومصدراً للقلق، ولكن كان عليَّ أن أعتاد مثل هذه الأمور وألا أجعلها تثير أعصابي وغضبي لأن ذلك لن يعمل على حل المشاكل.

طوال فترة إقامتي في مصر كنت على اتصال بأسرتي، كنا نتواصل معهم ونزورهم بصفة منتظمة، توالت الأحداث على مر السنوات؛ إذ توفي زوج أمي منذ فترة طويلة، لكن أمي عاشت بعده لفترة حتى بلغت سن التسعين، ومنذ وفاتها عام 1991 لم أسافر إلى موطني ألمانيا، فقد انتابني الخوف ولم

أعد أشعر بالاطمئنان الذي كنت أشعر به في السابق، إذ تغيرت الظروف والأحوال كثيراً، ولكنني قررت في ديسمبر 2006 أن أسافر مع ابني إلى ألمانيا لزيارة أخي في هامبورج Hamburg وزيارة أختي في ليمبرج Lemberg، في الحقيقة أرغب في زيارتهما بشدة، وخاصة، بعد كل تلك السنوات التي شهدت افتراقنا عن بعضنا البعض، ذلك الفراق الذي لم يحد من قسوته سوى التواصل بشكل متقطع.

السؤال الذي أطرحه على نفسي: ما الذي أفتقده في ألمانيا؟

الحقيقة أنني لا أفتقد الكثير، فأنا لا أعاني من الحنين للوطن، فقط هناك بعض الأشياء القليلة التي أفتقدها مثل الخبز الألماني وسمك الرنجة، أول شيء أفعله عند زيارتي لألمانيا هو شراء علبة من " الرنجة المملحة "، ولقد أصبحت مع الأيام أجيد طبخ الأكل المصري، فأنا أحب تناول الملوخية والبامية وكل أنواع الخضروات، مع أن زوجي يحب الأكلات الخاصة بالمطبخ الألماني، لكن أولادي يحبون الأكلات المصرية، فهما متفقان على أن الأكل المصري وحده هو الذي يشعرهم بالشبع والامتلاء، أما الأكل الألماني فيشعرون بعده بالجوع السريع، أولادي يجيدون التحدث باللغة الألمانية، ولكنهم يعتبرون أنفسهم مصريين، أما أنا فما زلت أشعر أنني ألمانية، وهذا لن يتغير مع الزمن.

اعتنقت الإسلام عام 1980؛ وكانت لدي أسبابي المرتبطة بالحياة العملية، ولكني أقدمت على اتخاذ مثل هذا القرار بملء إرادتي، فالإنسان غير المسلم في مصر عليه أن يتقبل قيوداً شرعية كثيرة منها سقوط أحقيته في أن يرث مسلماً، وانعدام حقه في الوصاية على أولاده، وهذا في حد ذاته أكبر المساوئ.

يتسم زوجي بدرجة عالية من التسامح الديني، وهو أبعد ما يكون عن التعصب، ولم يجبرني أبداً على ارتداء إيشارب، وكان يحترم معتقداتي لدرجة

كبيرة، وقد نشأ أولادي مسلمين وتربوا تربية إسلامية ولكنهما، مثل والدهما، متسامحان مع الأديان الأخرى.

أنهى الابنان تعليمهما الأساسي بالإسكندرية، بعد ذلك اتجه ابني الأكبر لدراسة إدارة الأعمال في جامعة الإسكندرية ثم تزوج وأثمر زواجه عن طفلين: نديم 8 سنوات وساندرا 6 سنوات، ولكن للأسف فقد انتهى هذا الزواج ـ الذي دام 11 عاماً ـ بالطلاق، وهكذا عاد ابني الأكبر ليعيش معنا، بينما يعيش الطفلان مع والدتهما بالإسكندرية، ولحسن الحظ أن علاقتي بمطلقة إبني طيبة وتسمح لي برؤية أحفادي، أما ابني الأصغر فقد درس في الأكاديمية السويسرية للسياحة بالقاهرة، ويشغل حالياً وظيفة منظم رحلات "جولات" سياحية بالغردقة، وقد تزوج ولكنه لم ينجب حتى الآن، وبالمناسبة، كان زواج أبنائي بناء على اختيارهما ولم يحدث أى تدخل من جانبي أو من جانب والدهما، ونحن في ذلك لم نتبع العرف السائد في مصر، إذ لا يزال زواج الأبناء الذي يقوم بترتيبه الآباء شائعاً، فالأخلاق الصارمة تمنع اختلاط الجنسين، ولا تسمح التقاليد بإباحة المقابلات الخاصة بين الشباب، والشابات، وبالتالي لا يمكن أن يتم التعارف الكامل وكيف ذلك إذا لم يُسمح لهم بالمواعدة ؟ وهكذا يكون تدخل الأبوين مبرراً لإجراء الترتيبات الخاصة بالخطوبة والزواج.

هناك محاذير صريحة في المجتمع المصري، إذ لا يباح للشباب الاختلاط ببعضهم البعض أو قضاء الليل معاً خارج إطار الزواج، وإن حدث ذلك يصبح الأمر فضيحة أخلاقية، وربما تتدخل الشرطة ويتطور الأمر بصورة مزعجة، والفنادق أيضاً حريصة على التحقق من أوراق الزوجين والاطلاع على ما يثبت صحة زواجهما؛ من إثبات تحقيق الشخصية والتأكد من الحالة الاجتماعية.

مازلنا نعيش في نفس الشقة التي استأجرناها في مدينة الإسكندرية منذ عام 1966 وحتى يومنا هذا، ونشعر بالارتياح والاطمئنان، وما يزال فوزي يعمل طبيب أسنان في عيادته بالمنصورة، وقته مقسم وفقاً لنظام معين؛ يقضي ثلاثة أيام بالمنصورة ليتابع العمل بالعيادة، ويعود إلى الإسكندرية ليقضي معنا باقي أيام الأسبوع، حالياً يبلغ فوزي من العمر 68عاماً ويحاول بيع العيادة.

أنا مداومة على ممارسة رياضة الجري بصفة منتظمة بنادي سبورتينج منذ عامين، وحين يكون زوجي بالإسكندرية نذهب للجري معاً، وفي الآونة الأخيرة بدأت حفيدتي في ممارسة الرياضة معي وتشعر بالزهو حين ترتدي ملابس رياضية مثل التي أرتديها (بنطلون رياضي وليس شورت، وقميص" تي شيرت"، وكاب)، وبالمناسبة، يعتقد الناس أنها ابنتي وليست حفيدتي؛ الأمر الذي يشعرني بالفخر والسعادة.

لقد تحسنت لغتي العربية مع مرور السنين، ولكنها للأسف لم تتعد إطار مفردات الطبخ، ومع ذلك أستطيع أن أتدبر أموري بشكل جيد، إذ يمكنني التسوق والتواصل مع الناس العاديين، ولكن القصور اللغوي الذي لا طالما عانيت منه قد منعني دوماً من الدخول في حوارات عميقة، ودائماً ما أستخدم اللغة الألمانية في حديثي مع فوزي ومع بعض المصريين، هذا بالإضافة إلى وجود فارق حضاري وثقافي بين المجتمعات الأوروبية وبين المجتمع المصري، فالمصريون مختلفون عنا، إذ تتجه اهتماماتهم نحو أشياء أخرى، لذلك نادراً ما نجد موضوعات مشتركة نتحدث فيها معهم، ناهيك عن المناقشة فيها، مثل الموضوعات الدينية والعائلية التي لا يمكن أن نتبادل فيها الرأي، لذلك تظل حواراتنا سطحية، أما الموضوعات الجادة فلا نتطرق إليها، كما أن هناك بعض العادات الخاصة التي لم نألفها في ألمانيا وهي أن الوعود هنا كثيرة، ولكن لا يمكن تحقيقها، فنادراً ما تجد ضمن المصريين من

يحافظ على مواعيده، وهذا الأمر عايشته بنفسي من خلال تجاربي الشخصية وخبراتي المكتسبة، لذلك، لا يوجد بين صديقاتي أي مصرية، أما بالنسبة لزوجي فوزي، فله العديد من الصداقات.

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن: ماذا لو عاد بي الزمن إلى الوراء؟ هل كنت لأختار نفس الحياة ؟ هل كنت لأرحل تاركة بلادي وأقضي بقية عمري في مصر؟ والإجابة : نعم أعتقد ذلك.

فمصر ـ برغم كل شيء، وبرغم المعاناة التي صادفتها ـ واحة الاستقرار التي اعتدت الحياة فيها، وهي أرض الشمس المشرقة التي تطرح بأشعتها على رمال الشاطئ الذهبية كل صباح، وهي النسمات العليلة المنعشة في الأمسيات، لقد كنت محظوظة إذ كانت إقامتي في الإسكندرية عروس البحر الأبيض المتوسط، ذات الجو المعتدل حتى في منتصف الصيف، لقد قضيت فيها أربعين عاماً، وكنت أشعر وأنا أعيش في مصر أنني أعيش في وطني ولم أتصور يوماً أنني أستطيع الحياة في بلد آخر، لقد أخذت حياتي منعطفاً آخر عما كنت أتخيله وأحسبه، ولكنها أصبحت أكثر ثراءً وتنوعاً، فعندما كنت صغيرة لم أتوقع مثل هذه الحياة الخصبة بالمعاني والأشياء، ما أشعر به يصعب على غيري إدراكه، وخصوصاً الأشخاص الذين كان مقدراً لهم أن يعيشوا في بلد واحد فقط ـ وما أكثرهم ـ أما أنا فحياتي كانت تعني خلاصة التجربة في عالمين مختلفين في الآراء والثقافات والأعراف، كل تلك الفوارق ساهمت في بلورة شخصيتي وكل الانطباعات الجديدة التي عايشتها تركت بصماتها على مدار السنوات العديدة الماضية، لقد اختلفت الرؤية الذاتية عن ذي قبل، ولو عاد بي الزمن للوراء لاخترت نفس الحياة ونفس شريك الحياة، فأنا زوجة رجل مصري، وحياتي مع زوجي، وحياتي هي مصر.....

*****

الفصل الرابع

مصر .. وطني الثاني

MARGARETE – مرجريت

مارجريت Margarete سيدة تتمتع بقوة الشخصية؛ يبدو ذلك واضحاً من خلال كلماتها الواثقة التي تخلو من أي تلعثم أو تردد، لقد كانت أول من تطوعت وبادرت كي تروي قصتها، وعلى الرغم من كونها صغيرة الجسم، إلا أنها تتمتع بقدر عال من الثقة والاعتزاز بالنفس، وها هي قصتها :

قابلت زوج المستقبل عام 1962، وكنت أبلغ وقتها 23 عاماً، نشأت في مدينة صغيرة بالنمسا، وكنت أشغل وظيفة سكرتيرة في شركة توزيع ورق ومستلزمات طباعة بالجملة، وكانت لدي العديد من الهوايات، وكنت أمارس رياضة التزلج على الجليد بصفة منتظمة، وأغني في الكورس؛ لقد كانت الموسيقى ـ بالفعل ـ جزءاً أساسياً من حياتي، لذلك أحببت حضور الحفلات الموسيقية، وعروض الأوبرا.

تعرفت إحدى صديقاتي على شاب مصري، وكانا يوجهان لي الدعوى لأشاركهما في حضور الحفلات؛ وذات مساء ذهبنا لحضور إحدى الحفلات الخاصة التي كانت – أقل ما توصف أنها ـ فظيعة؛ والمدعون كانوا من الفظاعة بحيث ألقوا بظلال القبح على المكان؛ إذ أثقلوا في احتساء الخمور حتى وصلوا إلى درجة الثمالة، وبدأ البعض منهم يأتي بتصرفات مثيرة للاشمئزاز، فمثلاً ظهر رجل سكران يترنح ثم رقد في حوض للنباتات؛ لقد كان منظره غريبًا ولا يبعث على الضحك، انسحبت إلى الشرفة، وهناك وجدت شاباً يقف بمفرده يدخن سيجارة، لابد وأنه قد شعر مثلي بالضيق من جو الحفلة الخانق، وبدأنا حواراً استمر طويلاً، كان هذا الشاب هو زوج المستقبل وكان اسمه محمد.

خرجنا من الحفل ومشينا في الشارع على الأقدام، فكلانا وقتها لم يكن

يملك سيارة، وطال بنا الحديث حتى وصلنا إلى آخر محطة في خط الترام، لقد كان هناك الكثير الذي تحدثنا فيه، ولقد كان حواره ممتعاً وخاصة حين كان يتحدث عن تاريخ مصر العريقة، وطبيعتها الجغرافية الأخاذة، لقد كنت بالفعل منبهرة.

تعددت اللقاءات التي جمعت بيننا وشهدت الأيام التالية المزيد من الأحاديث الشيقة، كنا نجلس في أحد مقاهي المدينة بصفة منتظمة، لقد كان محمد بالنسبة لي شخصية فريدة، فلم يسبق لي أن قابلت شخصاً وشعرت تجاهه مثل هذا القدر من الارتياح في الحديث وهكذا؛ استمرت اللقاءات بيننا لأسابيع طويلة شهدت خلالها أسعد اللحظات وأمتع الحوارات.

كنت أعيش مع جدتي في شقة كبيرة بعد رحيل أبي وأمي عن عالمنا، لقد كانت جدتي هي عميدة الأسرة بلا منازع، وهكذا كان من الضروري أن أقدم لها صديقي الجديد، فدعوت محمد إلى المنزل لشرب فنجان من القهوة، ولكن الأمر صار على نحو غريب، فبعد أن انصرف محمد، أخذت المرأة العجوز تهذي بعبارات غير مفهومة إذ كانت تقول : " يا إلهي!! ..... أعتقد أن هذا الرجل الوثني قد خطف التفاحة "، وفي اليوم التالي ظننت أنها فقدت رطلاً من السكر، وفي وقت لاحق، ظننت أنها فقدت بعض سراويلها، وهكذا اتضح لي أن جدتي التي كانت تتسم بالحكمة والكبرياء قد طالها عامل الزمن وأصابها شيء من الخرف كعرض من أعراض الشيخوخة، وهكذا أدركت أن محاولة التقريب بينها وبين محمد تكاد تكون مستحيلة، ولكن هذا الأمر لم يحول دون رؤيتي لمحمد بشكل منتظم.

كان محمد شابًا جديرًا بالاحترام وعقلانيًا؛ لقد اصطحبني إلى مصر عدة مرات قبل زواجنا، لقد أراد لي أن أكون على دراية تامة بوطنه مصر،

وأراد أن أكون فكرتي بناء على انطباعي الشخصي فيما يختص بأسرته وأقاربه، وهكذا يكون قراري بالزواج منه عن اقتناع وموضوعية، وبالفعل لقد سهل ذلك عليَّ الأمر كثيراً.

في ذلك الوقت كان والداه لا يزالان على قيد الحياة، وحين التقيت بهما طلب مني محمد ـ كتقليد مصري متبع في تلك الفترة ـ أن أقبل يد والده، لقد أراد أن يعطي انطباعاً بالتبجيل والاحترام للرجل الكبير، ويالها من خير بداية لكسر الجليد والتمهيد لما هو آت، ولكن هذا الأمر لم يلاق استحساني ولم أشعر حياله بالارتياح، وقلت في قرارة نفسي: "لأجل الرب، يا صاحب الفخامة والجلالة"! وعلى الرغم من ذلك، كنت مضطرة للقيام بهذا الأمر وأقدمت على تقبيل يده......لكن القبلة نفسها هبطت في الهواء، فلم أطبعها فوق يده، ولكنني – رغم ذلك ـ قوبلت بترحاب ومشاعر دافئة، لقد كان والد زوجي شخصية مرموقة، إذ شغل عدة مناصب رسمية في عهد الملك فاروق، أولاً عُين حكمدار "حاكم إقليم"، ثم محافظ لقنا في صعيد مصر، ثم ترقى بعد ذلك ليكون محافظاً للشرقية (الزقازيق) في منطقة الدلتا، ثم تم تعيينه مديراً للكلية الحربية في القاهرة، وطوال تلك المسيرة المهنية ظل والد محمد ينتقل بين عدة أماكن مختلفة، وهكذا شهدت طفولة محمد تغيرًا مستمرًا في أماكن الدراسة وزُملاء الدراسة.

لقد كانت أسرة زوجي ميسورة الحال، يقيمون في بيت كبير في حي الزيتون بالقاهرة مليء بالخدم والحرس، ويبلغ عدد إخوة زوجي ستة، تلقت البنات تعليمهم بمدارس فرنسية، أما الصبية فقد تلقوا تعليمهم في مدارس إنجليزية، إذ كان يتم الفصل بين البنين والبنات فى المرحلة الإعدادية، ومازالت عملية الفصل بين الجنسين سارية في مدارس مصر حتى يومنا هذا.

بعد زيارتنا الأولى لمصر، رجعنا إلى النمسا واستمرت علاقة الحب التي جمعت بيننا عامين حتى قررنا الزواج، كانت جدتي قد رحلت عن عالمنا، وبالتالي لم يعد هناك أي اعتراضات تحول دون إتمام زواجنا، ولكن ظهرت أمامي عقبة أثناء وجودي في مكتب الزواج المدني، حين أطلعني أمين السجل على بعض المستندات التي تفيد بأن زوجي المسلم يملك حق الزواج من ثلاث نساء أخريات في مصر، وأشار إليَّ بصورة ضمنية أن هذا الزواج من الممكن أن يجلب لي المتاعب بدلاً من السعادة، ونصحني بأن أستشير محامياً حول هذا الشأن، وبالفعل استشرت محامياً، ولكن رأيه لم يثنيني عن عزمي، ولم يجعلني أتخلى عن فكرة ارتباطي الشرعي بمحمد، وهكذا تخطينا تلك العقبات، وأقمنا حفل زفاف عادي مثل أي زوجين عاديين بعد إتمام مراسم الزواج المدني، وارتديت يومها بدلة سوداء (تلك التي كنت أرتديها عند ذهابي إلى الأوبرا)، وارتدى محمد بدلة سوداء، وقد كان موعد زفافنا يوم 28 ديسمبر 1965، فلم يكن من الممكن اختيار موعد قبل ذلك نظراً لانشغالي في موسم الكريسماس بأعمال البيع، ولقد اقتصر الحفل الصغير الذي أقمناه على أصدقائي وزملاء محمد في الجامعة، وأعقب ذلك ذهابنا جميعاً للعشاء، ثم عدنا أنا ومحمد إلى شقتنا ـ لقد اقتصر زفافنا على ذلك ـ وفي اليوم التالي ذهبنا إلى فيينا Vienna مع بعض الأصدقاء، ورقصنا جميعاً في حفل كبير أقيم بمناسبة ليلة رأس السنة وشاهدنا عرض الجليد ثم ذهبنا إلى الأوبرا، وكان يوم 7 يناير هو يوم عودتنا من رحلة شهر العسل القصير.

بعد زواجي بفترة قصيرة، قمت بتغيير عملي والتحقت بوظيفة في وكالة للسفر والسياحة، لقد كانت بالنسبة لي أفضل وظيفة في العالم!

وكان يتحتم عليَّ تنظيم مختلف أنواع الرحلات؛ الجوية والبحرية لجميع أنحاء العالم، وكان يتطلب الأمر أن أقوم بالعديد من الرحلات؛ إذ لا

يمكن للمرء الترويج لسلعة لا يعرف عنها شيئاً، فكنت دائماً على سفر من شهر أكتوبر وحتى فبراير من كل عام، وكانت هناك بعض الأماكن التي كنت أسافر إليها بصفة منتظمة مثل : البحر الكاريبي، جنوب أفريقيا، أسبانيا، وجزر الكناري .... إلخ.

لقد زرت عده فنادق وقمت بكتابة عدة مقالات عن رحلاتي وما اكتسبته من تجارب، وقضيت في تلك الرحلات أوقاتاً سعيدة.

في ذلك الوقت أكمل محمد دراسته وحصل على شهادته الجامعية، وبدأ العمل كمهندس ميكانيكي في ستيرمارك Steier mark؛ على بعد 150 كم من مدينتنا، وكنا نقيم في الشقة التي ورثتها عن جدتي وأبويَّ، وكان زوجي محمد يضطر للسفر للعمل طوال الأسبوع، ولكن في العطلة الأسبوعية "الجمعة والسبت" يعود للبيت، ثم يستأنف عمله يوم الأحد، أما أنا فكان عملي يشغل كل وقتي تقريباً، فكنت دائماً على سفر، وفيما عدا ذلك، عشنا حياتنا مثل زوجين شابين، نخرج معاً ونقابل الأصدقاء ونشرب الخمر أحياناً، أما أثناء سفرياتي فلا أتناول كثيراً من الكحول، لدرجة أن زميلاتي في العمل كانوا يطلقون علي لقب " القديسة الفاضلة".

لم يكن للدين دور جوهري في حياتنا الزوجية، فأنا نشأت مسيحية، وزوجي رجل مسلم [90٪ من سكان مصر من المسلمين وحوالي 10٪ من السكان من الأقباط]، ولكن الاختلاف المذهبي العقائدى لم يمثل بالنسبة لنا أي مشكلة على الإطلاق ولم يفسد للود قضية، ولكن عندما زاد راتبي، نقلتني الكنيسة إلى شريحة ضريبية أعلى، وهذا يعني أن أدفع مبالغ ضريبية إضافية، فذهبت إلى مكتب ضرائب الكنيسة، وطالبت بإلغاء زيادة الضريبة، لكن المكتب رفض طلبي بشدة، ناقشت الأمر معهم، ولكنى لم أقتنع برأيهم،

ثم قررت أن أترك الكنيسة، و لم أضع قدمي - تحت أي ظرف من الظروف- في مكتب ضرائب الكنيسة مرة أخرى، وبعد ذلك بفترة وجيزة ذهبت إلى أقرب مكتب توثيق وهجرت الكنيسة بصفة رسمية، ومع ذلك لم يكن الدين يمثل أي مشكلة بالنسبة لحياتنا الزوجية، لقد كان محمد سعيداً للغاية، أما أنا فقد انتابتني حالة من الاضطراب النفسي والبلبلة الفكرية وامتلأ قلبي بالشك، وأدركت أن الجانب الروحي يمثل قيمة هامة بالنسبة لي على المستوى الشخصي، ومن هنا جاءت ضرورة انتمائي إلى مذهب ديني، وبعد العديد من المناقشات التي جمعت بيني وبين زوجي، سألني إن كنت أؤمن بأن محمدًا نبي؟ فأجبته :

- " نعم، بالطبع، فلقد كان هناك دائماً أنبياء مثل موسى أو إخناتون الذين يؤمنون بإله واحد والأمر كذلك بالنسبة لمحمد فهو أيضاً نبي".

فسألني مجدداً :

- " إذن فأنت تؤمنين بإله واحد وأن محمداً نبي؟

ثم أردف قائلاً:

- " إذن فأنت بالفعل مسلمة، فليس هناك ما هو أهم من ذلك، فبعد هذا الإيمان لا يوجد إلا بعض المبادئ والقواعد التي يستوجب على المسلم الحق الالتزام بها ".

ذهبنا- بعد ذلك- إلى السفارة المصرية في فيينا Vienna لكي يتم توثيق اعتناقي للإسلام بصورة رسمية؛ حيث قمت بترديد الشهادتين وراء زوجي محمد، ووقعت على الوثيقة، إضافة لذلك كان يجب أن أختار لنفسي اسما عربياً، وإن كان هذا ليس إجبارياً، ولكنني أحبذ اتباع الشعائر

فاخترت اسم عزة، وكان هذا الاسم هو اسم شقيقة زوجي التي كنت أحبها وأفضلها بشكل خاص.

بعد ذلك التحق محمد للعمل كمهندس في البلدة التي نقيم فيها، وهكذا لم يكن مطالباً بالسفر لممارسة عمله كما كان في السابق، وفي وقت فراغه ظل يتردد هو وبعض من أصحابه الأجانب على أحد المراكز الإسلامية، ولقد أصبح هذا المركز ـ فيما بعد ـ ملتقى الصحبة لجميع المسلمين وعائلاتهم، والجدير بالذكر أن محمدًا اكتسب الجنسية النمساوية.

في ذلك الوقت كنا على استعداد للإنجاب، بعد استقرار أوضاعنا، وكان علي الالتزام بالراحة في المنزل بعد ثبوت الحمل، وذلك بناء على أوامر الطبيب الذي رفض أن يعطيني التطعيمات الضرورية للسفر، وهكذا للأسف لم أتمكن من السفر في آخر رحلة لي في العمل وكانت وجهتها كينيا Kenya، ولكن عملي في وكالة السياحة استمر لمدة ستة أشهر قبل الولادة، ثم بدأت فترة الراحة؛ التي يطلقون عليها في أمريكا "إجازة ولادة".

رزقنا عام 1973 بمولودة أسميناها ناديا، ولقد تغيرت حياتي تماماً بعد ولادتها، إذ كان لزاماً على البقاء في المنزل لرعاية الطفلة، واستمر محمد في مزاولة عمله، وهكذا اعتمدت على نفسي بصورة كلية، وخصوصاً بعد وفاة جدتي، وعدم وجود أقارب لي يعيشون بالقرب مني، في واقع الأمر، كان عليَّ أن أدير دفة حياتي دون أن أستعين بأي مساعدة من الجدات أو الجيران، ومضى كل شيء في سهولة وسلاسة، ولكن يبقى القول بأنني افتقدت عملي وزملائي والرحلات الكثيرة التي كانت تمتعني وتستهويني، وعندما بلغت ناديا عامين من عمرها، اتصل بي رئيسي في وكالة السفر والسياحة، يرجوني العودة لكي أعمل مجدداً ولي مطلق الحرية أن أختار العمل بنظام الساعة أو

اليوم، لقد كان بالفعل في أشد الحاجة إلى عودتي وكان شديد الإلحاح، الأمر الذي جعلني أفكر في العودة، ووجدت حضانة أطفال في مركز رعاية نهاري أستطيع أن أترك ابنتي فيه، وكنت مسرورة بالعودة للعمل، ولكن للأسف لم يستمر عملي طويلاً، والسبب في ذلك، يرجع إلى أن ابنتي ناديا كانت كثيراً ما تصاب بالعدوى من زملائها في الحضانة؛ فمثلاً لو ذهبت ثلاثة أيام إلى الحضانة بدار الرعاية أضطر لملازمتها في المنزل لمدة يومين بسبب مرضها، ولما تكرر الأمر، واجهت نفسي بالحقيقة، إذ كان من المستحيل استمرار مثل هذا الوضع وبناءً عليه قدمت استقالتي من العمل وكنت متأثرة للغاية ولكن كان عليَّ ترك العمل رغم أنفي.

قلت في نفسي إن بقائي في المنزل أمر لابد منه وحالياً معي طفلة واحدة ولا أستطيع الخروج للعمل بأي حال من الأحوال، ونفس الوضع سوف يتكرر مع الطفل الثاني، فحملت وأنجبت ابنتنا الثانية ياسمين عام 1976، وهكذا زادت مسئولياتي وأصبحت أكثر انشغالاً عن ذي قبل، حيث أضيفت لأعبائي مهام جديدة منها التعليم فى فترة " ما قبل – المدرسة "، دروس البيانو، دروس الباليه، والتزلج على الجليد، لقد كنا أسرة سعيدة، ووقتها لم يتراءى لنا حلم العودة إلى مصر، ومضت الحياة هكذا حتى عام 1983، حين بدأت الشركة التي يعمل فيها زوجي تعاني من مشاكل عديدة؛ حيث تعطلت مشاريع الشركة في العراق و تشيكوسلوفاكيا، وتعددت المشاكل وكثرت الفواتير المتأخرة المستحقة السداد، وبدأ تسريح المزيد والمزيد من العاملين؛ في بداية الأمر تم تسريح الموظفين الشباب الذين لم يكن لديهم أسر بعد، ثم بعد ذلك تم تسريح ذوي الخبرة، وهكذا، وبدون مقدمات، أصبح زوجي محمد بلا عمل وهو في الخمسين من العمر.

كان من الطبيعي أن نطرق جميع الأبواب، ولقد حاول جميع

الأصدقاء والمعارف أن يساعدونا في إيجاد عمل، حتى أنني طرقت باب عمدة المدينة ليساعدنا، واستطاع محمد أن يجد وظيفة ولكن براتب مهندس مبتدئ، ولكن الراتب لم يكن ليكفي احتياجات المعيشة، وهكذا، بدا الأمر مستحيلاً، وكاد الوضع يدفعنا للجنون، حتى وصلتنا رسالة من عائلة محمد يقولون له فيها : "عد إلى مصر، فالعمل هنا متوفر جداً، ويمكننا أن نساعدك في العثور على شقة ".

كان لدى أحد أشقاء محمد شقة وكان يعمل في السعودية، وهكذا بدأ محمد يفكر في العودة إلى وطنه، وخاصة وقد بدا لنا أن سوق العمل في النمسا لن ينتعش على المدى القريب، وكان علينا أن نستعد للعودة، ولكن التجهيز لذلك تطلب منا بعض الوقت، قمنا بتأجير شقتنا من الباطن، إذ كان لي أن أحسب حساب احتمال العودة للنمسا مجدداً، لقد كان عليَّ أن أكون مستعدة لمواجهة أي شيء، ولكن الأمر الأكيد هو أننا كنا قادرين على تدبير أمورنا في مصر.

في ذلك الوقت أنهت ابنتنا ناديا Nadia الصف الرابع، وبدأنا نبحث عن مدرسة ألمانية في الإسكندرية وقيل لي إن التقديم للمدارس يبدأ في أغسطس، لكن للأسف كلتا الطفلتين لا تتحدثان العربية، وقد حاول زوجي بطريقته الخاصة أن يعلمهما اللغة العربية باستخدام البطاقات المصورة، ولكن تلك الطريقة لم تؤت ثمارها كما ينبغي؛ لأن تعليم اللغة العربية صعب، لذلك جاءت النتيجة غير مجدية إلا من بعض الأسماء.

وشهد صيف 1984 عودتنا إلى مصر، حملنا حقائبنا والكثير من الأمتعة ونزلنا في البداية إلى الإسكندرية وعشنا لدى شقيقة محمد، وكان والد زوجي قد توفي قبل بضعة سنوات، وقام أشقاء محمد ببيع الفيلا الجميلة القائمة في حي

الزيتـون، ولكـن ابـنتيّ لم تـشعرا بـالراحـة ولم تنعمـا بمـساحة مـن الحريـة كـسابق عهدهما في النمسا، ففي بيت عمتهما كانتا تجلسان في غرفة الضيوف أو غرفة المعيشة ويغلبهمـا الـشعور بالملل، وبجانـب ذلـك لم يـستطع زوجـي أن يتـأقلم في بلده بعد أن أمضى أكثر من 25 عاماً في النمسا؛ لقد عـانى الكثير من المتاعب والصعوبات؛ فالزمن لا يتوقف والأمور في تغيير مستمر، فعندما يغيـب المرء عن بلده لفترة طويلة ثم يعود إليها بعد غياب، يستحضر في ذهنه صورة ورديـة لكثير من الأمور، ثم ما يلبث أن يفاجـأ بأن كل شيء قد تغير، هذا بـالضبط مـا شعر به محمد حين عاد إلى مصر؛ لقد وجد التغيير طال كل شيء.

ذات مـرة فكـرت أن أذهـب للـسباحة، وكـان مـن الطبيعـي أن يكـون زوجي محمـد هـو أول شـخص أسـأله إلى أيـن أذهـب وكيـف الـسبيل؟ ولكنـه لم يعرف، فسألت شقيقته فنصحتني بأن أركب الترام المتجه إلى شاطئ سـان ستيفانوا حيث يمكنني السباحة، في البداية ركبت الترام الخطأ، ولكن بعض الأشـخاص اللطفـاء ـحـين سـألتهم ـ أرشدونـي للاتجـاه الـصحيح، وبالفعـل وصلت إلى وجهتـي ووجدت ضالتي، وأدركت منذ ذلك الحين، أن عليّ الاعتماد على نفسي لأن محمدًا لا يعرف أكثر مني؛ بسبب سنوات الغربـة، وهكـذا كـان عليّ التصرف بمفردي.

في نفس الوقت، كان لدى شقيق محمد شقة صغيرة أقمنـا فيهـا بعـد أن تم تجديدها، وقد نبهنـي بـأن المنظر الجميل الذي يطل علـى الحديقـة ـ والذي أتـذكره مـن زياراتنـا الـسابقة لمصر ـ لم يعـد موجـوداً؛ وحين وصلنـا إلى الـشقة للمرة الأولى بعد عودتنا كان الأمر بالنسبة ليّ بمثابـة الـصدمة، فلم أتـصور أن المشهد أصبح بهذا السوء، فإذا نظرنا من النافذة نرى جداراً على بعـد خمسة أقدام، ولا نكاد نرى السماء إلا مـن خلال نافذة واحدة، وأسـفل شـقتنا توجد

شقة تصدر منها أصوات مزعجة مثل أصوات دجاج، و صخب يصدر من جهاز تليفزيون وضوضاء، لقد كان أمراً مزعجاً وخاصة وأنني معتادة على النوم مبكراً منذ كنت في ألمانيا كنت آوي للفراش في التاسعة والنصف مساءً، ولكن ذلك بات أمرا صعباً للغاية في ظل تلك الأجواء الصاخبة.

لم يجد زوجي عملاً يتلاءم مع مركزه، لقد كانت الظروف في مصر أصعب من تلك التي تركناها في النمسا، صحيح أنه وجد عملاً في مقابل نحو 200جنيه، وهو مبلغ لم يكن ليكفي سد احتياجات أسرة، كما أنه راتب ضئيل في نظر الكثير من المصريين، إذ كانت الرواتب ـ بصفة عامة ـ ضعيفة للغاية ولا تكفي لإطعام عائلة، مما دفع محمد إلى السفر بصحبة أخيه إلى الظهران Dhahran، بالمملكة العربية السعودية Saudi Arabia، وهناك وجد فرصة عمل أفضل في شركة بريطانية، ثم عاد لاستخراج تأشيرة عمل وبقي عدة أسابيع، ثم سافر مرة أخرى وبقينا وحدنا بالإسكندرية، ولكن أسرته لم تر أمر بقائي في المنزل مع طفلتي وحدنا شيئاً مقبولاً، وخصوصاً أنني أجنبية، ولكن لم يكن هناك أمامنا خيار، فبعد استقرارنا لم نجد صعوبة في التأقلم مع مستجدات الحياة، إذ كان عليَّ في السابق أن أتكيفِ بمفردي على روتين الحياة اليومي في النمسا، وفي مصر يجب أن يكون الأمر مماثلاً، فأنا والأطفال يمكننا أن نتعايش وفقاً لهذا النسق.

كان عليَّ ـ في ذلك الوقت ـ أن أقوم بإلحاق طفلتيَّ بأحد المدارس، ووقع اختياري على المدرسة الألمانية؛ كانت ناديا تبلغ من العمر أحد عشر عاماً وكانت أختها ياسمين تبلغ ثمانية أعوام، ونظراً لأن الطفلتين لا تتحدثان اللغة العربية، وجدت الأخت كارولا Sister Carola مديرة المدرسة أن قبول الطفلتين أمر صعب، لأن المدرسة الألمانية كانت تشترط نجاح

الأطفال في امتحان اللغة العربية، في نصف العام وآخر العام، وعلى الرغم من ذلك تم قبول الطفلتين، حيث التحقت ابنتي الكبرى بالصف الخامس الابتدائي، والصغرى بالصف الثاني، وقد استطاعت ابنتاي تعلم ما فاتهما من منهج اللغة العربية بمساعدة مدرسة خصوصية، في ذلك الوقت كانت تتملكني رغبة في تعلم اللغة العربية، كما كان لدى شغف خاص أن أتقن التعبيرات المستخدمة في الحياة اليومية، لقد كان الأمر مهما بالنسبة لي، لذلك اشتركت في البداية مع ابنتي في الدروس، واستلزم الأمر أن يتعلما اللغة العربية الفصحى وقواعد النحو والصرف، وكانت تلك المرحلة هي بداية توقفي حيث استسلمت بسرعة، ولم تعد لدي الرغبة في مواصلة تعلمي معهم، حيث كان لدي الكثير من المهام اليومية التي يتوجب عليَّ أداؤها، كما أن تعلم اللغة العربية الفصحى لن يفيدني في تعاملاتي اليومية، لأن اللغة الفصحى تستخدم بشكل خاص؛ فهي لغة القرآن الكريم، ولغة الأدب والصحافة، والكتب الدراسية، كما أنها لغة العرب جميعاً؛ إذ تجد الناس في المملكة العربية السعودية، المغرب، وسوريا، وغيرها من البلدان العربية يتحدثون ويتواصلون ويتعاملون فيما بينهم بهذه اللغة، كما أن اللهجة المصرية مفهومة وتجد قبولاً واستحساناً في معظم البلدان، لذلك فضلت الانضمام لتلقي دروس في اللغة العامية فقط، وأبليت بلاءً حسناً، وحالياً يمكنني أن أتواصل مع الآخرين بصورة جيدة.

كان عليَّ أن أواجه بعض المشكلات، وكان الزي المدرسي من ضمن تلك المشكلات، إذ كان لزاماً علي أن أشتري جيب وبلوزة وحذاء أسود وجوارب بيضاء! وكانت ابنتي الكبرى تحتاج حذاء مقاس "7"، وحين وجدت الأحذية السوداء ذات النعل المنخفض لم أجد الجوارب البيضاء، إلا نوعيات رديئة الصنع في محلات باتا للأحذية، وحين رأيت أطفالاً آخرين يرتدون

جوارب بيضاء، سألتهم على الفور، من أين اشتريتم هذه، قالوا لي: "من اليونان" ولم أكن أدري وقتها أن اليونان هي نفسها Greece إلا حينما أوضحوا لي الأمر حين طرحت عليهم سؤالي للمرة الثانية، وقالوا لي إن لديهم جوارب أخرى من أمريكا، ومن المملكة العربية السعودية، فهذه الأشياء لم تكن متوافرة في مصر وقتها، وهكذا، كتبت لزوجي وطلبت منه أن يشتري لنا هذه الجوارب من المملكة العربية السعودية، كما أرسلت له قائمة طويلة من الطلبات التي نحتاجها، لقد كان عمله يسمح له بالعودة إلى مصر كل ثلاثة أشهر ليقضي معنا الإجازة في الإسكندرية وهي بضعة أسابيع، وكان أثناء قدومه في شهر ديسمبر من كل عام يحتاج لحقيبة سفر إضافية كي يحمل فيها القائمة التي أرسلتها له.

شهد عام 1984 حدوث أزمة في السلع الغذائية، وكان يتم توزيع الكثير من مواد البقالة على بطاقات التموين مثل السكر، الدقيق، الزيت، والسمن الصناعي وأشياء أخرى وللحصول على تلك السلع لابد للمواطن من بطاقة تموين، ولأن زوجي يعمل في المملكة العربية السعودية، لم يكن لنا بطاقة تموين مسجلة في الإسكندرية، فاعتمدنا على المساعدات السخية التي كنا نتلقاها من عائلة زوجي، ولقد كانوا خير عون لنا.

أما ابنتاي فقد تكيفتا سريعاً مع الحياة الجديدة؛ فالأمر يكون أسهل في الصغر عنه في الكبر، إذ كوَّنتا صداقات مع زملائهما لأن معظم التلاميذ في مدرستهما (وكذلك المصريين أيضاً) يعرفون اللغة الألمانية، ومن ثم لم يكن هناك أي مشكلة في التواصل بينهم.

كانت هناك طفلة مصرية تبلغ من العمر تسع سنوات وتقطن في نفس العمارة التي نقطن فيها وكانت زميلة لابنتي في المدرسة الألمانية وكانوا

ثلاثتهم يتحدثون ويتواصلون باللغة العربية، فتعلموا العربية منها، وسرعان ما تأقلموا على هذا العالم الجديد، وإن كان الأمر قد جاء بصورة تدريجية.

أما بالنسبة لي فقد شعرت بأنني تخلفت عنهما، لأنني تركت كل شيء ورائي، وبدأت بداية جديدة لحياة جديدة؛ فعندما ينشأ الإنسان في النمسا تكبر معه سلوكيات وعادات عليه أن يتقبلها دون الخوض في الأسباب أو طرح التساؤلات، لكن عندما انتقلت إلى مصر وجدت الوضع مختلفاً عن الوطن الذي نشأت فيه؛ إذ إن هناك بعض الأمور العامة التي – بالطبع- تهم الجميع هنا، وهناك بعض السلوكيات التي لم أستطيع أن أتقبلها؛ فمثلاً موضوع القمامة التى تجدها على أبواب الشقق داخل العمارات ملقاة على الأرض، وتجد جميع أنواع القمامة ملقاة في الشارع- ولا يوجد من يهتم أو يفكر في تغيير هذا الوضع ؟ مثل هذه السلوكيات- بعد كل هذه السنوات- مازالت تزعجني وتؤرقني، بينما غيري- لا تحرك فيه ساكناً- لأنه نشأ وسط تلك الأوضاع واعتادها مع مرور السنوات، كذلك هناك بعض الأمور المتعلقة بالإلتزام الشخصي، فنادراً أن تجد في مصر من يحافظ على مواعيده، وخصوصاً التجار والعمال؟ وحتى يومنا هذا وطوال فترة تواجدي في مصر لم أصادف عاملاً أو فنيًا يعطيني موعداً ويأتي في موعده المحدد- لكي يصلح شيئاً في المنزل- الأمر الذي يثير غضبي واستنكاري، أما بالنسبة لأطفالي، فكان الوضع مختلفاً، نظراً لحداثة سنهم، فقد لاحظوا أشياء عديدة مختلفة وتأقلموا معها واعتادوا عليها؛ ذات مرة سمعت إحداهما وهي تعلق تعليقاً لطيفاً إذ قالت": يا للغرابة ! يا لها من بلد مليئة بالمواقف الساخرة ! فالسيارات تقف على جانبي الطريق والناس يمشون في منتصف الشارع "- هذا ما يحدث هنا بالفعل، والجميع يعتقدون أنه أمر طبيعي للغاية، وبالتالي

على المرء أن يعتاد المشي وسط إشارات عبور المشاة، ولا يوجد من يهتم باتباع قواعد السير في الطريق، ولا يوجد من يلتفت ـ أساساً ـ لإشارات المرور، والأغرب من ذلك أن جميع الإشارات كانت عاطلة عن العمل، ومع ذلك فالحوادث التي تقع قليلة.

كنا نلقى رعاية بالغة من أسرة محمد التي كانت تحيطنا بالحب والاهتمام، لقد قدموا لي بالفعل الدعم الكافي وساعدوني أنا وبناتي قدر استطاعتهم، رغم وجود صعوبة في التواصل بيننا بسبب حاجز اللغة، لأنهم يتحدثون اللغة الإنجليزية والفرنسية فقط، ولكن الأمور أخذت تتحسن ببطء شديد؛ فلم أكن وقتها على دراية كافية سوى ببعض الكلمات العربية القليلة، أما بالنسبة لي فقد افتقدت التحدث باللغة الألمانية، كما افتقدت اكتساب أصدقاء جدد خارج نطاق العائلة، ولكن الصدفة لعبت دوراً هاماً في هذا الأمر، إذ كنت في السوق أشتري 2 كيلو طماطم من بائع الخضار وأثناء حواري معه بشأن السعر، صادفت سيدتين إنجليزيتين، وتحدثتا معي عن وجود ما يسمى "جماعة أمريكية " وأعطياني العنوان وأخبرتاني عن موعد اللقاء التالي، والذي أثار انتباهي أنهما أخبرتاني عن وجود سيدات في تلك الجماعة يتحدثن اللغة الألمانية، في بداية الأمر لم أستطع أن أحدد إن كانت تلك الجماعة تناسبني أم لا، فقبل كل شيء هم بالنسبة لي غرباء، ولم أدر وقتها إن كان أمر التحدث إليهما صواباً أم خطأ، وهذا ما جعلني مترددة ولكني، عند ذهابي، استقبلوني بحفاوة شديدة وترحاب جميل وعرفوني على سيدات أخريات يعشن بالقرب مني وسرعان ما جمعونا معاً، وتعرفت على سيدة أمريكية تدعى صوفيا Sophia وكانت مسنة وعاشت في فيينا Vienna لفترة طويلة، لذلك كانت تجيد التحدث بالألمانية، وتجيد طهي بعض الأكلات الألمانية، مما ساعد على توطيد علاقتنا، لقد أحبت بناتي وكانت بالنسبة لهم بمثابة جدتهم، وكانت

تلك الجماعة الأمريكية سبباً في تعرفي على نساء ألمانيات وغيرهن من الأجنبيات اللاتي يتحدثن اللغة الألمانية، وهكذا وجدت أخيراً من أتحدث معه بلغتي الأصلية وعثرت على من يمكنه أن يجيب على كل تساؤلاتي واستفساراتي، الأمر الذي جعلني قادرة على تدبير أمور حياتي بصورة أفضل؛ إذ كنا نتبادل النصائح حول أفضل الأماكن لشراء أفضل الأشياء التي نحتاجها، ولم يكن الأمر سهلاً في البداية لأن بعض السلع الغذائية مثل اللحوم والدواجن لم تكن متوافرة سوى في أيام معينة من الأسبوع، كانت طفولتي ونشأتي وسط أجواء الحرب وحياتي في النمسا قد أكسبتني قدرة على تدبر أمور الحياة والاعتماد على النفس والتأقلم مع المستجدات، وهكذا استطعت أن أتحمل مسئولية رعاية طفلتيّ؛ إذ كانت الظروف تحتم علينا أن نكتفي بالقليل، "الحاجة أم الاختراع" هكذا تعلمنا وكان علينا أن نطبق تلك المقولة حتى يمكننا التعايش، فعلى سبيل المثال لا الحصر، كانت هناك أوقات كثيرة نعاني فيها من نقص السلع الغذائية، وقد يصل الأمر إلى وجود ندرة وأزمة في السلعة مثل أزمة السكر التي حدثت، وأذكر أنني وقتها ذهبت مع أطفالي في رحلة إلى القاهرة لزيارة منطقة الأهرامات والمواقع الأثرية الأخرى، وبعد عدة ساعات قضيناها في التجول على الأقدام، جلسنا في أحد المقاهي لنستريح - وهناك لم أصدق عيني- وكأن بصري قد وقع على كنز- لقد كانت أكياس السكر "العبوات الصغيرة المخصصة لتلك الأماكن" موجودة على الطاولات بالمكان- ومن فرط سعادتي تخيلت أنني أحلم، وبصورة عفوية لم أستطع أن أمنع نفسي من جمع كل أكياس السكر الموجودة بالمقهى- وطبعاً كان علي الاستعانة بابنتيّ.

وعند عودتنا إلى المنزل حاملين تلك الغنيمة الثمينة، أفرغنا محتويات الأكياس في علبة السكر الفارغة، ووقتها شعرنا بالثراء الحقيقي، لقد كان

شعوراً هزلياً!، ولكن سرعان ما نفد السكر بعد وقت قصير، وشعرنا مجدداً بالحرمان! كانت لي صديقة أعرفها في النادي وكانت تمتلك هي وزوجها أرضاً زراعية تؤجرها للمزارعين، وعدتني أن تبحث لي عن سكر، وحين أحضرت لي السكر فوجئت بحجم الكمية، لقد كانت عبارة عن قمع سكر واحد، فلم أكن قد رأيت مثل هذه الأشياء سوى في الأفلام الألمانية القديمة، فجلست مع ابنتيَّ عند المائدة ووضعنا صفحة من جريدة أسفل قمع السكر، وأحضرنا شاكوش وأزميل وبدأنا نكسر قمع السكر، لقد كانت مهمة مسلية وممتعة، وهكذا ملأنا وعاء السكر من جديد، لقد كان الأمر كله يثير اندهاشي فلم أكن أتصور يوماً أن مثل هذه الأمور البسيطة سوف تشكل أهمية بالنسبة لي لدرجة أن أتذكرها.

كنت أسافر إلى ألمانيا بصحبة ابنتيَّ في الأجازة الصيفية، نزور بعض الأصدقاء هناك، ولكن معظم خروجنا كان للتسوق لنشتري ما نحتاجه، فلم يكن هناك ما يمكن شراؤه من مصر، أما في النمسا: فنشتري ما نحتاجه من البضائع "أحذية، جوارب، إلخ....."، لقد تحسنت الأمور في مصر ـ بعد ذلك ـ بشكل كبير وأصبحت كافة السلع والبضائع متوفرة.

واستمر عمل زوجي في المملكة العربية السعودية، وكان يحضر إلى مصر ليقضي معنا أسبوعين، بالطبع لم يكن هذا الوضع مريحاً، لكن كان لزاماً علينا أن نتكيف مع هذه الظروف، ولم نكن في هذا الأمر متفردين، لقد كانت هناك عائلات كثيرة في مصر تعيش وفقاً لتلك الظروف؛ إذ كان على الأب أن يسافر للخارج بحثاً عن الرزق، بينما تبقى الأم مع أطفالها في مصر كي ترعاهم، وذلك بسبب انخفاض مستوى الرواتب والأجور، إذ كانت ومازالت الوظائف ذات الرواتب الكبيرة محدودة للغاية.

استطعنا بعد عامين أن ندخر بعض المال، وانتقلنا للحياة في شقة جديدة صغيرة، فالشقة التي كنا نعيش فيها مازالت ملكاً لشقيق زوجي، لقد كانت في واقع الأمر بمنزلة محطة لفترة انتقالية. لكن شقتنا الجديدة كانت أكبر قليلاً وتقع في منطقة سموحة، وما زلنا نعيش فيها حتى الآن.

استمرت ابنتاي في المدرسة الألمانية وتدريجياً تعلمتا اللغة العربية، وقد نجحت ابنتي ناديا في الشهادة الابتدائية " الصف السادس" ولقد كان هذا الامتحان تحدياً كبيراً بالنسبة لها؛ إذ كانت تحتاج إلى النجاح بدرجة 50٪ في اللغة العربية، وقد نجحت في الدور الأول، وكنا جميعاً فخورين بها، وكذلك نجحت فيما بعد في اجتياز الشهادة الإعدادية ثم في الشهادة الثانوية وحصلت على المجموع الذي يؤهلها لدخول الجامعة الألمانية حيث درست الهندسة الكهربائية مع علوم الكمبيوتر، أما ابنتي الثانية ياسمين فقد نجحت في الامتحانات بشكل جيد مثل أختها ثم دخلت المدرسة التجارية ثم أكملت دراستها الجامعية في إدارة الأعمال.

تزوجت ابنتي ناديا وأنجبت طفلين، وتعيش بالقرب مني في الإسكندرية، وبالتالي أتمكن من رؤية أحفادي على فترات متقطعة، أما ابنتي ياسمين، فقد طلقت بعد زيجة لم تستمر سوى فترة قصيرة وتعيش حالياً في الغردقة، وهي مثلي، تخصصت في مجال السياحة، و تتحدث أربع لغات (الألمانية والإنجليزية، والفرنسية، وطبعاً اللغة العربية) ويالها من ميزة رائعة في مجال الأعمال- ميزة إجادة العديد من اللغات- وكثيراً ما تزورنا في الإسكندرية ولكنها لا تطيق ازدحام المدينة والضوضاء المزعجة، أما أنا فمازلت أعيش أنا وزوجي محمد في شقتنا في منطقة سموحة، ولدي الكثير من الصداقات التي تجمع بيني وبين سيدات يتحدثن الألمانية، والفرنسية، والإنجليزية، ولكن للأسف لم أستطع أن أجد صديقة مصرية، على الرغم من

أن جميعهن طيبات وعلى استعداد لتقديم يد العون والمساعدة عند الحاجة، ولكني وجدت مع مرور الزمن أن عمل صداقات حقيقية مع المصريين أمر صعب للغاية، لأن العلاقة لا تتعدى الصفة السطحية، كما أن اللغة الحوارية المستخدمة لا تتخطى عبارات الترحيب والسلامات مثل : كيف حالك ؟ وكيف حال الأولاد ؟؛ فليس هناك قواسم مشتركة يمكن أن تجمع بيننا.

حينما أعود بذاكرتي إلى الوراء، أجد أن الصعوبات المادية والأزمات المالية التي واجهناها لم تكن سهلة على الإطلاق، وعلى الرغم من ذلك أمكننا التغلب عليها ومواصلة الحياة، الآن محمد ليس لديه معاش في مصر لأنه لم يعمل فيها مطلقاً، وعندما بلغ سن الخامسة والستين، بدأ يتلقى معاشاً ضئيلاً من النمسا، وكذلك الحال معي فإن معاشي أيضاً ضئيل، والجدير بالذكر أنني كنت أعمل في مصر بين الحين والآخر- إذ يمكن للمرأة أن تعيش سعيدة وآمنة إن كان لديها زوج مخلص وفي.

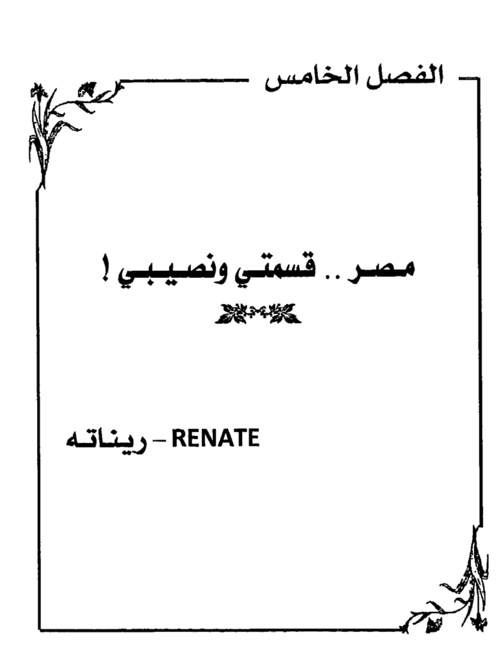
لم يكن أمامنا عام 1984 سوى خيار واحد وهو العودة إلى مصر مجدداً، ولكن في ذلك الوقت لم تكن عندي صورة واقعية لما يمكن أن تكون عليه الحياة في مصر، ولكني لست نادمة على تلك الخطوة التي شكلت في حياتي إجراءً انتقاليا لأحيا بعدها في مصر حياة ثرية مليئة بالأحداث المتنوعة التي صقلت شخصيتي والسؤال الذي يطرح نفسه:

ماذا لو عاد بي الزمن إلى الوراء؟

هل سأتخذ نفس القرار الذي اتخذته من قبل بشأن الهجرة إلى مصر؟

الإجابة على الأرجح هي: نعم.

*****



الفصل الخامس

مصر .. قسمتي ونصيبي !

RENATE – ريناته

ريناته Renate سيدة جميلة متوسطة الطول، ذات شعر أشقر، وعيون عسلية، وجهها صبوح ووجنتاها بارزتان، خطواتها رشيقة وجسدها مفعم بالحيوية والطاقة، أما شخصيتها فتعكس ثقة عالية بالنفس؛ كتبت لي قصتها بنفسها، فقط كان علي أن أضيف بعض الرتوش لكي تكتمل الصورة من واقع طرحي لبعض الأسئلة كي تتضح الرؤية، وها هي قصتها:

بدأت القصة في صعيد مصر- تقريباً عام 1930 عندما باعت أسرة زوجي الإبل التي يملكونها ثم شدوا الرحال إلى مدينة الإسكندرية حاملين معهم كل ثروتهم، حيث قاموا بشراء بستان كبير وزرعوه بأشجار البرتقال، ولقد كان الحصاد وفيراً، بدأوا في تجارة الفواكه بالجملة، ولما راجت تجارتهم افتتحوا محلاً صغيراً لبيع الفاكهة، في ذلك الوقت كان فاروق ملكاً متوجاً على عرش مصر، وعندما كان يرد ذكر هذا العهد كانوا يعتبرونه من أكثر سنوات مصر المعاصرة رخاءً.

اعتاد كلاهما (والد زوجي، ووالدة زوجي) ارتداء الملابس التقليدية في ذلك الوقت: وكان الزي مؤلفًا من جلباب أسود وعمامة فوق الرأس، أما النساء فكن يرتدين ثوباً أسود، والرجال يلتفعون بعمامة بيضاء.

كان ابنهم الأكبر يدعى أحمد- وكان بالنسبة لي هو زوج المستقبل- وله من الإخوة الذين يصغرونه ولدان وفتاة واحدة، رغب الأب في تولي أحمد مسئولية الإشراف على بساتين البرتقال، لكن والدته كانت لها رؤية أخرى فيما يتعلق بمستقبل أحمد؛ لقد أرادت له أن يتم دراسته ويحصل على شهادته الثانوية (وكانت تسمى الشهادة التوجيهية في ذلك الوقت)، ثم يسافر ليدرس الطب في ألمانيا، لقد رغبت أن يصبح طبيباً، إذ إن مهنة الطب

تعتبر من أهم وأفضل المهن في مصر، وحتى يومنا هذا، مازال الأطباء يتمتعون بمكانة مرموقة في المجتمع.

شهد عام 1952 في مصر نهاية عهد و بداية عهد؛ إذ تم خلع الملك فاروق عن عرش مصر ونفي إلى إيطاليا، وبهذا ودعت مصر عصر الملكية، ليصبح نظام الحكم جمهورياً، وتم تعيين محمد نجيب رئيساً للجمهورية لمدة عام، ثم تولي بعد ذلك جمال عبد الناصر رئاسة الجمهورية عام 1956.

اجتاز أحمد امتحانات الثانوية العامة عام 1957 بنجاح، وتلبية لرغبة والدته، قام بالتحضيرات اللازمة للسفر إلى ألمانيا؛ حجز تذكرة سفر على سفينة يونانية متجهة من ميناء الإسكندرية إلى ميناء نابولي، ومن نابولي استقل القطار المتجه إلى هامبورج Hamburg حيث توجه بعد ذلك إلى مدينة كيل Kiel وهناك التحق بجامعة كريستيان البرخت Christian Albrechte وبدأ في دراسة الطب، وكان يبلغ وقتها عشرين عاماً، لم تكن حياته سهلة على الإطلاق، فلم يكن يعرف أي كلمة ألمانية، كما أنه وجد صعوبة شديدة كي يعتاد نظام التعليم في ألمانيا الذي يختلف اختلافاً كلياً عن نظام التعليم في مصر؛ والذي يعتمد بصورة كلية على الحفظ والتلقين؛ إذ نادراً ما يأتي في الامتحانات المصرية سؤال يهدف للاستفسار عن رأي الطالب، أو لإظهار إبداعه الفكري من خلال التفسير المنطقي أو الاستدلال العقلي في الإجابة، ولازالت المناهج التعليمية في مصر تعتمد- حتى الآن- على الحفظ والتلقين بصورة أساسية، وهكذا عانى أحمد الأمرين من القصور اللغوي ونظام التعليم المتطور، لذلك كان تقدمه في الدراسة بطيئاً جداً.

لقد نشأت في مدينة كيل Kiel مع أسرتي المكونة من أبٍ وأمٍ وأختين كبيرتين وكنا نقيم في منزل كبير تحيط به حديقة، وحين بلغت من العمر عشر

سنوات اتجهت باهتماماتي نحو دروس الباليه، وكنت أقضي أوقات فراغي في ركوب الخيل، أختاي الكبيرتان كانتا لا تزالان تعيشان في منزل الأسرة، كانت أمي ربة منزل، وكان أبي يعمل مدرساً ويكرس وقته وجهده لرعاية أسرته.

بدأت علاقتي بمصر حين كنت في الثالثة عشرة من العمر، حين دعتني أختاي لأرافقهما في جولة تسوق داخل المدينة وبينما كنا نتسوق داخل متجر كارستادت Karsetadt الشهير توقفنا عند قسم المجوهرات، وقعت عيني على قلادة ذهبية صغيرة على شكل رأس نفرتيتي "الملكة الفرعونية"، أعجبتني القلادة، ولما لاحظت ذلك أختي داجمار Dagmar بادرت بشرائها وقدمتها لي هدية بمناسبة عيد ميلادي؛ لقد كنت دوماً مبهورة بالحضارة الفرعونية والتاريخ المصري الحافل بالأحداث الغنية، والآثار المصرية القديمة التي يفوح منها عبق الأسرار التي تكاد تفصح عن نفسها لتحكي وتسرد خبايا الحضارة التي نشأت منذ فجر التاريخ ولا يزال ضياؤها يعكس إبهار العظمة على مر العصور.

كان لدينا بالمنزل مكتبة تضم العديد من الكتب، وكان من بينها كتاب يتناول الحضارة المصرية القديمة وكان عنوانه :

" **آلهة، ومقابر، وعلماء** "، لقد أحببت هذا الكتاب كثيراً، لقد كان كتابي المفضل وكنت شغوفة بقراءته مراراً وتكراراً.

بلغ تأثري وحبي لمصر لدرجة أنني اخترت مصر- أثناء فتره دراستى- موضوعا للبحث في مادة الجغرافيا، ودعمت بحثي بالصور والتفاصيل، وهكذا، فاز بحثي بالمركز الأول على الفصل، لقد كنت دوماً مأخوذة بسحر أهرامات الجيزة بشكل خاص.

أختي دجمار Dagmar تكبرني بثلاث سنوات، وكانت تحب الرقص كثيراً؛ شأنها في ذلك شأن كل المراهقات، وكان لديها صديق ألماني شاب يدعى أوي باير Uwe Bayer، وكان بطلاً رياضياً في رمي الكرة الحديدية، كما كان يهوى التمثيل (وقد قام بدور سيجفريد Sieg fried في أحد الأفلام فيما بعد)؛ دعاها صديقها هذا للخروج، لكن أبي لم يسمح لها بأن تقابله بمفردها فذهبت أنا وأمي بصحبتها إلى بار فلوريدا، كنت قد بلغت وقتها السادسة عشرة من العمر، فسمحت لي أمي بارتداء فستان ضيق قصير لونه وردي، شعرت يومها أنني قد كبرت، وهناك، وفي صالة الرقص في بار فلوريدا، رأيته للمرة الأولى انجذبت إليه حين رأيته بقسمات وجهه الشرقية، لقد كان وسيماً للغاية وبدا وكأنه أمير فرعوني، لقد كان يرقص وحوله الكثير من الفتيات، ولا عجب في ذلك، فقد كانت تحيطه هالة من الجاذبية، حين اقترب مني هذا الشاب وطلب مني أن أراقصه، لم أتردد، ولم أشعر إلا بالانجذاب نحوه، كانت نظرات عينيه الساحرتين مغلفة بالغموض، يبدو وكأنه قد استحضر فيها شيئاً من سحر الشرق، حددنا موعداً في اليوم التالي لنتقابل أمام إحدى دور السينما، ولكن هطول الأمطار بغزارة منعني من الخروج، وهكذا لم نتقابل، لكن أحمد لم يستسلم بسهولة، حيث اتصل بي في المنزل وقامت أمي بترتيب موعد آخر لدخول السينما، وطبعاً لم يسمح لي وقتها بالخروج وحدي لمقابلته، ولكن أمي أدركت مدى أهمية هذا اللقاء بالنسبة لي، وهكذا ذهبنا نحن الثلاثة مجدداً؛ أمي وأنا وأختي دجمار Dagmar مثل كتيبة مؤلفة من جنود مسلحين !، توجهنا إلى السينما لمقابلة أحمد الذي كان ينتظر هناك، وبعد انتهاء العرض السينمائي، كنت أشعر بسعادة بالغة، وكادت خطواتي تسبقني من فرط سروري، كنت أسير

مسرعة وأنا أرتدي الكعب العالي، كدت أسقط على الأرض الموحلة، لولا أحمد الذي أمسك بيدي.

لم يحدث بيني وبين أحمد المزيد من اللقاءات لفترة، في الواقع، كنت أحسب فارق العمر بيننا، وكنت أعتبره أكبر مني، لذلك لم أعر الأمر المزيد من الاهتمام، كان هدفي يرتكز في إنهاء تعليمي في المدرسة التجارية في كيل Kiel حتى أتمكن من الالتحاق بالعمل في إحدى الوظائف المكتبية فيما بعد، وكانت تلك هي رغبة أمي أيضاً، كنت أتقابل مع أحمد بالمصادفة في المدينة، ولكننا لم نحدد أي موعد للخروج معاً، ولولا إصرار أحمد على التواصل معي، ربما كنا فقدنا الصلة التي تربط بيننا.

وبمرور الوقت أنهيت دراستي في المدرسة التجارية وأردت الالتحاق بوظيفة في أحد المكاتب، كما كنت أخطط، لكنى فيما بعد لم أجد نفسي في هذا العمل، لقد أردت أن أصبح ممرضة، فالتحقت أنا وصديقتي أنيتا Anita بمدرسة التمريض في مدينة ريندسبيرج Rends burg، وكان هدفي المهني يرتكز في مساعدة المرضى.

قضيت في مدرسة التمريض عاماً ونصف، وتلقيت وقتها مكالمة هاتفية من أمي، تقول فيها إن أحمد متواجد في هامبورج Hamburg ويرغب في مقابلتي بشدة، ولم أجد سبباً يمنعني من لقائه مرة أخرى، فأخذت القطار في يوم عطلتي الأسبوعية وسافرت إلى هامبورج، وعندما قابلته في تلك المرة، بدا كل شيء واضحاً منذ اللحظة الأولى، لقد كان لقاءً دافئاً فما أن رأيته حتى اندفعت نحوه لآخذه بالأحضان وكذلك فعل هو، تلك اللحظة الموعودة أشعلت نيران الحب ولم تطفئها، وهكذا، أدرك كلانا أننا مغرمان وأن هذا التلاقي- بعد طول فراق- يجب أن يكلل بأزاهير الرباط المقدس.

في اليوم التالي عدت أدراجي إلى ريند سبيرج Rends burg، وأشعت خبر نيتي بالزواج من شاب مصري والسفر إلى مصر، وحين وصل الأمر إلى مشرفة التمريض، كانت متخوفة، ولكنها كتبت لي تزكية حسنة وأنهتها بعبارة :

- " أتمنى ألا تتغيري للأسوأ في مصر".

وهكذا تركت المدرسة، وبدأنا أنا وأحمد في استخراج كافة الأوراق اللازمة لاستكمال زواجنا، كنت أحتاج إلى موافقة والدي، لأنني وقتها كنت دون الثامنة عشرة - أي مازلت قاصرًا - وكنت على وشك أن أبلغ الثامنة عشرة تحديداً في 27 يوليو (July1966)، وكان من المفترض أن يتم زواجنا في يوم 13 يوليو (July 1966)، لم نتشاءم من الرقم 13، بل على العكس، لقد تفاءلنا به واعتبرناه بالنسبة لنا رقم الحظ السعيد، كانت سعادتي بالغة وكدت أطير فرحاً، لأحلق عالياً حتى أصل إلى السماء السابعة، واستعداداً للاحتفال بالليلة الكبيرة، قمت بشراء بدلة وردية اللون من "بوتيك" بمدينة كيل، وقام أحمد بشراء دبلتين وباقة من ورد الأعراس، من القرنفل الوردي والسوسن الأزرق كي أحملها وقت الزفاف، كما اشترى لي قلادة ذهبية بآخر مبلغ تبقى معه، أما والدتي فقد اهتمت بقائمة المدعوين والترتيبات الخاصة بالزفاف، أما أبي فقد كان يشعر بالقلق الذي انعكس من خلال تعليقه الفج:

- " أتمنى أن تكوني فكرت جيداً ".

وبرغم ذلك، فقد ساعدني كثيراً، وقد طلبت منه أن يمنحني "سيارة مرسيدس قديمة وثلاجة وغسالة، وموقداً كهربائياً"، فقد أخبرني أحمد أن مثل هذه الأشياء ستفيدنا في بداية حياتنا في مصر، أما الملابس الزائدة عن

الحد فلا لزوم لها وخاصة أنها متوافرة في الأسكندرية، كما قام أحمد – من جانبه- بشراء سيارة مرسيدس إضافية لنأخذها معنا إلى مصر.

انتابتني حالة فظيعة من القلق وانخرطت في نوبة من البكاء ليلة زفافي- فلم أكن أدري بعد ما هو المصير الذي وضعت نفسي أمامه طواعية ! وربما احتسائي لبعض كئوس النبيذ هو ما ساعد على تفاقم مثل هذا الإحساس لدي ؟!...

طوال تلك الفترة كنت مفعمة بإحساس الحب من رأسي حتى قدمي لدرجة أنني غفلت عن وجود شخص كان يلازم أحمد مثل ظله وهو شقيقه الأصغر سيد الذي أتى بصحبته من مصر إلى ألمانيا كي يدرس، وبطبيعة الحال سوف يصاحبنا في رحلة العودة إلى مصر، وهكذا سافرنا بالسيارتين وأخذنا الأجهزة: الغسالة والثلاجة والموقد الكهربائي.

أرادت شقيقتي أن ترافقني إلى جنوه Genoa فأخذت أجازة لبضعة أيام وكان طريقنا عبر سويسرا Switzerland، وماونت سانت جوتارد Mount St. Goth hard حتى نصل إلى جنوه، ولقد حدث أمر مروع أثناء وجودنا على الطريق وسط الجبال، إذ انقطعت فرامل السيارة وبدأت السيارة في الرجوع إلى الخلف وكادت تسقط بنا من فوق الجبل، ساعتها شعرنا أننا سنلقى حتفنا، ولم أشعر بنفسي حين صرخت من الذعر الذي استبد بي، ولحسن الحظ، استطعنا أن نوقف السيارة بمساعدة فرامل الطوارئ، وحاولنا إصلاحها، وبالفعل دارت السيارة بعد محاولات طويلة، وواصلنا رحلتنا نحو جنوه، وهناك أمضينا ليلتنا في بيت الشباب، كانت لدينا رغبة؛ أنا وأختي دجمار في الذهاب للسباحة ولكننا ما لبثنا أن تعرضنا لمضايقات من بعض الشباب الإيطاليين الذين حاولوا بطريقة سمجة

مصاحبتنا وإجبارنا على الحديث معهم، وقتها لاحظ أحمد غيابنا واستبد به القلق فبدأ يبحث عنا، ووجدنا، وعدنا جميعاً معاً في النهاية، وقتها اقترح عليَّ أحمد أن أصبغ شعري الأشقر باللون الأسود، إذ رأى أن ذلك سيكون من الأفضل، ولكني لم أفكر حتى في مجرد تصور الأمر، لأنه لم يروق لي بالمرة.

عادت أختي دجمارDagmar أدراجها إلى بلدنا "كيل" أما أنا وزوجي أحمد وأخوه سيد فقد شحنا السيارتين المرسيدس فوق ظهر سفينة ركاب مصرية قديمة متجهة إلى مصر، ولأن ما كان بحوزتنا لم يكن سوى مبلغ صغير، فقد اشترينا أرخص التذاكر وكان علينا إطعام أنفسنا لأن تذاكرنا لم تكن شاملة الطعام، وارتضينا بالنوم في الأسرة المعلقة، واكتفينا بتناول الخبز الذي اشتريناه من جنوه Genoa وشرب الماء، كنا نغار من المسافرين الآخرين ونحسدهم لأن تذاكرهم شاملة وجبات الطعام، وصلنا إلى ميناء بايريوس Piraeus في اليونان، وهناك تناولنا وجبة طعام دسمة ساخنة، وقمنا بشراء بطيخة ورغيف خبز كبير ليكفينا حتى نصل إلى ميناء الإسكندرية، ولما وصلنا بعد يومين كان الميناء يعج بالناس، والضجيج يرتفع في أجواء المكان والضوضاء المزعجة تكاد تسد الآذان وتصيبها بالصمم؛ الأمر الذي أثار أعصابي جداً، كنت جائعة، مرهقة ومنهكة القوى من تلك الرحلة الطويلة، فالجو العام أشعرني بالاختلاف عن بلادي، وشعرت بشيء من الذهول حين رأيت الميناء والناس، وأحسست كأنني فقدت القدرة على النطق، اتجهنا إلى بيت عائلة أحمد راكبين عربة حنطور، فلم يكن في مقدورنا أن نركب إحدى السيارتين المرسيدس لأننا لم نتمم إجراءات الجمارك بعد، وتبعنا سيد سيراً على الأقدام حاملاً الحقائب، وحين توقفت عربة الحنطور أمام بيت قديم متعدد الطوابق، نزلنا من العربة ودخلنا إلى شقة مكونة من ستة غرف؛ حيث تعيش أسرة أحمد، جلست على سرير خشبي أنتظر ما

سوف يحدث وكأنني على موعد مع المستقبل، شعرت بالارتباك، ثم انفتح باب الغرفة ودخلت منه امرأة ضخمة الجسم ترتدي أساور ذهبية، وعلى الفور عانقتني وألبستني في يدي ثلاثة أساور ذهبية، لم نستطع تبادل الحديث؛ فكلانا يجهل لغة الآخر، تلك كانت والدة أحمد، أما والد أحمد فقد اقتصر استقباله على المصافحة باليد دون حماس، كما صافحني أيضاً الشقيق الأصغر لأحمد، أما أخت أحمد فقد كانت متزوجة من ابن عمها الذي كان يتولى مسئولية إدارة محل الفاكهة.

لم تستقبلني الأسرة بالترحاب الحار أو الحماس، لقد كانت لديهم مخططات أخرى تتعلق بالابن الأكبر أحمد الذي كان من المفترض أن يتزوج من مصرية، وها هو قد عاد إليهم من الخارج مصطحباً معه زوجة ألمانية ! ربما ظنوا أن الزواج من أجنبية لن يدوم طويلاً، ولقد أخطأوا خطأً جسيماً حين ظنوا ذلك !

منذ بداية وصولي لمصر داومت على ممارسة السباحة في البحر، كنت أذهب إلى شاطئ المنتزه كي أسبح وكان أحمد يكتفي بالجلوس بالقرب من الشاطئ أو السير وقدميه في الماء، فلم يكن يجيد السباحة، في ذلك الوقت كان أمراً عادياً أن ترى النساء يسبحن في البحر مرتديات رداء البحر (المايوه)، أما في تلك السنوات الأخيرة فقد بات هذا الأمر نادر الحدوث وغير عملي.

كانت هناك بعض التقاليد التي كنت أجهلها، وكانت تلك الأمور صعبة الفهم بالنسبة لامرأة أجنبية- على سبيل المثال- ذات يوم أردت زيارة بساتين البرتقال كي أساعد في جمع المحصول، لكن والد زوجي رفض هذا الأمر بشدة ولم يجده مقبولاً على الإطلاق؛ كنت وقتها لازلت غير ملمة بالكثير من الأمور، ورجعنا إلى المنزل ثانية، وأدركت وقتها أن وضعي الجديد

يستوجب أن أكون على دراية بالعادات والأعراف والسلوكيات، وكان عليّ أن أعرف التصرفات المناسبة حتى أفعلها، والتصرفات غير المناسبة كي أتجنبها- كل تلك الأمور- كان من الصعب عليّ إدراكها منذ البداية.

أقمنا في شقتنا بالأسكندرية مع شقيقة سيد، وأخوه الأصغر الذي كان يقيم معنا أحياناً، أما والداه فكانا يقيمان في منزل آخر في جهة أخرى من المدينة، ولم نعد نراهم بصفة منتظمة، ولم أكن وقتها على دراية بكيفية إدارة شئون المنزل، فقد كان يتم جمع ملابسنا المتسخة مرة كل أسبوع ليتم غسلها في منزل العائلة بواسطة شغالات صغيرات السن يقومن بأعمال المنزل، ثم يتم إعادة الملابس نظيفة، ولكني كنت ألاحظ دوماً اختفاء بعض قطع الملابس، استمر وضعي هكذا قرابة العام أشعر بشيء من الاستغراب، والوحشة التي بلغت حد الصدمة، ولم يخفف عنيّ وطأة تلك الحياة سوى والدة زوجي؛ لقد كانت سيدة حلوة المعشر واعتادت أن ترسل إلينا كل فترة بطة محمرة أو دجاجة مطهوة، وبعد مضي العام الأول أصبحت حاملاً.

حضرت شقيقتي الكبرى جودرون Gudrun بصحبة زوجها وبعض الأصدقاء لزيارتي، استقلوا سيارتهم الفولكس فاجن من برلين إلى تونس ثم ليبيا ثم الأسكندرية حيث نقطن، أقاموا معنا أياماً قليلة ثم سافروا إلى البحر الأحمر، وأثناء وجودهم معي أحسوا بالهلع من هول ما رأوا من ظروف المعيشة التي أحياها؛ فالفئران تنتشر في المنزل مع حلول المساء، والصراصير ضيوف دائمين يملكون في المنزل أكثر من أصحابه، أما حالة الحمام والمطبخ فلا ترقى إلى المستوى العادي الذي اعتدنا عليه في بلدنا، ومع ذلك اعتدت تلك الظروف- على الرغم من تلك الحياة ذات المستوى المتدني- ولم أعد أكترث بأي شيء، ولم تعد تلك الأمور تزعجني.

شقيقتي داجمار Dagmar زارتنا هي الأخرى، وصلت إلى الإسكندرية على متن سفينة يونانية فاخرة، ومما لا شك فيه أن رحلتها كانت بالطبع أفضل من رحلتي، ولم تصدق نفسها حين رأت ذلك المستوى المعيشي، وتلك الحياة البسيطة المتواضعة، ومع ذلك ظلت معي في الأسكندرية حتى مايو 1967 (May 1967) حين ولدت ابنتي ياسمين، ولقد ساعدتني كثيراً في غسل الحفاضات وغليها بالماء والصابون فوق موقد الجاز، لم أكن وقتها قد استخدمت الغسالة الكهربائية التي أحضرتها معي من ألمانيا، فلم أستطع تركيبها، ولكن الحمد لله؛ فقد كانت أمي ترسل لي من ألمانيا حفاضات وملابس لابنتي ياسمين بصورة مستمرة، في ذلك الوقت كانت هناك ندرة في السلع، ولم يكن هناك سوى مسحوق غسيل واحد، ونوع واحد من الصابون.

اكتشفت محلاً يونانياً صغيراً لبيع البقالة كنت أشتري منه الملفوف " الكرنب" المخلل Saus Kraut، والزيتون، وحليب الماعز، والزبد، وكانت معظم وجباتنا اليومية مؤلفة من هذا المزيج، على أية حال لم نشعر يوماً بالجوع، إذ كانت الفاكهة والخضر متوافرة بصورة كبيرة.

في تلك الفترة كان هناك الكثير من الروس الذين يتوافدون على الإسكندرية باستمرار؛ نظراً لقيام الرئيس جمال عبد الناصر بتوطيد العلاقات مع الحكومة الروسية؛ وهكذا، لم أعد الشقراء الوحيدة التي ترتدي الملابس القصيرة، في حقيقة الأمر، لم أغير يوماً طريقتي في ارتداء الملابس.

بدأنا أنا وأحمد في البحث عن شقة في منطقة الدقي بالقاهرة تطل على النيل، وعادت أختي دجمار ـ بطبيعة الحال ـ إلى كيل Kiel.

أراد أحمد أن يكمل دراسته في القاهرة، وتمنينا أن تكون الدراسة في القاهرة أسهل، ولكن كان لابد أن يتم إعفاؤه أولاً من الخدمة العسكرية،

وبشيء من التحايل وتقديم بعض الهدايا نجحت محاولته وتم إعفاؤه من الجيش، وهكذا انتقلنا إلى القاهرة، وكان من الطبيعي أن يرافقنا سيد فهو يتبعنا دائماً مثل ظلنا، أينما ذهبنا، وكان ذلك الأمر يثير أعصابي.

تغيرت حياتي في القاهرة، تعرفت على الأخت ليسلوت Liselotte، التي استقبلتني بحفاوة وقدمتني إلى ألمانيات أخريات،عندئذ أحسست بالألفة، ولم أعد أشعر بالوحدة وسط الجالية البروتستانتية؛ إذ كنا نتزاور أنا وسيدات الجالة بانتظام واعتاد أحمد ذلك الأمر، في ذلك الوقت تملكت روح المغامرة أختي دجمار التي حضرت إلينا في القاهرة ووجدت وظيفة أخصائية علاج طبيعي في عيادة، واستمرت تعمل في القاهرة مدة ثلاث سنوات، في ذلك الوقت تعرفنا على سيدة روسية تدعى إيلانا Ilana تبلغ من العمر أربعين عاماً، ومتزوجة من أستاذ جامعي مصري الجنسية، كنت لديها خبرة طويلة في الحياة في هذه البلاد الغريبة، كنا نسعد بصحبتها وبنصائحها التي كانت تقدمها لنا من واقع تجاربها وخصوصاً فيما يتعلق بكيفية التعامل مع أزواجنا.

بعد مضي فترة قصيرة، تزوجت أختي دجمار من سيد شقيق أحمد الذي لا يفارقنا ويتبعنا مثل ظلنا، وهكذا، أصبحنا أختين متزوجتين من أخوين، وكان الزوجان لا يزالان في الدراسة، وهكذا، لم يكن هناك المزيد من المال المتوفر، وخاصة بعد أن قمنا ببيع السيارتين وأنفقنا ثمنهما، لذلك كان الزوجان يترددان على والدهما في الإسكندرية للحصول على مصاريف الإعاشة الشهرية كي تستمر الحياة.

حملت للمرة الثانية عام 1967، وأردت أن أضع ذلك المولود في ألمانيا كي أحصل على دعم ومساعدة أسرتي، وبالفعل سافرنا إلى ألمانيا وأنا في

الشهر التاسع من الحمل، ركبت أنا وأحمد وياسمين السفينة إلى فينيسيا، Venice ثم أخذنا القطار المتجه إلى كيل، ولقد عانيت في تلك الرحلة الأمرين، لقد كانت الرحلة طويلة وشاقة جداً، وكنا في منتصف الصيف، وكنت حاملاً في شهري التاسع!، ورغم كل ما تكبدته من مشقة، أمضيت في كيل وقتاً رائعاً، أنجبت ابنتي الثانية مني في شهر أغسطس 1968. (Aug 1968).

وجودي في بلدي أشعرني بالراحة، وبعد مرور فترة من الوقت، قمنا بشراء سيارة مرسيدس جديدة وبدأنا رحلة العودة إلى مصر وقد كانت رحلة طويلة.

عشنا في القاهرة خمس سنوات، ولكن فشل أحمد في استكمال دراسته الجامعية جعلنا نحزم حقائبنا ونعود أدراجنا إلى الإسكندرية، بعد ذلك فكر الأخوان في فتح مطعم، ولكن الأمر كان يتطلب توافر رأس مال، وطبعا لم يكن من السهل الحصول على رأس المال المطلوب؛ إذ نادراً ما تجد في مصر فرصة سريعة لجمع المال، ولم يكن أمامنا سوى السفر مجدداً إلى والدي في ألمانيا، ولكن العثور على وظائف برواتب عالية لم يكن أمراً سهلاً، وخصوصاً دون الحصول على التدريب اللازم أو التأهيل، جربنا الكثير من الوظائف، ولكن بعد ثلاثة أشهر حل موسم الصقيع، وبالإضافة لذلك أصبحت حاملاً للمرة الثالثة، وبصورةٍ أو بأخرى استطعنا تدبير مبلغ من المال واشترينا سيارة مرسيدس وأخذناها إلى مصر، وسافرنا من فينيسيا Venice إلى الاسكندرية ثم إلى القاهرة، وفي القاهرة أنجبت ابني كريم في عيادة صديقتنا الروسية، وخلال إقامتي بالمستشفى، تولت إلانا Ilana رعاية ابنتي، وكان أحمد وقتها يقيم في الاسكندرية، ولكنه لحق بنا بعد ذلك في القاهرة، وأعادنا نحن الأربعة إلى منزلنا بالأسكندرية، وهكذا، تركت صديقتي الوفية إلانا Ilana،

الأمـر الـذي لم يكـن - بالنـسبة لى ـ سـهلاً علـى الإطـلاق، فقـد ساندتنـي ودعمتنـي كـثيراً بـالقول والفعل، ولقـد افتقـدنـا أيـضاً زيـارة أهرامـات الجيـزة التي كنا نذهب إليها بصحبة الأطفال في أيام الأحد.

عندما عدنا إلى الاسكندرية وحاولنـا دخـول شـقتنا فوجئنـا بـأن قفـل الـشقة قد تم تغييره، وبوجـود أنـاس آخـرين، وهكـذا أدركنـا أن الـشقة قـد تم الاسـتيلاء عليهـا بكـل محتوياتهـا مـن منقـولات وأجهـزة أثنـاء غيابنـا في القاهرة، وكان أحمد قد تأخر في دفع الإيجار لمدة ثلاثة أشهر، فاستغل المالك ذلك الأمـر وقـام باسترداد شـقته وقـام بتغـيير قفلـها ثـم أجرهـا لمستأجرين آخرين، وهكذا، لم يكن في مقدورنا عمل أي شيء !.

عـشت مـع أطفـالى الثلاثـة داخـل غرفـة واحـدة في شـقة أسـرة أحمـد بالإسكندرية، وكـان الأخ الأصغر لأحمد يعيش أيضاً في تلك الـشقة، وكانـت أختـي داجمـار أفـضل منـي حـالاً حيـث انتقلـت مـع زوجهـا سـيد في شـقة بكامب شيزار.

اسـتكمل أحمـد مـع أخيـه سـيد مـشروع المطعـم، وتم افتتاحـه، وأتـى المشروع ثماره، إذ كان العمل يتم بشكل جيد ليلاً ونهاراً، فلم أعد أرى أحمـد إلا نـادراً، يأتـي في وقـت متـأخر من الليل لينـام فقـط ويخـرج في الـصباح البـاكر، واستمر الحال على هذا المنوال الرتيب حتى ضقت ذرعـاً بالحيـاة مـع كل هذه الأسرة في غرفة واحدة، كانت هناك بعض المواقف التي لا تحتمل، أذكر منها الأخ الاصغر "صـابر" الـذي أتعـب أعـصابي مـن أفعالـه المتدنيـة، إذ كـان دائمـاً ما يخفي السكر والشاي مني، ويحسدنا عما لـدينا، حتـى خادمـة المنزل لم أسلم منهـا؛ لقد كـان يحلـو لهـا سرقة ملابسي الداخليـة، هذا بجانـب الوضـع المـالي المتأزم بصورة مستمرة؛ تلك الصورة القاتمة جعلتني أفكر في الانتقـال للعيش

مع أختي داجمار في شقتها التي تطل على البحر، ولكنها لم ترغب في تواجدي معها، ولكنني لم أجد بديلاً من فرض نفسي عليها وهكذا حزمت حقائبنا وانتقلت بصحبة زوجي وأولادي للإقامة معها.

بعد فترة، قرر أحمد تحويل المطعم إلى أول محل لتقديم وبيع البيتزا في الإسكندرية، فبدأنا في تجديد المكان وتغيير الديكورات، لقد كانت بالفعل مهمة صعبة ولكنها كانت تستحق عناء المجهود، لاقى مطعم البيتزا استحساناً من الاسكندرانية، لقد أبهرتهما التجديدات، وهكذا، بدأ المطعم يعمل بشكل جيد ولكن هذا النجاح وما أعقبه من مورد مادي لم يلقِ بظلال خيراته علينا، وذلك لأن والد زوجي كان يجمع المكسب كله، ليعطينا ما يكفي لسد احتياجاتنا اليومية فقط.

واجهت أختي داجمار مشكلة الحصول على تصريح عمل بالإسكندرية، ومع ذلك وجدت وظيفة في عيادة طبيب مصري، ولأنها لا تحمل أوراقاً رسمية ولم تفلح في استخراج تصريح عمل، كان راتبها ضعيفاً للغاية، وهكذا، أصابها الضجر من البقاء في مصر لأنها وجدت الحياة شاقة للغاية، أخذنا إجازة، وسافرنا معاً إلى برلين، وهناك استقرت داجمار ولم ترد العودة، اتسعت الهوة بينها وبين زوجها سيد فطلقها، ولم يتطلب الأمر حضور الزوجة وموافقتها على الطلاق؛ فهو أمر غير ضروري في مصر نظراً لوجود الطلاق الغيابي؛ إذ يكفي أن يتقدم الزوج بدعوى قضائية في المحكمة لتطليق زوجته، ويتم كل شيء بصورة عادية، بعد ذلك تزوجت داجمار في ألمانيا.

كان من الطبيعي أن أترك داجمار في برلين وأعود إلى أحمد في مصر، كعهدي دائماً، لقد كنت دوماً بجواره ولم أفارقه أو أبتعد عنه طواعية،على الرغم من الظروف الصعبة التي واجهتنا وتحديات الحياة التي كان يتحتم

علينا مجابهتها، وعند عودتي إلى الإسكندرية كان سيد شقيق زوجي مازال يقيم معنا في شقتنا، لم أعد أحتمل هذا الأمر، وقررت أن أستقل بحياتي الأسرية لتكون معيشتي قاصرة على صحبة زوجي وأولادي، فقد طفح الكيل ولم أعد أقوى على مقاومة تلك السماجة، ولم أعد أحتمل هذا التطفل، وبالفعل اتخذت قراري وتمسكت به وأخيراً نجحت وحققت ما أريد.

لقد تحقق أخيرا حلمي الذي طالما كان يراودني؛ أن أعيش في شقة مستقلة مع أسرتي! عثرنا على شقة مقبولة في عمارة قديمة كائنة بشارع سعد زغلول، وجدنا فيها أثاثاً مستعملاً كان ملكاً للساكن السابق، وعلى الفور، انتقلنا إليها دون تأخير، فقد كنت أخشى أن يغير أحمد رأيه، وهكذا استطعت أخيراً أن أنسق منزلي وفق الأسلوب الألماني الذي اعتدته وكنت أفتقده، وسارت الحياة، والتحق أولادي بالمدرسة الألمانية، ولكنني لم أستطع أن أتخلص من سيد بصورة كلية، إذ كان يتردد علينا بصفة يومية كي يشاركنا تناول الغذاء، لكن هذا التطفل الجزئي؛ بصورة أو بأخرى، كان أفضل من الوضع السابق.

توفيت والدة زوجي عن عمر يناهز 55 عاماً ، وبعد سنوات قليلة لحق بها زوجها، وبدأت زيارات سيد تزداد عن ذي قبل، وذات مرة ضبطته مع ابنة الجيران في وضع مخل، تزوجها فيما بعد، وكان ذلك من دواعي سروري؛ فقد كنت أحسب ذلك سبباً يجعله يبتعد، كان هدفي دائماً يتركز في إبعاده قدر استطاعتي، ولكن حقيقة الأمر جاءت على خلاف ذلك؛ لأنه تزوج ابنة الجيران في بيت أمها وتحديداً في شقتها المجاورة لنا، وكان ذلك ذريعة أن يتردد علينا ليشاركنا طعام الغداء أكثر من ذي قبل.

الحياة في مصر تختلف عن الحياة في الخارج بصورة كلية، فالحياة

الزوجية لا تعني الانفصال عن العائلة والحياة بصورة مستقلة، كان ارتباط أحمد بشقيقه سيد ارتباطاً وثيقاً إذ كان من الصعب عليه فعل أي شيء دون استشارته، وكان سيد يعرف ذلك جيداً، وقد استفاد دوماً من هذا الوضع، كان دائما يرغب في إزاحتي عن الطريق، ففي كل مرة كنا نسافر فيها إلى ألمانيا كان يعتقد – بل يرغب- في بقائي مع أولادي دون رجعة؛ تلك كانت أمنيته التي كنت على دراية تامة بها، والتي جاهدت دوماً كي لا أحققها له، وكنت حريصة على الدفاع عن أسرتي، والحفاظ على زواجي وأطفالي، لذلك كنت متواجدة دائماً مع أسرتي وزوجي، ولا يمكنني أن أغفل دور أسرتي في الدعم والمساندة إذ ساعدني والدي في أزماتي المالية المستمرة، وكانت زيارات الأصدقاء والأسرة والأقارب من ألمانيا سبباً في رفع معنوياتي.

تعرفت على سيدة ألمانية متزوجة من رجل مصري يحمل لقب "باشا" سابق، أصبحنا أصدقاء، وكانت أول من اصطحبتني إلى نادي التجديف الذي أعجبني كثيراً، فاشتركت فيه وأصبحت عضوة، وهكذا، بدأت من جديد في ممارسة رياضة السباحة، الأمر الذي جعلني أستعيد التوازن في حياتي مرة أخرى، ومازلت أسبح حتى يومنا هذا، وبصورة منتظمة، لأنني أستطيع ارتداء لباس البحر والنزول إلى حمام سباحة كبير به مياه البحر الطبيعية دون التعرض لنظرات الفضوليين أو المتلصصين، في ظل توافر الأمن والحراسة، على عكس الشواطئ العامة بالأسكندرية إذ تجد النساء ينزلن إلى البحر بكامل ملابسهن، وبالطبع، لا يستطعن السباحة كما ينبغي، إذ تبتل ملابسهن وتصبح ثقيلة وتعوق حركتهن في الماء.

لقد تغيرت الأمور كثيراً عن فترة قدومي إلى مصر للمرة الأولى عام 1966، فحالياً معظم النساء يرتدين ملابس محتشمة بأكمام طويلة وياقات عالية تغطي الرقبة، ويغطين رؤوسهن، وأحيانا ترى بعضهن يرتدين ملابس

سوداء تغطي الجسم بأكمله وتُظهر العينين فقط، ولكن زوجي أحمد لم يطلب مني – طيلة فترة زواجنا – أن أرتدي الإيشارب.

كنت أتردد على دار البحارة، تلك الدار بمثابة نادي للبحارة الألمان، ولديهم تصريح بالنزول على شاطئ الإسكندرية، ويوجد بتلك الدار غرف للإقامة والمبيت، ورجل دين "قس" ألماني، ومطعم، وأنشطة عديدة لقضاء أوقات الفراغ، وسرعان ما تعرفت هناك على سيدات ألمانيات، وياله من أمر ضروري! وجود علاقات تعارف وصداقات بين أشخاص لديهم نفس الميول الفكرية، يجمع بينهم قواسم مشتركة، وخاصة في بلاد الغربة، لأن أبناء الجالية الواحدة يشكلون دعماً ومساندة معنوية، مما يجعل الحياة أكثر سهولة ويسر، ويحول دون إحساس الفرد بالحنين للوطن وما يكتنف هذا الإحساس من وحشة ووحدة وفقدان التواصل.

مازلت أجد صعوبة في تكوين صداقات حقيقية مع المصريين، فمن خلال تواجدي في مصر وعشرتي مع المصريين طيلة السنوات التي قضيتها هنا، للأسف وجدت أن المصريين يميلون إلى العلاقات المقترنة بالمنفعة، ودائماً ما يسعون إلى الأخذ دون العطاء، ويقدمون الخدمات – فقط حين يعتقدون أن في مقدورهم نيل المقابل، ولكنى دائماً ما أجد علاقتي الودودة معهم مدعاة لسروري، مع الاحتفاظ بإطار دائم يحكم تلك العلاقة، ومسافة معنوية تحول دون تعرضي للسلبيات.

بعد وفاة والد أحمد، أردنا أن نبدأ مشروعاً تجارياً آخر فقررنا أن نفتح محل أزياء، بعيداً عن محل البيتزا، لقد كان الوقت مواتياً، فقد انتهج الرئيس السادات سياسة الانفتاح على العالم، وهكذا، أمكننا المتاجرة في الملابس المستوردة من إيطاليا وإنجلترا بعد أن فُتح باب الاستيراد، قررنا أن نتناسى

خلافاتنا مع سيد ونستعين به كي يعمل معنا في إعادة تشكيل الديكورات الداخلية للمحل، مع أنه كان دوماً سبباً في كثير من المشاكل والمضايقات التي حدثت لنا سابقاً، ظل العمل على قدم وساق طوال ستة أشهر تكبدنا خلالها مشقة وجهدًا حتى تتم أعمال الترميم والصيانة والبياض والديكورات الداخلية لمحل الأزياء، وأخيراً انتهت المهمة الصعبة وتكللت الجهود المبذولة بفرحة النتيجة النهائية الرائعة، امتلأ المحل بالبضائع التي أقل ما توصف بأنها جميلة، وبدأ الزبائن يتوافدون علينا، وذاع صيتنا، لدرجة أن نجوم السينما كانوا يترددون على المحل للشراء منه، ولأول مرة بدأت الأموال الطائلة تتدفق علينا، وكنا سننعم بهذا الثراء لولا وجود الأقارب الأعزاء! عائلات صابر وسيد الذين بدؤوا في الاستيلاء على بضائع المحل، ظناً منهم أن من حقهم الحصول على كل شيء فيه بصورة مجانية بحجة أنهم جميعاً عائلة واحدة، ولكن واقع الأمر أن تلك العائلة كانت مليئة بالأحقاد.

عملت في المحل وكنت دائماً متواجدة وكان وجودي عامل جذب للزبائن، لأن الجميع كانوا يعتقدون بأنه محل أزياء السيدة الألمانية، الأمر الذي لم يكن مألوفاً في ذلك الوقت، ولكن الأسرة لم تشعرني بأهمية تواجدي على الرغم من تأييدهم لعملي في المحل؛ حتى لا يكون لذلك اعتبار عند تقسيم الأرباح، فالجميع يرغبون في حصص متساوية من الربح ،على الرغم من قيامي بأداء الجزء الأكبر من الجهد.

قام صابر برفع دعوى قضائية على شقيقيه أحمد وسيد، لقد كانت دوماً الإجراءات القضائية في مصر أموراً غامضة بالنسبة لي ولم أفهمها، فهناك دائماً العديد من الثغرات القانونية التي يتم استغلالها، وحينما يتعلق الأمر بقضايا الإرث، هناك العديد من الأساليب الملتوية، وهكذا، لم يتم تقسيم الإرث بصورة عادلة، وقام صابر باستثمار نصيبه في المحل، هكذا

كان الوضع الذي ارتضاه، رغم أنف الجميع، لقد كانت الدعوى القضائية التي قام برفعها على أشقائه بمثابة العبء الثقيل وهكذا، لم تصفو النفوس في ظل وجود الضغائن، وفي نهاية الأمر، استوجب الوضع تصفية المحل، إذ كان علينا أن نجد محلاً آخر نبدأ فيه مشروعًا آخر، وحصلنا في مقابل نصيبنا على قطعة أرض بعنا جزءاً منها وبثمنها استطعنا الحصول على محل معروض للإيجار بالقرب من مسكننا، اشتريناه وبدأنا من جديد في تأسيسه وإعداده، واستوردنا ديكوراً داخلياً رائعاً من الدنمارك، وبعد بذل المزيد من الجهود، جاءت النتيجة مبهرة، وهكذا تحسنت الأوضاع بفضل وقوفي بجانب زوجي ومساعدتى له يداً بيد، واستطعنا استعادة توازننا مرة أخرى بعد رواج تجارتنا، وبعد فترة وجد سيد قطعة أرض فضاء خربة قمنا بشرائها وأعدنا بناءها وحولناها إلى محل جميل، وامتلأ المحل بالبضاعة؛ إذ كنا نستثمر الأموال التي نجنيها من بيع محصول البرتقال، بصورة كلية، في شراء بضاعة ليتم بيعها في المحلين، وزاد الدخل، وتوافرت لدينا الأموال الكافية لامتلاك شقة في منطقة رشدي مناصفة بيني وبين زوجي أحمد، في ذلك الوقت التحقت البنتان بالجامعة، أما ابننا كريم فكان لا يزال يدرس في كلية فيكتوريا.

كانت الأمور تمضي في سهولة ويسر، وأحسسنا بالاستقرار والهناء العائلي والارتياح المادي، ولكن الأحقاد أطلت برأسها مثل الأفعى التي تخرج من الشق لتنفث سمومها، وكان مصدرها هذه المرة؛ سيد وأسرته، امتدت يدهم لتخرب الديكورات التي صنعناها، ولتسرق النقود من الخزينة، ولتستولي على ملابس المحل دون مقابل، وتفاقم الأمر ليصل إلى إشعال النارفى المحل عمداً، وأجريت التحقيقات ولكن القضية قيدت ضد مجهول ولم يعرف سبب اشتعال الحريق، وهكذا تحول محل الأزياء إلى رماد ودخان .

لقد كان الحقد هو الوقود الحقيقي الذي أضرم تلك النيران.

لحسن الحظ، استرددنا مبلغاً من التأمين وكان علينا أن نبدأ مرة أخرى ونعيد الكرة من جديد، لقد سأمت تلك العائلة التي أتت على صبري واستنفدته، كان هدفي دوماً الاستقلال والبعد عن تلك العائلة التي ضقت بها ذرعاً ولم أعد قادرة على تقبلها، كان لابد لنا من امتلاك محل خاص بنا وحدنا، وبعد مناقشات عديدة طالت بيني وبين أحمد توصلنا لإمكانية إدارة محل واحد من المحلات، وأخيراً شعرت بمتعة حقيقية وأنا أعمل؛ كنت أشترك مع البائعات في تسويق وبيع البضاعة، وتنسيق المعروضات داخل المحل، كان علي أن أرفع درجة يقظتي، لأن السرقة كانت أمراً شائعاً؛ يظل المحل مفتوحاً في فترة الغداء وأجلس فيه أو ينوب عني أحمد أو يمكن أن نغلقه في تلك الفترة من النهار، هكذا استمر الوضع رائجاً في ظل تحسن الظروف في فترة الثمانينيات من القرن الماضي.

درست ابنتي ياسمين علم الأحياء، وتزوجت من رجل كريم الخلق حلو الطِّباع من الأسكندرية، وكلاهما أراد أن يبدأ حياته العملية في ألمانيا، أما ابنتي منى فقد تخرجت من كلية الهندسة قسم عمارة من جامعة الأسكندرية، ولحقت بأختها في ألمانيا، وبعد فترة قصيرة سافر ابني كريم إلى ألمانيا أيضاً، وبدأ في تلقي التدريب اللازم لكي يعمل "شيف مطبخ".

فجأة شعرت بالتعب وأصابني الضجر والملل من الحياة في مصر، ومما صعد هذا الإحساس لدي هو تدخل سيد في حياتنا مجدداً؛ لقد كان دوماً شخصية تسعى لخلق المتاعب وإثارة المشاكل، وعلى الرغم من تحسن الظروف المالية والأوضاع المعيشية إلا أنني عقدت العزم على العودة إلى ألمانيا وأقنعت زوجي بأن نجرب حظنا هناك وأن نقوم بفتح محل مثلما فعلنا في الإسكندرية.

سافرنا إلى ألمانيا بعد أن قمنا ببيع جميع ممتلكاتنا، أخذنا المال وبعض المتاع البسيط، وذهبنا إلى فرانكفورتFrankfurt، حيث يقيم أولادي، واستقبلونا بترحاب وحفاوة زائدة، انتقلنا معهم إلى فورزيم Phorsheim، وقسمنا النقود على أبنائنا الثلاثة ليشق كل واحد منهم طريقه وهم في مقتبل الحياة، وما تبقى معنا كان يكفي لشراء بوتيك صغير في كارلسرو Karlsruhe، اشتريناه من رجل إيطالي أعلن إفلاسه، وكان مطلوب منا دفع إيجار كبير للبوتيك، تعرفنا على سمسار عقارات الطبقة الراقية بعد مضي عدة أشهر وعرفنا منه أننا تعرضنا لعملية نصب من الرجل الإيطالي، كما أن صاحب العقار الذي يوجد به المحل أراد طردنا ولكننا ماطلنا مدة عام ونصف؛ باشرنا خلالها أعمال التجهيزات والإدارة والتشغيل، لكن رغم هذا الجهد لم تفلح مساعينا في نهاية المطاف، لقد أدركنا أن إدارة محل في ألمانيا أصعب من إدارة مثيله في مصر، إذ كان علينا أن نتقدم كل ثلاثة أشهر لتسوية الأمور الضريبية وتقديم كافة الأوراق اللازمة للإقرارات والمحاسبة وخلافه، لقد كانت مهمة شاقة ومرهقة وتبعث على السأم.

كما أن شراء بضاعة للمحل كان يتطلب مني السفر إلى سيندلفينجن Sindelfingen بالقرب من ستوتجارد Stuttgart، حيث يوجد العديد من بيوت الأزياء والعديد من صالات العرض الخاصة بتجارة التجزئة في تلك المدينة، وكان عليَّ أن أبحث بنفسي في أربعة متاجر تابعة لبيوت الأزياء وكانت مؤلفة من خمسة طوابق وكان عليَّ أن أفتش عن بعض الملابس المقبولة من حيث السعر والموديلات، وبعد كل هذا العناء أعود إلى البوتيك الذي اتسمت زبائنه بالاقتصاد والتقطير، لدرجة أنني أحسست أن ارتيادهم البوتيك كان بهدف الثرثرة، وليس الشراء!

عشنا جميعاً سوياً في البداية، حتى وجدت ابنتي منى وظيفة في

مكتب للهندسة المعمارية في مدينة هامبورج Hamburg، فانتقلت إليها، وهكذا أصبح علينا أن ندفع إيجار شقتنا بالكامل، في الوقت الذي كان دخل المحل لا يكفي لتسديد كل تلك النفقات، لذلك اضطررت للعمل في محل أحذية لأحصل على دخل إضافي، لكنني لم أجد نفسي في هذا العمل ولم أشعر بالارتياح في تعاملي مع مديرة المحل التي كانت تعاملني بأسلوب فج ولم يكن في المحل ما يدعوني للبقاء، لم أجد الأمر مسلياً على الإطلاق، كل تلك الظروف جعلتني أحن شوقاً إلى مصر ولقد كان حنيني إليها صادقاً وفجائياً.

توفي والدي العزيز في كيل Kiel، وكنت قد أهملته وغفلت عن زيارته قبل وفاته بسبب كثره انشغالاتي، وبدأت أمي تشكو وتتذمر من عدم قدرتها على تحمل أعباء إدارة شئون المنزل والحديقة، لم تصبح كسابق عهدي بها، فحين ذهبت إليها في إجازتي، وجدتها شخصية أخرى أتى عليها الحزن وأصابها بالاضطراب السلوكي، فتارة تجنح لسوء الظن والنية، وتارة أخرى تنزوي وتجد في احتساء كئوس الخمر والشمبانيا ملاذاً للهروب من متاعبها النفسية، الأمر الذي أفقدها توازنها وجعلها عرضة للسقوط في براثن الاكتئاب، أما المنزل فقد أشعرني بالخواء المعنوي واستشعرت فيه غرابة، ومما ضاعف من إحساسي هذا هو خلوه من ساكنيه على خلاف العهد السابق، أما الحديقة فكانت أشبه بالغابة بعد أن طالتها عوامل الإهمال والتوحش؛ الأشجار متضخمة لم تشذب منذ فترة طويلة والأوراق المتساقطة تكاد تنطق بالأسى، وبدت أمي وسط تلك الأجواء مثل بطلة مأسوية تنعى الأقدار في مرثية.

حاولت جاهدة أن أرتب المنزل وأعيد تنظيمه، لكن دون جدوى، فلم ترغب أمي في التخلص من أي شيء قديم، كل شيء في المنزل كان يحمل

لديها ذكرى وكان يصعب عليها التفريط فيه، هذا الجو أصابني بالتوتر والانضغاط النفسي ولم أقو على البقاء، فاتصلت بشقيقتي جودرن Gudrun التي دعتني لزيارتها في برلين Berlin، فلبيت دعوتها وهناك سافرنا معاً إلى أمروم Amrum، وأولدنبرج Oldenburg بعد أن قضيت فترة استرخاء قصيرة في منزلها. وبعد ذلك ذهبنا إلى الدانمرك، لقد كانت شقيقتي الكبرى دوماً بمثابة مثال نموذجي لي، كنت أشعر في صحبتها بالراحة، ولكنني أحسست فى تلك الفتره أنها أرادت أن تبعدني عن أمي وكانت دائماً ما تعارض أمي في أمر السفر إلى مصر للإقامة معنا، ولكنني لم أدرك ذلك إلا في وقت متأخر.

عدت أدراجي إلى فورزيم Pforzheim، واتخذت أنا وزوجي قرار العودة إلى مصر، أغلقنا البوتيك وأعدناه إلى صاحب العقار، وتركت وظيفتي في محل الأحذية وجمعنا ما تبقى معنا من مدخرات وحزمنا حقائبنا مرة أخرى وعدنا أدراجنا إلى الإسكندرية !، قام سيد باستئجار شقة كبيرة مكونة من ستة غرف في العمارة التي يقيم فيها، وكنا قد حولنا له مبلغاً كبيراً من المال كي يقوم بتجديد طلائها قبل وصولنا، وكان من البديهي أن يقتنص سيد نصف هذا المبلغ لنفسه ليجد مستقره في جيبه، ورغم ذلك كانت تغمرني السعادة البالغة، فأخيراً أصبح لدينا شقة كبيرة تطل على البحر.

كان سيد يزورنا في فورزيم Pforsheim بألمانيا بصحبة زوجته وابنته، ووعد أحمد بأنه يستطيع أن يستأنف العمل في محله مجدداً، ولم يمر وقت طويل، بعد وصولنا إلى الإسكندرية، حتى اتضحت نواياه وأدركت مجدداً أنه أراد أن يحصل على مدخراتنا وبالتأكيد سمح لنا بتنظيف المحل وترتيبه وتجهيزه بالملابس ولكن الدخل كان يجد طريقه من ماكينة النقدية إلى جيب سيد !، لقد أراد أن يستخدم أموالنا وجهدنا لمنفعته الشخصية.

لم أكد أمضي فترة وجيزة في مصر حتى احتاجتني أمي بجوارها، لقد أرادت شقيقتاي بيع بيت العائلة وتوزيع الميراث، إذ كانتا ترغبان في الاستقرار في أسبانيا، وكان المطلوب إخلاء المنزل وبيعه، فذهبت إلى ألمانيا متجهة إلى كيل Kiel، وبحثت عن مشتر لكل متعلقات المنزل ومحتوياته من أثاث تراكم وتجمع على مدار خمسين عاماً وأكثر: مدة زواجها من أبي، وتم إخلاء المنزل من الأثاث، وتمت إجراءات بيع المنزل بالكامل، وتم تقسيم الإرث، وأودعنا أمي في دار لرعاية المسنين، وبنصيبي أردت أن أقوم بتجهيز شقتي في الإسكندرية، لأنها كانت خالية تماماً، وكان نصيبي من الميراث كافياً لشراء أثاث بسيط ومريح، وبعد فترة، وعندما تحسنت أحوالنا المادية قام أحمد بشراء شقة وسجلها باسمي.

حاولنا على مدار السنوات ـ بصورة أو بأخرى، وعن طريق العمل أن نجني المال، ولكننا لم نستطع أن ندخر الكثير من أموالنا.

عندما بلغت أمي سن الخامسة والسبعين استقدمتها من ألمانيا كي تعيش معي في الأسكندرية، فلم تكن حديثة العهد بمصر، فقد عرفتها كثيراً أثناء أجازتها التي كانت تقضيها هنا بصحبتنا، كان في مقدورها أن تعتمد في معيشتها على معاشها التأميني الذي كانت تحصل عليه، كما أنها وجدت في الإسكندرية الكثير من الاهتمامات التي تسليها، لقد أحبت مصر دوماً، ويبدو أن مصر هي الأخرى بادلتها حباً بحب !؛ فبعد مرور خمس سنوات قضتها معي في الإسكندرية، توفيت وهي نائمة وفي هدوء تام أسلمت الروح، وتم دفنها في مدافن الكاثوليك، وهكذا، احتضنتها مصر إلى الأبد.......

عادت ابنتنا منى للإسكندرية لتتزوج من طبيب أسنان مصري، وأثمر زواجها عن ثلاثة أطفال(ابنتين وولد)، وعلى الرغم من ذلك سافرت مجدداً

إلى ألمانيا، وبقيت هناك مدة تسع سنوات، وحاولت دوماً أن تقنع زوجها بالاستقرار في ألمانيا بصفة دائمة، لأن زوجها كان شديد التعلق بوالدته، ولكن بعد تفكير طويل في مستقبل أولادهما، وجدوا أن المستقبل في ألمانيا أكثر وعدا؛ وهكذا أصبح كل أبنائي متأرجحين بين ألمانيا ومصر؛ تماماً كما كان الحال معي.

بعد مرور فترة وجيزة على وفاة والدتي، قام أبنائي باستدعائى إلى فورزيم مجدداً، لكن الحياة أصبحت في عيني مختلفة، وخصوصاً بعد رحيل أبي وأمي، وبُعدي عن مدينه كيل Kiel، ومما زاد من هذا الشعور الغريب هو أنني لم أعد أتواصل مع أختيَّ، فكان هناك سؤال دائم يدور في أذهانهم لم يعرفوا له إجابة شافية:

- لماذا أخذت أمنا من ألمانيا إلى مصر؟!

رغبت ابنتي ياسمين في بقائي معها كي أساعدها في إدارة شئون منزلها الكبير وحديقتها، ولكني بعد مضي ثلاثة أشهر، عاودت أدراجي إلى الإسكندرية، وإلى نادي التجديف الذي افتقدته كثيراً.

بعد قضاء أربعين عاماً في مصر، أستطيع أن أقول إن الحياة قد تغيرت تماماً، لقد طالتها عوامل التقدم ومظاهر الحداثة، وأقرب مثال على ذلك، المحلات الضخمة المنتشرة في كل مكان، والسلع والبضائع متوافرة، ونستطيع شراء ما نرغبه.

لا يوجد لدي ما يمكن أن أشكوا منه أو أتذمر تجاهه، فالمصريون هنا يعاملون الأجانب بمنتهى الأدب والاحترام، ويشعرون بسعادة بالغة إذا ما وجدوا شخصاً أجنبياً يتحدث معهم بالعربية؛ الأمر الذي يجعلهم أكثر وداً ويشعرهم بمزيد من التواصل والألفة.

في هذه الأيام، أذهب إلى" نادي سبورتينج" بصورة منتظمة، وأذهب إلى "النادي الدولي للسيدات" كل ثلاثاء، أتقابل مع معارفي من السيدات اللاتي يتحدثن الإنجليزية، والفرنسية، والألمانية، واللغة العربية أحياناً، ودائماً ما نشعر بالرغبة في التحدث بالعربية فيما بيننا لأنها كانت دوماً تجمعنا بشكل طيب وكأنها شاهدة على سنوات الماضي الذي عايشناه وتعايشناه، نتفق فيما بيننا أن مصر قد تغيرت كثيراً، ودائماً ما نتبادل الحديث عما يستهوينا وما لا يستهوينا في مصر، ولكن اختلاف الآراء بيننا لم يفسد- يوماً- للود قضية، لأننا نتواصل معاً والحياة تمضي في سلام.

معهد جوتة Goethe هو ملتقى جميع السيدات اللاتي يتحدثن اللغة الألمانية، كما أن هناك سيدات من جنسيات أخرى- مثل فنلندا - يتحدثن الألمانية بطلاقة، إن الاجتماعات التي تتم فيما بيننا هناك ليست مجرد لقاءات عابرة وجلسات دردشة، بل على العكس، إنها لقاءات هادفة وبناءة قوامها المشاركة في القضايا الاجتماعية في مصر، وفي كل عام تقام سوق الكريسماس (أعياد الميلاد المجيد). وتكون مناسبة لجمع التبرعات والمساهمة في المشاريع الخيرية التي يقع اختيارنا عليها للمشاركة ولتقديم الخدمات.

لقد اختلف الأمر عن السابق، وقد ساهمت أسباب التكنولوجيا الحديثة في تفعيل التواصل والترابط بين الأشخاص والأوطان؛ فاليوم معظمنا لديه تليفزيونات وأطباق هوائية لالتقاط ما تبثه الأقمار الصناعية من محطات تليفزيونية وهكذا أمكننا استقبال البرامج الدولية والتي تتضمن جميع القنوات الألمانية، وهكذا، ضعفت وطأة البعد عن الوطن.

في السنوات الأخيرة أصيب زوجي بمرض عضال، وتوقعت أن يكون مرضه سبباً في رحيله، لينتهي بي الأمر وحيدة، ولكن مخاوفي تبددت بعد أن

تماثل للشفاء واسترد عافيته بدرجة معقولة، في الوقت الحالي أحيطه برعايتي وأقدم له أفضل ما عندي من اهتمام وعناية.

أذهب إلى نادي التجديف بصفة منتظمة لأمارس رياضة السباحة، وأحياناً أذهب إلى شاطئ كليوباترا كي أجمع قطع الخزف الأثرية التي أعثر عليها.

في العام الماضي، جاءت جماعة مؤلفة من علماء آثار مصريين وفرنسيين وقاموا بانتشال بعض ما وجدوه في شاطئ البحر المتوسط، لابد أن هناك المزيد من التحف التي لا نهاية لها، فكل قطعة آثار تحمل سراً من الأسرار، إنها قصة خالدة لا تنتهي امتدت عبر العصور، لا أشعر تجاهها سوى بالولع الشديد، لقد عشقت دوماً جماليات تلك الحضارة، وقد كان مقدراً لي أن أعيش على أرضها مع زوجي منذ أربعين عاماً منذ أن كان عمري ثمانية عشر عاماً وحتى بلوغي ثمانية وخمسين عاماً.

بداخلي رغبة ملحة أتمنى لو تحققت:

- " أرغب لو امتدت بنا سنوات العمر كي أحيا مع زوجي على تلك الأرض الطيبة فترة أطول". [1]

وبعد .. يحضرني قول الشاعر:

هكذا أنا، وليس في مقدوري أن أعبر بصورة أخرى.

تغمرني السعادة وأشعر بنشوتها بضع لحظات.

إذا ما شعرت بأنني أحلق عالياً نحو الشمال،

(1) قدمت لي رينيت هذه القصيدة، وهي لشاعر مجهول، ولكنها تحمل بين أبياتها المشاعر الممتزجة التي عايشتها رينيت طيلة حياتها.

ما ألبث أن تتملكني الرغبة في النزوع نحو الجنوب

ولا يوجد ما يمكنه أن يحول بيني وبين تلك الأجواء

ما إن حققت ما أريد ، أرغب في أن أحقق النقيض

أقف قرب الشاطئ شاخصة البصر نحو البحر المتلاطم

وما أن تمر بضعة أيام قليلة حتى تتراءى في مخيلتي روعة الجليد

إذا وجدت أناساً حولي، رغبت في العزلة والوحدة

وإذا طوقتني الوحشة، رغبت في مزيد من الرفاق

إن كنت أحيا وسط ضوضاء المدينة.

أود لو رحلت إلى قرى الريف حيث الراحه والسكينة.

عليك أن تصدقني القول أيها الرفيق.

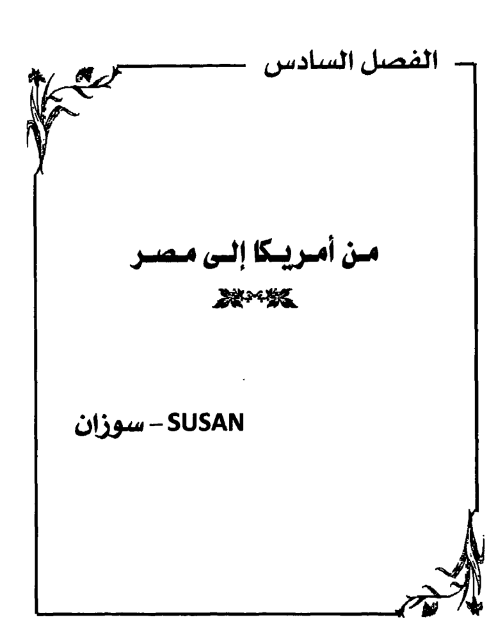
لماذا أجد نفسي دائماً طواقه للاعتقاد

بأن الضفة الأخرى لنهر الحياة ستكون الأفضل

لماذا كانت فرصتي دوماً مسروقة ؟

أتراك مثلي تشعر أحياناً بنفس ما أشعر به ؟

*****



الفصل السادس

من أمريكا إلى مصر

SUSAN – سوزان

قابلت تلك السيدة في إحدى المناسبات التي أقيمت بالنادي الدولي للسيدات بالإسكندرية، تدعى سوزان Susan وهي أمريكية ولا تجيد التحدث بالألمانية، لذا اشتركنا معاً أنا وهي في كتابة قصتها باللغة الإنجليزية بغرض صياغتها ضمن هذا الكتاب، تتمتع سوزان بشخصية ثرية تفيض بالتفاؤل والمصداقية، تتعامل مع الآخرين بمرونة ولا تجد صعوبة في التواصل مع الآخرين، تتمتع برشاقة في الحوار وانسيابية في الأفكار وإيجابية في التعامل، كل تلك المقومات جعلتها شخصية محبوبة من الجميع وأكسبتها شعبية عالية.

لقد كان لديها استعداد ورغبة في سرد قصتها المشوقة وها هي :

ولدت ونشأت في مدينة نيويورك New York، كنت أبلغ من العمر 15 عاماً حين توفي والدي، وبعد أن مر عام على رحيله تزوجت أمي من رجل أرمل ويعول ثلاثة صبية في نفس عمري، تقبلت هذا الوضع أنا وشقيقتي الصغرى، وتأقلمنا نحن الأولاد الخمسة، على الظروف الجديدة التي جمعتنا معاً ولم يمثل لنا هذا الزواج أي مشكلة، كنا قد كبرنا وأوشكنا على مغادرة المنزل؛ كل في اتجاه : سواء الالتحاق بالكلية أو الانضمام للجيش لتأدية الخدمة العسكرية، وكنا سعداء لسعادة والدينا.

شهد عام 1964 تخرجي من كلية متوسطة، كنت وقتها أبلغ من العمر عشرين عاماً، والتحقت بوظيفة سكرتيرة طبية، وكنت أسافر في الإجازات الأسبوعية إلى ولاية نيوجيرسي new jersey لأقابل صديقي في جامعة برنستون، ولكن للأسف لم تنجح علاقتنا، ولكن في فبراير 1965، عاودت زيارة الجامعة وكان هدفي أن أستعير من مكتبة الجامعة كتاباً علمياً لأخي الأوسط، وحينما دخلت للمكتبة ـ كانت اللحظة التي جمعتني بزوج المستقبل؛ شاهدت طالباً يصعد الدرج ويحمل تحت ذراعه مجموعة من

الكتب، وجهه بشوش تعلوه ابتسامة وضاءة تضفي على قسماته هالة خاصة من الجاذبية، بادرت بسؤاله عن قسم الكتب العلمية، فصحبني معه وساعدني في العثور على ضالتي، ثم ذهبنا معاً إلى كافيتيريا الكلية ودعاني لشرب فنجان من القهوة، شعرت تجاهه بالانجذاب والتقارب وبادلني نفس شعوري، عرفت يومها أنه مصري الجنسية ويدعى حمدي، ويقوم بتحضير رسالة الدكتوراه في فن العمارة، تبادلنا أرقام التليفونات، واتفقنا على اللقاء مجدداً.

كان أول لقاء لنا في الإجازة الأسبوعية التالية، تقابلنا في إحدى المحاضرات التي كان عليه المشاركة فيها بالحضور والإلقاء، اعتقدت أن الأمر سوف يكون مفيداً كي أعلم عن تخصصه المزيد، جلست في الصف الأخير من صفوف القاعة، وتوقعت أن تفاصيل المحاضرة ستتسم بعدم الوضوح بالنسبة لواحدة مثلي غير متخصصة في هذا المجال؛ لقد كانت المحاضرة بمثابة مؤتمر علمي يجمع أساتذة قسم العمارة في ولاية نيوجرسي، New Jersey وبدأت فعاليات المؤتمر وبدأ رئيس المؤتمر في تقديم حمدي باعتباره متحدثاً وكان موضوع المحاضرة عن:

"القيم المعمارية في آثار الأقصر"، بدأت المحاضرة وجلس الرئيس بجواري في الصف الأخير من القاعة، بهرني حمدي بأسلوبه وثرائه العلمي وطريقته في الإعداد والتقديم وإجاباته على الأسئلة التي طرحت عليه في نهاية المحاضرة.

سألني رئيس المؤتمر إن كنت مهندسة معمارية، فأجبته قائلة:

ـ لا، ولكن بيني وبين المتحدث موعد.

فأردف قائلاً:

- " هذا الشاب واعد ومستقبله مبشر للغايةً ".

تعددت لقاءاتنا بعد ذلك؛ كنا نتقابل في العطلات الأسبوعية، واستمر هذا الأمر عدة شهور؛ ذهب لمشاهدة العروض السينمائية ومباريات كرة القدم، ونتنزه سيراً على الأقدام لفترات طويلة، اكتشفنا أن هناك أهدافًا مشتركة تجمع بيننا، وكان من الطبيعي أن يفكر حمدي في الحضور إلى نيويورك New york في إحدى عطلات نهاية الأسبوع لمقابلة والدتي وزوجها؛ لقد أفصح عن رغبته في الزواج مني، وكان من البديهي أن يحاولوا معرفة خططه المستقبلية ونواياه، وظروف حياته في مصر، فأخبرهم حمدي أنه سوف يعود لمصر ليعمل بها مدة سبع سنوات؛ فقد تكلفت الحكومة المصرية بمصاريف المنحة الأكاديمية التي حصل عليها بالولايات المتحدة الأمريكية، وعليه الآن أن يقوم بتسديد الدين في صورة العمل، وهكذا تصورنا أنه سيعيش في مصر مدة سبع سنوات ليعود بعدها إلى الولايات المتحدة الأمريكية، كانت أمي تتوجس خيفة من هذا الزواج، وكانت تخشى على مستقبلي في تلك البلاد الغريبة ولكنها لم تعترض هي أو غيرها ولم تفصح لي عما كان يجول بخاطرها تجاهي إلا بعد مرور عدة سنوات، تمت خطبتنا عام 1965، وبعد شهرين تم زواجنا داخل كنيسة وبشعائر ومراسم إسلامية.

اجتهد حمدي للحصول على درجة الدكتوراه وعكف على أبحاثه واستكمال مشروعه المطلوب، وبالفعل قدمه في العام التالي ونال درجة الدكتوراه، لكن تخرجه الرسمي كان سيتم في شهر يونيو، وكنت وقتها حاملاً، فلم يكن في مقدورنا الانتظار؛ إذ كان علينا أن نعود أدراجنا إلى مصر كي أضع حملي هناك، فمن السهل علينا أن نسافر عبر أوروبا ونحن اثنان، بدلاً من أن نتحمل عناء الرحلة ونحن حاملين الطفل الوليد بين أيدينا.

لم يكن قد سبق لي السفر خارج الولايات المتحدة الأمريكية، وكانت تلك هي المرة الأولى التي أكون فيها على متن طائرة، ولقد كانت تلك الرحلة مشوقة ومثيرة، ومليئة بالمفارقات، كنت أعتقد أنني لن أواجه صعوبة في التخاطب مع الأشخاص في إنجلترا واسكتلندا، ولكنني فوجئت بلهجاتهم الصعبة وطريقتهم الغريبة في نطق الكلمات والحروف، وكان من الصعب عليَّ فهمها، وبعد ذلك سافرنا إلى بلجيكا وهولندا، ثم إلى فرنسا، حيث تقابلنا مع منير شقيق حمدي، الذي كان يدرس هو الآخر في باريس Paris للحصول على درجة الدكتوراه في الاقتصاد، وهكذا كان التقاء الشقيقين بعد فراق دام ست سنوات بمثابة لم الشمل المقترن بالفرحة والألفة والسعادة الغامرة.

توجهنا بعد ذلك أنا وزوجي حمدي إلى ألمانيا وأخذنا سيارتنا الفولجس فاجن من مدينة ولفسبرج Walfsburg، وانطلقنا إلى سويسرا ثم إلى إيطاليا ومن ميناء نابولي Naples ركبنا السفينة وشحنا أمتعتنا وسيارتنا إلى ميناء الإسكندرية، وأثناء الرحلة كان هناك حديث جمع بيني وبين طبيب السفينة الذي أوضح لي مخاوفه بشأني؛ إذ كنت وقتها حاملاً في شهري السابع وكانت بطني كبيرة بدرجة واضحة وكان يخشى علي أن تفاجئني آلام المخاض وخصوصاً أنه لم يقم بأي عملية توليد منذ ثلاثين عاماً وكان يخاف علي من أمر عبور البحر المتوسط، والعواصف ودوامات الرياح، فقد كان البحر في ذلك الوقت هائجاً، مما أدى إلى إصابة معظم المسافرين بدوار البحر، مما جعلهم يلزمون أماكنهم داخل كبائنهم، إلا أنا؛ فقد توجهت إلى صالة الطعام إذ كنت أتضور جوعا وكنت الوحيدة المتواجدة هناك، استمرت مظاهر الطبيعة الثائرة في الإعلان عن نفسها واستمرت العواصف، وارتفاع موج البحر الهائج، وكانت السفينة تقترب من ميناء الإسكندرية

ولكن الوضع كان خطيراً ومنذراً بالسوء، فما كان من قبطان السفينة سوى أن قام بتغيير مسارها متوجها إلى بيروت حتى تهدأ الأجواء العاصفة، ثم يعاود المضي في طريقه نحو ميناء الإسكندرية، وبالفعل وصلنا إلى ميناء الإسكندرية بعد حوالي أربعة أيام من التعرض للطقس السيئ، ووجدنا في انتظارنا والد حمدي وشقيقه الأكبر وصهره الذين مكثوا في الميناء طيلة يوم كامل ينتظرون قدومنا، لم أكن على دراية بالتقاليد المتبعة في مصر، وهكذا، وبعد مرور ثلاث دقائق لي في مصر صدرت عني أول هفوة، إذ بادرت بتحيتهم على الطريقة الأمريكية قائلة "هالو"، ثم قبلت كل الرجال الذين كانوا في استقبالي !، لم يكن زوجي قد أعطاني أي فكرة عن أن هذا التصرف غير مقبول في مصر على الإطلاق (لأن الرجل في مصر يقبل الرجل فقط أو قريباته المقربين، أما المرأة فلا تقبل إلا النساء والأطفال فقط، ولا يجوز للمرأة في مصر أن تقبل رجلاً غريباً عنها.

كان تصرفي هذا بمثابة الصاعقة التي هبطت فوق رؤوسهم، ولكنهم أدركوا ما به من عفوية وبراءة وحسن نية، واستقبلوني استقبالاً حاراً.

بقينا في مدينة الإسكندرية قرابة أسبوعين حتى وصلت سفينة الشحن التي تحمل أمتعتنا وحقائبنا وسيارتنا وتممنا إجراءات الجمرك.

كانت علاقتي بأسرة حمدي تتسم بالود والاحترام، وحين قابلت شقيقة حمدي، وتدعى أميرة، شعرت تجاهها بالألفة وأصبحنا صديقتين حميمتين وأحببت أبناءها الأربعة، ولقد كانت دوماً عوناً لي طيلة السنوات التي مرت منذ أن تعارفنا، وكذلك كانت علاقتي بوالد حمدي ووالدته تتسم بالدفء والمحبة، وكان والد زوجي هو الوحيد – ضمن الأسرة ـ الذي يجيد التحدث بالإنجليزية، لكنني لابد أن أعترف أن عدم معرفتي باللغة العربية

تبدو في ظاهرها عيباً كبيراً – أما في باطنها فقد كانت بالنسبة لي ميزة وأفضلية، لأن عدم وجود حوار حقيقي بيني وبين أسرة حمدي جعلني بعيدة عن معترك الصدام، فلم أتشاجر مع أحد ولم يشكو مني أحد ولم يصدر عني قول مزعج لأحد.

لم يكن في مقدورنا الاعتماد على أنفسنا في السنوات الأولى من حياتنا الزوجية، لذلك ساعدنا والد حمدي من الناحية المادية، ولولاه لما استطعنا أن نتدبر أمور معيشتنا بشكل معقول.

عرف حمدي أنه قد تم تعيينه في وزارة الإسكان بالقاهرة، بدلاً من أن يتم تعيينه في الجامعة، كان راتبه ضئيل جداً لا يكفي لسد الاحتياجات الأساسية من إيجار شقتنا وطعام ومصاريف إضافية خاصة بالمستشفى التي سألد فيها، كما أن القاهرة مدينة كبرى تعج بالزحام والصخب، كما أن جوها مترب، لذلك كانت لدينا رغبة في العودة إلى الإسكندرية حيث الهدوء والجو الأكثر صفاءً.

ولدت ابنتي في الأول من شهر فبراير، وشهد هذا اليوم بداية عهدي بالأمومة لدرجة أنني خشيت أن تتبدل ابنتي بأي طفلة أخرى نظراً لعدم وجود سوار حول معصمها يحمل تعريفًا لها، ضحكت الممرضة حين علمت بهواجسي وخاطبتني قائلة:

- تعالي للحضانة..

فلم تكن ابنتي تحتاج لتمييز، إذ كانت الوليدة الوحيدة الشقراء في الحضانة، أنجبت شقيقة زوجي في نفس الأسبوع، وحين زارني زوجها وأنا في المستشفى قال لي :

- " زوجتي هي الأفضل؛ لقد أنجبت صبيًّا!"

اعتدت على الحياة في القاهرة والتي تكاد تخلو من مظاهر الرفاهية، وكانت دور السينما وقتها مظهراً واضحاً من مظاهر الحياة الاجتماعية، إذ كان الناس يرتدون أفخر ما لديهم من ثياب وكأنهم ذاهبون إلى عروض الأوبرا، كنا نذهب لحضور عروض الأفلام الأجنبية والتي تكون، عادة، ناطقة باللغة الإنجليزية ومصحوبة بترجمة عربية.

مرت فترة ثلاثة أشهر على ميلاد ابنتنا، وقتها قرأ حمدي في إحدى الجرائد عن وجود وظيفة شاغرة يُطلب فيها " أستاذ مساعد " للعمل في جامعة الإسكندرية وعلى الفور بادر حمدي بتقديم طلب للالتحاق بتلك الوظيفة، وبعد عدة أسابيع عدنا إلى الإسكندرية ليشغل حمدي منصبه الجديد، وأقمنا في شقة أسرة حمدي التي كانت تستخدم للمضيف.

استطعنا أن نتدبر أمور معيشتنا، حيث كان الراتب الذي يتقاضاه حمدي من وظيفة الجامعة أفضل - إلى حد ما - عن وظيفته السابقة في وزارة الإسكان.

تعلمت كيفية إعداد الأطباق المصرية واستعنت في ذلك بإرشادات كتاب الطهي، كما أنني كنت أنتهز فرصة دعوة أميرة لنا على الغذاء وأجلس في المطبخ مع الخدم (هفوة اجتماعية أخرى) لأرقبهم وهم يقومون بتجهيز الطعام، شاهدتهم عن قرب وتعلمت منهم، لكنني غيرت في بعض التفاصيل وقمت ببعض التعديلات التي أعتقد أنها كانت للأفضل.

كانت لدي خادمة تبلغ من العمر 15 عاماً، لكنها كانت عديمة الخبرة وكان من الصعب تعليمها وتدريبها على العمل، إذ كانت تفضل اتباع الأسلوب المصري التقليدي حين كانت تقوم بأعمال الغسيل والتنظيف

وكانت مسرفة في استخدام الماء لتنظيف الأرضيات، فعلى سبيل المثال، حين كانت تقوم بتنظيف أرضية الحمام كانت تلقي بالكثير من الماء، إذ كانت تعتقد أن ماء كثيرًا يعني نظافة أفضل، وهكذا كانت لدي خادمة ذات مواصفات تجعلني أركض وراءها لأنظف وأرتب معظم الوقت.

قررنا العودة إلى الولايات المتحدة الأمريكية عام 1967، كي نقضي فيها عاماً نعمل ونوفر مالاً، لكن حرب الأيام الستة (نكسة 1967)، عطلت الأمور قليلاً وجعلتنا نتأخر عن المغادرة، لكن السفينة بدأت تنطلق من الميناء، ووصلنا إلى نيويورك New York، ووجد حمدي وظيفة في المدينة، وأقمنا في شقة صغيرة بالقرب من سكن أمي، وقد مر هذا العام في سلاسة وسعادة؛ فقد قضت ابنتي هذا العام مع جدتها (والدتي) وجدتي (والدة والدتي)، ثم رجعنا إلى مصر عام 1968 وكنا سعداء بعودتنا، غير أننا وجدنا شقتنا في أسوأ حال، إذ تسربت إليها أمطار الشتاء وتسببت في إتلاف الأرضيات وتعفن السجاد وتشقق الأثاث وتشبع بالماء، وهكذا، انتقلنا إلى شقة أخرى (وهي الشقة التي نعيش فيها حالياً)، وبعد مرور شهرين أصبحت حاملاً في الابن الثاني، وشهد شهر أغسطس عام 1969 ولادة ابننا طارق، وهكذا اكتملت الأسرة، تمت الولادة بسلام، لكن الطفل أصيب عقب ولادته بعدوى خطيرة في المستشفى، وظل مريضاً يتلقى العناية والرعاية الطبية بضعة أشهر، لدرجة أن الأطباء ظنوا أنه لن تكتب له النجاة، ولكن تم إعطاؤه كميات كبيرة من المضادات الحيوية حتى تعافى واسترد صحته وكبر وأصبح شاباً قوياً موفور الصحة.

لم تشهد حياتنا في ذلك الوقت أي مظهر من مظاهر الرفاهية، كما أن الحصول على المواد الغذائية كان يمثل مشكلة، وعلى الرغم من توافر الخضر والفاكهة بشكل كبير، كان هناك نقص هائل في اللحوم والزيت والمسلى والأرز

والسكر، إذ كان يتم صرف هذه المواد بكميات محدودة بواسطة البطاقات التموينية وتبعاً لعدد أفراد الأسرة، وفي حالة احتياج الأسرة لأي كمية إضافية يمكن أن يتم شراؤها وتخزينها، ذلك الأمر لم أعهده من قبل ولم يسبق لي أن شهدته في حياتي.

سافرنا أنا وزوجي وأبنائي إلى بيروت ـ عاصمة لبنان ـ عام 1971 وقضينا هناك أربعة أعوام، عمل خلالها حمدي في منصب أستاذ متفرغ في الجامعة والتحق الأولاد بمدارس عربية، كانت لغتهما الإنجليزية ممتازة، ولكن كانت درايتهما باللغة العربية ضعيفة جدا، لذا قررنا أن نقدم لهما تعليماً قوياً في اللغة العربية "دروسًا خصوصية"، وقد كان قراراً صائباً، إلا أن لهجتهما كانت لبنانية.

زارنا والد حمدي في لبنان، ولم يكن على علم بموعد احتفالات أعياد الميلاد المجيد فأحس بالخجل والإحراج؛ لأنه لم يحضر معه هدايا تلك المناسبة لكل فرد من أفراد العائلة، وكانت الهدايا عبارة عن ملابس شتوية، وقمت بتغليف بعض الهدايا الصغيرة بهدف تقديمها لوالد زوجي الذي أحس بالسعادة الغامرة حين شاهد أطفالي سعداء بهدايا "بابا نويل"، وفي تقليد مألوف ومتبع تشابكت أيدينا كي نتمنى حلول البركة، ولكنه رفض أن يشارك معنا في هذا التقليد ظناً منه أنه "تقليد مسيحي" للاحتفال بالعيد، لكني أوضحت له أنه تقليد عائلي، وليس تقليداً دينياً للاحتفال، وشرحت له أن تشابك أيدي العائلة يرمز إلى الترابط والتماسك ودوام الصلة، وأقنع برأيي؛ ففي صبيحة اليوم التالي، ونحن جالسون على مائدة الإفطار، أصر على أن تتشابك أيدينا لندعو – باللغة العربية !ـ من أجل ترابط العائلة.

ومنذ ذلك الحين، ونحن نتبع هذا التقليد كلما جلسنا على المائدة، وقد

قضى معنا والد زوجي طيلة أسبوعين يتكلم مع أحفاده باللغة العربية، ويؤكد من خلال تصرفاته الحنونة عمق الصلات والدفء الأسري، لذلك عندما توفي بعد عدة سنوات، كان أطفالي هم الوحيدون ـ من بين أحفاده ـ الذين حزنوا على فراقه حزناً شديداً. كما كانوا هم الوحيدون من بين أحفاده الذين ترك لهم جزءاً من تركته المالية، وكتب ذلك ضمن وصيته التي تركها قبل وفاته.

ترقى زوجي إلى درجة أستاذ في الهندسة والتصميم المعماري، وتحسنت بذلك ظروف معيشتنا إلى حد كبير، ثم تدرج وترقى ليصبح عميداً لكلية الهندسة المعمارية في جامعة بيروت العربية، وكان من حقه السفر إلى مصر كل ستة أسابيع، هذا النموذج من الحياة لا يزال شائعا فى مصر حتى يومنا هذا:

(الزوج يعمل في الخارج وتبقى الزوجة مع الأطفال في مصر لترعاهم)

انضممت إلى جمعية المرأة الأمريكية بالإسكندرية (AWA) مما أدى إلى حدوث طفرة في حياتي الاجتماعية؛ إذ تعرفت على صديقات، ومارست أنشطة كثيرة، وخلال ثلاث سنوات انضمت إلى الجمعية سيدات من جنسيات أخرى، ودأبت على مدى عشرين عاماً على الذهاب إلى مقر الجمعية كل يوم اثنين منذ الصباح كي أساهم في دعم وتسهيل المهام الخاصة ببعض الصديقات من ألمانيا ومن أمريكا، يعملن في مصر بعقود عمل مؤقتة ويخططن للمغادرة بعد عام أو عامين.

استمتعنا كثيراً بالأنشطة الاجتماعية التي كانت تقدمها الجمعية للأسرة، إذ كنا نخرج في رحلات خارجية في الرابع من شهر يوليو من كل عام لإعداد الهامبورج والسجق وتناول عشاء عيد الشكر، حيث يقوم كل عضو من أعضاء الجمعية بتقديم أطباق خاصة إضافية ونشترك جميعاً في تناول الديك الرومي.

أما أنشطة الجمعية بالنسبة لأطفالنا، فقد كانت بمثابة فرصة كبيرة لهم كي يتعرفوا على العادات والتقاليد الأمريكية، بجانب معرفتهم بالعادات والتقاليد المصرية؛ إذ كانوا يشاركوننا في عملية الطهي وتقليب الهامبورجر على الشواية ويأكلون ويشربون، ويستمتعون بأوقاتهم ويرفهون عن أنفسهم، وكان من الطبيعي أن يتقنوا اللغتين؛ الإنجليزية والعربية.

كان أسطول البحرية الأمريكية يقوم بزيارات متكررة إلى ميناء الإسكندرية، وكان أفراد الأسطول يذهبون إلى أسواق الإسكندرية للتسوق وكانوا يستعينون بأطفالنا الذين يقومون بالترجمة لهم أحياناً.

أذكر ذات مرة أن أسطول البحرية الأمريكية كان يقوم بإحدى زياراته المتكررة إلى ميناء الإسكندرية فاصطحبوا معهم ابني طارق، وكان وقتها يبلغ من العمر (11) عاماً، وذهب معهم إلى السوق وقام بالترجمة لهم، مما سهل عليهم التفاهم مع الباعة، فقاموا بإعطائه بعض المبالغ النقدية مقابل ترجمته، منذ ذلك اليوم أدرك طارق ـ للمرة الأولى ـ أهمية إتقان لغتين والتحدث بهما.

أردت أن أعود للعمل حينما التحق أولادي بالمرحلة الثانوية، لقد كنت في السابق أعمل في وظيفة سكرتيرة طبية حين كنت بالولايات المتحدة الأمريكية لكن زوجي لم تعد تعجبه فكرة عملي، لأنها في المجتمعات الشرقية تدل على عجز الزوج عن تلبية كل احتياجات أسرته، ولكنني بعد مناقشات عديدة معه، أقنعته أن العمل بالنسبة لي سيعمل على تغيير حياتي بصورة أفضل، وأن خروجي للعمل لن يلحق به أي سوء، ولن يقلل من صورته كزوج يعول أسرته، انتظرت ثلاث سنوات حتى أجد الوظيفة التي تناسبني، وأخيراً تم افتتاح المركز الثقافي الأمريكي، وتم توظيفي بواسطة شركة

أمريكية، لقد أحببت عملي هذا وأحببت راتبي الذي أتقاضاه؛ إذ كان العمل بالنسبة لي فرصة للخروج من المنزل، وهكذا لم يعد دوري قاصراً على الزوجة التقليدية : ربة المنزل والأم، فقد أصبحت شخصاً آخر، استمر عملي في تلك الوظيفة قرابة عشر سنوات، والتي أعدها أفضل سنوات حياتي التي قضيتها في مصر، إذ كنت الرائدة في هذا المجال، ومن بعدها خرجت صديقاتي المصريات للعمل، ولم تكن تلك هي البادرة الوحيدة التي أحدثتها؛ إذ كنت دوماً أجري العديد من التحديثات في شقتي التي أعيش فيها وفي تعاملي مع جيراني (المارة دائماً يلاحظون ما يفعله الأجانب ويحاولون تقليدهم في السلوك والتصرفات)، فعلى سبيل المثال؛ هناك بعض الأشياء التي فعلتها وقلدها الآخرون مثل: ضرورة وجود ماء ساخن في المطبخ، وضع ستائر على النوافذ، وتركيب بلاط عازل أمام الباب الخارجي للشقة لمنع تسرب المياه إلى الشقة.

في عام 1988 اندهش زوجي من طلبي في الحصول على الجنسية المصرية، لقد كنت أرى في ازدواج الجنسية مميزات عديدة، وبالفعل تسلمت أوراق حصولي على الجنسية المصرية بعد عدة شهور قامت فيها الجهات الحكومية الرسمية بإجراء التحريات اللازمة عني، وبعد فترة وجيزة اعتنقت الإسلام، واستعنت بإحدى صديقاتي في إنهاء كل الأوراق الرسمية، وفعلت كل ما هو مطلوب بنفسي، ولكن العقبة الأخيرة التي كانت تعوق طريقي كانت وزارة الداخلية، فلما ذهبنا هناك، طلب منا الضابط المسئول الانتظار قرابة الساعة قبل أن يُسمح لنا بالدخول إلى مكتبه، وعندما امتثلنا أمامه، بدأ في طرح العديد من الأسئلة وفي النهاية سألني عن الشخصيات التي يمكن الرجوع إليها بغرض السؤال والتحري عني فأجبته قائلة :

- " معارفي كثيرون مثلاً: عميد كلية الهندسة، ورئيس قسم الهندسة المعمارية.

فلم تعجبه إجابتي، فأردفت قائلة:

- " وكذلك محافظ الإسكندرية، ووزير التعليم العالي، ورئيس مجلس الشعب ".

فوجئ الضابط بكلامي وأصابته الدهشة من ذكري لهؤلاء الشخصيات ذوى المستوى الرفيع، وعلى الفور رفع سماعة التليفون وتحدث إلى المحافظ فأجابه المحافظ :

- " نعم وحمدي يجلس معي حالياً ".

وهكذا، أعاد الضابط سماعة التليفون إلى مكانها في هدوء، وبدأت معاملته تتغير على نحو ذوقي عالي المستوى فقام بفتح تكييف الهواء وسمح لنا بالجلوس، وبسرعة البرق ظهر ساعي المكتب حاملاً أكواب عصير الليمون، وسألني في وداعة وكياسة :

- متى تحبين تسلُّم الأوراق النهائية ؟!....

لم يمض أسبوع حتى وصلنا مظروف حكومي، كنا وقتها نجلس على مائدة الغداء، لم يرغب زوجي في فتحه ظناً منه أنه من الضرائب، فلم يرد أن ينزعج وهو يتناول غداءه وحين انتهى من الطعام وفتح المظروف، لم يكد يصدق نفسه إذ لمعت عيناه وهو ينظر إليَّ، فقد اعتنقت الإسلام دون مساعدة وأسرع يتصل بولدي طارق لينقل له هذا النبأ العظيم والفرحه تغمره :

- " أمك مسلمة !"

أعتبر نفسي اليوم مسلمة مسيحية إن جاز التعبير، فأنا مؤمنة بوجود

الله، وأن الله هو خالق كل البشر، ولكن الاختلاف في الأديان يتمثل فقط في الشعائر والطقوس، فأنا مؤمنة بالوصايا العشر، ومؤمنة أيضاً بدين الإسلام، لأن الشريعة الإسلامية تحمل بالنسبة لي أفضلية كبيرة فهي تحفظ زواجي وحقوقي في الميراث في وطني الثاني مصر.

تحسنت لغتى العربية - مع مرور الزمن وبفضل السنوات التى قضيتها فى مصر - ولكننى لا أدعى بلاغتى أو تمكنى اللغوى، بل أستطيع التفاهم مع الآخرين بشكل جيد، ويمكننى كذلك أداء أعمال التسوق والشراء بنفسي، وعلى الرغم من حبى للحياة فى وطنى الأصلى أمريكا، إلا أن ذلك لم يكن ممكناً لأسباب مالية.

الحياة فى مصر كانت بالنسبة لي رحلة حياة ممتعة، نعمت فيها بالراحة والطمأنينة وراقنى جمال الطقس المعتدل وتأقلمت على الأجواء المختلفة؛ ففى الموسم الشتوى يستمر البرد نحو عشرة أسابيع بدون جليد، أما الموسم الصيفي فيتسم بارتفاع درجة الحرارة والرطوبة ولكننا نستطيع تحمله.

تتمتع مصر بثروة كبيرة من الحضارة، الثقافة، والتراث، وكان لابد من تأثري بهذا الثراء على المستوى الفكرى والمعنوى شأنى فى ذلك شأن كل أجنبى عاش على أرض مصر؛ وإن تفاوتت تلك التفاعلات تبعاً لتفاوت الاستيعاب ودرجته لدى الأشخاص، فعلى سبيل المثال، حينما حضرت أمى بصحبة زوجها لزيارتنا عقب مولد ابنتنا الاولى نادية، أقمت لها حفل استقبال مع أصدقائي الذين أرادوا مقابلتها والتعرف بها وبعد انتهاء الحفل وانصراف أصدقائي قالت لي أمى :

- " إن أصدقاءك جميعاً ظرفاء ويبعثون على السرور ولكننى لم أفهم لهجتهم"!

كل أصدقائي يجيدون التحدث باللغة الانجليزية، لكنهم ينطقونها بلهجات مختلفة يصعب على من لم يعتدها - فهمها، إذ جاءوا من بلاد متعددة؛ المجر، بريطانيا، فنلندا، النمسا، سويسرا، ومن مناطق مختلفة من ألمانيا، ولكننا نستطيع التواصل فيما بيننا بسهولة، أنا نفسى تأثرت بالحياة فى مصر، فقد تغيرت لهجتى كثيراً؛ فأنا حالياً أتكلم ببطء عن ذى قبل، لدرجة أن أمى كانت لا تتعرف على صوتى عبر الهاتف .

كانت أمى تشعر دوماً بالقلق حيال وجودى فى مصر وخصوصاً بعد أن شاهدت ظروف الحياة ولمست بنفسها مدى صعوبة الأوضاع وقتها، أما أنا فأجد الحياة فى مصر ممتعة وتستحق عناء التجربة، ولا أستطيع أن أنسى أو أتناسى الأوقات الجميلة التى قضيتها مع أسرتى فى السفر لزيارة الأماكن الأثرية والمتاحف والمناطق والمزارات السياحية .

مرت السنوات وتخرج الأبناء من المدرسة الثانوية، ثم التحقا بالجامعة وتخرجا منها، وقد حصلت نادية فيما بعد على درجة الماجستير فى طب الاسنان، ثم اشتركت فى برنامج المنحة الدراسية الخاص بالهيئة الألمانية للتبادل الأكاديمي (DAAD) وكان لزاماً عليها أن تتعلم اللغة الألمانية قبل السفر إلى ألمانيا، فدرست لمدة ثلاثة أشهر فى الأسكندرية، وسافرت، ثم درست مدة ثلاثة أشهر أخرى فى ألمانيا، لقد كنا نشعر بالفخر والزهو لأنها كانت قادرة على تعلم لغة أخرى وقادرة على الدراسة فى ألمانيا، وهناك استطاعت أن تنجز بحث الدكتوراه فى عامين، ثم عادت لتعمل بدرجته فى جامعة الاسكندرية، ولقد حضرت أمى وقتها خصيصاً إلى مصر كي تشارك معنا فى الاحتفال بتلك المناسبة، لأن حفيدتها نادية هى الوحيدة فى الأسرة التى حصلت على شهادة الدكتوراه "PH.D"، ثم عملت بعد ذلك أستاذة مساعدة فى كلية طب الأسنان - جامعة الأسكندرية،

واكتملت سعادتها حين عثرت على نصفها الآخر ووجدت حب العمر وتكللت الأمانى بالرباط المقدس الذى جمع بينها وبين إيريك Erich وهو أمريكي الجنسية، وقد أثمر هذا الزواج عن ابن، وهم حالياً يقيمون فى ولاية كاليفورنيا California، وقد قمت بزيارتها هي وزوجها بعد ولادة ابنتها.

أما ابنى طارق فقد درس الاقتصاد وإدارة الاعمال والتحق بالعمل فى إحدى الشركات بإمارة دبى واستمر فى الترقى حتى وصل إلى منصب مدير إقليمي وكانت الأمور تسير على ما يرام إلى أن أفلست الشركة، وبعد ذلك التحق بالعمل فى أحد البنوك، وواصل دراسته وحصل على درجة الماجستير، ثم تزوج من سيدة لبنانية وأثمر هذا الزواج عن طفلين .

تلك كانت النجاحات والإنجازات التى حققها أبنائي، والآن حان دور الحديث عن زوجى وعن نجاحه المهنى الذى حققه والذى أشعر حياله بمنتهى الفخر؛ حيث تم تعينه مديراً تنفيذياً لمشروع فائق الأهمية واستطاع بفضل اجتهاده ومثابرته ونزاهته في إنجاز المهام الموكله إليه، ولكنه للأسف لم يجد التقدير اللائق والمتوقع من الحكومة، الأمر الذى أصابه بالاكتئاب الشديد، وقد وقفت بجانبه وأديت واجبى تجاهه كزوجة وحبيبة حتى اجتاز أزمته النفسية التى كانت بمثابة السقوط فى واد مظلم، تلك الأحداث التى مرت بنا دعمت روابط الصلة بيننا وجعلت زواجنا أكثر قوة فى مواجهة الصعاب والعراقيل، والآن أصبح كل منا يدرك تمام الإدراك أن بإمكانه الاعتماد على الآخر، لقد أتاحت سنوات التقاعد الفرصة لنا كي نتابع معاً المساعي التى كنا نؤجلها فى السابق بسبب المسئوليات الحياتية.

أنا وزوجى نأمل فى قضاء المزيد من الأوقات السعيدة معاً مالم تمنعنا المشاكل الصحية التى قد تحد من نشاطاتنا ودرجة استمتاعنا بالحياة، لقد

طرأت على شخصيتى العديد من التغيرات، واكتسبت بعض السمات التى جاءت نتيجة لاختياري؛ لقد تزوجت من أجنبى وعشت بعيداً عن بلادى التى ولدت ونشأت فيها .

الحياة فى مصر أثرت فى سلوكياتي إلى حد ما، ولكن الدماء الغربية مازالت تسري فى عروقى، كما أن الثقافة الامريكية التى غزلت نسيج شخصيتى مازالت قائمة حتى الآن، لقد أصبحت أملك الخبرة التى تؤهلنى لإسداء النصائح الضرورية واللازمة لأى فتاة تفكر فى الزواج من رجل مصرى، أو أى رجل آخر لايحمل جنسية غربية .

وفيما يلي ست نصائح ذهبية لتحقيق أفضل النتائج الإيجابية، وهي خلاصة تجربتى الواقعية :ـ

1. نافذة على المستقبل :

• عليك أن تزورى بلد زوجك – ليس كسائحة – ولكن بغرض البقاء فيها فترة كافية لدراسة العادات والتقاليد، والإلمام بظروف الحياة والاتجاهات والأنماط السلوكية التى تحكم طبيعة المعيشة كي لا تصطدمي فيما بعد بواقع لم تألفيه، وكذلك يتحتم على شريك حياتك أن يشرح لك باستفاضة المحظورات الاجتماعية والدينية المتعددة، كما يجب عليه أن يتعهد لك بأن يتقبل منك أى أنشطة مستقلة ترغبين فى ممارستها .

2. الجانب الآخر من شخصية زوجك :

إذا حدث وتزوجت فى بلدك الذى نشأت فيه، وكان زوجك متواجدًا فى بلدك لعدة سنوات، فذلك سوف يؤثر فى سلوكه لأنه سوف يكتسب العادات الغربية كلما طالت مدة بقائه فيها، ولكن الأمر سوف يكون مختلفاً

عند عودته إلى وطنه الأصلى، لأنه سوف يعود إلى طبيعته السابقة ليمارس عاداته وسلوكه الأصلى الذى كان عليه قبل إقامته فى الخارج، لذلك يجب عليكي أن تستعدى وتتأهبى لظهور شخصية جديدة لم تعهديها من قبل؛ تلك الشخصية الجديدة ربما تلاقى استحسانك أو استنكارك، وبعد مرور عدة سنوات على زواجك ربما تجدين شريك حياتك شخصية مختلفة عن الرجل الذى أحببته وتزوجته !.

3. حددى موقفك بشأن العمل منذ البداية :

إذا كنت تنوين العمل فى مصر، فعليك أولاً أن تحصلي على موافقة أكيدة من زوجك فيما يختص بهذا الأمر قبل وصولك إلى مصر، لقد كان هذا الأمر يمثل بالنسبة لي أهميه خاصة، ولكني أعتقد أن الوضع اليوم قد اختلف عن السابق، ومع مرور الوقت أصبح أمر خروج الزوجات إلى العمل أمراً حتمياً وخصوصاً فى ظل ارتفاع تكاليف المعيشة ومتطلبات الحياة .

4. كونى أكثر مرونة فى التعاطى مع شئون الحياة :

عليك أن تناضلي بصفة يومية من أجل الاحتفاظ بأسلوبك فى إدارة المنزل وتنشئة الصغار، عليك أن تعتبرى حياتك اليومية بمثابة المعركة الدائرة التى لا بد وأن تخوضيها وتخرجى منها فى النهاية منتصرة، وبشئ من المرونة والتكيف يمكنك تحقيق أهدافك، وباتباع بعض الأساليب الذكية سيكون فى مقدورك الوصول إلى ما ترغبينه، وإذا ما واجهتك المشاكل لا تتسرعي بطلب الطلاق، فالأمر يستحق عناء المحاولة كي يعتاد الزوجين طباع الآخر؛ فالتغيرات الكبيرة دائماً ما تكون مقترنة بالمشكلات الكبيرة .

الحياة مليئة بالنعم والأفضليات، وما قد تحسبينه سيئاً قد يتحول

بصورة نقيضه ليصبح من أفضل ما يكون، وهكذا قد تكتشفين أن أهدافك الأصلية لا تعنى شيئاً إذا ما قورنت بالميزات التى تكمن خلف المتغيرات التى كنت ترفضينها بالدرجة الأولى .

5. حافظى على استقلالك المالي :

عليك أن تحتفظى بحساب مصرفي خاص بك بعيداً عن حساب زوجك المصرفي؛ وعليك أن تتحملي مسئولية استخدام الخدمات المصرفية بنفسك، ولا تعطى لزوجك حق التصرف (حق التفويض) فى حسابك الشخصي، فربما تتغير الأمور بين لحظة وأخرى وتحكمه شهوة المال فيلجأ إلى سحب رصيدك أو تحويله لحسابه الخاص نتيجة لأسباب اجتماعية ودون الرجوع إليك، ولكن تلك الأمور لا تشكل أهمية كبرى مع مرور الوقت وانقضاء عشرين عاماً على الزواج، إذ تكون الثقة قد وجدت طريقها وترسخت بين الزوجين ولا يكون هناك مجال للقلق .

6. احرصى على مد جسور الصداقة العائلية والاجتماعية :

ستتوافر لديك الفرصة – باعتبارك زوجة شابة – لعقد الصداقات مع سيدات من أقارب زوجك وزوجات أصدقائه، كما ستتاح لك فرصة تكوين مجموعة من العلاقات مع سيدات من جنسيات أخرى، وسوف يصبحن بالنسبة لك بمثابة الأخوات، وستجدين في تلك الصداقات المشورة والدعم والتسلية وكل ما يبعث على السرور، وسوف يكونون بالنسبة لك بمثابة الأقارب، ولسوف تندهشين حينما تتعرفين على حياة الآخرين وستدركين وقتها أوجه التشابه العديدة والقواسم المشتركة الخاصة بأهداف الحياة .

*** إذا استطعت عزيزتى اتباع مثل هذه النصائح، فقد وجدت طريقك نحو تحقيق حلم السعادة المنشود والحياة الهانئة ورغد العيش وستجدين مصر خير وطن لك ولأسرتك؛ تماماً كما حدث معي .

*****

الفصل السابع

علبة صغيـرة مليئة بالجعـران

JUTTA – جوته

جوته Jutta سيدة مختلفة عن كل السيدات اللاتي عرفتهن فى مدينة الأسكندرية؛ فهى حاصلة على شهادة فى الصيدلة من ألمانيا، وحينما قابلت زوجها لأول مرة، كانت صيدلانية ناجحة فى مجال عملها، وبالإضافة إلى ذلك، جاء قرارها بالزواج من مصري بعد أن قامت بزيارة مصر فتعلمت الكثير عن البلد وظروف الحياه فيها، وطبيعة الناس، وهكذا لم يأت قرارها من فراغ، ومن هنا كان اختلافها عن مثيلاتها، فهى لم تُلقِ بنفسها بأغوار المستقبل المجهول، تلك العقلانية فى التعامل مع معطيات الحياة جعلتها فى النهاية أكثر سعادة وأكثر قدرة على التكيف مع أمور المعيشة فى مصر، هى شخصية مستقلة وقد حافظت على استقلالها هذا طيلة الوقت؛ إذ كانت تقود سيارتها بنفسها، وهذا الأمر صعب فى مصر لعدة أسباب، والجدير بالذكر أن زوجها قد أعطاها مساحة من الحرية أكثر من تلك التى يسمح بها الأزواج المصريون؛ لذا فهو يستحق التقدير والإعجاب؛ لأن معظم الرجال فى مصر غيورون للغاية، ولا يحبون أبدًا خروج المرأة بمفردها وإن كانت شديدة الثقة بنفسها .

بدأت جوته فى سرد حكايتها بمنتهى الحرية وإليكم ما قالته :

كنت أبلغ من العمر 28 عاماً حينما قابلت زوجى أول مرة كنت قد انهيت من دراسة الصيدلة وكنت بالفعل أعمل بصيدلية فى مدينة دوسيلدورف Dusseldorf، وكنت أعيش فى شقتى الخاصة وأنعم بالاستقلال المادى والمعنوى وكانت لى هوايتى الخاصة التى أمارسها بالإضافة إلى العديد من الصداقات .

كنت بالفعل فتاة ناضجة، أتمتع بصحة طيبة واشتركت كعضوة فى فريق موسيقي يسمى Jingling Wind Rose؛ وهو فريق (شباب ألمانيا فى

أوروبا) يقوم بتقديم عروض الرقص والغناء الدولية وخصوصا عروض من المقاطعات الألمانية السابقة :

بوميرانيا Pomerania، بروسيا الشرقية Eastern Prussia، وسيلسيا Silesia .

وتم تكوين هذا الفريق– منذ البداية – على أنه فرقه للرقص الشعبى تقدم العروض المستوحاة من الطابع الشرقي، وهو أمر طبيعي؛ فأنا من أسرة تنحدر من بروسيا الشرقية، وهكذا اشتركت مع الفريق فى تقديم عروض رقص وغناء شعبى وكنا نسافر للخارج لتقديم عروضنا الفنية الغنائية الراقصة فى بلاد عديدة : (الدنمارك، فرنسا، النرويج، البرازيل، الولايات المتحدة الأمريكية، واليابان)، وقد ساهمت تلك الرحلات فى اكتسابنا المزيد من الخبرات وتبادل الثقافات مع العديد من الدول وبالطبع كان لذلك بالغ الأثر علينا .

لقد كنت شخصية منفتحة على دراية بحضارات الشعوب والثقافات الأخرى أثناء دراستى فى الجامعة فى مدينة مونيستر Munster، ولكن كل ذلك لم يحل دون شعورى بالوحدة الفظيعه؛ لقد نشأت وترعرعت فى مدينة صغيرة فى منطقة مونيسترلاند Munster Land، كنت أعيش مع أمى بعد وفاة أبى وكنت أصغر أخوتى الخمسة، واحدة فقط من إخوتى كانت تقطن مع زوجها بالقرب منا .

شهد عام 1975 لقائي مع زوجى للمرة الأولى، كنت فى الصيدلية أعمل ودخل هو كزبون بدا لطيفا واجتماعيا، لقد أعجبت به جدا وكان يتردد علينا كثيرا لأنه كان يسكن بالقرب منا، بدأ التعارف بيننا وقال لى إنه فنان ينوى إقامة معرض فى مدينة جينت Gent فى بلجيكا Belgium، وكان يحمل معه

مجموعة من لوحاته الخاصة فأطلعنى عليها وسألنى إن كانت تعجبنى تلك اللوحات، لقد كان الأمر بالنسبة لى مشوقاً وخصوصاً حينما علمت أنه مصري، لقد أعجبت بالفعل بلوحاته وأثارت اهتمامى، وعقب ذلك فترة انقطعت فيها أخباره عنى، ولكن الصدفة لعبت دوراً رئيسياً حينما قابلته فى الطريق ساعتها أخرج " كتالوج " كان يحمله معه وقدمه لى، ثم قدم لى علبة صغيرة تحتوى على مشغولات فنية مرصعة بالجعران وكانت عبارة عن طقم مكون من "سلسلة وقرط وخاتم" لقد أعجبتنى العلبة للغاية، ولكننى كنت مترددة؛ إذ كنت لا أعلم إن كان مسموح لى بقبول هذه الهدية أم لا، فرجعت إلى مدير الصيدلية أسأله فلم يعترض على الأمر ولا على قبولى للهدية فأخذتها .

كانت العلبة مرفقة ببطاقة تعريف له تحمل اسمه ورقم هاتفه، فاتصلت به بعد فترة لأشكره على هديته الجميلة، وكان اتصالى من دواعى سروره وسألنى إن كان من الممكن أن نتقابل، فوافقت على طلبه وقمنا بتحديد موعد ومكان اللقاء بعد عدة أيام فى أحد المقاهى، والطريف فى الأمر إننى بالرغم من شخصيتى المنفتحة لم تواتينى الشجاعة لكى أقابله بمفردى فطلبت من صديقي أن يصحبنى فى هذا اللقاء، ظن فاروق فى بداية الأمر أننى مرتبطة وأن هذا الشخص الذى أصحبه خطيبي فقال فى نفسه (يا للخجل !! إنها مرتبطة)؛ وبالطبع علمت ما كان يجول بخاطره فيما بعد.

لكننى بادرت بتصحيح فكرته وصرحت له بأننى لست مرتبطة، وهكذا بدأت تتوالى لقاءاتنا باستمرار وبدأ حديثه عن مصر بمزيد من التفصيل وعرفت منه أنه يعمل فى جامعة الأسكندرية وأنه سيعود إليها بعد حصوله على درجة الدكتوراه التى بدأ بنيلها منذ عام 1974 ، وكان قبل ذلك يعمل محاضرا فى أكاديمية الفنون التى اندمجت فيما بعد مع الجامعة، الأمر الذى تطلب من كل المحاضرين فيها أن يحصلوا على درجة الدكتوراه حتى يتمكنوا

من التدريس، وقتها لم تكن هناك جامعة فى مصر تمنح درجة الدكتوراه فى هذا المجال ولهذا تم إرسال عدد من المحاضرين إلى الخارج فى منحة دراسية للحصول على درجة الدكتوراه، وكان أمام فاروق عدة اختيارات؛ على سبيل المثال، كان أمامه فرصة السفر إلى الولايات المتحدة الأمريكية ولكنه فضل الذهاب إلى ألمانيا؛ لأن موضوع بحثه مرتبط بأعمال الفنانة كاتى كولويتز Kathe Kollwitz التى كان شديد الإعجاب بفنها لهذا جاء إلى مدينة دوسيلدورف Dusseldorf على الرغم من عدم معرفته لأى كلمة ألمانية، كان فاروق متأثرا فى أسلوبه الفنى بالمدرسة التعبيرية، وكان يستخدم فى رسوماته اللونين الاسود والابيض ولكنه بعد فتره من تقابلنا بدأ يستخدم الألوان، يبدو أن دخولى فى حياته قد أثر فى شخصيته وبدل أحاسيسه وغير أساليبه الفنية، وكنت دوما أتساءل فى نفسي هل كان دخولى فى حياته سببا فى تبديل نظرته، لقد أصبح عالمه يعج بالألوان النابضة بالحياة !

ومع تطور الأمر كان من الطبيعى أن أقوم بتقديم فاروق إلى والدتى التى كانت تزورنى دوماً فى مدينة دوسيلدورف Dusseldorf وهنا يجدر بى الإشاره إلى أننى نشأت فى أسرة مسيحية كاثوليكية، وفاروق رجل مسلم، ولكن ذلك لم يكن سبباً فى اعتراض أمى على علاقتنا؛ لقد أعجبتها شخصيته وكانت كل غايتها أن ترانى سعيدة بصحبة الرجل الذي وقع عليه اختيارى، كان كل شيء يمضي بصورة طبيعية حتى أصيب فاروق بوعكة صحية شديدة، وحينما راجع الطبيب تقرر له إجراء جراحة عاجلة فى المثانة، كانت العملية فى حد ذاتها بسيطة، ولكن حدثت مضاعفات بعد الجراحة قضى على أثرها ثلاثة أشهر فى المستشفى منها أربعة أسابيع قضاها فى وحدة العناية المركزة؛ بسبب تلف حدث فى البنكرياس أثناء الجراحة، ولم

يتمكن الأطباء من عمل أى شيء، إذ كانت حالته شديدة الخطورة، الأمر الذى جعل الطبيب يفقد الأمل فى نجاة فاروق لدرجة أنه قال له أنه قد يتوفى، ولكن فاروق تحسنت حالته مع مرور الأيام وتماثل تماما للشفاء، ولكن تلف البنكرياس تسبب فى إصابته بمرض السكري، ولكن الجانب الإيجابى فى الأمر أن تلك المعاناه التى عاشها فى المستشفى قد ساهمت فى إذابة الفروق وتقريب المسافة بيننا، وحاليا أنا على يقين تام أننا على رباط وثيق، ومرت فترة قصيرة حتى تمت خطبتنا فى عام 1977 .

كان من المهم أن تتضح لى الصورة كاملة؛ لذلك كان فاروق يحكى لى عن مصر وطبيعة الحياة فيها، فهو يؤمن بأننى يجب أن أرى كل شئ بنفسي قبل أن أقدم على اتخاذ القرار النهائي، وهكذا بدأت أعرف بنفسي الحياة التى تنتظرنى فى مصر فاتبعت طريقة منهجية؛ قرأت العديد من الكتب التى تحكى عن مصر وقرأت كل شئ عن الدين الإسلامى واستمعت للعديد من المحاضرات، وفى نهاية هذه الرحلة من البحث أدركت نتيجة واحدة وهو أن الإنسان يولد متدين بالفطرة، وأن الدين واحد وأن روح الدين واحدة وأن لكل دين أهدافه النبيلة وشرائعه السامية، وعلى الرغم من كونى مسيحية كاثوليكية إلا أننى لم أتصور يوماً صعوبة الحياة مع زوجى المسلم وهكذا بدأت اتعلم اللغة العربية فى مدينة دوسيلدورف Dusseldorf ، وكانت بدايتى فى أحد مراكز تعليم الكبار وكان زوجى ومصريون أخرون يضحكون كلما تحدثت بالفصحى، وكان المركز - من حسن الحظ - يقدم دورة تدريبية فى اللهجة المصرية الدارجة، وهناك تعرفت للمرة الأولى على ألمانيات متزوجات من مصريين، وكان هناك العديد من القواسم المشتركة التى تربط بيننا والموضوعات الكثيرة التى يمكننا أن نتحدث فيها، ولقد قابلت بعضهن بعد ذلك فى مدينة الإسكندرية .

سافرت أنا وفاروق إلى الأسكندرية لأول مرة فى يناير 1977، مازلت أذكر تفاصيل تلك الزيارة، إذ كان الطقس أكثر برودة مما كنت أتصور، وكان فاروق قد حذرنى بأن الجو فى مصر فى شهر يناير شديد البرودة، ونصحنى أن آخذ معى ملابس شتوية ولكننى اندهشت من كلامه ولم أصدق ما قاله ولكننى أخذت معى بعض الملابس الثقيلة كى أرضيه فلم أكن أتوقع بأننى سأحتاج إلى ملابس ثقيلة، وبالرغم من ذلك فقد تجمدت من البرد الشديد، المنازل فى مصر – فى واقع الأمر – لا يوجد بها أى تدفئة إذ تجد الناس يجلسون فى غرفة المعيشة ويرتدون الملابس الثقيلة لذلك لا يوجد فى أى من تلك الشقق دولاب لحفظ المعاطف لأنك لست مضطرًا أن تكلف نفسك عناء خلع أى من ملابسك لأن الجو بارد فى المنزل ولكن عندما نتجرك فى الشارع نشعر بالدفء .

توفى والدا فاروق قبل أن نتعارف، ولكن الفرصة كانت سانحة أمامى كى أتعرف على بقية أقاربه وأصدقائه وكان أمرًا طبيعيًّا أن يتسموا بالفضول وتدور فى أذهانهم الكثير من التساؤلات حولى؛ لقد أتيحت لفاروق الكثير من فرص الزواج بأخريات، ولكنه رفض كل تلك العروض السابقة وهو حالياً يصطحب امرأة ألمانية ..... فيا ترى من تكون ؟ ولماذا وقع اختياره عليها دون غيرها ؟ وما الذى يميزها حتى يختارها فاروق ويتزوجها ؟ لذلك أراد كل واحد أن يعرفنى، وهكذا بدأت تنهال عليَّ الأسئلة، وكان من الواضح أن اختياره قد لاقى استحسانهم، إذ كان يبدو ذلك فى أسلوبهم الطيب معى وحديثهم الذى يميل إلى المجاملة فى كثير من الأحيان، رجعنا إلى ألمانيا بعد تلك الجولة السريعة التى تعرفت فيها على مصر والأهل والمعارف وتمت خطبتنا فى نفس العام واستمر فاروق فى دراسته ولكننا لم نتمكن من إتمام الزواج إذ كان فى بعثة على نفقة الجامعة ولكنه كان يحاول من خلال

اتصالاته بالسفارة المصرية فى بون Bonn، ومن خلال أصدقائه المقربين؛ (الملحق الثقافى والملحق الإعلامى) ولكن كل محاولاته باءت بالفشل فى التغلب على اللوائح، وكان هناك تخوف لدى السفارة من أن يستمر فاروق فى ألمانيا ويتزوج بسيدة ألمانية، لذلك كان لزاما علينا أن نؤجل الزفاف حتى ينتهى فاروق من أبحاثه .

شهد عام 1980 زواجنا وتم عقد القران فى مكتب زواج مدنى فى مدينه دوسيلدورف Dusseldorf، وكنا عاقدي العزم على العودة إلى الأسكندرية بعد فترة وجيزة؛ سافر فاروق وحده أولا إلى مصر، وكم كنت أود أن أرافقه ولكنه أراد أن يسبقنى كى يقوم بتجهيز شقة الزوجية، فاحترمت مشاعره وتفكيره، ولكن البحث عن الشقة المناسبة كان أصعب مما أعتقد لأن ظروف السكن فى مصر تختلف تماما عن ظروف السكن فى ألمانيا، وعلى مدار سنوات طويلة، كنا نعيش بين بلدينا؛ فقد عاش فاروق فى مصر حتى صار أستاذا فى جامعة الأسكندرية وبجانب هذا كان بالطبع يرسم اللوحات، أما أنا فقد بقيت فى ألمانيا أعمل فى صيدلية فى مدينة دوسلدورف Dusseldorf، وكنا نقضى أجازتنا الصيفية فى مصر، وكان فاروق بدوره يحب التردد على ألمانيا، وعلى مدار السنوات لم نكف عن البحث عن شقة فى الأسكندرية ولقد شاهدنا العديد من الشقق لأن فاروق لديه ذوق خاص فى الأشياء، الأمر الذى جعله يعتقد أن كل تلك الشقق لا تصلح للإقامه لأنه شخصية يصعب عليها تقبل أى شئ، وكذلك يصعب إرضاؤه وهكذا ظل يبحث عن الشقة. أما أنا فكنت دوماً سعيدة بحياتى وأتمتع بدرجة من المرونة تجعلنى أتقبل بعض الأشياء المزعجة أو غير الطبيعية .

استغرقت رحلة البحث عن الشقة بضعة سنوات، وفى عام 1983 أنجبت ابننا طارق فى ألمانيا وبعد أربعة أشهر من ولادة ابنى عملت مجدداً

فى الصيدلية فى دوسبرج Duisburg، وكنت أعمل عدد ساعات أقل؛ إذ كان عملى يبدأ فى التاسعة صباحا وينتهى فى الثانية بعد الظهر لمدة أربعة أيام فى الأسبوع وكنت أصطحب ابنى إلى أسرتى فى الصباح ليمضي معهم فترة عملى وأعود وأخذه عند عودتى بعد الظهر، وهكذا مضت الأمور وكنت أشعر بالراحة وحياتى تسير وفقاً لهذا النظام ولكن أكبر أمنية لى كانت تتمثل فى الاستقرار مع زوجى فى مصر، ولكن الأمر استمر هكذا لفتره طويلة لولا أن ساعدتنا الظروف كى تتبدل تلك الأوضاع حتى نتخطى تلك المشكلات والمصاعب.

كان فاروق قد رسم صورة شخصية للرئيس أنور السادات وتم تقديم الصورة إلى الرئيس فى حفل استقبال أقيم خصيصاً له بجامعة الأسكندرية، وقد أبدى الرئيس إعجابه الشديد بالصورة وأثنى على الفنان الذى قام برسمها وطلب مقابلته بصفة شخصية. لقد أراد الرئيس أن يعرف إذا كان فاروق يريد لنفسه أى شئ لأنه كان على استعداد تام لتقديم أى شئ يسعد هذا الفنان الحقيقي، فبادر أحد الحاضرين أثناء الاجتماع وقال للرئيس : (هذا الرجل يبحث منذ سنوات عن شقة) . وعلى الفور زالت كل العقبات التى كانت تقف فى طريقنا، وبعد يومين فقط تسلمنا شقة جميلة فى فليمنج فى أحد أحياء الأسكندرية وانتقلنا إليها على الفور وهى نفس الشقة التى مازلنا نعيش فيها حتى يومنا هذا، وكان من الطبيعى أن نقوم بتجديد الشقة وقد استغرق ذلك الأمر وقتاً طويلاً، وحين تم كل شئ رجعنا نحن الثلاثة أنا وفاروق وابننا طارق إلى مصر عام 1988 .

وجدت صعوبة فى أن أشق طريقي فى بلد غريب، لقد كانت البداية تشكل صعوبة بالنسبة لى، لقد مرت سنوات طويلة لم أخرج فيها للعمل لكننى كنت ربة منزل متميزه أرعى زوجى وابنى بشكل خاص، ولم يكن أمر

إقامتى فى المنزل سهلاً بالنسبة لى، لدرجة أننى بعد أن تلقيت عرض عمل فى إحدى شركات الأدوية فى مصر، وقد فكرت طويلاً فى هذا العرض ولكننى فى النهاية رفضت بسبب عدد ساعات العمل الطويلة، كما أن المسافة بين بيتنا وبين الشركة كانت طويلة، بالإضافة إلى أننى كنت أريد قضاء المزيد من الوقت مع ابنى، فمازالت مصر تعتبر بيئة جديدة عليه بصورة كلية، إذ كان يحتاج لمزيد من الوقت كى يتكيف مع الحياة فيها، ولقد التحق بمدرسه إنجليزية فيما بعد.

كانت أسرة فاروق منذ البداية تتمتع بدرجة عالية من السماحة؛ لقد استقبلونى جميعاً بترحاب شديد واستشعرت الدفء فى علاقتى معهم؛ فلم يحاول أحد منهم أن يضغط عليَّ أو يؤثر بصورة أو بأخرى عليَّ كي أعتنق الإسلام، لقد كان تأقلمى وتكيفي مع الحياة هو أهم شئ بالنسبة لهم لدرجة أنهم أرشدونى إلى كنيسة قريبة من السكن كى أمارس فيها شعائري الدينية الخاصة، أما بالنسبة لفاروق فقد جعل الحياة تمضي بسلاسة وسلام ولم يعمد إلى تغير شئ ولم يمثل الدين بالنسبة لنا نقطة اختلاف؛ فأنا مسيحية تزوجت من مسلم وبالتالى أصبح ابنى مسلمًا واحتفظت بديانتى، وكنا نحتفل معا بالإجازات والأعياد الدينية؛ سواء الإسلامية أو المسيحية، لقد كانت الأمور تسير بصورة طبيعية للغاية بفضل شخصية فاروق المتسامحة مع عقيدتى، وأنا بدورى كنت أيضاً متسامحة مع عقيدته، ولا أذكر يوماً أنه حاول أن يجعلنى أرتد عن دينى وأعتنق الاسلام، لقد كانت علاقتى مع إخوة فاروق تتسم بالود والمحبة والألفة وكنت دائماً على اتصال بهم وبصورة منتظمة، واحتفظت بجنسيتى الألمانية حتى يومنا هذا؛ لأن شهادتى بأننى صيدلانية تعتمد على جنسيتى فكان من المنطقى ألا أفكر فى التخلى عنها، ولم أشعر فى يوم من الأيام - أثناء وجودى فى مصر- بأى

نوع من الضرر لكونى ألمانية، إذ يتم تجديد تأشيرة الإقامة كل خمس سنوات دون أى مشكلة.

سافرنا إلى فيينا Vienna عام 1990 وقضينا فيها أربع سنوات حيث كان زوجى يشغل وظيفة (مستشار للشئون الثقافية) فى السفارة المصرية هناك؛ إذ كان يساعد المرشحين للدكتوراة فى جامعة فيينا Vienna ويساهم فى مشاريع التبادل الثقافى بين البلدين ويتضمن أيضاً عمله فى السفارة الكثير من الاعتبارات الاجتماعية و التى كان لزاما عليّ – باعتبارى زوجته – أن أساهم فيها، وقد التحق إبنى طارق هناك بمدرسة انجليزية دولية، حيث أن اللغة الإنجليزية هى لغة الدراسة وهكذا فإن التعديل سيكون أمرًا سهلاً عليه.

حينما زار الرئيس مبارك فيينا عام 1992، كنت واحدة من السيدات اللواتى صاحبن السيدة سوزان مبارك فى فيينا، وقد أتيحت لنا أثناء تواجدنا هناك أن نتعرف على شخصيات مختلفة عن تلك التى نقابلها فى الحياة العادية، وكذلك تقابلنا مع الكثير من الشخصيات البارزه من الزوار الرسميين ووزراء من الدول ورؤساء أكاديميات الفنون المصرية ومدير أوبرا القاهرة، بالإضافة إلى العديد من الموسيقيين ونجوم ونجمات السينما، لقد كانت تلك السنوات التى عشتها هناك من أروع السنوات التى قضيتها فى حياتى .

كانت هناك صيدلية تقع فى نفس العمارة التى نسكن فيها، الأمر الذى أثار اهتمامى، وطبعاً أتيحت لى الفرصة كى أتحدث مع أصحابها، فقد كنت شغوفة للغاية كى أتعرف على أحدث التطورات التى طرأت على مجالى الصيدلة والأدوية الجديدة، ولكننى لم أكن أفكر فى العمل أثناء وجودى فى فييننا Vienna؛ إذ كانت الالتزامات الاجتماعية تشغلنى للغاية، ورغم

ذلك فقد تعلقنا بأصحاب الصيدلية وربطت بيننا الصداقة حتى يومنا هذا؛ لقد كنت أعمل فى فصل الصيف بشكل مؤقت فى الصيدلية التى كنت أعمل بها من قبل فى دوسبرج Duisburg وقد كان مدير الصيدلية سعيدًا بعملى تلك الفترة المؤقتة وكنت مازلت أحتفظ بتلك الروابط الاجتماعية وحتى قبل قدومى إلى مصر، وبهذه الطريقة جددت معلوماتى، وبالإضافة إلى ذلك أدخرت بعض المال الخاص ليحق لى التصرف فيه وفقاً لرغبتى ولكى أشترى به ما أريد من احتياجاتى الخاصة، فمنذ زواجنا وحتى اليوم أجد فى نفسي ما يمنعنى من التصرف بأموال زوجى دون علمه، هذا الهاجس جعلنى أستأذن فاروق قبل شراء أى شئ لنفسي، وقد كان دوماً يؤكد علي بأنه لا داعى للاستئذان وكان يعطينى حرية شراء ما أريد مادمت أراه مناسبًا، ولكن ظلت هذه المسألة تشكل ضغطاً نفسياً عليَّ ولم أجد فى نفسي تقبلاً لهذا الأمر، فكنت دوماً أحب أن يكون لى مالى الخاص الذى أتصرف فيه بحرية .

رجعنا إلى الأسكندرية عام 1994، وهناك تلقيت عرضاً بتدريس مادتى الأحياء والكيمياء فى المدرسة الألمانية، وعلى الزغم من أننى لم أتخيل أن أكون مُدرسة إلا أننى وافقت على هذا العرض، ومازلت أعمل فى المدرسة حتى يومنا هذا، وأجد فى عملى هذا متعة من نوع خاص لأننى أتحدث اللغة الألمانية فى الحصص الدراسية، وقد بذلت جهداً فى تطوير طريقة شرح الدروس بلغة بسيطة كما اجتهدت فى تصميم مواد ووسائل إيضاح خاصة بالمناهج بالإضافة إلى نجاحى فى ابتكار معظم الأساليب التوضيحية ووسائل الشرح باستخدام جهاز الكمبيوتر، بعد أن كنت استخدم الآلة الكاتبة فى بداية عملى وكانت مهمة شاقة بالنسبة لى وخصوصاً أننى لم أتدرب عليها بشكل كاف، أما العمل على جهاز الكمبيوتر فقد كان أكثر

سهولة وتشويقاً، إذ يمكنني أن أغير كل شئ بسهولة وبسرعة، وكذلك يمكنني الرجوع إلى المعلومات السابقة والبيانات المخزنة في أي وقت وبسهولة .

لم أتمكن أبداً من العمل في صيدلية في مصر، لسبب واحد وجيه وهو أن لغتي العربية ركيكة، وكان هذا القصور اللغوي يمثل أمامي عقبة كبيرة، لأن الصيدلاني يجب أن يشرح للعميل بالتفصيل وبكل وضوح كيفية تعاطي الدواء والجرعة المضبوطة وخصوصاً أن بعض العملاء لا يعرفون ما يبحثون عنه، ولأن اللغة الواضحة مهمة بالنسبة للصيدلي في تعامله مع الجمهور وهذا لم يكن متوافرا لدي، وحتى يومنا هذا لم أتقن اللغة العربية بشكل كامل لكي أتمكن من ممارسة هذا العمل الذي يتطلب حوارًا مباشرًا وبصورة تفصيلية مع العملاء، بالإضافة إلى أن الصيدليات في مصر تعمل بطريقة مختلفة عن الصيدليات في ألمانيا .

عندما حضرت في مصر في أول مرة عام 1977 كانت نوعية الدواء المتوافرة محدودة للغاية، أما اليوم فمعظم العقاقير والأدوية متوفرة بموجب التراخيص ولكن من الناحية العملية يمكن أن يتم صرف أي دواء بدون وصفة طبية (روشتة)، مع أن صرف الدواء بتلك الطريقة يعد أمراً غير مشروع، إلا أنه لا يوجد في مصر من يلتزم بتلك اللوائح .

نحن نتمتع بحياة رغدة، ولدينا ارتياح مالي، الدخل الذي يكسبه فاروق سواء من راتبه كأستاذ جامعي أو من بيع لوحاته الفنية يكفي لتلبية احتياجاتنا الأساسيه؛ لأن اللوحات الفنية لفاروق تباع بأسعار عالية، لقد كان مشهوراً منذ بداية عمله في الفن بسبب اتصالاته ومعارفه الكثيرة، ولكن صورة (الفنان الذي يتضور جوعا) لم تنطبق علينا في مصر لأن فنه كان مصدر دخل لنا ولولا فنه ولوحاته لأصبحنا في وضع آخر أكثر صعوبة لأن رواتب الجامعة ضعيفة جداً ولا تكفي لتلبية الاحتياجات الأساسية .

مـازال فـاروق يعمـل أسـتـاذ (الجرافيـك) فـى جامعـة الأسـكندرية وبالإضافة إلى ذلك فهو متدرب بشكل جيد على الرسم الكلاسيكي وعلى مدار سنوات طويلة رسم صور شخصية (بورتريهات) لعدد كبير من السياسين والشخصيات البارزة : قام أولاً برسم صورة لأمى التى أحبها كثيراً، ثم بعد ذلك رسم لوحات شخصية للرئيس أنور السادات، والتى أعجبته كثيرا، كما أنه قام برسم صورة للسفيرة المصرية السابقة فى بون بالإضافة إلى رسمه للعديد من الوزراء المصريين وبعد عدة سنوات كانت لوحاته التى رسمها لأنور السادات توزع من خلال السفارات المصرية، والجدير بالذكر أن معظم الصور الشخصية التى رسمها وكذلك لوحاته تزين كثير من الجدران فى الوقت الحالى، لقد قام برسم العديد من سياسين ألمانيا منهم والترشيل Walter Scheel، ميلدرد شيل Mildred Scheel، هيلموت شيمديت Helmut Schmidt وكذلك لوكى شيمديت Loki Schmidt، وقد تسلم فاروق العديد من رسائل الشكر والتقدير من كل الذين صورهم وهو بالطبع لا يزال محتفظا بهذه الرسائل؛ إذ لديه رسائل شكر من الرئيس رونالد ريجان Ronald Reagan وكذلك فرانز جوزيف ستراوس Franz-Josef Strauss وكورت فالداهيم Kurt Waldheim، وتلك الأسماء على سبيل المثال وليس الحصر.

بالإضافة إلى ذلك يحب فاروق تصوير ورسم المناظر الطبيعية والصور الشخصية بألوان زيتية، لأنه يعتبر أن الرسم حرفة وليس فناً، والجدير بالذكر أنه أثناء فترة مرضه المبكر فى ألمانيا أتيحت له رؤية خلايا الدم تحت المجهر (الميكرسكوب) وقد بهرته الأشكال العجيبة التى رآها وألهمته فى تصوير المناظر الطبيعية، وكان دائما يطور أسلوبه الفنى ويجرب الجديد على مدار سنوات عديدة، حتى أصبح أسلوبه تجريدياً، وقد قام بعمل معارض فنية

للوحاته سواء فى مصر أو فى معارض عالمية لذلك أصبح فنه معروفاً وأصبح شخصية مشهورة تماما .

التحق طارق بقسم إدارة الأعمال فى جامعة الأسكندرية بعد أن أنهى دراسته الثانوية وبعد تخرجه عمل فى إحدى الشركات بالأسكندرية، ويعتبر نفسه مصرياً أكثر من كونه ألمانياً؛ لأن معظم أصدقائه مصريين كما أن لديه أصدقاء من فيينا ـ منذ أن كنا نعيش فيها لمدة أربع سنوات – ولا يزال يراسل أصدقاءه هناك والجدير بالذكر أنه يتقن ثلاثة لغات : اللغة العربية، واللغة الإنجليزية، واللغة الألمانية .

كما أن لدينا العديد من الأصدقاء المصريين، وأستطيع أن أتكلم معهم باللغة العربية مع أنهم يتحدثون الإنجليزية أيضاً .

أما فيما يتعلق بأمور المنزل فإننى أحسن التصرف فيها تماماً؛ فأنا أقوم بإعداد الطعام وتحضير العديد من الأطباق الألمانية بنفسي، ومع أننى أحب الأطباق المصرية، إلا أننى لا أستطيع تحضيرها لأن الكثير من الأطباق المصرية يستغرق وقتاً طويلاً لإعداده، وأنا غالبا أفتقد إلى الصبر الكافى للقيام بذلك، بالإضافة إلى أن عملى طول النهار لم يتح لى المساحة الكافية من الوقت الذى أقضيه فى الطهى، وعلى الرغم من كل ذلك إلا أننى أحب الطهى وعمل المخبوزات، أما فاروق فيجد متعة خاصة فى أعمال التسوق بصفة يومية .

لديَّ صديقة عزيزة عليَّ جداً اسمها نادية ترجع علاقتنا إلى زمن بعيد لأن زوجى كان يعرفها ويعرف زوجها من قبل أن نتقابل، إذ كانوا دائماً يتبادلون الرأي – حتى قبل قدومى – عن أفضل الطرق لمساعدتى فى بداية حياتى فى مصر وكلها أمور قد تبدو بسيطة جداً، إلا أنها تساعد الشخص على سرعة التكيف والتأقلم مع الثقافة الأجنبية التى قد يشعر تجاهها بالاستغراب.

لقد اصطحبتني صديقتي نادية إلى معظم المحلات وتعلمت منها المساومة مع التجار بشأن الاسعار، كما كانت خير عون لي في العثور على سيدة تساعدني في أعمال المنزل، كما أنها وقفت بجانبي تساعدني في الترجمة عند احتياجي لذلك أثناء أدائي لأعمالي اليومية البسيطة، لقد كانت ملاذي الذي ألجأ إليه حين يحتار أمري ولا أدري ماذا أفعل .

فقد كانت بداية حياتي هنا تتسم بالصعوبة؛ فلم أكن قادرة على التواصل بالناس بصورة مطلقة نظرا لاختلاف أجواء الحياة بين البلدين، أما حالياً فقد تحسنت لغتي العربية، وأستطيع أن أتواصل مع الآخرين بشكل جيد.

لقد تقابلت مع سيدات ألمانيات في معهد جوتا Goethe بعد فترة طويلة من تواجدي في مصر، ومنذ عام 1991 تلتقي هذه المجموعة كل شهر لتبادل الآراء والخبرات، وكذلك تبادل المساعدات، وما زالت هذه الجماعة نشطه حتى الآن، وفي عام 1996 وقع اختيارهم علي لأشغل منصب رئيس الجمعية؛ حيث تقام العديد من الاجتماعات الشهرية ونقوم برحلات ونشارك في نشاط اجتماعي، بالإضافة إلى تنظيم السوق الخيري السنوي الكبير في رأس السنة (الكريسماس) الذي يخصص دخله للمشروعات الاجتماعية، وحتى اليوم هناك الكثير من الفقراء المتواجدين في مصر والحكومة لا تساعد إلا بأقل القليل، وحين تتعذر أحيانا عملية جمع الأموال للمحتاجين، فإننا نساعد بتقديم الطعام والملابس، وشراء أشياء معينة يحتاجونها، ففي الوقت الحالي ذلك هو السبيل الوحيد لضمان وصول تلك الأموال إلى من يستحقها فعلاً، فعندما يتم التبرع بأموال نقدية فقد يتم صرفها في مجالات مختلفة تماماً لذلك نحرص على مراقبة التبرعات التي نقوم بجمعها قدر استطاعتنا كي لا تتبدد أو تختفي ببساطة .

لقد خضع المجتمع المصري للعديد من التغيرات الكبيرة والهائلة على مدار السنوات الأخيرة، ولا يمكن الجزم بأن تلك التغيرات كانت نحو الأفضل؛ فالناس اليوم أنانيون وكل إنسان ينصب اهتمامه على نفسه فقط. ومعظم الناس فى مصر يكسبون قوت يومهم بصعوبة بالغة والرواتب ضعيفة للغاية والجميع يعانون إلا قلة من سعداء الحظ الذين فى مقدورهم التمتع بمباهج الحياة وشراء الكثير من الكماليات، بينما نجد أن أغلب الناس فى مصر يعانون من الفقر ولا يملكون إلا قوت يومهم وبصعوبة، لقد ازدادت صور الأنانية بشكل ملحوظ فى الآونة الأخيرة؛ إذ يفعل كل إنسان ما يريد وهو مظهر ملحوظ بشكل واضح جداً فى مصر، وخصوصاً عند قيادة السيارة : فلا يوجد من يحترم إشارات المرور، بل يتجاهلونها باستخفاف وينتهكون قواعد المرور، وأغلب هذه الانتهاكات تصدر عن الشباب والمراهقين .

أما أنا فأود أن أعرب عن حبى للحياة على أرض مصر، فأشد ما يعجبنى فيها هو المناخ، فالشمس مشرقة طوال العام، ولا أستطيع أن أصف سعادتى فى الصباح حين أشهد شروق الشمس، أما فصل الشتاء فيمثل لى الجانب الآخر من الطبيعة ولكن تغير الطقس الذى يتسم بهبوب العواصف الشديدة على الأسكندرية لا يعنى رداءة الطقس؛ لأن الطقس بصفة عامة جميل ودافئ، وهذا ما يسهم فى إعادة التوازن بداخلى ويساعد على رفع مستوى معنوياتى، كما أن الناس فى مصر يتصرفون وفقا لطبيعتهم الفطرية ويتسمون بالطيبة الشديدة، ويتزاورون فقط من أجل تمضية الوقت، ويتزاورون مع بعضهم البعض دون مواعيد مسبقة !! ولا يمضون وقتًا طويلاً فى الحديث، يشربون القهوة أو الشاى ثم يمضون مسرعين، وهكذا يكون وقت الزيارة قصيرًا، ولكن هذه الزيارات السريعة تجعلهم على صلة وثيقة ببعضهم البعض .

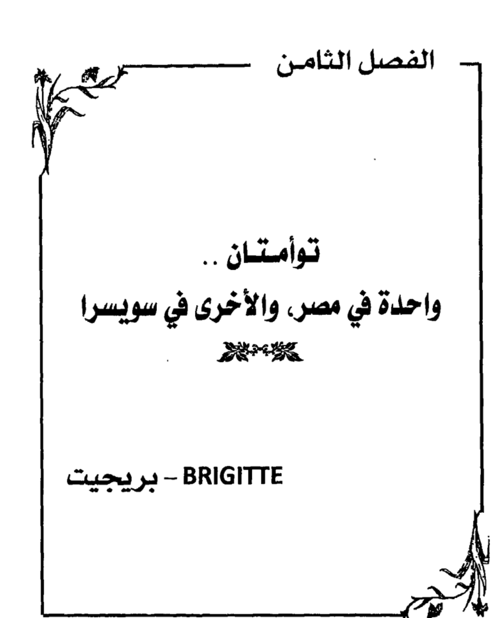
كنت أزور ألمانيا بصفة سنوية فيما مضى ولكن مع مرور الزمن بدأت تقل هذه الزيارات لأنه من الطبيعى أن يقترن تقدم عمر الإنسان مع قلة حركته، وهكذا يصبح السفر عبئاً ثقيلاً لهذا أصبحنا نفضل البقاء فى المنزل بالأسكندرية، ولكننا طيلة فترة إقامتنا بمصر اعتدنا على السفر بين أرجائها، فقد ذهبنا إلى الأقصر وزرنا المعابد الفرعونية وحضرنا العرض الحي لأوبرا عايدة الذى تم تقديمه فى الهواء الطلق بين معابد الأقصر، وقد كانت تلك التجربة ممتعة وفريدة بالنسبة لنا، كما سافرنا إلى أسوان، وطبعا كنا نذهب إلى القاهرة باستمرار لزيارة بعض الأصدقاء هناك، وتستغرق الرحلة من الأسكندرية إلى القاهرة من ساعتين ونصف إلى ثلاث ساعات بالسيارة .

عندما جئت إلى مصر منذ عشرين عاماً تقريباً للمرة الأولى قلت فى نفسي إذا لم تعجبنى الحياة فى مصر فسوف أعود أدراجى إلى ألمانيا، ولكن بعد قضاء تلك الفترة من حياتى هنا أصبحت أفكر حالياً بطريقة مختلفة :

فهنا بيتى وبيت أسرتى التى قضيت فيه معظم سنوات حياتى والتى تشهد جدرانه على أيامى التى قضيتها فيه، وتكاد تنطق بأجمل ذكريات العمر، لقد أصبحت الأسكندرية بالنسبة لى هى موطن العائلة ومحفل الأصدقاء، لقد أصبحت مصر هى وطنى الجديد ..... لقد أصبحت مصر هى كل حياتى .

*****

الفصل الثامن



توأمتان .. واحدة في مصر، والأخرى في سويسرا

BRIGITTE – بريجيت

ولدت بريجيت Brigitte في سويسرا ، و بالرغم من بلوغها سن السبعين إلا أنها ما زالت تتمتع بحيوية الشباب وتمتاز باللياقة، حينما تراها تشعر أنها تعلم تماما ما الذى تريده؛ تبدو وكأنها شديدة الثقة بنفسها، وعلى عكس كل النساء الأجنبيات اللاتى قابلتهن، تتحدث اللغة العربية بطلاقة ويبدو أن مصر بالنسبة لها هى الوطن الذى تعيش فيه، ومع مرور السنوات تطورت شخصيتها وأصبحت أكثر نضجاً وشمولية، ربما يرجع السبب فى ذلك إلى زوجها ؟

ينتابنى فضول قوى كي أعرف السبب وراء تلك السمات المكتسبة التى تزين شخصيتها وها هى قصتها :

أدعى بريجيت Brigitte ولى أخت توأم تدعى جوليان Juliane، ذهبنا سوياً فى أجازة مع مجموعة من الشباب إلى إيطاليا عام 1955 وكنا وقتها نبلغ التاسعة عشر من العمر وكانت رؤية ايطاليا الجميلة حلمًا رائعًا بالنسبة لنا، أقمنا وقتها فى سكن الطلبة واستمتعنا وقتها بقدر من الحرية لم نعهده من قبل بعيدًا عن رقابة الوالدين، فى تلك الرحلة ذهبنا فى جولة سياحية وقضينا وقتنا فى التجوال وممارسة السباحة واستمتعنا بالطقس الجميل، واستمتعنا - بصفة عامة - بتلك اللحظات الجميلة من الحياة وحانت اللحظة الموعودة حين رأيته للمرة الأولى فى حمام السباحة كان يدعى محمد ويبلغ من العمر 31 عاما، كان يكبرنى بعدة سنوات ولكنه كان يتمتع بوسامة وجاذبية وكان خفيف الظل تطل روح الفكاهة من خلال عباراته وأحاديثه، فى ذلك الوقت لم يكن ما بيننا يكفى كى يثير أى أفكار بداخلي، ولكننى دون أن أدرى ودون إدراك منى وجدت نفسي مدفوعة كى أقابله بصفة يومية خلال أجازتنا فى إيطاليا وبعد انتهاء الاسبوعين، وقبل

عودتى إلى بلادى أفصح لى عن عواطفه وصارحنى برغبته فى الزواج منى، لقد كان طلبه هذا مبكراً وسريعاً، الأمر الذى أثار تعجبى واندهاشي، ولكنى فى قرارة نفسي كنت قد حسمت أمرى .

رجعت إلى سويسرا مجددا وكنت وقتها أعيش فى شياسو Chiasso، وهى منطقة تتحدث اللغة الإيطالية على الرغم من أنها تقع داخل دولة سويسرا، وكنت أعمل كسكرتيرة، وكانت أختى جوليان تعيش هناك أيضاً، لقد جئنا أساساً من المنطقة الشمالية بسويسرا ولكننا كنا مغرمتين بالإقامة فى المنطقة الجنوبية، لأن الجنوب يتميز بدفء الجو على عكس المنطقة الشمالية حيث الجو دائما ضبابى، ونادراً ما تشرق الشمس وخصوصاً فى فصل الخريف، لهذا تقدمت بطلب عمل فى المنطقة الجنوبية، والتى تتحدث اللغة الإيطالية والتحقت بالعمل كسكرتيرة، عندما أنهينا دراستنا أنا وشقيقتى التحقنا بالمدرسة التجارية؛ فلم يكن أمامنا خيار آخر وخصوصاً أن أبى كان من مؤيدي فكرة أن البنات حتماً سيتزوجن وينجبن الأطفال ومن ثم لا يحتجن إلى التعليم العالى، مثل تلك الأفكار كانت سائدة فى ذلك الوقت، وبما أن والدى كان يمارس سلطته كأب فقد امتثلنا لرغبته ولم نحاول أبدا أن نعارضه .

حين كنت أبلغ من العمر السادسة عشر، توفيت والدتى بسبب جلطة دموية، وكانت شقيقتنا الصغيرة سابين Sabine فى السابعة من عمرها، وهكذا أصبحنا نصف أيتام، وقد تزوج أبى بعد مرور فترة قصيرة على وفاة أمى، سعدنا بزواجه لأنه وجد من تشاركه الحياة بعد رحيل أمى عن الدنيا، ولكن من ناحية أخرى لم أكن أنا وشقيقتى التوأم جوليان على وفاق مع زوجة أبى ولكننا كنا نجد السلوى لدى خالتنا التى احتضنتنا لتكون لنا

بمنزلة الأم البديلة، لدرجة أننا كنا نطلعها على كل شئ سواء كانت أمورًا مهمة أو أمورًا تافهة .

كان من الطبيعى أن أتحدث مع كل فرد من أفراد أسرتى عن الشاب الذي قابلته أثناء الأجازة التى قضيناها فى إيطاليا، ولكننى لم أجد أحدًا بين أفراد عائلتى يعيرنى اهتمامه، بالطبع كانت تراودهم التساؤلات حول المستقبل الذى يمكن أن ينتظر تلك العلاقة التى نشأت سريعاً أثناء تمضية أجازة ؟ ولكننا أنا ومحمد لم نتأثر بتلك الأفكار أو الآراء المسبقة، وكنا نتراسل بصفة منتظمة، وسرعان ما اتضح لكل منا أن أمر زواجنا صار حتمياً وهكذا ازدادت الرسائل بيننا، اعترض أبى على هذا الزواج فى البداية؛ إذ كان يعتقد من وجهة نظره أن مثل هذا الزواج عبثي ولا طائل من ورائه، وكان يرى أن الحالة المزاجية لفتاة صغيرة لابد من أن تتغير مع الزمن، ولكننى عرفت بعد مرور عدة سنوات أن أبى كان يجمع معلومات عن طريق السفارة السويسرية عن ذلك الشاب الذى يرغب فى الزواج من ابنته، ولم يأت ضمن تلك المعلومات ما كان يمكن أن يسئ لشخصية محمد بصورة مباشرة أو غير مباشرة، لقد كانت جميعها إيجابية؛ الأمر الذي جعل أبى يرضخ للأمر الواقع، وفى النهاية وافق على زواجنا، وأخيرا تلاشت كل العوائق التى كانت تسد علينا طريق السعادة .

شهد عام 1956 حدوث أزمة السويس فى مصر، وللأسف ثبارت الصحف فى تصريحاتها التى وصفت مصر بأنها برميل من البارود، الأمر الذي جعلنا نرجئ خططنا الخاصة بالزواج سواء بإرادتنا أو رغم أنفنا .

كان محمد قد أنهى دراسته فى مصر، وكان تخصصه فى علم الكيمياء، وحصل على درجة الدكتوراة، وكان مثلى يقضي أجازته فى إيطاليا،

وفى محاولة منه لكى يقترب منى أكثر حاول المجئ إلى ألمانيا ونجح فى النهاية فى الالتحاق بوظيفة باحث فى جامعتى هيديلبرج Heidelberg وكارلسروهى Karlsruhe، وحضر إلى ألمانيا عام 1957 وتركت سويسرا واتجهت إلى هيديلبرج Heidelberg كى أقابله هناك، وكان من الطبيعى فى تلك الآونة أن تكون لقاءتنا قصيرة؛ لأن الاخلاق فى ذلك الوقت كانت أشد صرامه وكان هناك المزيد من القيود التى تحكم العلاقات، ولكننا كنا سعداء بهذه المقابلات .

وتمت خطبتنا فى سبتمبر 1957 وأقمنا احتفالاً فى منزل والدى فى البلدة التى شهدت نشأتى فى سويسرا، وأردنا إتمام الزفاف فى المنطقة السويسرية الجنوبية (التى تتحدث الإيطالية) وحددنا موعد الزفاف فى شهر مارس التالى وقمت بتجهيز كل أوراقى باللغة الإيطالية، واستعلمنا لدى السفارة المصرية عن الأوراق التى يحتاجها محمد، فقيل لنا أنه يمكنه الحصول على كل ما يحتاجه من أوراق فى فرانكفورت Frankfurt لأنه كان مسجلاً فى ألمانيا، ولقد عانينا طويلاً فى اتباع كافة التعليمات خطوة بخطوة، لقد أردنا أن نتأكد أن كل شئ فعلناه صحيح وفقا للوائح الرسمية المصرية، وفى النهاية حان وقت إعلان زواجنا الذى تمت اجراءته فى مكتب زواج مدنى فى هيديلبرج Heidelberg، لم يكن معنا إلا رجلان ليشهدا على الزواج، حتى والدى لم يكن على علم باى شئ، لقد انتظرت حتى تمت كافة الاجراءات، ثم اتصلت به لافاجئه بالاخبار، ربما كان السبب وراء تصرفي هذا هو أننى لم أكن متأكدة من رد فعله تجاه زواجنا ! ولكننا فيما بعد سافرنا أنا ومحمد معًا إلى سويسرا، وتداركنا الأمر وأقمنا احتفالاً بالزواج حضره كافة الأصدقاء والأقارب .

وعلى الرغم من زواجى من محمد، لم يكن معى أى نقود وقتها، وقد

ساعدنى أبى فى شراء موقد غاز وسخان ماء والعديد من الأشياء الأخرى، لقد اعتمدت على محمد كثيراً فى الاستفسار عن الأشياء التى قد نحتاجها فى مصر، لأننى لم يكن لدى أى فكرة عن طبيعة ظروف الحياة فى مصر، واعتقد أن ما شدنى للحياة فى مصر هو رغبتى فى الإقامه داخل بلد أجنبى فى الجنوب، لقد كانت مصر بالنسبة لى مثل مغامرة كبيرة لاح مظهرها فى الأفق، بالإضافة إلى أننا كنا في قمة السعادة والحب، وتلك الدرجة من الحب قد تحول دون رؤية المرء للكثير من الأشياء وتضعف من قدرته على تحليل الأمور بصورة عقلانية، وبالطبع لم يكن معنا المال الذى يكفى لشراء سيارة، ولكن ذلك لم يشكل فارقًا كبيرًا معى لأننى كنت معتادة على ركوب دراجتى فى سويسرا .

حزمنا أمتعتنا وبدأنا رحلتنا إلى مصر فى صيف عام 1958، وركبنا القطار إلى فينيسيا Venice، ومن هناك أخذنا السفينة المتجهة إلى ميناء الأسكندرية، وأذكر أنها كانت سفينة إيطالية ولكننى لم أعد أحمل فى ذاكرتى أى تفاصيل عن تلك الرحلة؛ لابد أن حالة الغرام التى كنا نعيشها كانت متوهجة لدرجة أننى لم أعد أتذكر أى شئ عن تلك الرحلة، ولكننى ما زلت أذكر أول مرة نصل فيها إلى ميناء الأسكندرية :

لقد كان الجو شديد الحرارة فى منتصف شهر يوليو، وكان الميناء يعج بالناس التى كانت تنتظر السفينة وكانوا جميعاً يختلفون فى الملامح ! وكنت أبدو وسط هؤلاء المصريين فريدة من نوعى لأن ملامحى أوروبية جداً، انتابتنى صدمة حضارية؛ لقد شعرت أن كل ما حولى يبعث على القلق فأحسست بالارتباك الشديد وشعرت بالغربة لقد بدا كل شئ غير مألوف بالنسبة لى وتملكنى الاضطراب، ولكن لحسن الحظ أن بعض أشقاء محمد استقبلونا فى الميناء فشعرت بشئ من الطمأنينة، فأخذونا أولا إلى بيت والدة محمد (وهو

قريب من حى كليوبترا بالاسكندرية) وقد استقبلتنا بترحاب شديد شعرت تجاهها بالألفه ولم أشعر حيالها بأى استغراب ومنذ لقائنا الأول أدركت أنها سيدة حلوة المعشر لطيفة فأحببتها على الفور وسرعان ما حدث بيننا اندماج، على الرغم من وجود مشكلة اللغة، لقد حاول محمد أن يعلمنى بعض كلمات عربية وقد بذلت جهدًا كبيرًا كى أتعلم بعض المصطلحات البسيطة التى أستطيع أن أتفاهم بها فى الحياة اليومية مع الآخرين .

الأسرة فى مصر تشكل كياناً مهمًّا بالنسبة للغالبية العظمى من الناس بالإضافة إلى ذلك فإن عدد أفراد الأسرة فى مصر كبير؛ فى ذلك الوقت كان عدد أفراد أى أسرة يتراوح ما بين ثمانية إلى تسعة أفراد وهو أمر مألوف جداً، محمد نفسه كان ترتيبه الثانى بين أخوته السبعة، استمرت علاقتى الطيبة مع والدة محمد وتوطدت علاقتنا فى السنوات الأخيرة .

ويعد وصولنا إلى مصر بفترة قصيره جلست لأكتب رسالة إلى أبى ولكن محمد طلب منى ألا أكتب هذه الرسالة الاولى حينها، كان رأيه أن انتظر قليلاً برغم أنه لم يقرأ فحوى الرسالة، ولكن وجهة نظره كانت صحيحة؛ لأن هناك العديد من الأمور التى لم أكن أدركها بشكل جيد، وربما أحتوت رسالتى على آراء سلبية، وكانت وجهة نظره صحيحة، فى الواقع لم أرسل تلك الرسالة، ولكننى كتبت رسالة أخرى فيما بعد، ومع مرور الوقت شعرت بشئ من الطمأنينة والاستقرار النفسي، كانت الاتصالات الهاتفية فى ذلك الوقت تشكل صعوبة فى مصر، فلم يكن التليفون منتشرًا داخل البيوت، ولكنه بدأ ينتشر فى منتصف الثمانينيات من القرن الماضي، أما حاليا فمعظم الناس يحملون على الأقل هاتفًا محمولاً، وعلى الرغم من صعوبة الاتصالات فى ذلك الوقت إلا أننى كنت دائماً على اتصال بشقيقتى جوليان من خلال تبادل الرسائل بصورة منتظمة .

لم يكن والد زوجي يعيش مع زوجته (والدة محمد) ولكنه كان يعيش مع زوجته الثانية التى أنجب منها عددًا من الإخوة ولقد عانت والدة زوجى من هذا الانفصال كثيراً، ولم يكن فى مقدورها أن تفعل أى شئ، حيث لم يتم طلاقها؛ لأن فى مصر حتى يومنا هذا مسموح للرجل استخدام حقه الشرعي فى الزواج من أربعة نساء، وكان والد زوجى محاميًا كبيرًا، وكان من الطبيعى أن يهتم بأمور عائلته من الناحية المالية، ورغم ذلك فقد كانت الأحوال المالية غير متيسرة فى ظل وجود العديد من الأفراد، ولكن يبقى القول بأن العلاقة التى كانت تربط بين زوجى وإخوته الأشقاء وغير الأشقاء جيدة .

كانت أم محمد تستعين بخادمة فى أعمال المنزل، وكانوا عادة يختارون الخادمة صغيرة السن أقل من اثنى عشر عاماً، وقد فهمت بعد ذلك لماذا يختارونها صغيرة لأن هناك شقيقين لزوجى فى سن المراهقه ويخافون عليهما من الغواية، لهذا كان اختيار الأسرة يقع على طفلة كى تساعد فى أعمال المنزل وعندما تكبر ويبدو عليها المظاهر الأنثوية يتم استبدالها على الفور.

لقد تزوج كل أشقاء محمد، وطبعاً كنت أنا الزوجة الوحيدة الأجنبية فى الأسرة، ولكننا بعد فترة وجيزة انتقلنا إلى شقتنا المستقلة الأولى فى شارع الإبراهيمية وفى البداية كان أثاث بيتنا قليلاً، ولكننا كنا نشعر بالراحة التامة هناك، فى ذلك الوقت، كان يعمل محمد فى الجامعة، ثم ترقى بعد ذلك ليصبح أستاذاً، شعرت بالملل بعد فترة من بقائي بالمنزل، وبدأت فكرة العمل والخروج من المنزل تراودنى فبدأ محمد فى التفكير فى أن أعمل مرة أخرى، وبالتأكيد يمكن أن يكون لذلك عائد مالى نظرا لأن الرواتب ضعيفة جدا فى مصر حتى أن الأستاذ الجامعى لا يتقاضى سوى راتب ضعيف، وبالمصادفة سمعت عن افتتاح منظمة دولية فقمت بتقديم طلب للوظيفة وتم استدعائي لإتمام المقابلة الشخصية، وقد تم اختيارى للوظيفة بسبب مهارتى

اللغوية (اللغة الإنجليزية واللغة الفرنسية واللغة الألمانية)، وكان يتحتم عليّ (ضمن مهامي الوظيفية) أن أقوم بالكتابة على الآلة الكاتبة، ولكننى لم أتقن الكتابة على الإطلاق؛ ففى ذلك الوقت كان هناك فقط آلات كاتبة وكانت تحمل بعض مواصفات اليوم، ورغم حصولى على الوظيفة وإمكانية عملى على الفور إلا أننى لم أتمكن من البدء فى العمل لأننا كنا على وشك السفر إلى القاهرة كى نقضى فيها بضعة أيام وقد وافق المدير على ذلك، على الرغم من تذمر مكتب شئون العاملين .

أقمنا فى القاهرة مع أحد أشقاء زوجى، ولأول مرة أتيحت لى فرصة أن أرى بعض الكنوز الحضارية والتراثية المتنوعة فى مصر؛ ذهبنا فى جولة سياحية إلى الأهرامات، المتحف المصري وبعض المساجد العتيقة وغيرها من المزارات الكثيرة، لقد كنت دوماً مبهورة بهذا الإرث الحضارى الضخم لبلادى الجديدة التى أعيش بها، لقد تعددت رحلاتى أنا وزوجى على مدار السنوات إلى صعيد مصر للاستمتاع بمشاهدة الآثار فى الجنوب؛ لقد كنت دوما أشعر بهذا الولع تجاه الجنوب .

وعند عودتنا من القاهرة بدا لى أن العمل أمر حتمى ولكن أثناء الأسابيع الأولى التى قضيتها فى المكتب شعرت بالعديد من المشكلات التى ظهرت نتيجة استخدامى للغة الإنجليزية التى تعلمتها فى المدرسة، فعلى الرغم من قدرتى على التعبير عن نفسي بوضوح إلا أننى كنت أجد صعوبة فى فهم اللغة الإنجليزية التى يتحدث بها موظفون آخرون فى المكتب، والذين جاءوا من انجلترا ومن الولايات المتحدة وبلاد أخرى؛ وجميعهم يتحدثون بلهجات مختلفة ويستخدمون عبارات لم يسبق لى أن سمعتها، كما أننى واجهت بعض المشاكل فى استخدام الآلة الكاتبة، وفى ذلك الوقت لم تتوفر آلات تصوير المستندات لذا فكان عليّ أن أقوم بعمل النسخ الكربونية، وكنت

أجد صعوبة شديدة فى تصحيح الأخطاء، إلا أننى كنت راضية عن هذا العمل رغم كل الصعوبات التى كنت أواجهها .

لم يمض وقت طويل حتى شعرت براحة كبيرة عندما انتقلت إلى قسم آخر داخل المنظمة الدولية، وهناك أتيحت لى فرصة إظهار بعض قدراتى المتميزة بصورة أفضل؛ إذ كان لزاما علىّ أن أعمل بطريقة مستقلة وأن أجد الوسيلة كى أتكيف مع رئيستى فى العمل التى أستعانت بموظفات آخريات كى يقمن بأعمال النسخ والطباعة بطريقة أفضل منى وكلفتنى بأعمال أخرى تتفق مع إمكانياتى؛ على سبيل المثال : المهام التنظيمية والإعداد .

كان محمد زوجى يتولى إدارة الشئون المالية داخل المنزل، وكنت أدعوه على سبيل الدعابة بـ "وزير المالية" وقد تعلمت منه كيف أتعامل مع العملة المصرية وكيف أتعامل مع الآخرين فى أمور البيع والشراء، لقد كان ماهرًا فى التعامل مع شئون النقود، ولا أذكر يوماً حدث فيه خلاف بيننا بسبب المال، فلم نشعر بالفوارق؛ فما كنت أملكه كان هو يملكه والعكس صحيح لقد كان دخلنا فى البداية ضعيفًا وكنا بالكاد نستطيع أن نتدبر أمور المعيشة، أما راتبى فقد ساهم مساهمة كبيرة فى ضبط أمور الحياة .

فى سبتمبر 1959 حملت ثم أنجبت ابنتنا نادية، واتفقت مع زوجى محمد على أن أستمر فى عملى، ولقد ساعدنى زوجى كثيرا فى تحقيق الكثير من رغباتى، فى العمل كانوا يريدوننى معهم، وهكذا رجعت إلى المكتب ثانية بعد مرور شهرين من مجئ نادية، وكان عملى يبدأ فى الثامنة صباحاً وينتهى فى الثانية بعد الظهر، وكنت أقوم بإرضاع ابنتى فى الصباح وقبل الذهب إلى العمل كنت أقوم بإعداد " البيبرونة" الخاصة بالحليب كى تتناولها أثناء غيابى، وبعد الظهر أعود وأرضعها، وكان من الطبيعى أن

احتـاج إلى مـن يـساعدنى فـى الاهتمـام بطفلتـى، كانـت أجـازتى الأسـبوعية السبت والأحد، أما محمد فقد كانت أجازته الأسبوعية يوم الجمعة واستطاع أن يعيد توزيع جدول محاضراته فى الجامعة فى يومى السبت والأحد، وهكذا تحقق لنا أن تكون نادية معنا أطول فترة ممكنة، ولقد أثبتت تلك الطريقة نجاحها معنا، وحينما أتمت نادية عامها الأول كان محمد يصطحبها فى الصباح إلى والدته ثم يعود ليأخذها بعد الظهر، لقد كان هذا التدبير يصب فى مصلحتنا جميعاً، بالإضافة إلى أن والدة زوجى كانت تشعر بسعادة بالغة لرؤية حفيدتها بانتظام؛ وبالتالى فقد تم حل مشكلة رعاية ابنتنا، ولكن مع الأسف، أصيبت ابنتنا نادية وهى فى عامها الثالث بنزلة شعبية شديدة (الربو) وكانت نوبات الربو تنتابها بصورة شديدة من حين لآخر الأمر الذى جعلنا نتردد بها على كثير من الأطباء، وعلى الرغم من خضوعها لجميع أنواع الفحوصات والتحاليل فلم يتوصلوا إلى السبب الحقيقي وراء إصابتها بالربو، إن كان : الرطوبة، الغبار، أى شئ آخر!، ولكن حالتها تحسنت إلى حد ما بعد أن أجرينا لها عملية استئصال اللوزتين، إلا أنها كانت تعانى من مشكلة مستعصية وهى ضعف الشهية؛ فكانت لا تأكل إلا قليلاً، وكنت أجلس بجوارها ساعات طويلة أحاول إطعامها، وأحيانا يغلبنى النعاس وأنا أطعمها؛ تلك المرحلة لم تكن سهلة، وقد كان ينتابنى إحساس بالحنين إلى بلدي سويسرا على الرغم من سعادتى لوجودى فى مصر.

كان من الصعب على المصريين مغادرة البلاد والسفر للخارج – فى عهد جمال عبد الناصر – لأن الحكومة فى ذلك الوقت كانت تخاف من هجرة الكفاءات، واستنزاف الجهود وغسيل العقول، وهكذا لم يكن من السهل على المصريين أن يحصلوا على تأشيرة سفر بل إن هذا الأمر – من الناحية العملية – كان يرقى إلى درجة المستحيل وكان هذا يعنى أن محمدًا لا يمكنه السفر

بسهولة إلى الخارج، ولكن هذه الشروط لا تنطبق عليّ لأننى أجنبية أحمل جواز سفر سويسري، فبادرت بتقديم طلب أجازة وسافرت إلى سويسرا مصطحبة معى ابنتى نادية وأمضينا هناك فترة شهر ونصف، وهكذا سافرنا بالسفينة إلى فينيسيا Venice ومن هناك أخذنا القطار إلى سويسرا، كانت نادية فى ذلك الوقت قد أتمت عامها الثالث وبسرعة شعرت براحة فى بلدها الثانى، وبدأت تلتقط بعض الكلمات باللهجة الألمانية السويسرية وبعد عودتنا من الأجازة إلى مصر استشعرت والدة زوجى استغرابًا شديدًا وعدم ارتياح عندما علمت أن ناديه لن تتواصل معها ثانية باللغة العربية، ولكن هذا الأمر لم يكن مشكلة كبيرة لأن مسألة اللغة عند الأطفال يسهل حلها بسرعة؛ فما هى إلا بضعة أشهر حتى عادت نادية تتحدث اللغة العربية من جديد .

انتقلنا إلى شقة جديدة فى حى" سابا باشا "، وفى ذلك الوقت جاءت إلينا خادمة جديدة تدعى عزيزة لم نكن وقتها نعرفها بشكل جيد ولكنها مع مرور الوقت أصبحت بالفعل عزيزة علينا ! فلقد عاشت معنا قرابة الثلاثين عاماً؛ لقد كانت ترعى ابنتنا وتقوم بكافة أعمال المنزل من تنظيف وطهى وتنظيم بالإضافة إلى أعمال التسوق، ولم تكن تقيم معنا بصورة دائمة، إذ كانت تأتى فى الصباح وتغادر فى المساء وقد أحبها محمد وتعلقت بها نادية كثيراً وكانت تعتبرها بمنزلة الأم الثانية لها .

كنت أجيد أعمال الخياطة والإبرة، بالإضافه إلى عملى الأساسي فى المنظمة الدولية، ولأنه لا يوجد فى مصر ما يمكننا أن نشتريه كانت شقيقتى ترسل لنا بانتظام طرودًا من سويسرا، وإذا سافرنا نحضر معنا حقائب مليئة باحتياجاتنا الجديدة .

ذهبت نادية إلى حضانة فرنسية ثم إلى مدرسة راهبات إنجليزية فقد

كانت المدرسة الألمانية بعيدة عن بيتنا، بالإضافة إلى أن محمد كان يرى أن التعليم الإنجليزى سيكون أفضل بالنسبة لها لأن اللغة الإنجليزية حتى يومنا هذا ما زالت أهم لغة أجنبية فى مصر، وكنت أتحدث معها باللغة الألمانية (ولمزيد من الدقة كنت أتحدث معها باللهجة الألمانية السويسرية)؛ ولذلك فقد تعلمت هذه اللغة بمنتهى السهولة أيضاً .

لقد كنا دوماً فى حاجة إلى شخص ليرعى نادية؛ نظراً لقلة أجازاتى، وكانت عزيزة تهتم بها وترعاها، وقد كنت أرسلها بين الحين والآخر إلى خالتها جوليان فى سويسرا؛ إذ كنا دوماً على اتصال ببعضنا البعض؛ على الرغم من أن الاتصالات فى ذلك الوقت كانت صعبة للغاية، ولكننا كنا نتبادل الرسائل باستمرار، ومع مرور الوقت وبصورة تدريجية تحسنت الأمور فى ظل وجود الهواتف والرسائل السريعة والبريد الالكترونى (الايميل)، وهكذا أتيحت لنا فرصة التواصل حتى يومنا هذا برغم المسافات الطويلة التى تفصل بيننا بفضل ظهور وسائل سهلة ورخيصة للتواصل السهل والسريع .

قد يكون سر التواصل الخاص بيننا يرجع إلى أننا توأمتان؛ والجدير بالذكر أننى كنت حينما أفكر فيها وأنا فى مصر كانت تكتب لى رسالة فى نفس اللحظة، وقد ظل التقارب بيننا كما كان دوماً، فما زلنا نشعر وكأننا طفلتان تعيشان معاً هناك على الرغم من تباعد المسافات بيننا واختلاف الحياة التى نحياها، مرات قليلة تلك التى جاءت فيها جوليان مع زوجها إلى مصر ولقد احتفلنا نحن الأربعة عام 2006 ببلوغنا – أنا وشقيقتى سن السبعين – وأمضيناه فى صعيد مصر، أما شقيقتى الصغرى سابين Sabine فلم أعرف عنها شيئا إلا فى السنوات الأخيرة، إذ كان الفارق العمرى بيننا كبيراً : لأنها أصغر منى بتسع سنوات؛ لقد كانت تبلغ من العمر أحد عشر عاما عندما تزوجت وسافرت إلى مصر، ولكن أثناء زيارتى الأخيرة إلى

سويسرا بدأنا نتقارب من جديد وتكونت بيننا صداقة حميمة كانت مقترنة بلم الشمل .

فى فترة الستينيات من القرن الماضي بدا كل شئ على وشك الاختلاف بيننا؛ فقد كان من المفترض أن يمنح محمد عاماً يقضيه فى دولة المجر، لذلك قمت بتقديم أوراقى الخاصة لطلب الحصول على أجازة، وبالفعل خططنا للسفر ولكننا لم نتلق أى رد، وفى اللحظات الأخيرة تلاشت كل الأحلام ويقيننا فى مصر وبعد ذلك التحق محمد بوظيفة فى إحدى الشركات بالإضافة إلى عمله فى الجامعة، أما أنا فقد استطعت الالتحاق بوظيفة أفضل بنفس الشركة، ورغم أننى قد حصلت فقط على تعليم تجارى من سويسرا ولم أتلق أى تعليم جامعى، إلا أننى قد تم تعينى فى وظيفة أساسية تحمل مهامها قدراً من المسئولية، وفى كثير من الأحيان كنت أسافر خارج البلاد لأحضر العديد من المؤتمرات أو الاجتماعات الدولية، وكان لزوجى عظيم الفضل فى تشجيعى على المضى قدما نحو أى شئ من شأنه تحسين مستوى عملى، ويجب أن أعترف أننى أدين له بالعرفان لأنه دائماً كان يشجعنى ويساعدنى كى أنجح فى حياتى المهنية، والذى ساعد على ذلك أننى أحببت عملى كثيراً وتفانيت فى أداء واجباتى، و بذلك كنت استحق التقدير والتأييد الذى حصلت عليه من كافة الأطراف، وبدأت أركز على دراسة اللغة العربية لكى يتحسن مستوى أدائي فى العمل وبالفعل التحقت بدورة تدريبية لدراسة اللغة العربية الفصحى فى فصول مسائية وذاكرت بمثابرة واجتهاد واهتمام بالغ ورغبة فى معرفة كل شئ بدقه لأن اللغة العربية الفصحى لغة صعبة جداً، وهكذا استطعت بعد كل هذا العناء الذي بذلته فى سبيل دراسة اللغة أن أقرأ الخطابات وأفهم ما تحتويه على الرغم من أننى

فى نطاق عملى احتاج فقط إلى اللغة الإنجليزية واللغة الفرنسية، بينما زميلاتى الأخريات يتولين المراسلات العربية .

فى عام 1962 ظهر أول جهاز تلفزيون فى مصر، وكنا نشعر ببالغ السعادة لظهور مثل هذا النوع من التسلية الجديدة وقمنا بشراء جهاز جديد أبيض وأسود، ومع ذلك لم نتمكن من معرفة الكثير عن حرب عام 1967 فيما عدا بعض المعلومات الطفيفة؛ لقد كنا مشغولين بحياتنا للغاية، وبالرغم من النقص الشديد فى المواد التموينية أثناء الحرب، إلا أننى على المستوى الشخصى لم أواجه أى مشكلة فى الحصول على المواد التموينية، فلم أحمل عناء الذهاب للتسوق فى أى مكان؛ لأن تلك كانت مهمة عزيزة (مدبرة المنزل) أو زوجى، وفيما يتعلق بهذا الأمر كنت أحسب نفسي امرأة متميزة : لأن لى عملى الخاص ولى أسرتى، وبالتالى لم يكن لزاما علي أن أتعامل مع مشاكل الحياة اليومية التى كان على النساء الأخريات مواجهتها .

فى عام 1973 تلقى زوجى عرضًا للعمل فى ليبيا، وكان الراتب جيدًا، مما جعله يقبل العرض على الفور، لأن وظيفته فى مصر لم تكن تدر عليه نفس الدخل، وعمل فى ليبيا مدة عامين، وكانت ناديه قد بلغت فى ذلك الوقت أربعة عشر عاما، وقضينا هناك ثمانية أشهر، وتلك كانت المرة الأولى التى نجتمع فيها ثلاثتنا فى أيام الجمعه، وبعد فترة من الزمن بدأت فى العمل كسكرتيرة، واستطعنا بذلك أن نوفر مبلغًا كبيرًا من المال، وهكذا تمكنت قبل رجوعى من شراء سيارة، تم استيرادها من ألمانيا، وكانت محجوزة فى تريست Trieste لمدة ثلاثة أشهر ليتم شحنها بعد ذلك إلى مصر، ولقد كان لدينا بالفعل سيارة فى مصر، ولكن محمد كان هو الذى يقودها عادة وحينما أتذكر تلك الأيام التى قضيناها فى ليبيا أجدها تحمل

العديد من الذكريات الجميلة، حيث كان يمكننا شراء الكثير من الملابس والأجهزة الكهربائية والسلع المستوردة؛ فهناك كل شئ متوفر.

التحقت نادية بمدرسة عربية فى ليبيا؛ وبالطبع كانت الدراسة صعبة عليها فى البداية ولكنها استطاعت أن تواجه هذا التحدى بصورة إيجابية .

فى عام 1974 أصبحت حاملاً للمرة الثانية فقد كانت لدينا دوماً الرغبة فى إنجاب طفل آخر وكنت وقتها أبلغ من العمر 38 عاماً، واعتقد الطبيب أننى تقدمت فى السن على مرحلة الحمل والإنجاب ولكننى رغم رأيه كانت لدى رغبة قوية فى إنجاب طفل آخر، ولكن للأسف حدث إجهاض، الأمر الذى أشعرنا بالحزن الشديد ولكننى فى النهاية وبسبب موقفى الإيجابي تجاه الحياة، كنت أشعر بالسعادة والإنجاز، وبالإضافة إلى ذلك، كنت أملك القدرة على الاستمرار فى حياتى المهنية .

تقاعدت عن العمل عام 1996 ولكنهم بعد فترة قصيرة اتصلوا بى مجدداً، وعملت لمدة خمسة أشهر أخرى .

كنت دوماً على اتصال مستمر بنساء أخريات من بلدان أجنبية، ولكن ذلك جاء فى مرحلة متأخرة من حياتى، وذلك بسبب جدول أعمالى المزدحم الذى لم يكن يتيح لى وقت الفراغ الذى يجعلنى قادرة على إجراء اللقاءات مع الآخرين ولو بالمصادفة، بالإضافة إلى أن كثيرًا من الأجانب كانوا يتحدثون عن مصر بصورة سلبية وبلسان نقد لاذع، وهذا الكلام كان يمثل عبئًا معنويًا أشعر به بصفة شخصية، ولذلك كنت أتجنب الاتصال بهم، لأننى – وبصورة شخصية – أجنح إلى الجوانب الإيجابية للأمور وحاليا أنا لا أعمل، وعلى أية حال أستمتع بالاتصال مع نساء أجنبيات؛ سويسريات وألمانيات

ومن جنسيات أخرى، وأنا عضوة بجمعية المرأة الألمانية فى الأسكندرية (GWA)، كما أننى عضوة فى النادي السويسرى منذ بضعة سنوات .

تقاعد محمد عن العمل بصورة نهائية عام 2006 ، والجدير بالذكر أنهم ما زالوا يستدعونه فى الجامعة وخصوصاً فى أيام الامتحانات وذلك بسبب خبرته الطويلة، وتاريخه المهنى كأستاذ جامعى ومدرس متميز، لأن أسلوبه فى الشرح يتسم بالسلاسة والجودة والاهتمام والقدرة على نقل المعلومات إلى طلابه وشحذ هممهم .

منذ أن بدأت أولى خطواتى لتعلم اللغة العربية حدث لى تطور لغوى كبير على مدار السنوات، فما زلت أذكر بالضبط أولى محاولاتى الناجحة فى القراءة باللغة العربية : لقد كان ملصق إعلانى لمشروب الكوكا كولا مكتوب باللغة العربية ومنذ ذلك الحين لم تواجهنى أى صعوبة فى قراءة لافتات الشوارع والإعلانات، كما أننى أستطيع أن أشاهد الأفلام العربية بالتليفزيون بدون أى مشكلة، والجدير بالذكر أننى فى البداية تعلمت العديد من الكلمات من خلال مشاهدتى للتليفزيون، ولكن هذا لا يمنع أننى ما زلت أواجه بعض الصعوبات فى قراءة الكلمات التى لا أعرفها؛ لأن القواعد النحوية فى اللغة العربية مرتبطة بطريقة النطق حيث أن هناك بعض التشكيلات الخاصة بحروف المد التى تنطق ولا تكتب والتى يجب على المرء أن يتصورها وينطقها، فإن لم يكن قد سمع الكلمات المنطوقة من قبل، فيجب أن يخمن ويتصور كيف ينطقها .

فى عام 1969 أقمنا منزلا فى منطقة العجمى يبعد قليلاً عن الأسكندرية ويقع على البحر؛ تلك المنطقة يوجد بها كثير من الفيلات الجميلة، ولكن معظم تلك الفيلات تنشغل فقط فى فصل الصيف، لقد قام

محمد بتصميم وبناء المنزل بنفسه وكان يحتوى على كل شئ نحتاجه وكان يوجد به حمام سباحة وكنا نقضي فيه معظم فصل الصيف وكنت أجد متعة فى السباحة فى حمام السباحة؛ لأن السباحة فى البحر دائماً ما تكون مغامرة محفوفة بالمخاطر وذلك بسبب الأمواج العالية، أذكر أن شقيقتى ذات مرة كانت على وشك الغرق فى البحر ومنذ ذلك الحين أصبحنا حذرين للغاية ونفضل السباحة فى حمام السباحة بدلاً من البحر.

فيما مضى كنا نذهب للسباحة فى شاطئ منطقة ستانلى، ولكن للأسف تغيرت عادات الناس كثيراً، فلقد أصبح عدد النساء اللاتى يذهبن للسباحة فى البحر قليلاً، كما أنهن لا ينزلن البحر بلباس البحر (المايوه)، لقد اختلف الأمر عن فترة الستينيات من القرن الماضى عندما كانت النساء يسبحن بلباس البحر وكان أمرا طبيعيا للغاية .

درست ابنتنا نادية الهندسه المعمارية ولكنها حالياً تعمل فى بنك وقد تزوجت منذ عشرين عاما من أحد زملائها الذى تعرفت عليه فى الجامعة .

وعلى الرغم من أن بعض التقاليد الخاصة باتمام الزيجات لازالت سائدة فى مصر حتى الآن؛ والخاصة بتدخل الأهل فى الترتيبات والإعدادات الخاصة بالزواج إلا أن هناك كثيرًا من الشباب حالياً يتعرفون على بعضهم فى الجامعات، وقد يتزوجون بعيدا عن تلك الأعراف السائدة .

أنجبت نادية ولدين واليوم أصبحا شابين الأول عمرة 22 عاما، والثانى عمره 18 عاما، ويقيمان حاليا فى سويسرا؛ الصغير يدرس اللغة الألمانية ويريد أن يكمل دراسته الجامعية هناك، أما الكبير فيدرس الهندسة الكهربائية، وكلاهما يحمل جواز سفر سويسري .

زوجى رجل مسلم ملتزم؛ اعتاد على أداء الصلوات فى المسجد بصورة

منتظمة، ومع ذلك لم يطلب منى أبدا أن أغطى شعرى، ولا أذكر يوما أنه حدثنى فى هذا الأمر؛ فهو يتمتع بشخصية متسامحة جداً ولا يعانى أى قدر من التعصب الديني .

قد يعنى تقدم العمر للمرء تغير بعض الأراء والمفاهيم العقائدية، مما يزيد من درجة الإيمان بالله، وقد اعتنقت الإسلام بالسفارة المصرية فى فرانكفورت Frankfurt بعد أن تزوجنا، فقد طلب مني تنفيذ هذه الخطوة وإلا فلن يكون لى أى حق فى رعاية أطفالى والوصاية عليهم، كما أننى لن يكون لى الحق فى أن أرث زوجى فى حالة وفاته .

بعد ذلك بسنوات طويلة تعلمت أداء الصلاه مع أحد أحفادى؛ فلم يسبق لى أن كنت متدينة طوال حياتي ولكننى أصبحت أكثر سماحة مع الآخرين فيما يتعلق بالأمور الدينية مع مرور تلك السنوات التى عشتها فى مصر، وحالياً ترتدى ابنتى الحجاب طواعية، وأذكر أنها عندما بلغت الثامنة عشرة قالت لى صراحة أنها تريد أن تتحجب، ولكننى وقتها لم أتحمس لرغبتها، ولكن مع مرور الوقت يجب على المرء أن يهرب من عاداته القديمة ويظهر قدرًا من التسامح المطلوب فى مثل تلك الأمور، فعندما تزوجت نادية وأنجبت أطفالها قررت أن ترتدى الحجاب بصورة نهائية، وهكذا لم أجد أمامى سوى التسليم برأيها، لقد كانت دوماً تتمتع بشخصية مستقلة ولها آراءها الخاصة وتعرف تماماً ما الذى يناسبها وما الذى تريده، أما أنا فما زلت كما أنا ولم أتغير كثيرا، أعتقد أننى دائما أدرك كل شئ بصورة أفضل، ومع ذلك فإننى أعتقد بأن النساء المحجبات يجب أن يتصرفن بطريقة لائقة، ويا له من أمر مثير للدهشه أن تجد فى هذه الأيام بعض الفتيات يرتدين الملابس بصورة استفزازية، ويتصرفن أيضاً بطريقة غير لائقة على الرغم من ارتدائهم الحجاب! مثل هذا السلوك يحمل بين طياته ملامح

التناقض، فهؤلاء يظهرن تدينهن بطريقة سطحية ولكن تصرفاتهن لا تعكس أى مظهر من مظاهر التدين؛ فالحجاب وحده لا يجعل المرأة المسلمة تبدو فى صورة فاضلو - أليس كذلك ؟ - ومع ذلك فإن النساء المحجبات حالياً يشكلن الغالبية العظمى من النساء فى مصر؛ فى الماضي كان كل شئ مباحًا: الملابس القصيرة والفساتين المكشوفة على الطريقة الغربية، أما اليوم فترتدى الفتيات البنطلونات الجينز الضيقة وهى تغطى رأسها، وهذا الأمر من وجهة نظرى غير لائق بالمرة، ولكن فيه حشمة إلى حد ما عن ذى قبل .

لم يكن الدين يمثل نقطة خلاف بينى وبين زوجى على مدار السنوات التى قضيناها معاً، والأمر ينطبق على جنسيتى؛ فقد قررت أن أحتفظ بالجنسيتين معا وحاليا بحوزتى جواز سفر مصري وجواز سفر سويسري .

توفيت عزيزة منذ 12عاما بعد عشرة دامت أكثر من ثلاثين عاما؛ لقد كانت عزيزة بالنسبة لنا جميعا شخصية محبوبة وقريبة من نفوسنا، عاشت معنا فى بيتنا واعتبرناها واحدة من أفراد الأسرة وأسفنا كثيراً لفراقها، فقد كان من الصعب علينا أن نتدبر أمور حياتنا بدونها، لقد اعتدت على طهيها، ولكن من حسن الحظ أنها علمت نادية أصول الطهى، لقد كانت تعد لنا الطعام فى منزلها وكان والدها يذهب إليها ليأتى بما أعدته من طعام لنا، وفى بعض الأحيان كانت تأتى إلينا حامله لنا ما أعدته من طعام، ولكن ذلك كان أمرًا شاقًا جداً عليها .

قررنا أن ننتقل إلى شقه أكثر راحة لنا، فاشترينا نحن وزوج ابنتنا شقتين متجاورتين فى نفس المبنى، وتركنا للزوجين الشابين أمر اختيار ما يناسبهما، أولا فكرنا فى شقتين منفصلتين، ولكن زوج ابنتنا اقترح دمج الشقتين لتكون شقة واحدة مع إعادة تشكيلها ليكون لنا مدخل مشترك

ومطبخ كبير وغرفة جلوس وغرفة طعام مشتركة، أما أنا ومحمد فلنا جناح خاص وكذلك ابنتى وزوجها يعيشان فى جناحهما، ويا له من ترتيب رائع! فنحن على اتصال مباشر ودائم بالزوجين وإذا أردنا الانفراد، ندخل إلى جناحنا فى أى وقت نرغب .

عندما كان أحفادنا يقيمون معنا فى نفس الشقة كنا نراهم بصفة يومية، كنا نشاركهم حياتهم ونساهم فى تنشئتهم ونساعدهم على أداء واجباتهم الدراسية، ولقد قضينا وقتًا طويلاً معهم، على الرغم أن مسئوليتهم الكبرى تقع على عاتق والديهما، أما حاليا فهما يعيشان فى سويسرا، وبالطبع نحن نفتقدهم كثيرا .

تمضي ابنتى وزوجها ساعات كثيرة فى العمل، وغالبا ما نراهم فى الصباح فقط تلك الفرصة تكون سانحة حينما نقوم بإعداد طعام الإفطار داخل المطبخ، حاليا يأتى إلينا طباخ؛ ليعد لنا طعامنا بصورة يومية ونادرا ما أقوم بالطهى بنفسي، ولكنى أحيانا أرغب فى عمل السلطة على الغداء، أما محمد فيتولى أمر شراء ما نحتاجه من المحلات وعادة نتناول الخضروات والفاكهة الطازجة .

كلما تقدم المرء فى العمر تطورت لديه عادات غريبة، وبصفة عامة، حياتنا طيبة يسودها التوافق والألفة؛ ومن خلال احتكاكنا المستمر مع الآخرين كنا نجنح دائما إلى مراعاة حقوق الآخرين، وأظن أن هذا يصب فى النهاية لمصلحتنا ويضيف لرصيدنا المعنوى، وبالطبع أى إنسان لديه قدر خاص من الخصوصية وبصورة طبيعية يرغب فى الاختلاء بنفسه كما أن الإنسان – على الجانب الآخر – يحب أن يتواجد وسط عائلته لينعم بروح الدفء الأسري، وما أجمل أن يكون الجميع قادرين على بث روح التعاون، والاهتمام المتبادل بشئون بعضهم البعض .

شقيقتى التوأم جوليان مازالت تعيش فى سويسرا حتى يومنا هذا ولديها ابن وحيد، وتحيا حياة رغدة تتمتع فيها برفاهية مادية عالية، ولكننى لا أحسدها على وضعها هذا؛ لأننى أشعر بالرضا والقناعة تجاه حياتى ووضعى العائلى وكذلك أشعر بالمصالحة مع كل ما يحيط بى.

الجو فى مصر ـ بصفة عامة ـ لطيف فالشمس الذهبية تشرق كل صباح بصورة رائعة، وعلى الرغم من أن الصيف هنا شديد الحرارة إلا أن الجو دائماً معتدل ورغم أن فصل الشتاء فى مصر يكون مقترناً بهبوب العواصف الشديدة إلا أننا لا نشعر بالبرد القارس كما هو الحال فى سويسرا. لقد كنت دوماً وما زلت مستمتعة بهذا الطقس ولم أفتقد الشتاء فى أوروبا .

تكاليف الحياة أصبحت غالية جداً فى كل مكان وعلى أى أسرة ولكننى هنا أعيش بصورة جيدة معتمدة على معاشي، بل أحيانا أساعد ابنتى مادياً .

الأخلاق فى مصر تختلف بالطبع عن الأخلاق فى سويسرا وكان لزاماً عليَّ أن أتأقلم على تلك السلوكيات ويجب أن أعترف أننى أجد الناس هنا فى مصر أقل صراحة عن الناس فى أوروبا، فعندما تبدأحوارك مع أحد الأشخاص لن تتمكن من الوصول إلى نتيجة محددة ومباشرة؛ إذ تجد الشخص يبدأ حواره بعبارات تمهيدية وجمل ليس لها أى صلة بالموضوع كما أن الحوار دائماً ما يكون مسبوقاً بكلام عام دارج مثل (كيف حالك، كيف حال الأولاد، أتمنى أن يكون كل شئ على ما يرام ؟!) ثم بعد ذلك يبدأ الشخص فى الدخول إلى الموضوع الأساسي للحوار، أما إذا اتبعت الأسلوب الآخر ودخلت مباشرة إلى صلب الموضوع بدون تمهيد فإن هذا يعد افتقاد للذوق وآداب الحديث، وهكذا كان لزاما عليَّ أن أتعلم كيفية التعامل مع مثل

هذه الأمور وعلى مدار سنوات طويلة، فلم يعد هذا الأسلوب فى النقاش أو طرح الموضوعات يثير غضبى أو حفيظتى، ولكننى صرت أستقبل الحوار ووجهى يعلوه ابتسامة تنم عن إظهار المودة والمرونة فى التعامل مع الآخرين، ولكن إحقاقا للحق؛ المصريون أكثر كرماً من الأوروبيين، وهذا – على أية حال – من واقع تجربتى الخاصة ومعايشتى لهم فى مصر فترة طويلة، بالإضافة إلى ولعهم الشديد بالكلام وتبادل الأحاديث والحوارات .

أما البيئة فلا تشكل أى أهمية بالنسبة للمصريين ـ فمثلا ـ تجد الشقق نظيفة جداً من الداخل ولكن ما أن يخرج الشخص من باب شقته فهو ليس مسئول عن أى شئ خارج شقته، فعلى سبيل المثال : نظافة الشارع أو الرصيف لا تشكل أى أهمية للمصريين؛ فلا تجد بينهم من يهتم بنظافة البيئة، وكان لزاماً عليَّ أن أتقبل هذا الأمر أيضاً، ولكننى أدين لزوجى بالكثير من الفضل؛ لأنه جعل الحياة فى مصر سهلة بالنسبة لى، لقد كان دوماً حريصاً على تلبية كل رغباتى قدر استطاعته، وفى المقابل كان عليَّ من واقع إدراكى لطبيعة الحياة وظروفها أن أتعلم كيفية تدبير أمور المعيشة، وكذلك كان عليَّ أن أعدل فى صياغة وتشكيل حياتى وفقاً لإمكانياتى المتاحة، لقد أدركت أن معظم الرجال فى مصر لا يحترمون زوجاتهم، ولكن هذا الأمر ليس حكرا على مصر وحدها؛ لأنه ينطبق أيضاً على كثيرمن الرجال فى أوروبا .

أما أنا ـ وبعد مرور كل تلك السنوات ـ فأشعر بالرضا البالغ والسعادة الغامرة؛ لأننى قضيت سنوات عمري على أرض مصر الطيبة .

*****

الفصل التاسع

على الرغم من كل شيء ...

JOHANNA – جوهانا

كانت جوهانا Johanna هى أولى السيدات الأجنبيات المتزوجات من مصريين واللاتى التقيت بهن فى الأسكندرية، ولقد تعرفت من خلال حوارى معها على أمور كثيرة فى مصر؛ لقد عاشت فى الأسكندرية فترة طويلة من الزمن، وتعرَّفت على العادات والتقاليد المصرية من خلال تجاربها اليومية، وعلى الرغم من ذلك فقد ظلت الدماء الألمانية تسري فى عروقها دوماً، الأمر الذى جعل حوارى معها أكثر سهولة؛ إذ كانت على دراية تامة بالثقافتين المصرية والألمانية، بدا ذلك واضحاً حينما دار الحديث بيننا عن كل شئ، لم تكن حياتها دائما تتسم بالسهولة، ولكنها كانت دوما على معرفة بكيفية الاستفادة من كل موقف تمر به - سواء فى مصر أو فى ألمانيا - وعلى الرغم من بلوغها 72 عاما إلا أنها مازالت تتمتع بالقوة والنشاط؛ يبدو ذلك واضحاً حينما تتهادى فى مشيتها بقوامها الرشيق وتلك هى قصتها :

بدأت قصتى فى زيورخ Zurich عام 1960، وقتها كنت أبلغ من العمر 25عاما وكنت قد قضيت عاما فى سويسرا أنعم فيه بالحياة الجميلة، ومازلت أذكر ذلك اليوم، وكان يوم الأحد، من أواخر فصل الصيف حين تقابلت مع بعض الأصدقاء بعد نزهة طويلة على بحيرة زيورخ، جلسنا معاً فى أحد المقاهى الذى تجمع فيه شباب كثيرون معظمهم من سويسرا وكان بينهم شابان من مصر، وكان أحدهما صحفياً وجلسنا جميعنا نتحدث عن مصر، وكنت قد قرأت كتاباً عن الثقافة المصرية فى عصر الفراعنة وانبهرت بصورة مصر فى العصر الحديث، وكان لديَّ شغف لمعرفة هذا الشعب وكيف يعيش والديانة التى يعتنقونها، بدأ الشابان يتحدثان بحماس مغلف بالوطنية عن تحرر وطنهما من الاستعمار، وعن الأمل الذى يلوح فى الأفق وعن التقدم الذى يبصرانه فى المستقبل ويهدفان إلى تحقيقه، لقد اتسم

حديثهما بالقوة والضمير الوطنى الحي، ومن خلال حديثنا طرحنا العديد من الاسئلة ولكننا لم نصل إلى أى نتائج ملموسة كان أحدهما يدعى كمال ولقد شعرت تجاهه بالاهتمام الذى بادلنى إياه وأظهره لى من خلال رغبته فى مقابلتى ثانية.

بعد مرور ثلاثة أسابيع حدث أول موعد جمع بيننا وكان على جسر ليمات Limmat Bridge، كان الجو خريفيا وبدا كمال أنيقا وهو يرتدى معطفًا طويلاً وقبعه أسقطها قليلا على جبهته، كان مظهره يبدو طريفاً إلى حد ما ولكنه أعجبنى، لقد كانت تغمره السعادة حين تلاقينا وجلسنا معًا فى أحد مقاهى المدينة وبينما كنا نتبادل الحديث لاحظت أن عينيه جميلتين وأن نظراته تتسم بالأمانة والوضوح والصراحة، وكذلك يديه فقد كانت جميلة التشكيل، راح ينظر إلىّ بعينيه المتفحصتين وكأنه يحاول أن يقرأ ملامح وجهى، أو تراه كان يحاول أن يحفر قسماتى داخل مخيلته، وكان من حين إلى آخر يبتسم ابتسامة عابرة ولكنها معبرة .

راح يحكى لى عن نشأته فى مدينة طنطا فى شمال دلتا النيل وعن عائلته وعن إخوته الأربعة: اثنين يكبرانه واثنين يصغرانه، وكيف أن والده رجل أزهرى درس الشريعة الإسلامية فى جامعة الأزهر الشريف بالقاهرة، وبعد تخرجه عمل ناظراً فى أحد المعاهد الأزهرية الإعدادية فى مدينة طنطا، ثم انتقل بعد ذلك إلى مدينة الأسكندرية حيث درس كمال وأشقاؤه فى جامعة الأسكندرية، تخصص كمال فى علم الكيمياء وبسبب تفوقه الأكاديمي نال منحة دراسية فى فيينا Vienna، ولقد راقت له الحياة هناك، وقد كان له العديد من الصداقات الوطيدة، وعلى الرغم من أنه كان يتوقع العودة إلى مصر بعد دراسة استمرت عامين فى فيينا، إلا أنه أراد البقاء لكى يحصل على المزيد من العلم ويجرى المزيد من الأبحاث لذلك تقدم بطلب الحصول

على درجة الدكتوراه في المعهد السويسري للتكنولوجيا (E.T.H.) وتم قبول طلبه، ولقد واجهته صعوبات عديدة؛ فالأمر كله كان بمثابة التحدى الذى كان لزاما عليه أن يخوضه، تلك كانت قصة قدومه إلى زيورخ .

لقد ولدت عام 1934 فى بلدة صغيرة فى ويستفاليا Westphalia وفى أول خمس سنوات لحياتى كنت الطفلة الوحيدة لوالديّ، أنعم بالحياة فى بيت يظله الحب والمشاعر الدافئة، ثم اندلعت الحرب وتم استدعاء والدى – 32عاما – إلى الجيش للمشاركة فى المعارك الدائرة، لم يكن والدي وقتها قد أكمل المنزل الجديد الذي شرع فى بنائه، ولد أخى وكان والدى وقتها لايزال معنا، ولكن عندما ولدت شقيقتى كان أبى قد تم استدعاؤه بالفعل لكي يشارك فى المعارك الدائرة فى روسيا، ثم حضرت جدتى لأبي بعد فترة وأقامت معنا، وحين دخلت المدرسة كانت الحرب فى بدايتها، وكانت المعارك بعيدة عنا، لذلك لم نشعر بها فى حياتنا اليومية، لأننا وقتها كنا أطفالاً، ولكننا بعد ذلك بدأنا نشاهد الطائرات الحربية تحلق فوق رؤوسنا بصورة يومية وتقصف القطارات وتقصف الناس أثناء تواجدهم فى الشوارع، وهكذا بدأ أطفال المدارس فى تحمل عبء مسئوليات الحرب؛ إذ كنا نبحث عن بقايا الحبوب فى الحقول الخربة من جراء الحرب والخاوية بفعل الدمار، وكنا نعثر على بعض عيدان الذرة وبعض المكسرات (مثل البندق) وأوراق التوت الأسود، وكذلك توت العليق والكرين، وكنا نقوم بجمع بعض قطع الفحم من السكك الحديدية؛ ونحضر أى شئ يمكننا استخدامه لكي نأكله أو نشعله بغرض التدفئة، وفى أوقات الفراغ يقوم الأطفال بإعداد فناجين القهوة الدافئة وتوزيعها على الجنود فى القطارات (لم تكن قهوة بالمعنى المفهوم، بل كانت ماء دافئاً به تغبيره من القهوة إن جاز التعبير).

كنا نسمع دوي قاصفات القنابل الثقيلة التى تحلق فوق رؤوسنا كل

ليلة، وفى لحظة ما ـ وأنا فى المدرسة ـ تم قصف مدينتنا وتناثر حطامها فى كل مكان، لقد تدمر كل شئ، لقد أتت الحرب على الأخضر واليابس حتى أن بعض المبانى قد اختفت تماماً من على وجه الأرض، ولم يبق منها سوى رماد يفوح منه رائحة الدخان، لقد كان بالفعل وقتًا عصيبًا عانينا فيه من ويلات الحرب، وقضينا ليالي طويلة فى المخابئ والملاجئ كي نتفادى قصف الطائرات أثناء الغارات الجوية، لقد شحت مواد البقالة تماماً، وشأننا شأن الآخرين، كنا نبحث عن أى شئ نأكله حتى علف المواشي وبعد أن نفذ كل شئ حولنا بدأنا نبيع أثاث المنزل ثم استدرنا بعد ذلك وبعنا هدايا الزواج الخاصه بأمى كي نشترى الطعام، تلك الفترة من المعاناة قد تركت أثرًا سيئًا فى أعماق نفسي، أثرًا يئنّ بعذابات التجربة وكانت عواقبه كفيلة بتشويه النفس، ولكننى لم أشعر بالراحة إلا عندما توقفت نيران المعارك ورأيت الجنود الأمريكيين يدخلون بلدتنا بدباباتهم الثقيلة، وتبدد الخوف الذي كان يسكن بداخلى طويلاً.

الشئ التالى الذي أعقب تلك الحرب هو المأوى؛ لقد كنا بالفعل محظوظين؛ لأن منزلنا كان مازال قائماً وكنا نقيم فيه وكان لزاما علينا ـ شأننا فى ذلك شأن غيرنا ـ أن نستقبل اللاجئين، أما بالنسبة للمنازل الأخرى فقد استولت عليها القوات المحتلة لتستخدمها كمخازن ذخيرة، وبعد انتهاء الحرب كان أبى من الناجين وبعد مرور عامين قضاهما فى الأسر، وتحديدا فى السجن الحربي بالولايات المتحدة الأمريكية عاد إلينا بعد أن شهد دخول قوات الحلفاء إلى فرنسا، حيث تم أسره هناك، ولقد سعدنا جداً بعودة أبى إلى بيتنا ! ـ ولكن للأسف ـ كانت سنوات الحرب والسجن قد ساهمت فى تغيير شخصيته بصورة تامة، فاختلفت طباعه واختفت طريقته التى كانت تتسم بالود والمرح فى تعامله معنا، ولكنه أظهر إخلاصه فى عمله

وتفانى فى الاهتمام بأسرته، ولقد تحولت شخصيته بصورة كبيرة وأصبح أكثر حزما وصرامة معنا، ونادرا ما كان يمتدحنا، ولم نكن وقتها ندرك السبب وراء هذا التحول الكبير فى شخصيته نظرا لحداثة سننا، لقد اعتقدنا أنه لم يعد يحبنا كسابق عهده .

انتهيت من دراستى فى المدرسة الثانوية بعد وصولى إلى الفرقة العاشرة (وهى دبلومة دراسية متقدمة ولكنها لا تؤهل للدخول إلى الجامعة) ثم بعد ذلك تدربت على العمل فى محل بيع بالتجزئة، وكم كنت أرغب أن أعمل فى دار للطباعة والنشر ولكن كان لابد من الحصول على موافقة أبى لأننى كنت حينها مازلت قاصراً، وعلى الرغم من أن أبى كان يحب مجال الكتب إلا أنه اعتقد أن مثل هذا العمل لن يدر عليَّ الدخل الكافى الذى يجعلنى أعيش بطريقة مريحة وهكذا رضخت للأمر ومكثت فى عملى ولكن بعد مرور فترة قصيرة من عملى فى مجال المبيعات، وبعد أن تلقيت بعض الدورات التدريبية فى مجال الإدارة، تم تكليفي بإدارة فرع جديد لبيع التجزئة، ولقد نجحت فى عملى الجديد وتقاضيت راتبًا ممتازًا ولكننى لم يكن لدى وقت فراغ كاف .

كنت دائما أجد سهولة فى التواصل مع الرجال، ولكننى وحتى بلوغى سن الخامسة والعشرين لم أجد الرجل المناسب الذى يمكننى أن أتزوجه، بالإضافة إلى أن منزل الأسرة كان يمثل قيدا بالنسبة لى، وشعرت وقتها أننى لا أستطيع أن أستمر فى إطاعة أوامر والدى دون أن أشعر بمساحة كافية من الحرية، هذا بالإضافة إلى رغبتى فى تحسين مهاراتى اللغوية؛ الإنجليزية والفرنسية، لم يكن أمر العثور على عمل خارج البلاد أمرًا يسيرًا فى ذلك الوقت، ولكنه كان ممكن إذا كنت أجيد اللغة الإنجليزية، وكان هذا هو سبب ذهابى إلى زيورخ، وهناك عملت كجليسة للأطفال، وكانت مهمتى تنحصر

فى رعاية طفلة تبلغ من العمر 10 سنوات، بالإضافة إلى مشاركتى فى بعض أعمال المنزل، واستطعت حضور بعض الدورات التدريبية على اللغة أثناء وقت فراغى؛ تلك كانت المرة الأولى التى أشعر فيها باستقلالى المادى والمعنوى وهكذا استطعت أن أعتمد على نفسي، وكان ذلك فى حد ذاته كفيلاً بأن يشعرنى بتحقيق ذاتى وإثبات وجودى .

ساعدتنى السيدة التى أعمل معها على اطلاعى على الكثير من أسرار المطبخ السويسرى وكان بداخلى شغف لمعرفة فنون الطهى وكانت ابنتها كريستين Christine طفلة وحيدة مرفهة، كثيرة الطلبات ولحوحة، ولكننى كنت قادرة على التعامل معها، أما زوجها فكان فى الحقيقة لا يعبأ كثيراً بأمر الطعام، وكان عليَّ ـ من ضمن واجباتى اليومية ـ أن أهتم بكلب الأسرة وكان من فصيلة جيرمن بوكسر German boxer والذى كانت تتطلب رعايته أن أخرج به يومياً فى نزهة بالقرب من غابة صغيرة بجانب المنزل، وكان لزاماً عليَّ أن أجلس مع كريستين فى المساء عند خروج الزوجين، وكان كل شئ يسير على ما يرام حتى ذلك الحين، وكنت أشعر بسعادة وأنا أعيش بينهم؛ لأنهم اعتبرونى واحدة من عائلتهم مما أشعرنى بالراحة، ولكن ما إن بدأت أخرج بمفردى لأقضي بعض الوقت مع أصدقاء من سني؛ حتى أثار هذا الأمر حفيظتهم وبدأوا يشعرون بالفتور ناحيتى، وبعد فتره قالوا لى قبل رجوعى إلى المنزل أنهم كانوا يبحثون عن فتاة ريفية قوية البنية لتساعدهم فى تدبير أمور المنزل وأنهم قد استعدوا لاستقبالها، وأنها قد وصلت وقالوا لى أنهم كانوا يتطلعون دوماً إلى خادمة حقيقية وأنهم لم يشعوروا بالارتياح حين اتبعت أسلوبًا جديدًا يتضمن قدراً من الاستقلال بحياتى بعيداً عنهم .

قام بعض أصدقاء الأسرة بتقديمي إلى صاحب إحدى الشركات الذي عرض عليَّ وظيفة فى مكتب الشركة فى وسط مدينة زيورخ Zurich، ولكننى

لم أتمكن من الالتحاق بتلك الوظيفة بسبب ضعفي في اللغة الإنجليزية فلم يكن في مقدوري أن أحصل على وظيفة جيدة دون أن يكون لديّ مهارات لغوية، وبعد ذلك استطاع أصدقاء الأسرة أن يجدوا لي عملاً في عيادة خاصة في لوزان Lausanne، حيث كان عليّ أن أساعد في بعض أعمال المكتب وفي نفس الوقت أتعلم اللغة الفرنسية في وقت فراغي، راقني الأمر كثيراً وكان لديّ العزيمة الكافية على تنفيذ تلك الخطة، ولكنني في ذلك الوقت كنت قد تقابلت مع كمال؛ الذي كان يعمل في شركة E. T. H. Zurich تحت الإشراف المباشر لأستاذ مشهور في قسم الكيمياء اللاعضوية والتحليلية، ولقد انهمك كمال من رأسه حتى قدميه في بحثه الرئيسي وكان عليه، من ناحية أخرى، أن يقرأ أكوامًا مكدسة من الكتب في تخصصه، أما أيام العطلات الأسبوعية فكانت مخصصة للجانب الرمانسي والعلاقة العاطفية التي نشأت بيننا، وكنا عادة نتقابل كي نتناول الطعام أو لنجلس في إحدى المقاهي، وإن كان الجو جميلاً ومشجعًا على التنزه، كنا نذهب في رحلة إلى أحد الأماكن مع بعض الأصدقاء.

لقد كان لديّ رغبة ملحة في ترك زيورخ، وكانت لدي خططي الخاصة التي أطلعت عليها كمال، صحيح أن علاقتنا قد توطدت كثيرا ولكنها كانت تخلو من أي اتفاق أو التزامات، بل كانت مجرد صداقة فحسب ولم تتطور أبعد من ذلك .

في ربيع 1961 سافرت بالقطار إلى لوزان كي أعمل في عيادة وقد كانت تلك العيادة مثيرة للإعجاب، ووجدت فيها ضالتي المنشودة، وأحببت عملي، وفي أوقات فراغي كنت أدرس اللغة الفرنسية وأحرزت تقدمًا ملحوظًا، ولكنني في نفس الوقت كنت أفكر في كمال وأشعر بأنني أفتقده

كثيراً لقد أدركت وقتها أننى بالفعل مغرمة به وأن مشاعرى قد تطورت ولم أعد أقوى على فراقه، وتوقعت أنه ربما كان يشاركنى نفس المشاعر التى تشتعل فى قلبى ولكننى كنت دوماً اتساءل بداخلى هل من الرأي الصواب أن أتعلق بإنسان ينحدر من ثقافة غير ثقافتى وحضارة غير حضارتى ؟ والأمر الذى ساعد على استيعابي لمثل هذا التصور أن أوروبا نفسها بداخلها اختلافات عديدة، ولكل شعب فيها ما يميزه، لقد جرت بينى وبين كمال حوارات عديدة ساخنة ونقاشات جادة وهامة حول اختلاف الآراء فى المظاهر السلوكية والأخلاقيات والعادات والتقاليد والأعراف المختلفة، وبدا لى أن الإفصاح عن تلك الآراء قد وقف حائلا بيننا، وكم كنت أحدث نفسي كثيراً وأتساءل لماذا لم يتصل كمال بي منذ أكثر من ثلاثة أسابيع وكنت منزعجة من سر غيابه الطويل وسبب امتناعه عن السؤال عنى ولكننى فى النهاية قررت أن اتصل به فى شقته، رد عليّ زميله فى الغرفه ومنه عرفت ما أصابنى بالذهول؛ لقد تم نقل كمال إلى أحد المستشفيات الإقليمية بسبب إصابته فى حادث أليم أثناء تواجده وهو يعمل فى المختبر وقال لى أنه مازال فى وحدة العناية المركزة ولا يعلمون إن كان معرضًا للإصابة بالعمى أم لا ؟، لقد أذهلتنى الصدمة ولكننى أدركت – بلا أدنى شك – أنه يحتاجنى بجانبه، فأخذت رقم تليفون المستشفى من زميله واتصلت به على الفور، وكما توقعت كانت معنوياته منخفضة للغاية، وكان فى حالة يرثى لها، وعلمت منه أنه أثناء إجراء تجربة على مادة متفجرة، تجمّع البخار داخل بوتقة الاختبار التى انفجرت فجأة لتصيبه الشظايا، كاد القلق يقتلنى خوفاً عليه، وفى الصباح أسرعت بالسفر إلى زيورخ وذهبت إلى المستشفى حيث وجدته معصوب العينين تماماً ووجهه وصدره وذراعاه ممزقة من أثر شظايا الزجاج

التى أصابته، وكان على الأطباء إزالة الشظايا بالملاقيط، الأمر الذى جعله يعانى من آلام مبرحة، وحينما تحدثت مع الأطباء كى أستفسر عن حالته أجابونى – وصوتهم يمتزج بالشفقة عليه ـ أنه قد فَقَدَ إحدى عينيه أثناء الانفجار داخل المعمل، أما العين الأخرى فما زالت فى حالة خطيرة، وهو يحتاج إلى راحة تامة وهدوء تام، سمح لى الأطباء بالبقاء إلى جواره طيلة اليوم، لقد كان مكتئباً حزيناً، لقد شعرت بذلك وأنا أمسك بيديه وأحاول أن أشد من أزره، بقيت معه حتى تحسنت حالته الصحية وانتقل من العناية المركزة إلى قسم العيون بالمستشفى كى يستكمل علاجه، ورجعت إلى لوزان بعد ذلك، وكنت أتردد على زيورخ فى العطلات الأسبوعية كى أطمئن عليه وأكون بجواره رغم أننى كنت على علم أنه يلقى العناية الكافية من الممرضات داخل المستشفى، وبعد فترة سمحوا له أن يستمع إلى الموسيقى الكلاسيكية الهادئة التى ساعدته كثيرا على تحمل حياته فى الظلام الذى أسدل على بصره، وبعد أسابيع طويلة من القلق والانتظار والترقب، تم رفع الضماده من على عيني كمال وتأكدنا تماماً بان عينه الأخرى لم تصب بأضرار بالغة، ولكنه استمر يضع نظاره سوداء على عينيه لفترة من الزمن، وشيئاً فشيئاً استطاع أن يواجه الحياة بمنتهى الشجاعة وبعد مضي فترة قصيرة ترك المستشفى وعاد إلى بيته ثانية.

لقد عشت عاماً كاملاً فى لوزان واستمتعت بالعمل فى جو العيادة الدولية الذى يبعث على البهجة، وفى وقت فراغى كنت أتابع دروسي فى اللغة الفرنسية، وبعد مرور ثلاثة أشهر على تلك الحادثة، استطاع كمال أن يواصل دراسته البحثية، وكنا نتقابل أحيانا ولكن علاقتنا لم تتطور إلى ما هو أبعد من ذلك، وفى نفس الوقت كنت ـ أيضا ـ أتقابل مع أصدقاء مهذبين

فى لوزان ولكننى كنت دوما حريصة على أن تكون هناك مسافة فاصلة بينى وبين هؤلاء الشباب؛ و يبدو أن عقلى الباطن كان يحكمنى ويبدو أن تفكيري كان ينحصر فى كمال دون إرادة مني، و كان ذلك مبعثه الحب .

رجعت إلى زيورخ فى صيف 1962 ، كما كنت قد حددت مسبقا وبدأت مزاولة عملى الجديد فى الشركة، لقد كانت تلك هى المرة الأولى التى أشعر فيها بالاستقلال بحياتى، وتطلبت تلك الحياة الجديدة معطيات جديدة؛ إذ كان لابد من استئجار شقة خاصة وشراء ما أحتاج إليه بنفسي، لقد استمتعت بعملى الجديد الذى سمح لى بالاختلاط بكثير من العملاء من كافة أنحاء العالم، وبالإضافة إلى ذلك، ترسخت علاقتى تماماً مع أصحاب الشركة خارج نطاق العمل .

وبدأت تتجدد لقاءاتى مع كمال فى العطلات الأسبوعية؛ نخرج لتناول العشاء أو نتنزه فى شوارع المدينة ونشاهد معالمها، وكنا أحيانا نسافر فى رحلات إلى الجبال ونقضي معظم النهار هناك على الجليد أو نمشي لمسافات طويلة حتى نصل إلى جبال يورتلى Urtli ونتناول" أبو فروة " الساخن أو نتزلج على الجليد فى جبال فلومز Flumes، ولا أدرى لماذا كنت أشعر بالسعادة حين تختفى مدينة زيورخ خلف سحابه من الضباب بينما ألمح بريق الشمس يتلألأ .

ما زلت أتذكر ذلك اليوم الذى قضيناه فى التزلج على الجليد عندما تحطمت زلاجتى نتيجة ارتطامها بالمنحدرات، لم يكن كمال على دراية بالتزلج لأنه لم يكن قد تدرب عليه على الرغم من حبه للجليد، ولكن عدم خبرته فى التزلج شكلت خطرا عليه، كما أنه كان يتعرض لبعض المواقف المضحكة؛ ربما كان السبب وراء ذلك هو ضعف رؤيته أو عدم قدرته على تقدير بعد المسافات .

انتقل كمال إلى شقته مجدداً، واستأنف حياته بعد الحادث بشكل طبيعي وكنت أزوره في نهاية الأسبوع ونمارس حياتنا الطبيعية معاً: نطهو ونأكل ونستريح معاً شأننا في ذلك شأن أي زوجين ولكن بدون أي عقود رسمية كي لا يتسبب زواجنا في حدوث مشاكل كبيرة مع البعثة .

كان أبي دائماً يرفض استمراري في تلك العلاقة؛ إذ كان يرى أن تفكيري متأرجح، وربما يتغير مع مرور الزمن، وخصوصاً أن الزواج الذي يتحدى الفوارق الثقافية والحضارية يكون عرضه للفشل وعدم الاستمرار، وظل هكذا متمسكا برأيه حتى عام 1963، وتحديداً عندما قابل كمال أول مرة أثناء جنازة أمي التي وافتها المنية بعد مرور خمسة أيام على إصابتها بانسداد معوي مفاجئ، وكانت تتمنى قبل وفاتها أن تقابل كمال، ولكن للأسف لم تتحقق لها هذه الأمنية، وعلى الرغم من صعوبة هذا الحدث المأسوي إلا أنه ساهم في تقريب المسافة بين أبي وكمال؛ إذ جمعتهم الأحاديث الطويلة، مما أدى إلى إذابة الجليد فيما بينهما، وبالتالي ساعد على تغيير مفهوم والدي تجاه كمال لأنه أعجب بشخصيته وأدرك أنني معه سأكون في أيدي أمينة، الأمر الذي جعله يشعر بالفخر والزهو تجاه المستقبل الواعد الذي ينتظر زوج ابنته .

في عام 1964 تمكن كمال من الحصول على رسالة الدكتوراه بمرتبة الشرف الأولى، وبينما كان بحثه مازال قيد الطبع وافق على الالتحاق بوظيفة استشاري لدى شركة سويسرية، حيث أعد للشركة أفكار مبتكرة، الأمر الذي جعل الشركة تتمسك به وتحرص على تعيينه بشكل دائم ومستمر، وكان ذلك يعني أن نعيش في سويسرا، وكنت أجد هذا الأمر رائعاً بالنسبة لي، ولكن ماذا عن عائلته ...!

ففى مصر تلعب العائلة دوراً جوهرياً فى حياة الأبناء، هذا ما اكتشفته بعد ذلك، وكان كمال قد كتب رسالة إلى والديه يخبرهم فيها أنه تعرف على فتاة ألمانية ويريد أن يتزوجها، وعلى الفور حضر شقيقه الأصغر لزيارتنا، ربما أتى هذا الشقيق من أجل رؤيتى وتقييمي – هذا من ناحية – ومن ناحية أخرى أراد أن يقنع كمال بالعودة إلى مصر، ولكن يبدو أننى نجحت فى الاختبار وكسبت استحسان شقيقه الذى وجدنى مقبولة بصفة عامة، والذى أكد لى ذلك أننى لم أسمع ما يوحى باستياء العائلة أو تذمرها منى.

لقد كان قرار العودة إلى مصر مقترناً بالصعوبة البالغة، وكان يصعب علينا الالتزام بتحقيق هذا الأمر؛ لأن كمال مثلى يفضل الحياة فى سويسرا وأذكر أنه بقي معنا حتى أعياد الميلاد، بل أنه أحضر شجرة الكريسماس بنفسه إلى المنزل واحتفلنا برأس السنة معاً وكان بصحبتنا صديق مصري قبطي، وبعد ذلك قررنا فى نهاية الأمر أن نبدأ رحلة العودة إلى مصر وبدأنا نستعد للرحيل؛ حيث قام كمال بشراء العديد من الأجهزة المطلوبة لتأسيس شقتنا الجديدة؛ فلم يكن فى مقدورنا أن نشترى تلك الأجهزة من مصر فى تلك الفترة.

فى صيف عام 1965 حزمنا حقائبنا فوق سيارتنا واتخذنا وجهتنا إلى فينيسيا Venice، ولكننى أذكر أن الحالة النفسية التى كانت تسيطر علينا كانت تتسم بالكآبة، فهذه الرحلة ليست رحلة سعيدة نقضيها فى الريفيرا Riviera ، كما كنا نفعل فى الماضي؛ إذ كانت تلك الرحلة تمثل انتقالاً سريعًا وتغييرًا مفاجئًا إلى حياة ذات واقع صعب وقاس، وسافر كمال على ظهر السفينة (سوريا) واصطحب معه أمتعتنا التى قام بشحنها على ظهر السفينة، لقد كانت خطتنا هى أن يسافر وحده أولاً ثم ألحق به بعد ذلك فى أول سبتمبر.

سافرت من فنيسيا على متن السفينة (اسكونا) ولقد كانت رحلة مريحة وممتعة عبر البحر الادرياتيكى Adriatic ومازلت احمل بداخلى الكثير من الانطباعات الجميلة علن تلك الجذر الأيونية Ionian فى اليونان، وكذلك رحلة أكروبوليس Acropolis، والزيارة القصيرة إلى جزيرة كريت Crete وفى الصباح ظهرت أمامى سواحل الشواطئ المصرية تلوح من وراء ضباب الصباح : أنها الأسكندرية لؤلؤة البحر المتوسط، وهكذا رست السفينة على الميناء، لقد أدركت على الفور أننى فى عالم آخر! لقد كان رصيف الميناء يعج بحشود الناس، كانوا يتحركون وكأنهم يسيرون فى اتجاه واحد، ثم يختلطون فيما بينهم مثل أسراب النمل لسبب غير مفهوم، لتسود الفوضى من جديد، وترتفع الأصوات بالصراخ والصياح فى كل مكان، روائح غريبة تنبعث فى أرجاء المكان وبقايا كلمات تسبح فى الهواء تمتزج بأصوات وجمل وعبارات مبهمة وغير مفهومة، بدأوا ينزلون الأمتعة من على ظهر السفينة إلى أسفلها ليلتقطها رجال يرتدون ثياب فضفاضة، وكنت أتساءل ... أين ذهبت حقائبي ؟، ولما وجدت كمال وشقيقه طمأنوني وأخبرونى بأنه لا يوجد ما يدعو للقلق وأننى منذ ذلك الحين فى ضيافتهم، وعليّ أن أتبعهم أينما ذهبوا، وبالفعل اهتموا بكل شئ يخصنى ؟ وفى الحقيقة سرعان ما وصلت حقائبي أمامى، وسرعان ما امتلكت القدرة على استيعاب كل الانطباعات الجديدة، وتركت كل شئ يمضي كما هو مقدر.

لقد كان كمال واقعياً حين وصف لى ما ينتظرنى فى مصر؛ فلم يسبق له أن رسم لى صورة وردية عن الحياة فى مصر؛ لقد كان أميناً معى ولم يشأ أن يخدعنى، لدرجة أننى أذكر أننا عندما كنا نشاهد فيلمًا وثائقياً عن قرية مصرية صارحنى قائلاً: إن هذا الفيلم يرسم صورة أجمل من الواقع، ويحتوى

على الكثير من المبالغة، حتى أنه لم يجد حرجًا فى أن يذكر لى أمر الحشرات الموجودة فى مصر والصراصير بصفة خاصة ! .

بعد أن وصلت إلى الأسكندرية رحت استرجع فجأة كل حواراتنا السابقة؟ لقد كانت أفكارى تدور فى رأسي مثل العاصفة؛ ويبدو أن ذلك كان سبباً فى رؤيتى لكابوس أثناء نومى فى أول ليلة لى فى مصر.

استقبلتنى عائلة كمال (والداه وأشقاؤه) بترحاب شديد، لقد كانوا مفتونين بي لدرجة أنهم سمحوا لى بالنوم مثل كمال فى نفس الشقه داخل بيت الأسرة، وهو أمر لا يتفق مع مبادئ رجل أزهرى وعالم ديني مثل والد كمال، ولكن الأمر الذي برر ذلك هو أننا كنا نخطط لإعلان زواجنا والاحتفال به فى أقرب وقت ممكن، وسرعان ما تم تجهيز شقة الزوجية وكانت تحتوي على أثاث تم تنظيمه وفقاً للطراز الأوروبي أكثر من الطراز الشرقي، وبدا كل شئ فيها نظيفاً؛ فلم أجد فيها أى نوع من أنواع الحشرات المنزلية وذلك الأمر أشعرنى بالراحة، وكانت الأسرة دائماً تحاول أن تلبي كافة احتياجاتى وتعاملنى بمنتهى الحفاوة والكرم لدرجة أكثر مما توقعتها .

كان كمال بدوره يحاول أن يرضينى، ولأنه يعلم مدى أهمية السباحة بالنسبة لى، اصطحبنى مع والدته وشقيقته وأبنائها الأربعة الصغار إلى أحد الأندية فى منطقة رشدي بالأسكندرية حيث كان الشاطئ خالياً إلا من بعض الناس القلائل، وبدا أمر طبيعي أن أذهب أنا وشقيقته للسباحة ونحن نرتدى لباس البحر (المايوه)، أما والدته فقد ارتدت ثياب صيفية خفيفة واكتفت بوضع قدميها فى الماء، ولكن يبدو أنها كانت سعيدة ومستمتعة بما تفعل، أما المدينة نفسها فكانت تخلو من مظاهر الزينة؛ إذ لم يكن هناك زهور يانعة نضرة تزين الشوارع والميادين كما أن مظاهر النظافة لا تبدو على

الطرقات، بالإضافة إلى أن ألوان المبانى باهتة وتحتاج إلى إعادة طلاء وبرغم كل ذلك، تجد الناس متفاءلين ينظرون إلى المستقبل بعيون الرضا ويشعرون بالقناعة تجاه حياتهم ولا يبدو أن أمر المال يشكل لهم أى مصدر للقلق، واعتقد أن كمال نفسه فى تلك الفترة لم يكن يدرى السبيل إلى تدبير أمور المعيشة فى ظل راتبه الضئيل، أما بالنسبة للآخرين فهم يستطيعون لأنهم لا يعيرون أمور المال اهتمام بالغ، أليس كذلك ؟!

التحق أشقاءه الثلاثة بالجامعة وكانوا من المتفوقين فى دراستهم ولم أعتقد أن هناك شيئاً يمكن أن يطرأ لينغص علينا حياتنا " لقد كان ذلك يدور فى ذهنى وقتها ! " وكان لديَّ دائماً شعور يجعلنى أثق فى قدرة كمال على تدبير أمور المعيشة بصورة تجعلنا نحيا حياة الأوروبين؛ والسبب فى ثقتى تلك كانت ترجع إلى أنه لديه وظيفة دائمة بالجامعة، كما أنه لم يكن شخصاً يميل إلى الكذب، وبالتالى كانت الصراحة تلعب دوراً هاماً فى إنجاح حياتنا معاً، كل ذلك ساهم فى أن يجعلنى متأكدة من أننا يمكننا أن نتدبر أمور معيشتنا معاً.

وهكذا كان لديَّ الشجاعة الكافية كى أعود إلى سويسرا بهدف الاستعداد للانتقال إلى مصر؛ فتركت شقتى فى زيورخ وذهبت لزيارة والدى وزوجته الجديدة التى أنجبت منه ثلاث بنات يافعات، ووجدتهم جميعاً يعيشون فى المنزل الذى كنت أعيش فيه سابقا مع أمى وأبى، ولكنه الآن لم يعد منزلى، ولأننى سوف أتزوج فى مصر فإننى أستطيع أن آخذ معى ما أحتاجه دون جمارك؛ وكانت هذه ميزة لى أن أشترى سيارة ثم أبيعها فى مصر؛ وبالفعل وجدت سيارة مرسيدس مستعملة وبحالة جيدة، فحزمت حقائبي التى تحتوى على هدايا زفافى والكثير من الكتب الألمانية، وقمت بشحن كافة أغراضى فى صندوق كبير وسارعت فى إتمام ذلك بعد أن

سمعت عن تطبيق قانون جديد خاص بالرسوم الجمركية للسيارات، فودعت جميع أفراد العائلة والأصدقاء، وسافرت - تلك المرة - مع أخى عبر فنيسيا، والجدير بالذكر أننى سافرت على متن نفس السفينة إلى الأسكندرية فى سبتمبر عام 1966، كانت الأمور كلها تسير بطريقة طبيعية، ولكننى كنت أشعر ببعض القلق حول مصير السيارة التى اشتريتها ولكن هذا القلق زال عندما وصلت إلى الأسكندرية وعلمت بأن القانون الجديد لن يتم تطبيقه إلا بعد مرور ستة أشهر بعد الموافقة عليه، ولأننى لم أشعر بالأمان كى أترك السيارة على سطح المركب تكفل والد كمال بدفع المبلغ المطلوب كرسوم جمركية للسيارة ولكننى شعرت أن تلك الغرامة التى تكبدها والد كمال قد أثارت بعض الحزازات فى النفوس وألقت بظلال الرتابة على أجواء المنزل - كنت حساسة فى شعورى هذا - لدرجة أننى أحسست بتبعيات هذا الأمر دون أن أفهم كلمة واحدة من الأحاديث التى تدور حول هذا الأمر داخل المنزل، ولقد أزعجنى هذا الموقف كثيراً وأشعرنى بالضيق النفسي .

تزوجت من كمال فى شهر أكتوبر وكان الحفل قاصراً على وجود العائلة فقط؛ وكان ذلك بناءً على رغبتنا، وأحضرنا ملابس الزفاف معنا من زيورخ Zurich، وكنا رائعين جدا ونحن نرتدى ملابس العرس الأنيقة، وكل من شاركنا الحفل قد شعر بالسرور، وبعد ذلك ذهبت إلى القنصلية الألمانية لأسجل حالتي العائلية الجديدة، وأثناء تواجدى هناك أبلغت القنصلية بأمر غرامة السيارة، كما قدم كمال طلبا لاستعادة مبلغ الرسوم الجمركية الذي تم دفعه، وبعد عامين من المحاولات الدؤوبة، استعدنا نقودنا، الأمر الذى جعلنا نشعر بالارتياح، وبالطبع كان يجب أن أفتح الصندوق الخاص بي في الجمرك وقد تجمع حولنا الكثير من الناس ليروا ماذا في الصندوق. لقد أرادوا رؤية ما أحمله معي من أشياء ثمينة، ولكن خابت ظنونهم جميعاً، واندهشوا

عندما ظهرت أمامهم الكتب التى أحضرتها معى من ألمانيا، وأتذكر أن كل ما سمعته حولي هي كلمة : " كتب؟ ! " وقد كان موقفاً ساخراً للغاية .

بعد إتمام الزفاف، انتقلنا إلى شقتنا (مساحتها 80 متراً مربعاً)، ومكونة من أربع غرف، وكانت تقع في بناية في ضاحية تسكنها جاليات أجنبية (يونانين، لبنانين، وأرمن)، وتمكن كمال من الحصول على الشقة بما فيها من أثاث تركه صاحب الشقة السابق؛ الذى ترك الشقة بما فيها ورحل بعد هروب عروسته، وكانت الشقه تحتوى على بعض الأثاث المصمم وفقاً لطراز الخمسينيات من القرن الماضي، وكانت نوافذ الشقة عالية، والشرفات ذات طابع فرنسي وقد تم طلاؤها وتلميعها بشكل جميل، لقد أحببت الشقة جدا لأنها سوف تجمعنا معا، كما أنها مطلة على حديقة كبيرة، وكان استقلالنا بأنفسنا وحياتنا بمفردنا هى أحد شروطي على الزواج؛ لأننى عانيت كثيرا من المشاكل التى نتجت عن حياتى مع زوجة أبي التى عاشت معنا فى نفس الشقة بعد رحيل أمي، وكان كمال على دراية تامة بكل ذلك، وأراد أن يحقق لى رغبتى .

بعد أن قضينا عدة أيام جميلة في شقتنا الجديدة، كان يجب علينا أن نسافر إلى أسيوط، حيث سيعمل كمال هناك أستاذاً مساعداً بجامعة أسيوط، كانت جامعة أسيوط قد ساهمت مالياً في نفقات البعثة الخاصة بمنحة كمال للدراسة في زيورخ شريطة أن يعمل في الجامعة لمدة عام بعد عودته، أو يرد مبلغ البعثة بالكامل للجامعة، ولكن هذا الأمر كان مستحيلاً نظراً لراتبه الضئيل.

ولما اقترب موعد بداية الفصل الدراسي الأول، سافرنا بالقطار من القاهرة؛ متجهين إلى الجنوب على طول نهر النيل، وكان وقتها يتراوح عدد

السكان الأقباط في أسيوط نحو 50٪ (حيث يطلق على المسيحين فى مصر لقب الأقباط ولا يخضعون بصورة مباشرة للسلطة الباباوية للكنيسة الكاثوليكية فى روما ولكن لديهم البابا الخاص بهم فى مصر ويطلقون عليه لقب " البابا ")، وكنا وقتها في نهاية شهر أكتوبر، ولكن الجو كان لا يزال حارًا، والرياح الرملية تهب من الجبال المجاورة، ولقد عانيت كثيراً من مشاكل صحية، وكنت دوما أشعر بالأعياء والتعب والدوار، ونظرا لأننا كنا لا ننوي أن نقيم فترة طويلة هناك، فقد أثثنا شقتنا في أسيوط بالضروريات فقط : " سرير مع ناموسية، وحقيبة بلاستيكية لحفظ ملابسنا، وطاولة خفيفة، وعدد بسيط من الكراسى، وموقد غازي بشعله واحدة، ومقشة وفرشة يد "؛ فلابد أن يتم كنس الأرضية وتلميع الأثاث والأسطح باستمرار؛ لأن الغبار يتسرب من النوافذ التي لا يتم إغلاقها بإحكام، وكان من حسن الحظ أن أحد زملاء كمال في الكلية كان يعيش مع زوجته الأمريكية بالقرب من بيتنا، ويبدو أنهما كانا يخططان للبقاء فى أسيوط لمدة أطول، ولذلك فإن شقتهما كانت كاملة التجهيز، وجدير بالذكر أنهما ساعدونا كثيراً بعد إقامتنا هناك، ولقد تحسن الجو كثيراً فى شهر ديسمبر ويناير وفبراير، لأن الطقس يكون بالفعل رائعا فى تلك الفترة، كنا نخرج معاً؛ أنا وكمال لنتنزه قليلاً بين الحقول، ولكن لاحظنا أن العيون تلاحقنا بشكل فضولي، وتتفحصنا وترقبنا؛ لأن الخروج والمشي بين الحقول أمراً ليس مألوفاً في مصر، ولكن كان هناك نادٍ صغير في الجامعة ونادي أخر اسمه (بلادي)؛ حيث يمكننا أن نقضي فيهما أوقاتنا بدون قيود رسمية، إذ كنا نتقابل في النادي مع بعض الأزواج المصريين، ونذهب فى رحلات جماعية إلى الصحارى القريبة، أو نقيم حفلات الشواء، أو نخرج فى نزهات بين التلال، واذكر ذات مرة أن دعانا أحد زملاء كمال كي نزوره في مزرعته، وفي المزرعة وجدنا مظلة

كبيرة، وقد فرشوا تحتها طاولات ومقاعد، وكانوا أناسا يتسمون بالكرم والحفاوة الزائدة فقدموا لنا وجبات ممتازة قد تم طهوها في طواجن فخارية (برام)، واذكر أن النساء الموجودات داخل المزرعة لم يتم السماح لهن بالجلوس معنا على المائدة أو مشاركتنا الطعام على الرغم من وجود نساء ضمن المجموعة التى تمت دعوتها، وأنه لأمر طبيعي جداً إذا ما نظرنا إلى التقاليد والأعراف هناك، وبعد أن تناولنا الغداء ذهبت مع بعض النساء لنشكر نساء المزرعة على هذه حفاوة البالغة، وبالطبع كنا نستخدم لغتنا العربية المحدودة كي نعبر عن بالغ شكرنا، لقد أدهشتنا بساطة المكان الذي يعيشون فيه خلال فصل الصيف، وبدأنا نعرف شيئاً فشيئاً ماذا يعني كرم الضيافة المصرية.

عندما بدأت حرب الأيام الستة (النكسة) في عام 1967، أصر كمال على عودتى إلى الأسكندرية، إذ كان قلقا على سلامتي، لأنه يعرف رد فعل المصريين تجاه المرأة الغربية في زمن الحرب، وخاصة فى ظل تصعيد الروح الوطنية وازدياد الحماسة، وهكذا انتقلت للحياة مع عائلة كمال حتى يعود من أسيوط، وتعرفت على شقيقة كمال خلال تلك الفترة، وكانت تتحدث اللغة الفرنسية بطلاقة، وأذكر مرة أننى خلال أحد الحوارات التي دارت بيني وبينها، تطرقنا إلى موضوع تسوية المعاش في سن التقاعد، ولكنني شعرت بأنني تجاوزت حدودي ووضعت يدي فى عش الدبابير، لأن الناس فى مصر لا يحبذون الحديث عن المال أو أي شيء من هذا القبيل؛ إذ تعد تلك الموضوعات من المحظورات الكبرى التى لا يجب الخوض فيها؛ لم تدخر شقيقة كمال وسعا فى نقل القصة كاملة إلى أفراد العائلة الذين شعروا تجاهى بالفزع الرهيب، لأنهم منذ ذلك الحين اعتبروني متعطشة للمال وجشعة – وفوق كل ذلك – وقحة.

في ذلك الحين لم أدرك ـ بصورة مطلقة ـ الحجم الحقيقي لتلك المشكلة التى وقعت فيها، حتى مرت عدة سنوات كي يتم توضيح سوء الفهم الذى حدث من خلال حوار جرى ـ مصادفة ـ بيني وبين شقيق كمال، ولكني لاحظت بأن المزاج العام في المنزل قد تغير، وأن أفراد الأسرة ليسوا كسابق عهدهم معى، ولكن رب ضارة نافعة، فقد تعلمت أن أتجنب المناقشات الشائكة والجريئة، وكم كنت أتمنى لو أنني تحدثت مع امرأة أوروبية مثلي، فربما كانت أقدر على فهم وجهة نظري، ولكن الاتصال بأي ألمانيات أو أي نساء من جنسيات أخرى جاء بعد ذلك بفترة طويلة .

كانت الحياة في زمن الرئيس السابق جمال عبد الناصر تتسم بالحرمان، إذ كان هناك نقص فى السلع الغذائية، وكل شيء يكاد يكون معدومًا، والبقول المتوفرة مثل الأرز والعدس كانت مليئة بالحصى والشوائب وتحتاج إلى تنقية، وذلك يعني بذل الكثير من الجهد .

عاد كمال من أسيوط في صيف 1967، وفي نفس الوقت بدأت أذهب إلى معهد جوته Goethe Institute، وأتواصل مع الأفراد هناك وبعد فترة من التحضيرات والاستعدادات بدأت فى تدريس اللغة الألمانية، كما أن التفاعل والعمل والاختلاط أعطى لحياتي دفعة جديدة، وفي عام 1968 ظهرت أمامى فرصة كى أعمل فى وظيفة سكرتيرة تنفيذية ولم أكن أفكر فيها على الإطلاق، وعلى الرغم من أننى لم أكن أتقاضى راتبا جيدا لأننى موظفة محلية، إلا أننى استمتعت بالعمل كثيرا واندمجت مع الآخرين وتعرفت بأناس جدد، وبالإضافة إلى ذلك حصلت على المزيد من المال وأصبح لى موردى الخاص .

في عام 1970 تلقى كمال عرضًا للعمل فى وظيفة مرموقة كي يعمل أستاذًا في جامعة طرابلس (Tripoli) بليبيا، فى الوقت الذى كنا فيه على

وشك الإفلاس، فكان هذا العرض بمنزلة فرصة ذهبية لتحسين وضعنا المالي الذي تدهور للغاية، وبالطبع كان عليَّ أن أرافق كمال إلى ليبيا، لذلك أبلغت معهد جوته بأن يبحث عن بديل ليحل محلي، وسافر كمال إلى ليبيا ثم لحقت به بعد ذلك بالطائرة، وهناك أقمنا في شقة جميلة مكونه من أربع غرف في مبنى جديد، أما أنا فقد عملت في وظيفة سكرتيرة في شركة بترول فوروصولي، وبعد مرور ثلاثة أشهر؛ وهي فترة اختباري في الوظيفة، أصبحت حاملا، ولم يسبق لى أن كنت حاملاً طوال هذه الفتره التي عشتها في مصر، ولكن في ليبيا يبدو أن حالتى الصحية قد تحسنت من الناحية الفسيولوجية وبدأ جسمي يستعد كي يمنح الحياة لطفل، وكنا نتطلع ونترقب طفلنا المنشود بشوق وسعادة، في ذلك الوقت كنت قد أكملت السادسة والثلاثين من عمري، حتى أن زملائى فى العمل استقبلوا نبأ حملى بهدوء مثير للدهشة .

حين كنت في الأسكندرية قبل سفري إلى ليبيا، كنت قد تعرضت لبعض المشاكل الصحية وكان الأطباء هناك على دراية بتاريخي المرضي؛ لهذا فضلت العودة إلى الأسكندرية للولادة، ولكي أعيش مع أسرة زوجي ثانية، جاءت طفلتي إلى العالم من خلال إجراء عملية قيصرية ولقد أطلقت عليها اسم ياسمين، وكنت أنا والطفلة فى كامل لياقتنا الصحية، وكان كل شيء على ما يرام، وطوال إقامتي بالمستشفى كانت صغيرتي طفلة تتسم بالهدوء والوداعة، ولكننا بعد رجوعنا إلى منزل العائلة مجددا، زادت عصبيتنا، أنا والطفلة، بشكل كبير لأن كل واحد من أفراد العائلة كان يحاول أن يلقى بدلوه ويستعرض وجهة نظره ويفرض رأيه، مما زاد من ترددي وقلقي، وكنت أتساءل هل يمكن لابنتى أن ترضع مني ما يكفي لتغذيتها ؟ وفى حالة ما إذا لم تتمكن من ذلك فعليَّ أن أواجه مشكلة كبيرة، لأن ألبان الأطفال الرضع (أقل من ثلاثة أشهر) كان يصعب الحصول عليها فى تلك الآونة، ولهذا

سعدت كثيراً عندما وجدت مربية أطفال توافق أن تعيش معنا في ليبيا، فقمنا باستخراج جوازات سفر للطفلة وللمربية، وأخيراً استطعت أن أعود إلى عالمي الصغير.

وأثناء وجودنا فى ليبيا كنا نعيش حياة مستقرة وكانت ياسمين ابنتنا طفلة هادئة وديعة، وكان زوجي يشعر بالسعادة البالغة لأنه أصبح أبًا لطفلة صغيرة، وكانت المربية (الدادة) سيدة نظيفة تحب ياسمين وتعاملها برفق وود وحنان، وقبل أن أعاود الذهاب إلى عملي مجددا تناقشنا أنا و زوجى - على نحو صريح - حول المسئولية التى تقع على كل منا، وما الذى يتوجب علينا فعله، وذلك حتى نتفادى أى نوع من سوء التفاهم، ولكى نبقى جميعا على وفاق، كان يعيش معنا في طرابلس أحد أصدقاء كمال وزوجته الأمريكية، وكان لديهم صبي في نفس عمر ياسمين .

ولأن عائلتنا صغيرة وليست عليها أعباء كثيرة فكنا نتبادل الزيارات في العطلات الأسبوعية أو نقوم ببعض الأعمال ونتعرف على البلد وسكانه، قررنا أنا وكمال أن نقضي شهر عسل جديد في تونس، فذهبنا فى صحبة بعض الأصدقاء إلى الأماكن الأثرية مثل صبراته Sabratha، ولبدة الكبرى Leptis Magna، و في موسم الربيع تنزهنا في بساتين الصفصاف، وذهبنا للسباحة .

في فصل الربيع تبدو الأشجار جميلة حينما تتفتح أزهارها مثل : أشجار اللوز والمشمش وأشجار الموالح، وخصوصا على الساحل بين طرابلس والحدود التونسية، حيث يهتمون هناك برعاية الحدائق وتنسيقها، ويفصل بين هذه الحدائق طريق طبيعي من أشجار الصنوبر وأنواع الصبار المختلفة، ولكى يتم رى تلك الحدائق يستخدم الليبيون نظام الري بالتنقيط الذي

يوفر لهم الماء.

الثقافة فى ليبيا تختلف كثيراً عن الثقافة فى مصر: من حيث اللغة وعادات الغذاء وكذلك الملابس، في ذلك الوقت رأينا النساء الليبيات في الأماكن العامة يرتدين الزى الوطنى؛ اذ تجدهم ملفوفات في قطع كبيرة من القماش الملون، و تبدوا المرأة محجبة تماما ولا يظهر منها إلا عين واحدة.

أما في البيوت، كان الوضع مختلفاً تماماً، اذ وجدت المرأة واثقة بنفسها. وكان من حسن حظي، أن طريقة اللبس في ليبيا لا تنطبق علي باعتباري سيده أجنبية.

أما الرجال فيرتدون زيًّا غربيًّا " على الطريقة الأوروبية "، أو الزي التقليدي مثل التونسيين، (بنطلون وسترة قصيرة سوداء اللون وعليها عباءة من الصوف و فوق الرأس طربوش مستدير).

خلال عملي في شركة البترول أتيحت لي فرصة التحليق فوق الصحراء في طائرة فوكر Fokker 2727، رأيت هذا الامتداد الهائل لبحر من الرمال، فأمام هذه المساحات الشاسعة يتحول كل شيء إلى عدم، ولقد ترك هذا المشهد أثرا كبيرا في نفسي حتى يومنا هذا، وما زلت أحمل تلك الذكريات الجميلة.

في نهاية عام 1972 انتقلنا من شقتنا إلى فيلا بحديقة صغيرة، وأصبح عندنا الآن غرفة زائدة، وفي الحديقة كانت هناك شجيرات العنب الجميلة وأشجار المشمش والتوت الأسود (التوت الأسود الحقيقي ذو المذاق الجميل !)، وفي الصيف كنا نقضي أوقاتنا في الحديقة تحت ظلال الأشجار الكبيرة.

وعندما بلغت ياسمين عاما ونصفا، حملت للمرة الثانية، ومثل المرة

الأولى فقد اكتمل الحمل بدون أي مشاكل، ولكننى هذه المرة أردت أن ألد هذا الطفل في طرابلس كي ألد بين أسرتى .

في ربيع 1974 جاء ابني إلى العالم فى أحد الأيام التى كان جوها حارا جدا، ومن أول يوم كان كريم مختلفا جدا عن ياسمين، إذ كانت ياسمين طفلة رزينة، وهادئة، ووديعة، وذات عينين سوداوين واسعتين، أما كريم فقد جاء إلى الدنيا وهو يحمل على قسمات وجهه تعبيرا متجهماً.

وعندما بلغ ثمانية أشهر كان يتمتع بوفرة فى النشاط؛ يستيقظ فى الصباح الباكر ويتشبث بالأثاث لينهض من الأرض ويمشي مستندا على الحائط، ولا شيء ولا أحد يسلم منه، وعندما يستيقظ نسمعه ينادي على كلبنا " شيكو شيكو"، لأنه كان يحب أن يجري ويلعب مع الكلب في الحديقة حتى قبل أن يغير ملابسه .

كان من الطبيعي أن يكون لدينا الكثير لنفعله مع طفلينا، ولكننا كنا نحتاج لبعض المساعدة و هكذا مضى كل شيء على ما يرام، وكنا نسافر مرة واحدة في العام إلى أوروبا لزيارة أسرتي وأصدقائنا، وكان فى مقدورنا أن نقضي بعض الأيام في النمسا بين الجبال، فكثيراً ما كنا نستعيد ذكريات الشباب ويتملكنا الحنين إليها وخصوصا أثناء تعرضنا لأوقات نستشعر فيها شيئاً من الضيق النفسي أو بعض الضغوط الحياتية.

في صيف 1975، انتهى تعاقدنا في ليبيا، وفي نفس الوقت كانت العلاقات الليبية المصرية قد تدهورت بشكل سريع، وتم إلغاء رحلات الطيران المباشر إلى مصر، فما كان أمامنا إلا طريق البر بالحافلة أو الطيران إلى باريس ثم العودة إلى مصر. كما تحملت مربيتنا مشقة السفر بالحافلة مدة 12 ساعة، بينما سافرنا نحن إلى أوروبا وقمنا بزيارة أبي، وأخي وأسرته، ثم

بعد ذلك اتجهنا إلى تيرول الشرقية Eastern Tyrol وزرنا أختى، ولا أدرى وقتها ما السبب الذى جعلنى أشعر بأننا قد لا نتقابل مرة أخرى .

لقد افتقدنا أجواء أوروبا كثيراً؛ حيث المراعى والوديان الخضراء والهواء العليل النقي الذى يسري بين الجبال، ومع ذلك فقد كان الشعور بالحنين إلى الوطن يغمر كمال، لأنه كان يأمل بمستقبل زاهر واعد في عهد الرئيس الجديد أنور السادات .

في حقيقة الأمر لقد تغيرت مصر كثيرا خلال السنوات الخمس التي قضيناها في الخارج، فقد بدت المدينة أكثر بهاء وجمالا، وتوفرت فيها سلع كثيرة لم تكن موجودة من قبل، ويرجع السبب فى ذلك إلى نجاح الرئيس السادات في إنهاء العزلة الاقتصادية والسياسية التى كانت تطوق مصر، وصاحب ذلك تغيراً فى الذوق العام لدى الأشخاص، إذ بدا الناس منجذبين أكثر إلى ارتداء الأزياء الجميلة، وكأنهم أرادوا أن يشبعوا رغبة طال انتظارها، وبدأوا فى تجديد مساكنهم وشققهم، وفي نفس الوقت، وبرغم الارتفاع الكبير في أسعار السلع والخدمات، لم يواكب ذلك زيادة مماثلة في الرواتب والأجور وخصوصًا في المؤسسات الحكومية .

لقد زادت احتمالات الانفتاح الاقتصادي، وكذلك وجود الأسواق الحرة، ولكن كل شيء كان يحتاج للوقت، كما أن ظروف العمل فى الجامعات لم تتحسن وظلت الرواتب الحكومية هزيلة جدا، والأكثر من ذلك أن كمال كان يعود يوميا من الجامعة يبدو محبطا للغاية وكأن حالته المزاجية مرآة تعكس الحالة العامة للأجواء المحيطة.

كم كنا نرغب فى أن نعيش مرة أخرى بمنزل به حديقة، ولكن كيف

يمكننا تحقيق ذلك فى ظل الارتفاع الجنوني للأسعار ورواتبنا المنخفضة ؟

ولهذا استمرت حياتنا في شقتنا المحدودة (80 مترًا) فهي بالكاد تكفي لأربعة أشخاص، ولما أردت الخروج للعمل في معهد جوته، رفض كمال الفكرة؛ إذ كان مجهوداً كبيراً عليَّ، فالطفلان لا يزالان صغيرين (أربع سنوات، وعام ونصف)، ورغم وجود من يساعدنى في أعمال التنظيف والغسيل، فقد كان هناك الكثير الذى يتوجب عليَّ أداؤه من أعمال، و كان كمال مشغولاً جداً بعمله، ونادراً ما يجد الوقت الذى يمكنه أن يساعدني فيه، أما الأقارب فينتظروننا كل يوم جمعة على الغداء لنجلس معاً ونتبادل الحوارات والأحاديث الطويلة والأخبار.

أما بالنسبة للخروج بغرض التنزه في هذه المدينة الكبيرة؛ فالقول أسهل كثيراً من الفعل، فنحن نعيش بالقرب من البحر، ولكن من المستحيل أن أمشي على الكورنيش مسافة طويلة، وأذكر أننى خرجت ذات مرة مع أولادي فتعرضنا لمضايقات، وتحرش بى الكثير من الرجال، لذلك قررت ألا أخرج ثانية، ومنذ ذلك الحين فضلت البقاء في المنزل .

تعرفت في معهد جوته، على سيدات ألمانيات، وقررنا أن نفعل شيئاً وألا نجلس مكتوفات الأيدي، فعقدنا العزم أولاً أن نبدأ في تعلم اللغة العربية لتسهل علينا أمور الحياة والتعامل مع المصريين، ثم تشكلت مجموعة أخرى من السيدات لتحقيق هدف آخر وهو تعليم أبنائنا بعض الدروس التمهيدية للموسيقى، وقبلت التدريس للأطفال مع صديقة لي درست الموسيقى في الكلية، وتعلمت منها الكثير، وهكذا تمكنت – فى النهاية – فى مزاولة عمل آخر ذي أهمية ومعنى حقيقى بالإضافة لمسئولياتي المنزلية .

بجانب هذا كان أطفالنا بحاجة إلى دروس إضافية في اللغة الألمانية؛

لأن الكثير منهم يدرس في مدارس دولية باللغة الإنجليزية، وليست أمامهم فرصة حقيقية لدراسة لغتهم الأم (الألمانية)، لذلك بدأنا نجري اتصالات بالمدرسة الألمانية لكي نقوم بهذا الدور، وبالإضافة إلى ذلك انضممت لنادي الكتاب، وكذلك بدأت أغني في فرقة كورس، وشيئاً فشئياً اكتشفت أموراً كثيرة في الأسكندرية يمكننا أن نستفيد منها ونستمتع بتحقيقها .

في ذلك الوقت لم يكن هناك أي قناة تلفزيونية ألمانية باستثناء إذاعة "دوتش فيلا" "Deutsche Welle"، ولكي تسمعها بوضوح يجب أن يكون لديك جهاز راديو جيد لاستقبال الموجات، وبالتالي كان يجب علينا أن نعتمد على مصادر أخرى للمعلومات، فلم يكن أمامنا سوى المدرسين الألمان الذين كانوا بالنسبة لنا بمثابة الهواء الذي نتنفسه، ولقد استمرت علاقتى ببعض المدرسين، ودامت صداقاتى مع العديد من العائلات الألمانية .

ولكننا للأسف لم نستطع أن نرسل طفلنا إلى المدرسة الألمانية، لقد قبلوا ياسمين ولكن لم يقبلوا كريماً، لأن المدرسة كانت متشددة في الفصل بين الجنسين على الرغم من وجود استثناءات لأبناء المدرسين، ولقد حاولنا جاهدين، ولكن جهودنا باءت بالفشل، فقد استمروا في قبول البنات فقط، ولكننا أردنا أن يتم قبول الأطفال (من الجنسين) بنفس المدرسة، ولكننا لم نتمكن من تحقيق ذلك؛ وبالتالي أرسلت ابني إلى مدرسة إنجليزية، يدرسون فيها كل شيء باللغة الإنجليزية بدءا من مرحلة الحضانة .

أما أنا فقد اكتفيت بالتحدث مع أطفالي باللغة الألمانية داخل المنزل بينما كانوا يتحدثون مع كمال و باقى افراد عائلته باللغة العربية .

وإلى يومنا هذا مازلت أتساءل كيف استطاع أولادى استيعاب وتعلم اللغات الثلاث بكل سهوله، دون جهد يذكر، وكأنه أمر طبيعي جداً

في هذا العالم .

أما بالنسبة لحفلات ما قبل المدرسة وحفلات الدراسة ودعوات حفلات أعياد الميلاد، ودعوة الأصدقاء، فقد كانت تتم بشكل طبيعي للغاية، وفي كل عام كان كمال يشتري شجرة أعياد الميلاد وكنا نزينها بأنفسنا، ورغم أن زوجي رجل مسلم متمسك بشعائر دينه، إلا أنه لم يزعجه أبداً ما كنا نفعله، إذ كان يجب على الأطفال أن يعرفوا كل الطقوس الدينية لكل دين، أما كمال فكان يعجبه التقليد المسيحي الخاص بشجرة أعياد الميلاد، وكان يسمح لنا بالذهاب لأداء الصلوات في عشية أعياد الميلاد في إحدى كنائس الأسكندرية .

في عام 1978، وفى نفس الموعد تقريباً، تعرض أبي لأزمة قلبية ثالثة أدت لوفاته، وبعد بضعة أسابيع توفي والد كمال أيضا، وقد كان والده قريباً جداً إلى قلبي، لأنه كان متسامحاً معي، وكان دوما يبذل كل ما في وسعه ليفهمني .

ولقد ذكرت من قبل أن الحياة كانت تفرض علينا بعض القيود؛ فلم يكن من السهل علينا ممارسة الرياضة في الأسكندرية؛ فمثلا لا يسمح للمرأة بالمشي أو السباحة وحدها، ولهذا عندما انضممنا إلى نادي سبورتنج الرياضي Sporting club في أواخر السبعينيات من القرن الماضي، كانت سعادتنا بالغة، وبصفة عامة، ليس من السهل على أي إنسان أن يصبح عضوا في النادي إلا بناء على توصية خاصة من أحد أعضاء النادي، وأضف إلى ذلك أن رسوم اشتراك العضوية غالية جداً، ولكنها تستحق كل هذا العناء، لأنك في النادي تستطيع أن تشعر بالراحة والاسترخاء والامان وتشارك في الأنشطة الرياضية .

كانت أسرة كمال تنتظرنا كل يوم جمعة على الغداء، إذ يتجمع الإخوة

والأخوات والأحفاد في بيت والديه، ولكنني شعرت أن استمرار هذه الزيارة بصفة أسبوعية يشكل عبئاً كبيراً عليّ، لأننا في هذه الزيارة نتناول الغداء ونجلس ساعات طويلة نتحدث ولا نجد ما نقوله ما دمنا نتقابل أسبوعياً.

في عام 1980 أتيحت لكمال فرصة أخرى للعمل خارج مصر، فقد عرضت عليه جامعة في مكة المكرمة عقداً سخياً وراتباً كبيراً، ولكن للأسف، باعتبار أن أولادى مسلمون من أب مسلم، فلا يسمح لهم بالالتحاق بأي مدارس دولية هناك، لذلك قررنا أن أبقى أنا مع الأولاد في الأسكندرية، ورغم أن ابتعادى عن زوجي لفترة طويلة كان أمراً وجدته صعباً للغاية، ولكن سفره كان أمراً ضرورياً كي يلبي احتياجاتنا المالية .

من حسن حظي أنني حصلت على موافقة كمال بالإقامة في شقتي مع أولادي، وهذا الأمر ليس مألوفا في مصر، لأنه من الطبيعي أن انتقل أنا وأولادى للإقامة مع والدة زوجى فى بيتها أثناء غياب زوجي عن المنزل .

أحس كمال بالارتياح الشديد في عمله الجديد كأستاذ جامعي في إحدى جامعات مكة وقد احترموا طريقته المباشرة وصراحته وأسلوبه النزيه، وكنا نسافر إليه فى مكه لنقضي معه الإجازة كل صيف، برغم حرارة الجو التي لا تطاق، وكان من الطبيعي أن التزم أنا وابنتي ياسمين بنظام المملكة في ارتداء الملابس الطويلة وتغطية الشعر والذراعين، وعدم ارتداء البنطلون لأنه ممنوع، وكنا في المساء نذهب إلى جدة؛ لأنهم فى جدة متساهلون مع الأجانب بصورة أكبر، ولكن الجو في جدة أشد رطوبة من مكة، وكثيراً ما كنا نلجأ إلى المحلات الكبيرة المكيفة كي نحتمي بها من رطوبة الجو وحرارته .

في عام 1983 ذهبت أنا وأولادي لأداء فريضة الحج، بناءً على رغبة كمال، ولكن هذا الأمر لم أكن أتوقعه على الإطلاق ولم أتخيل يوما مجرد أنني

على استعداد له، صحيح أنني قد اعتنقت الإسلام منذ مدة طويلة، ولكنني اعتنقته لأسباب عملية في حياتي أكثر من كونها أسباباً دينية؛ لأنني كامرأة أجنبية أعيش في مصر ليست لي أي حقوق في ميراث زوجي، والأسوأ من ذلك لن تكون لي وصاية على أبنائي في حالة وفاته؛ لهذا اعتنقت الإسلام منذ بداية حياتنا الزوجية.

كانت لي صديقتان مصريتان قدمتا لي يد العون فيما يتعلق بأمور التجهيز لرحلة الحج، فقرأنا عن شعائر الحج، والحق يقال؛ لولاهما لشعرت بأنني في دوامة؛ إذ لم أكن أدري كيف أتصرف، لقد قمنا أولاً بالقراءة عن شعائر الحج، وشيئاً فشيئاً فهمت الأمر برمته، فالحج لابد أن تتوافر أركانه الأساسية، ولا بد أن يتم تأديته في وقت محدد من العام، فإذا قام المرء بتأدية هذه الطقوس في أوقات غير شهر الحج تعتبر هذه الشعائر عمرة (وهى زيارة قبر الرسول عليه الصلاة والسلام)، ولكن العمرة تأتى في المرتبة الثانية بعد الحج، كما أن تحديد وقت الحج مرتبط بالشهور القمرية المتغيرة مع فصول العام، وكذلك الأمر بالنسبة لشهر رمضان الذى يأتى كل عام فى ميعاد مختلف.

من طقوس الحج الأساسية أن يرتدي الحجيج جميعهم ملابس بيضاء، بينما ترتدي النساء عباءة طويلة، ولا يسمح لهن بالتبرج أو وضع طلاء الأظافر، أما الرجال فالواحد منهم يلف حول خصره قطعة قماش طويلة بيضاء (بشكير) كما يلف قطعة قماش أبيض حول صدره (بشكير)، ويكونوا مجردين من أي ملابس مخيطة، ولا يسمح لهم بارتداء الملابس الداخلية، ولكن الوضع مختلف بالنسبه للنساء ـ فعلى العكس ـ يسمح لهن بارتداء الملابس الداخلية وملابس أخرى مخيطة، وهكذا اشتريت عباءة بيضاء وارتديتها وغطيت شعري بطرحة، والجدير بالذكر ان هذه الملابس البسيطة تشبه تماما القماش الذي

يلف به المسلم وقت وفاته ودفنه (الكفن)، فملابس الحج ترمز إلى أن الناس سواسية في كل شيء تماما كما هو الحال في الحياه الآخره .

ومن شعائر الحج أن يتجه الحجاج إلى صعيد عرفة؛ وهو وادي كبير يقع بين الجبال الشاهقة، وقد وصلنا إلى هناك ضمن فوج مكون من أربع حافلات .

وكان هناك مسجد كبير وخيام تحيط به، وكل شيء حولنا كان يبدو بدائيا؛ وكان عدد الحجيج كبيراً (أكثر من مليونين من الناس يأتون من كل فج عميق لتأدية فريضة الحج)، وكانت دورات المياه مزدحمة للغاية .

وبالطبع، تم عزل النساء عن الرجال ولكن الخيام كانت متقاربة جداً ومتاخمة، وأذكر أنني كنت في خيمة كبيرة مع العديد من النساء الأخريات والأطفال وكان الجو شديد الحرارة والهواء الحار يلفح الوجوه، وعلى الرغم من تلك المشقة يحرص الحجاج على تأدية الفرائض ويصلون ويتضرعون ويذكرون الله، كما أن أكياس الثلج متوفرة، كي نستخدمها حينما لا نستطيع أن نتحمل شدة الحر، إذ نضع أكياس الثلج فوق رؤوسنا، ومن شروط الحج هو عدم الجدال أو إظهار الغضب لأن كل الحجاج يتوجهون بقلوبهم وذكرهم إلى الله، ويجب أن تخلوا نفوسهم من الضغائن، وكذلك يجب أن تتوافر طهارة القلب واللسان .

وجدير بالذكر أن تلك الأمور لازمة كشرط من شروط الحج، والمثير للدهشه هو أن الأطفال بأنفسهم – أثناء تواجدهم بالحج – يظهرون روح التعاون لأن تلك الأجواء الروحانية حولهم تبعث في نفوسهم السكينة والطمأنينة والهدوء، وفي ذلك الوقت كانت أعمار أبنائي 12 عاما، و9 أعوام .

وبعد ذلك كان من المفروض أن نستقل الحافلات متجهين إلى " منى"،

ولكن جاءت حافلة واحدة فقط، فامتلأت الحافلة عن آخرها، وبقيت مجموعات أخرى من الحجيج خارج الحافلة، وتم تقسيم المجموعة التى كنت فيها، مع ذلك فقد مضى كل شيء بسلام، فلا يجوز للمرء أن يغضب أو يتشاجر أو تتملكه نوازع الشر التى يمكن أن تلقى بظلال الكآبة على نفسه؛ لذلك كان على كل فرد أن يتقبل الموقف بنفس راضية، وهكذا ساد الهدوء ولم تصدر أي شكوى ولم يتذمر أحد، حتى سائق حافلتنا كان يقودها بحذر شديد، واستطاع أن يجد طريقه وسط الزحام وعلى الرغم أن الأمر كان يحمل خطر المغامرة فلم يثر ذلك غضب أى شخص أو ثورته، فعلى كل إنسان أن يؤمن بالله وأن يؤمن بأن مشيئة الله فوق كل شئ.

لقد كان الزحام شديداً، وهناك الآلاف من الناس والسيارات التى كان عليها أن تسلك نفس الطريق التى سلكناها.

ومع حلول الظلام، توقفنا ثانية في المزدلفة لنجمع الجمرات من هناك، وفي منى كان علينا أن نرمى سبع جمرات على رمز الشيطان، ثم نبيت في منى ثلاث ليال، ولكن يسمح في هذه الليالي بالإنصراف إلى مساكننا، ثم يمكننا أن نقود السيارة لمسافة كيلو متر واحد من الممرات، كما يجب على الحاج أن يمشي عبر أحد تلك الممرات، وأن لم يفعل ذلك فتكون الشعائر ناقصة، وبصفة عامة لكي يكمل الحاج كافة تلك الشعائر على الوجه الأمثل، عليه أن يسير لمسافات طويلة.

بعد ذلك يقوم الرجال بحلاقة الرأس أو تقصير الشعر، وعلى المرأة أن تقوم بقص خصلة شعر من رأسها، وبعد ذلك تبدأ عمليات الأضاحي والذبح ليتم توزيعها على الفقراء، وكذلك الحال مع جميع المسلمين في جميع الدول الإسلامية؛ حيث يقومون فى نفس اليوم بذبح الأضاحي ليتم توزيعها على

الفقراء، واليوم هناك العديد من المؤسسات التى تتولى أمر ذبح وتوزيع لحوم الأضاحي على الفقراء.

وفي نهاية الحج يقوم المسلم بطواف الوداع حول الكعبة سبع مرات وهذا يسمى (الطواف) ثم يتوضأ كما يتوضأ للصلاة العادية ثم يصلي ويغادر مكة، وأثناء تأدية كل تلك الشعائر يكون المسلمون منهمكين بصورة تامة؛ قلباً وقالباً، فى تأدية الشعائر بنية خالصة لله فلا جدال ولا لغط. (*)

الكعبة المشرفة؛ هى بناء على شكل مكعب مغطى بقماش أسود حوافة مطرزة بخيوط ذهبية، وكانت مصر في عصور سابقة تقوم بعملية تجهيز كسوة الكعبة ونقلها في محمل كبير إلى المملكة العربية السعودية كهدية من مصر.

وأكثر ما أعجبني في تلك الشعائر هو أن الناس جميعاً سواسية؛ إذ لا يمكن التمييز بين الغنى والفقير، والمسلم يجب أن يكون قلبه عامرًا بالإيمان ولا يفكر إلا فى الخير فقط، وهكذا يشعر المسلم بأنه جزء من أمة كبيرة، ويجب أن أعترف أن هذا الإحساس بالسكينة والطمأنينة ـ وأنا أتواجد وسط هذه الجموع الغفيرة ـ قد لمس شغاف قلبي، فغاية الحج هى أن يرجع المرء شخصاً آخر نقياً من الذنوب والمعاصي.

ولأن أبنائي مسلمون فقد حرصت دوماً أن أجعلهم بعيدين كل البعد عن التعصب الديني ولا أذكر أن زوجى قد أجبر أطفالى يوماً على الصلاة، لذلك بدأ ابني فى تأدية الصلاة فى مرحله متأخرة من حياته.

في شتاء 1984 – 1985 اشترينا شقة في أفضل ضواحي مدينة

(*) ملحوظة: لقد تم وصف شعائر الحج فى تلك القصة من وجهة نظر جوهانا ومن واقع ذاكرتها الشخصية، والأمر يحتمل وجود بعض التفاصيل غير الدقيقة، وعلى من يرغب فى الاطلاع على المناسك الصحيحة للحج الاستعانة بشبكة الانترنت والبحث عن مادة " شعائر الحج ".

الأسكندرية، ولكن بسبب التجديدات الشاملة التى أجريناها بها، لم نتمكن من الانتقال إليها إلا في عام 1987، وجدير بالذكر أن عدد سكان الأسكندرية قد زاد منذ وصولنا إليها عام 1966 من 3 ملايين نسمة إلى 8 ملايين نسمة، كما اختفت فيلات كثيرة ومبانٍ جميلة، لتصبح الأسكندرية مزدحمة جدا بالسكان، وازدادت ارتفاعات العمارات السكنية، وقد صاحب ذلك زيادة فى أسعار العقارات والأراضي والشقق السكنية .

في الوقت الحالي لم يعد أولادي يحتاجون إليَّ كما كانوا يحتاجون إليَّ فى السابق، فانضممت إلى " نادي النساء الدولي " في الأسكندرية، حيث نلتقي فيه أسبوعياً، والمثير للدهشة أن تجد كثيراً من النساء المصريات مشاركات في هذه الأندية، وكم تمنيت أن تتوطد علاقاتي بكثير من المصريات من خارج نطاق أسرتي، كي أتعلم منهن الكثير، وبالفعل شهدت السنوات الأخيرة من حياتي زيادة وتطورت اتصالاتي ومعرفتي بالمصريات التي أفادتني كثيراً، ولقد كنت ناشطة جداً فيما يتعلق بهذا الأمر حتى أننى في عام 1991 بدأت أشكل جمعية من النساء الألمانيات والتي ما زالت قائمة حتى اليوم، فهي تشكل ملاذا لكل السيدات اللاتي ينتمين للثقافة الألمانية، حيث نتبادل فيما بيننا المعلومات، كما يمكننا أن نحصل على المزيد من الإمكانيات، ونزداد علما بالعادات والتقاليد الخاصة ببلدنا المضيف، وفي المعرض السنوي للكريسماس والذي يقام في معهد جوته، وهو معروف على نطاق واسع في أنحاء المدينة، نقوم بدعم المنظمات الاجتماعية المصرية عن طريق تقديم التبرعات من الغذاء والملابس .

في صيف عام 1986 انتقلنا جميعا إلى مدينة الأسكندرية مرة أخرى كي نستأنف حياتنا هناك، فقد توافر لدينا وقتها المال الكافي لتشطيب فيلتنا

التى تقع خارج نطاق المدينة، ولما كان مشروع البناء يتطلب كل أوقات فراغنا، فكان يجب علينا أن نشرف عليه بكل دقة واهتمام كي نتأكد من استكمال وإنهاء كل شيء بالطريقة التي نريدها، وعلى الرغم من أن تلك العملية كانت مرهقة للأعصاب إلا أنها كانت تستحق العناء .

في فترة السبعينيات من القرن الماضي كانت تخلو تلك المنطقة من أي مبنى ولكنها حاليا، تحولت إلى منطقة خضراء تضم الكثير من الفيلات الصغيرة والكبيرة المزودة بحمامات سباحة خاصة .

شغل كمال منصب أستاذ مدرس في الجامعة بالإضافة إلى عمله كاستشاري للعديد من الشركات المختلفة، في التسعينيات من القرن الماضي، كما قام بالتدريس كأستاذ زائر في جامعة بيروت، وبالرغم من أن تلك الفترة كانت فترة اضطرابات في لبنان؛ حيث اندلع القتال في مناطق مختلفة، إلا أننى سافرت إليه وأقمت معه لمدة ستة أشهر، كنا نقوم برحلات بين لبنان ودمشق، وكنا قد سافرنا في كل أنحاء مصر لنستمتع بجمال مناظرها الطبيعية وثراء المزارات والأماكن السياحية .

ولأن كمال يثق فيَّ دائما، فقد سمح لي بالسفر بمفردى، وبصحبة نساء أخريات؛ ولهذا فإنني مدينة له بالفضل، وخاصة أن هذا المجتمع المحافظ لا يمكن أن يسمح بمثل هذه الأمور.

في فبراير من هذا العام أصيب كمال بجلطة، ولكنه تعافى منها وتماثل للشفاء، وقد عاد إلى العمل مرة أخرى، لأن العمل بالنسبة له هو كل حياته .

وعلى الرغم من أن كثيراً من النساء في مصر حاليا يرتدين الحجاب أكثر من ذي قبل، فإن كثيراً من المحظورات والتقاليد الراسخة بدأت تتداعى وتنهار؛ فقد أصبح للمرأة الحق فى الحصول على الطلاق بسهولة، كما يمكنها

أن تعيش مع أطفالها أثناء غياب زوجها في سفر أو غير ذلك، وكذلك تستطيع الفتيات أن تتغرب بعيداً عن الأسرة كي تحرز تقدما على المستوى العلمي أو العملي، كما أصبحت الغالبية العظمى من البنات والنساء - التى تنتمي للطبقات الاجتماعية الدنيا - يخرجن إلى سوق العمل، حيث يذهب معظمهن إلى الدراسه وبعد انتهاء تعليمهن يمكن أن يعملن ويكسبن قوت يومهن، لذلك يحرص الآباء فى مصر على تعليم أبنائهم، ولا يدخرون وسعا فى إنفاق آخر مليم لديهم كي يوفروا تعليم أفضل لأبنائهم، وهناك زيادة فى التعليم المختلط في المدارس. ولأن الناس هنا يعيشون في تجاور شديد واندماج مع بعضهم البعض فى شكل خاص من أشكال الحياة الاجتماعية فإن هناك المزيد من القيود الصارمة السائدة، مما يفسر ضرورة ارتداء الحجاب وإظهار الاحتشام فى الملبس حيث تستطيع المرأة – بتلك الطريق – أن تحافظ على كيانها الخاص وأن تكسب احترام الجميع دون أى تعقيدات أو مجهود يبذل.

لقد اختلفت النظرة - إلى الحجاب - عن السابق؛ فلا نجد بين أفراد أسرتنا واحدة من السيدات تغطى رأسها، بينما بعض من أقاربنا يتقبلونه بصورة عابرة : البعض لا يجد ارتداءه مزعجا، ففي أوائل فترة الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي، نادرا ما كنا نجد امرأة ترتدي الحجاب في الشارع، والسؤال الذى يطرح نفسه : لماذا حدث هذا التغيير خلال السنوات الأخيرة ؟ فالأسباب الحقيقية وراء حدوث ذلك غير معروفة، والأمر مازال غامضا !!، وقد ظهرت تأويلات كثيرة تفسر ظاهرة انتشار الحجاب؛ فيما مضى كانت البنات العاديات غير المتعلمات يعمدن إلى البقاء فى المنزل ينتظرن الزواج ونادراً ما يخرجن من المنزل، أما اليوم وبعد ان اتجهن إلى العمل فأصبح ارتداء الحجاب بالنسبة لهن بمنزلة الحل البسيط غير المكلف

وخصوصاً فى حالة عدم وجود نقود كافية للإنفاق على المظهر والذهاب إلى مصفف الشعر (الكوافير).

بجانب هذا هناك نظرية أخرى تقول إنه خلال السنوات الماضية سافر كثير من الرجال المصريين إلى العمل بالمملكة العربية السعودية، حيث كل النساء هناك محجبات، وربما جلب هؤلاء المصريون معهم تلك العادات إلى مصر، وطلبوا من زوجاتهم ارتداء الحجاب، وبالإضافة إلى ذلك هناك ظاهرة النقاب، إذ نجد حاليا زيادة فى عدد النساء المنتقبات اللاتى يرتدين زي النقاب الأسود ولا يظهر منهن سوى العينين كما يخفين أيديهن داخل قفازات سوداء ولا يصافحن الرجال الغرباء، ولم نألف مشاهدة مثل ذلك الرداء الصارم فيما مضى، لأن هذا التوجه الإسلامي المتشدد بدأ في الانتشار والزيادة المضطردة في مدينة الأسكندرية منذ فترة التسعينيات من القرن الماضي .

أما بالنسبة لأمور الزواج فإنه على الرغم من استمرار وجود حالات الزواج التقليدي بين الشباب إلا أنه هناك كثيراً من الشباب الذى يبحث عن شريك حياته بنفسه .

أما بالنسبة لمظاهر الحياة المدنية فكان من النادر– حتى مطلع السبعينيات من القرن الماضي - أن نجد أي تنوع فى ألوان الطلاء التى تعلوا المبانى؛ فقد كانت الأبنية ذات طلاء باهت، ولكن الأمر اختلف مع حكم الرئيس السادات، حيث تم فتح باب الاستيراد وبدأت تتدفق الواردات من أوروبا والولايات المتحدة إلى مصر، وبدأت تتغير الأمور كثيرا داخل مصر، وعموما فقد ارتفع مستوى المعيشة، ومع ذلك فقد زاد عدد الفقراء في مصر كثيراً.

وعلى أية حال فإن كافة المصريين لديهم روح الابتكار، فعندما لا

يجدون عملا يتكسبون منه فإنهم يفكرون في شيء ما يفعلونه أو يجدون أي شيء جديد ليبيعوه؛ إذ تجد صغار البائعين يعرضون سلعهم في الشوارع وعلى الأرصفة ـ بدءا من بيع الملابس الداخلية والأمشاط وحتى النظارات ـ، فكل شيء موجود ومتوفر، وعلى الرغم من أن الشرطة تطاردهم وتلاحقهم، تجدهم يختفون فترة ثم يعودون من جديد، كما تجد أحيانا بعض الناس في الشوارع الرئيسية داخل المدينة يعرضون على الزبائن استخدام أجهزة التليفونات المحمولة لعمل اتصالات مقابل مبالغ نقدية، وكذلك في بعض أماكن زحام المرور في القاهرة تجد حولك صغارا ويافعين يمسحون زجاج السيارات مقابل مبالغ ضئيلة .. ولا يوجد في مصر شبكة تأمين أو أمان اجتماعي مثل تلك الموجودة في ألمانيا، الأمر الذى يدفع الناس للتحايل كي يكسبوا عيشهم بأنفسهم، وبالرغم من كل شيء، إلا أن تلك الوسائل تبدو ناجحة إلى حد ما، صحيح أن هناك فقراء، ولكن لا أحد يموت من الجوع .

أنهت ابنتي ياسمين دراستها الثانوية والتحقت بالجامعة لدراسة الأدب الإنجليزي، وقد قامت بالتدريس في الجامعة والأكاديمية، كما نالت درجة الماجستير من الجامعة الأمريكية في القاهرة، ثم سافرت للولايات المتحدة الامريكية لتحضير الدكتوراه، وهى متزوجة من رجل أمريكي منذ 2005، وقد نشأ زوجها كاثوليكيا، ولكن وفقا للشريعة الإسلامية يجب عليه أن يعتنق الإسلام قبل زواجه منها وإلا يعتبر هذا الزواج باطلا .

أما كريم فبعد دراسته الثانوية التحق بالأكاديمية البحرية، ودرس هندسة الميكانيكا، ونال شهادته، وهو يعمل حاليا في شركة دولية للأسمدة بالقاهرة، وتزوج من فتاة قاهرية منذ 2006، ولكننا حتى الآن ليس لدينا أحفاد.

يعيش أبنائي كالمسلمين، ولكنهم ينتهجون الفكر الغربي فى تعاملاتهم

وأسلوبهم فى الحياة، وقد سافر كريم مؤخراً إلى وطنه الثاني ألمانيا فى مهمة رسمية، وقد عاد بكل فخر واعتزاز، وكانت تملؤه الحماسة من روعة ما رأى هناك من تقدم .

وفي النهاية، أحب أن أشير إلى وجود كثير من الكنائس الكبيرة للأقباط في مدينة الأسكندرية، بل وأكثر من المساجد الضخمة؛ وفي الواقع أقيمت مؤخرا المزيد من الكنائس، وهذه الكنائس تفتح أبوابها بصورة يومية، ويمكن زيارتها بسهولة، وجدير بالذكر أن الكنيسة القبطية في مصر واحدة من أقدم الكنائس المسيحية في العالم، إذ يرجع تاريخ بنائها إلى عام 50 ميلادية، وبالرغم من أن مصر تحولت إلى دولة إسلامية منذ القرن السابع الميلادي، إلا أن هناك وحدة وطنية تربط بين المسلمين والأقباط، والجميع يعيشون فى سلام ووئام على طول الزمان، ويقدر عدد أقباط مصر اليوم بنحو 10٪ من إجمالى التعداد الكلي للسكان، ومن خلال حياتي في مصر أستطيع أن أقول بأن الأمور هادئة وأن المودة سائدة بين أتباع الديانتين، على الرغم من ندرة الزواج المختلط بين أتباع الديانتين .

في عام 2004، أعيد افتتاح أوبرا الأسكندرية بعد تجديدات طويلة، وهكذا استطعنا أن نحضر حفلات الأوبرا بانتظام، حيث تحضر فرقة أوركسترا القاهرة، ويقومون بعزف موسيقى كلاسيكية وأحيانا يعزفون موسيقى عربية، وأحيانا أخرى تأتي بعض الفرق الموسيقية الأجنبيه لتقديم عروض بلدانهم مثل فرق موسيقية من كوريا ومن الصين وفرق موسيقية من أوكرانيا أو من أسبانيا .

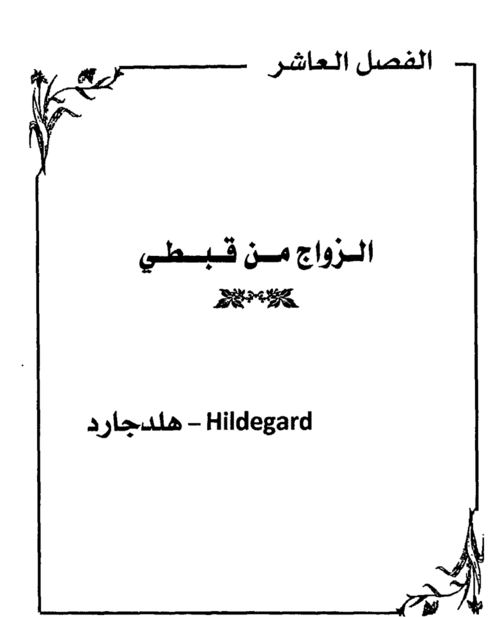
منذ وفاة أبي وأمي، لا أسافر إلى ألمانيا كثيراً، ولكنى أحيانا أسافر كل بضع سنوات كي أزور أختي في سويسرا أو أصدقاء لي في ألمانيا، وبصفة

عامه، وبعد مرور سنوات طويلة من الابتعاد عن وطني الأصلي، لم تعد ألمانيا تشكل أهمية كبرى بالنسبة لي، فأنا ـ على المستوى الشخصي ـ لا يعجبني المواقف السلوكية للناس هناك، لأنهم سريعي التذمر والسخط من الناس والأشياء، وعلى أية حال، تلك هى وجهة نظري الخاصة والتى تأكدت لي أثناء زيارتي لألمانيا مؤخراً، ولهذا فإنني أشعر دائما بالسعادة الغامرة حين أعود أدراجى إلى الأسكندرية .

الشعب المصري يتمتع بطيبة بالغة، وحفاوة ظاهرة لا يمكن إنكارها أو إخفاؤها، ولكنْ هناك بعض الأمور الأخرى التى لا أحبها هنا في مصر، ولكنني من خلال السنوات التى قضيتها على تلك الأرض الطيبة، تعلمت كيف أتقبل مثل تلك الأمور وأتعايش معها، وأنا حالياً أشعر بمنتهى الراحة والرضا تجاه حياتي، ولكننى لا أنكر أننى أفتقد ابنتى التى تعيش بالخارج، ولكننا نتحدث كثيراً عبر الهاتف وحالياً نتواصل عن طريق الانترنت، وبالإضافة إلى ذلك فأنا أعيش حياتي وأنعم بكل ما فيها ولا يعوزني شيء، وقد تحسنت لغتي العربية كثيراً حتى أنني أشاهد التلفزيون المصري وكذلك برامج التلفزيون الألماني .

إن مصر بالنسبة لي هي قدري المحتوم، ولم أشعر يوما بالندم على تلك الخطوة التى اتخذتها بالزواج من مصري، فرغم كل شئ، ورغم كل العقبات التى تخطيتها، ورغم كل العوائق التى كانت تقطع علي الطريق، إلا أننى أشعر بمنتهى السرور وأنا أعيش فى مصر الحبيبة القريبة من قلبي والتى قضيت فيها أسعد أيام حياتى .

*****



الفصل العاشر

الـزواج مـن قبـطي

Hildegard – هلدجارد

عاشت هيلدجارد Hildegard مع زوجها في ألمانيا، ولكنها كانت تزور مصر بانتظام، مما جعلها على دراية ومعرفة كاملة بالعادات والتقاليد والأعراف المصرية، زوجها رجل مصري قبطي؛ تطلق كلمة " الأقباط " على المسيحيين فى مصر، وكلمة " قبط " كلمة أصلها يوناني وكانت تستخدم قبل الفتح الاسلامي للإشارة إلى كل المصريين، ولكن بعد دخول الإسلام إلى مصر استمرت الكلمة، ولكنها اقتصرت فقط على الإشارة إلى المسيحيين من أفراد الشعب المصري، أما اليوم فتجد الأقباط منتشرين فى كافة أنحاء العالم.

اعتنقت هيلدجارد الديانة القبطية، لتصبح قبطيه مثل زوجها . بدت قصة هيلدجارد – بالنسبة لى – قصة غير مألوفة ومليئة بالأحداث الفريدة التى تحمل جانباً مختلفاً للحياة فى مصر، الأمر الذى جعلها قصة مثيرة للاهتمام، مما جعلنى أتساءل عن السبب الذى جعل قصتها مختلفة عن قصص النساء الأخريات؛ وهل الأقباط يختلفون عن المسلمين المصريين ؟.... أم أن هذا الاختلاف لا يشكل أهمية كبيرة ؟

كنت قد تعرفت على هيلدجارد عن طريق نساء ألمانيات، وذلك خلال إحدى زيارتها إلى مدينة الإسكندرية، أما بالنسبة لقصة حبها وزواجها فقد بدأت في ألمانيا؛ وها هى كما روتها لي :

قابلت زوجى بطرس عام 1954 في مدينة دوسيلدورف Dusseldorf وكنت أبلغ وقتها 20 عاماً، أما زوجى فقد كان يبلغ 24 عاماً، وحدث اللقاء بيننا حينما كان يزور صديقتي التي قابلها في السنة السابقة قبل سفره إلى سالزبورغ Salzburg في النمسا Austria، وما حدث كان كالآتى :

كنت قد اشتركت أنا وصديقتى كاتي في فريق الكشافة (الجوالة)، وقد أتاحت لنا أنشطة الكشافة الفرصة للقاء عديد من الفرق الكشفية من بلدان

أخرى، وكانت تلك اللقاءات مثيرة ومشوقة بالنسبة لنا؛ إذ كانت تعقد ـ بصفة سنوية ـ اجتماعات وسباقات للكشافة يشارك فيها شباب الكشافة من كل أنحاء العالم، وكان بطرس أحد الشباب المشاركين في واحدة من فرق الكشافة المصرية (فرق الكشافة مازالت موجودة فى مصر حتى الآن)، وكانت جمعيات الكشافة تتيح الفرصة لأعضائها حتى يسافروا إلى الخارج ويلتقوا مع شباب من دول مختلفة، اشتركنا نحن الثلاثة (أنا وبطرس وكاتي) في الأنشطة المختلفة مع شباب آخرين .

كان بطرس وقتها يعيش في مصر، وبعد أن أتم دراسته فى علوم الاقتصاد بالقاهرة بدأ العمل في وزارة التعليم، وكان يسعى لدراسة الأعمال الفندقية في ألمانيا، إذ رأى فرصا متاحة للنهوض بالسياحة في بلاده وأراد أن يعمل فى هذا المجال، وبعد زيارته لألمانيا رجع إلى بلاده واستمر في تواصله معنا، وبعد مرور عام عاد أدراجه إلى ألمانيا ليستقر معنا .

كنت أعيش ـ في ذلك الوقت ـ مع أمي، بعد أن تُوفي أبي في الحرب العالمية الثانية، عشنا في شقتنا الصغيرة المكونة من ثلاث غرف، ورغم ذلك، كانت مفتوحة دوما للضيوف سواء كانوا شبابا أو فتيات؛ كنا نرحب بالجميع، وكل من كان يطرق بابنا كان يجد عندنا المأوى والمأكل، كنا شبابا نعتمد على أنفسنا، هذا ما تعلمناه من الكشافة، وقد زارنا كثير من الشباب من مختلف أنحاء العالم، وكان بطرس من بين الشباب الذين زارونا، وأقام معنا عدة أسابيع، وقضينا معا وقتا طيبا، وحدثت بيننا ألفة، وبعد ذلك عاد بطرس إلى وطنه مصر.

وفي العام التالي عام 1956 سافر بطرس وصديقه منصور بالسفينة المتجهة إلى ألمانيا لحضور اجتماع آخر للكشافة .

أراد بطرس أن يقيم في ألمانيا فترة أطول ويبدأ دراسته في الفندقة كما كان يخطط، ولكنه كان يحتاج إلى مصاريف للدراسة، فعمل في مصنع للأدوات الصحية، ثم أصيب بوعكة صحية : إذ كان دائما يشعر بالإرهاق والأعياء وكان بوله مصحوبا بالدم، في البداية شخص الأطباء حالته على أنه يعاني من بلهارسيا، وهذا المرض شائع في مصر، إذ يصيب الذين يسبحون في مياه النيل والترع، وبالطبع لا يوجد في ألمانيا مرضى بالبلهارسيا، ولم يكن هناك اهتمام لدراسة أمراض العالم الثالث بشكل كاف، ولكن مستشفى الجامعة - وبالتعاون مع شركة باير للأدوية - بدأت فى الاهتمام بحالة بطرس، وقد صرفوا على علاجه حتى تعافى تماما من المرض، ورجع إلى عمله مجددا .

بدأت وقتها أزمة السويس وكان ذلك عام 1956، وانتابني الخوف مما قد يحدث، وخشيت أن يواجه بطرس المتاعب في أوروبا إذا ما اندلعت الحرب، وأشرت عليه بأن يعود فورا إلى مصر، وبالفعل ركب آخر سفينة أبحرت إلى مصر قبيل نشوب الحرب، وعلى الرغم من القلق الذى كان يغلف مشاعرنا؛ إلا أن مظاهر الحب قد بدت على كلانا؛ تلك المشاعر كانت صريحة ومعبرة وتنم عن الإعجاب والود المتبادل، وبالطبع كان أمر الفراق صعبًا علينا، ولم ندر وقتها ما الذى يمكننا أن نفعله، ولقد أدركت حقيقة مشاعري تجاهه بعد أن سافر، ولم تهدأ نفسي إلا بعد أن تسلمت برقية تفيد أنه وصل سالما إلى أرض مصر.

قبل مجيء بطرس إلى ألمانيا، كان فريق من الكشافة (بنات) قد عزم على زيارة مصر، وبالفعل كنا قد ذهبنا إلى شركة سفريات وسياحة كي تضع لنا برنامج سياحيا داخل مصر، ولكن للأسف اندلعت حرب السويس، وعلى الرغم من أن الحرب استمرت بضعة أيام، إلا أن معظم البنات عدلن عن رأيهن، وقررن البقاء فى ألمانيا، ولكني عزمت - أنا وصديقة لي - على

المضي قدماء؛ والسفر إلى مصر، ولكن قيل لنا أن الرحلة خطيرة علينا؛ لذا فضلنا البقاء في بلدنا، إلا أن أحد زملائنا ـ بعد ذلك ـ عرض علينا أن يصحبنا في الرحلة وهو شخص شهم وجدير بالاحترام ويعتمد عليه، لذلك، بدأنا نحن الثلاثة رحلتنا إلى مصر ـ في مارس 1957 ـ بعد شهور من انتهاء حرب السويس .

انتقل بطرس في ذلك الحين إلى الكويت ليشغل منصب مدير أعمال في شركة مملوكة لإخوته؛ الأخ الأول يعمل مهندساً معماريًّا، والأخ الثاني يعمل مهندسًا مدنيًّا ويشرفان على تنفيذ مشروع كبير بالكويت، وقد سعدا بوجود بطرس معهما كي يساعدهما في العمل، وكان من الطبيعي أن أخبر بطرس عن رحلتنا إلى مصر، وكذلك عن الأماكن التي سنتوقف فيها، وكانت عائلته تنتظرنا في القاهرة، ولكن الطريق إلى القاهرة كان لا يزال طويلا !

بدأنا رحلتنا من مدينة دوسيلدورف Dusseldorf وسافرنا أولاً إلى بلغراد Belgrade بالقطار، ثم إلى إسطنبول Istanbul وأنقرة Ankara، وأخيراً انتقلنا إلى حلب Aleppo في شمالي سوريا بقطار بغداد السريع، وحين وصلنا إلى تلك المحطة أخذنا حافلة متهالكة إلى مدينة دمشق Damascus، ثم أخذنا تاكسي إلى بيروت Beirut، وهناك انتهت رحلتنا البرية، ولم نستطيع التوجه إلى مصر عن طريق إسرائيل، ولكي نصل إلى مصر ركبنا الطائرة المتجهة إلى القاهرة، وهكذا استغرقت الرحلة أسبوعين كاملين، لذلك عند عودتنا كان لا بد لنا أن نسافر من ميناء الإسكندرية إلى برينديزي Brandi's، ومن هناك اتجهنا عبر نابولي Naples إلى روما Rome وميلانو Milan، ومن ميلانو أخذنا القطار المتجه إلى ألمانيا .

كانت الرحلة بالنسبة لنا ممتعة، كما كانت مغامرة رائعة، وفي ذلك

الوقت كان عدد السائحين قليلاً في تلك البلاد، وتم استقبالنا بترحاب شديد سواء في القطار أو في المدن أثناء تواجدنا للمبيت، إذ كنا نقيم أحيانا في بيوت الشباب وأحيانا في فنادق رخيصة في حال عدم توفر بيت للشباب، تماما كما حدث معنا في مدينة حلب بسوريا، وغالبا كانت توجه لنا الدعوة بالإقامة في بيت أحد الأشخاص، ومن خلال فرق الكشافة كانت معنا بعض العناوين الخاصة .

وفي بيروت أقمنا مع مرشدة فريق كشافة البنات، وخلال حفلات الوداع كنا نتلقى هدايا بسيطة؛ مثل قطع الحُلي، ولقد تأثرنا كثيرا بالحفاوة والأصالة والكرم الذى وجدناه لدى كل الأشخاص الذين قابلناهم .

راودتنا فكرة طيبة، وهي أن نقوم بعمل بحث بسيط حول عادات وتقاليد شعوب تلك البلدان التي سافرنا إليها، وتطلب الأمر أن ندعم هذا البحث ببعض الصور، وكان ذلك سببا فى إلقاء القبض عليَّ !!؛ لأنني التقطت بعض الصور الفوتوغرافية أثناء الاحتفال باليوم الوطني الذى يتم فيه تقديم استعراض عسكري كبير، لقد أردت فقط التقاط بعض الصور لفتيات الكشافة في حلب، ولكن بسبب وجود المؤسسات العسكرية، تم إلقاء القبض على كل من كان يحمل آلة تصوير، وكان من حسن حظي، أننى أجنبية أحمل الجنسية الألمانية، لذلك تم إطلاق سراحي بعد مرور ساعات قليلة، كما سمحوا لي بالاحتفاظ بالفيلم .

ومنذ خروجنا من ألمانيا لم أسمع شيئاً عن بطرس، وكنا قد اتفقنا على أن يراسلنى أثناء وجودى في مدينة حلب، ولكننى لم أتسلم منه أي رسالة؛ فقد عرفت بعد ذلك أن بطرس لم تتح له فرصة الكتابة لى لعدم استقراره في مكان ثابت؛ فقد كُسرت ذراع بطرس أثناء تواجده في أحد مواقع البناء، ولكنه كان

علـى درايـة بخـط سـير رحلتنـا وطلـب مـن عائلتـه الاسـتعداد لاسـتقبالنا في القاهرة، وكانت الرحلة من بيروت إلى القاهرة ممتعة للغاية لأنها كانت المرة الأولى التى نسافر فيها بالطائرة، وفي ذلك الوقت كان السفر بالطائرة شيئا خاصا، ويتمتع فيه المسافرون بمعاملة ملكية فخمة، علاوة على أنها رحلات غالية جداً، كما أن عدد الرحلات الجوية كان محدودا فى ذلك الوقت.

كنت أحمل معي آلة التصوير جاهزة لالتقاط صور قناة السويس من الجو، ولكن المضيفة أخبرتني بأن التصوير محظور تماما، وبعد لحظات عادت المضيفة ودعتني إلى كابينة الطيار، لقد أرادت أن ترضيني بسبب العبوس الذى كان يعلو قسمات وجهي، فسمحوا لي بالجلوس مع كابتن الطائرة لفترة قصيرة، كانت الطائرة تخضع لإشراف الطيّار، ولكن رغم ذلك، كان الأمر بالنسبة لي مثيرا وشيقا .

هبطت الطائرة في القاهرة بسلام، وكان مبنى المطار يبدو صغيرا، بمقارنته بالمطارات الحالية؛ إذ كان يذكرني بأحد الجراجات الصغيرة، وفي نهاية الممر على اليمين، وقف ينتظرنى شاب طويل القامة أنيق في ملابسه، لقد كان أحد إخوة بطرس ويدعى فوزي، وفي مبنى المطار وقفت عائلة بطرس تنتظرنا وتترقب وصولنا بشغف شديد، أما أم بطرس فكانت هي الوحيدة التي بقيت في المنزل، وقد قام بطرس بتجهيز كل شئ لنا من خلال اتصالاته، أما فوزي شقيق بطرس فقد استقبلني واهتم بي شخصيا، وقدم لي باقة ورد كبيرة واصطحبنا إلى المنزل، برغم أن بطرس في ذلك الوقت كان في الكويت، إلا أنه كان شديد الحرص على أن ينظم كل شيء متعلق برحلتنا وإقامتنا في القاهرة .

وكان منصور - وهو صديق بطرس - يصطحبنا بصورة يومية مع أخيه

فوزي في نزهة داخل القاهرة، ولم أر في القاهرة أكثر مما رأيته في تلك الفترة، لقد خطط بطرس كل شيء بالتفصيل وكتب لأخيه وصديقه ما يجب أن يفعلاه معنا، لزيارة الأماكن السياحية، وكنا نخرج من الفجر حتى المغرب، وكنا فى شهر رمضان، ولأن منصور مسلم فهو يصوم طوال النهار وحتى غروب الشمس، وعند إفطاره يتناول أي شيء من طعام أو شراب، منصور- مثل كل المصريين – يشعر بالفخر نحو بلده؛ إذ بدت عليه السعادة وهو يستعرض معنا كل المناظر والأماكن السياحية، وكان يتحدث اللغة الإنجليزية بطلاقة، وقد استمرت صداقتنا معه طوال حياتنا حتى توفى قبل بضعة سنوات .

تلك كانت زيارتي الأولى إلى مصر، وأقمت أنا وزميلي مع عائلة بطرس، أما صديقتي فقد أقامت مع أسرة منصور، وكان من الطبيعي أن يقوم كل الأقارب والأصدقاء بالتردد علينا لزيارتنا لرؤيتى والاستفسار عني، ولكنني لم أفهم ذلك الاهتمام لأنني وبطرس- حتى ذلك الوقت - لم نكن قد اتفقنا على شيء.

بطرس ينحدر من أسرة كبيرة، له خمسة إخوة وثلاث بنات، وكان ترتيب بطرس الثالث بين إخوته .

ذات يوم استدعاني الأخ الأكبر لبطرس إلى مكتبه، واندهشت في قرارة نفسي وتساءلت عن السبب، ولم تدم حيرتى طويلا، إذ سألني صراحة إن كنت أحب بطرس، اندهشت من السؤال، فلم أتكلم أنا وبطرس في هذا الموضوع إطلاقا، رغم ذلك وبدون تفكير، أجبته :

- "نعم !".

فاقترح عليَّ أن أعد شيئا خاصا لبطرس، فهو مسافر في اليوم التالي

للكويت ويريد أن يأخذ له شيئا، لقد كانت فكرة رائعة، وقد قررت أن أعد له كعكة، ولكن يبدو أن المواد التى استخدمتها كانت مختلفة عن تلك التى اعتدت استخدامها فى بلدى، كما ان الفرن كان لا يعمل بشكل جيد ولم يكن مزودا بعداد لضبط الحرارة، لذلك كانت النتيجة كعكة جافة جداً وصلبة مثل الحجر، وعرفت أنه بالتأكيد لن يأكلها، وقد علمت من بطرس بعد ذلك أنه ألقى بها على الفور!.

كان الشقيق الأكبر لبطرس يستعد للزواج في لبنان، وأهل العروس يعيشون في القاهرة، وبطرس وإخوته يعيشون في الكويت، وكان من الصعب عليهم السفر من الكويت إلى مصر، لذلك قرروا إقامة حفل الزفاف في لبنان؛ كي يستطيع أي شخص أن يسافر بسهولة إلى هناك، وقام أحد شركاء إخوة بطرس بإعداد كل شيء على وجه السرعة، ومع أنني أقمت في مصر لعدة أسابيع، إلا أننى لم أر بطرس إطلاقا، وآخر مرة التقينا فيها كانت قبل ذلك بعده أشهر، فارسل بطرس لى رسالة يفيدني فيها بأنه مسافر إلى لبنان لكي أقابله هناك، حتى أن عائلته اشترت لي تذكرة الطائرة إلى لبنان، فلم يكن معي ما يكفي للقيام بهذه الرحلة، فى البداية منعني كبريائي من قبول تلك الهدية السخية، ولكن منصور أقنعنى، فقبلت العرض لأنني أريد رؤية بطرس.

سافرنا إلى لبنان، وكان بطرس ينتظرنا في المطار، ولقد مرت سنة كاملة منذ آخر لقاء جمع بيننا، وهكذا تحدثنا طويلا بلا انقطاع، ولأول مرة رحنا نتحدث عن المستقبل، وشعرنا بأن هناك رباطًا ما يجمعنا وبدأنا نرسم خططنا المستقبلية، وفي ذلك الوقت توفر مع بطرس مبلغ ممتاز من عمله في الكويت، ولكنه كان لا يزال راغبا فى السفر إلى ألمانيا، وهكذا بدا لنا أن الفراق أمر مقدر وحتمي؛ إذ كان لابد أن أعود للقاهرة قبل زفاف أخيه، لأن السفينة المتجهة من الأسكندرية إلى إيطاليا سوف تغادر قريبا، لهذا رجعت إلى القاهرة مرة أخرى،

وبعد عدة أيام كنا أنا وصديقتي إيرين Irene وزميلنا كورت Kurt قد غادرنا مصر بحرا إلى بريནديزي، ومن هناك سافرنا بالقطار عبر نابولي وميلانو إلى مدينة دوسيلدورف، استغرقنا في تلك الرحلة ستة أسابيع كاملة وعدنا أدراجنا إلى بلادنا، ونحن نحمل بداخلنا انطباعات جديدة .

وبعد مرور أكثر من عام، وتحديدا في عام 1959، عاد بطرس إلى ألمانيا، وفي هذه المرة عزم أخيراً على أن يبدأ دراسته، ففي ذلك الوقت لم يكن لدى مصر برنامج دراسي معادل في مجالات الفندقة أو السياحة؛ إذ كانت لا تزال في مهدها .

ولكي يلتحق بطرس بهذه الدراسة، كان يجب عليه أولا أن يتعلم اللغة الألمانية، فالتحق بمعهد جوته بمدينة أرولسن Arolsen لمدة ثلاثة أشهر، والتحق بمدرسة داخلية، تعرف بها على أحد أصدقائه المصريين الذين يعيشون في ألمانيا في نفس المدينة التي يدرس فيها بطرس، وبالطبع كان يوجد العديد من المصريين الذين يعيشون هناك أيضاً، ولما كانوا يجتمعون فى أوقات فراغهم كانوا – للأسف – يتحدثون اللغة العربية الأمر الذي لم يساعدهم – بصورة فعلية – في إحراز تقدم في تعلم اللغة الألمانية، والجدير بالذكر أن صديقه المصري هذا قد تزوج من فتاة ألمانية فيما بعد، واستمرت صداقتنا إلى يومنا هذا برغم وفاة زوجها منذ فترة .

بدأ بطرس يبحث عن عمل، كي يسد متطلبات المعيشة، ولكن بسبب زيادة معدل البطالة كان البحث عن عمل أمرا صعبا للغاية، لدرجة أننى قد قمت بنفسى بتقديم أكثر من 100 طلب عمل له، ولكن للأسف لم نتلق أي رد، وفي النهاية وجد عملاً مؤقتاً مع رجل لبناني، ولكن العمل لم يكن منتظماً أو مستديماً .

وفي سبتمبر عام 1959 تمت خطبتنا، ولقد عارضت أسرتي هذا الارتباط في البداية، والسبب فى ذلك أنهم لم يكونوا على دراية بأى شيئ عن طبيعة الحياة فى مصر، كما أن الجرائد كانت تحكي قصصا مروعة عن مصير فتيات تزوجن في البلاد العربية، وكان دائما السيناريو يبدأ باحتفالات الزفاف، ليتم بعد ذلك وضع الفتايات في قفص الحريم، ومن ثم لا يتمتعن بأي حقوق، ليعشن بعد ذلك حياة بائسة للغاية، هذا بالإضافة إلى أن أبي قتل في الحرب، ولا يوجد من يحميني، لذلك كان جميع أقاربي (أعمامي وعماتي) خائفين على مستقبلي وقلقين جداً من تلك الزيجة، ولكن من حسن حظى أن أمى أعجبت ببطرس سريعاً، والذى ساعد على ذلك أنها كانت تتمتع بذهن متفتح وأفق واسع ونظرة عميقة لكل شئ؛ مما جعلها تدرك تمام الإدراك قدر السعادة التى كانت تغمرنى حينما أكون معه، لهذا باركت زواجنا الذى تم في يناير عام 1960 .

لقد نشأت كاثوليكية، وقد تم إتمام مراسم الزفاف في كنيسة كاثوليكية، حيث لم توجد أي كنائس قبطية في ألمانيا فى ذلك الوقت، لقد كان بطرس متدينا للغاية، حتى أنه فى يوم زفافنا كان هادئا جدا؛ لدرجة أنني خشيت من أن يكون قد عدل عن رأيه في الزواج مني، ولكني فهمت منه بعد ذلك بفترة أنه في هذه الليلة تحديدا افتقد أسرته وأهله كثيرا، لأنها مناسبة خاصة؛ كان يود لو شعر خلالها أنه وسط أسرته .

كنت أعمل وقتها فى وظيفه جيدة أستمتع فيها بوقتى، فبعد تخرجي مباشرة من المدرسة الثانوية، بدأت العمل – تحت التدريب – في شركة تأمين كبرى، وأحببت -وقتها- استكمال دراستي في الجامعة، ولكن أمي لم تتخيل أنني سوف أتمكن من تسديد مصاريف الدراسة الجامعية، ومع ذلك كنت محظوظة جدًّا لأني عينت بشكل دائم في شركة التأمين بعد انتهاء تدريبي .

وكنت أكثر حظا مع رؤسائي في العمل؛ إذ كانوا يكلفونني بأعمال تتناسب مع قدراتي، وكنت أتقدم في عملي بصورة مستمرة، وفيما بعد أصبحت مسئولة عن قسم يضم 15 موظفاً، وكان هذا شيئاً متميزا في ذلك الوقت؛ لأن النساء العاملات في ذلك الوقت كن يشتغلن بأعمال السكرتارية والوظائف الإدارية، ولكن اليوم اختلف الأمر عن السابق؛ إذ تستطيع النساء العمل في كل الوظائف، وكنت من خلال عملي فى هذه الشركة أتقاضى راتباً ثابتاً، وكان لى دخل دائم، وبقيت في العمل بها حتى سن التقاعد.

أما بطرس فقد واجه بعض المشاكل المتعلقه بحياته المهنية، إذ كان يجب عليه باستمرار أن يتقدم بطلب لتجديد تصريح العمل في ألمانيا، وفي كل مرة كان يصدر التصريح بالمدة التي تسري فيها صلاحية جواز السفر، واستمر هذا الوضع حتى حصل بطرس على الجنسية الألمانية عام 1970.

شهد عام 1961 ولادة طفلنا الأول رينيه Rene، والذى حصل – بصفه مبدئية - على جواز سفر أجنبي، وفي ذلك الوقت كان القانون الساري هو أن يحصل الطفل على جنسية والده، ولكن تبعا للقانون المصري كان زواجنا يعتبر باطلا ولاغيا، ومن ثم كانت هناك مشكلة تنتظرنا عند سفرنا معا إلى مصر، وعلى الرغم من ذلك كنا نريد أن نقدم ابننا رينيه إلى عائلة أبيه في مصر، ولكن بطرس لم يستطع العودة إلى بلاده، فربما لن يسمح له بمغادرة البلاد ثانية؛ لذا سافرت إلى مصر مع ابني رينيه الذى كان عمره وقتها خمسة أشهر، كي يراه جداه وبقية الأقارب.

في عام 1961 تم افتتاح كلية جديدة لإدارة الفنادق في مدينة دورتماند Dortmund، وبدأ بطرس دراسته فيها.

في السنوات الأخيرة قام كثير من كبار المستثمرين بالتخطيط لمشاريع

سياحية كبيرة في مصر، وقد تم التخطيط لمنشآت سياحية جديدة على طول البحر الأحمر والبحر المتوسط، وجدير بالذكر؛ أن رجل الأعمال الشهير أوناسيس Onassis كان يفكر فى إقامة إمارة جديدة مثل "إمارة موناكو" في مصر ولكن لم تتحقق له هذه الأمنية، كما أن السيد " بلاتزيم Mr.Blatzheim "؛ وهو أحد رجال الأعمال البارزين فى ذلك الوقت، وكان يفكر فى بناء فنادق على البحر الأحمر والبحر المتوسط، وقد وعد بطرس بوظيفة إدارية في أحد تلك الفنادق الجديدة.

وأثناء استمرار بطرس فى دراسة أعمال الإدارة الفندقية، بدأ العمل مع السيد بلاتزم في مدينة كولونيا Cologne في ألمانيا، وبرغم انشغاله بالعمل، نجح فى استكمال تعليمه، وفى ذلك الوقت تأجلت مرحلة تخطيط الفنادق في مصر أكثر من مرة، ولكن كان على بطرس فى تلك المرحلة تولى مسؤولية إدارة عدد من المطاعم المختلفة في كولونيا، وبالطبع كان ذلك ممكنا فى ظل المقومات الخاصة التى يتمتع بها؛ فهو ذو شخصية نظامية كما أن لديه حس تنظيمي رائع، بالإضافة إلى أن دراسته جعلته مؤهلاً لفهم وإنجاز الأعمال بصورة أفضل، وكان يتقاضى – نظير عمله هذا ـ راتباً عالياً، ولكن بسبب أوقات عمله غير المناسبة وكثرة إنشغالاته لم يكن لديه فرصة حقيقية – من الناحيه العملية – للتمتع بالجو العائلي، ومما زاد الأمر صعوبة، أن بطرس كان يعمل ليلاً وأنا كنت أعمل نهاراً، فقلما كنا نجد وقت الفراغ الذى يمكن أن يجمعنا معًا .

في عام 1963، أنجبت طفلنا الثاني ماركوس Markus، وكنا نسكن جميعنا؛ نحن والأطفال وأمي في شقة مكونة من ثلاث غرف، وبالطبع كان من الصعب علينا أن نسكن في شقة أخرى أكبر فى ظل عدم توافر المال

الكافي، هذا، على الرغم من أن الشركة التي كنت أعمل فيها كان لديها بعض الشقق لموظفيها، ولكنها كانت تمنح ـ فقط ـ للرجال العاملين في الشركة .

ثم بدأ بطرس رحلة البحث عن عمل آخر، واستطاع أن يجد وظيفة دائمة؛ مدير فندق بريدينباجر هوف Breidenbacher Hof، وكانت تلك الوظيفة لها بعض الامتيازات؛ إذ كانت ساعات العمل منتظمة، كما أن الراتب كان جيدا، وبعد ذلك انتقل إلى فندق هيلتون الذي تم افتتاحه في مدينة دوسيلدورف، وأصبح يتقاضى راتباً أفضل وامتيازات أكثر؛ إذ كانت هناك الكثير من المناسبات والاحتفالات، وكان لزاما على بطرس أن يساهم بدور فعال في منطقة الخدمة، وأخيراً وجد بطرس وظيفة في بنك درسدنر Dresdner، وهناك أدار الكافتيريا بكفاءة واستمر في عمله هذا مدة 19عاماً، وكان يفضل هذا النوع من العمل الإداري؛ ويرجع السبب فى ذلك إلى شغفه بالتعامل مع الناس، والجدير بالذكر أن منصبه هذا أتاح له فرصة الإشراف على جميع الشئون الداخلية في الكافتيريا بالإضافة إلى كل ما يتعلق بأمور (المشتريات)، وقد استمر في عمله هذا حتى سن التقاعد.

كنا نسافر جميعاً (أنا وبطرس والطفلين) كل عامين إلى مصر، ولكن هذه الرحلة كانت متعبة تماماً بالنسبة لي، ولم تكن سببا لراحتى؛ فعندما نكون معاً في مصر يركز بطرس كل اهتمامه على أسرته، فهو يفتقدهم كثيرا، ومع ذلك، فقد كانت تمر علينا أيام لا يتكلم معي فيها ولو كلمة واحدة، ولكن الوضع يختلف عندما كان يجلس مع إخوته وأقاربه.. إذ كانوا يتسامرون ويقضون أوقاتا طيبة تمتد حتى ساعات متأخرة من الليل، وفجأة ينهضون ويخرجون إلى أين ؟ .. إلى جهة غير معلومة !، ولم أكن أفهم أي كلمة مما يقولون وكنت أشعر أنني تائهة تماماً؛ فربما يحالفنى الحظ وأفهم عبارة أو

كلمة مما يقولون، ولكن سرعان ما كان يتحول الحوار إلى اتجاه آخر، كنا نزور جميع أقاربه؛ الذين نعرفهم والذين لا نعرفهم، وغالبا كانت تستمر تلك الزيارات حتى قُبيل الفجر، لم تكن لغتي العربية الركيكة تفيدنى في أي حوار طويل، وفى جميع الأحوال، لم يكن فى مقدورى أن أتعلم اللغة العربية، وكيف ذلك ونحن نعيش بعيدا عن مصر ونقيم فى ألمانيا بمنطقة دوسيلدورف، حيث كنت أقضي معظم النهار في العمل أو في رعاية الطفلين .

وعلى أية حال، يختلف الأمر بصورة كلية عندما أكون في مصر وحدي، إذ يكون للقصة سيناريو آخر، لأننى أكون متحكمة فى زمام أموري؛ أستطيع تدبير كل شئ يدور حولي بصورة خاصة وبصفة شخصية لتلبية احتياجاتي فقط، ولكن عندما أكون بصحبة بطرس في مصر؛ فإن كل شيء يتم - فقط - تبعاً لرأي بطرس ووجهة نظره الخاصة .

وجدير بالذكر أن تلك الزيارات لم تكن سهلة على الطفلين أيضا، لأنهما لا يتكلمان اللغة العربية، ولكي يتعلما اللغة العربية، كان يجب على بطرس أن يتكلم معهما باللغة العربية منذ طفولتهما، ولكنه للأسف لم يفعل ذلك؛ لأنه لم يجد وقتا كافياً يجلس فيه مع ولديه في المنزل؛ إذ كانت مهنته تتطلب أن يعمل ساعات طويلة من العمل الشاق، ولكنه فى حقيقة الأمر أب جيد لم يدخر وسعاً فى تلبية احتياجات أسرته؛ المادية والمعنوية، ولا يمكننى أن اتذمر أو اعترض على طبيعته الشخصية كأب؛ لأنه عندما كان معنا فى المنزل، كان يشارك في المهام المنزلية من إطعام الطفلين وتغيير الحفاضات، هذا بالإضافة إلى عمل كل شيء يرتبط برعايتهما، وفى حالة غيابنا نحن الاثنين تقوم أمي برعاية الطفلين .

انتقلنا عام 1968، إلى شقة أكبر، وانتقلت معنا أمي؛ لأنها ترعى

الطفلين في غيابنا، و من حسن الحظ، أن بطرس كان متفاهما مع أمي في معظم الأوقات، لأنه – بصفة عامة – رجل لطيف المعشر، وحسن الخلق – ولكن – كما هو الحال في كل عائلة، كان يحدث بعض المشاحنات بيني وبين أمي، ولكننا كنا جميعا نعتمد على بعضنا البعض وكنا سعداء أن الحياة تسير وفقا لهذا التدبير، وكنا نعيش ونتفاعل بصورة طبيعية، و بدأ بطرس يقابل أقباطاً آخرين في مدينة دوسيلدورف، كما سمح لهم القس البروتستانتي بالاجتماع في كنسية بروتستانتية، وتصادف وقتها أن جاء قس قبطي من مدينة فرانكفورت، ثم تكررت زياراته بصفة شهرية إلى مدينة دوسيلدورف، ثم بدأ تدريجيًّا فى مشروع إنشاء كنسية قبطية في مدينة دوسيلدورف، وقد شارك بطرس في تأسيسها وفي إدارتها، وبفضل مجهوداته أصبح مرشدا في مجلس الأبراشية، وكان للقس القبطي فكرة ذكية أراد تحقيقها؛ وهي انضمام الزوجات الألمانيات إلى هذه الجمعية القبطية، وفي أيام الآحاد كانت هناك صلوات قبطية " قداس" تشارك فيها كل العائلات المصرية .

كانت النساء الألمانيات دائما يبدين اهتماماً بالصلوات ويقمن بالأعمال التالية : تجهيز الطعام، وتنظيف القاعات بعد انتهاء الصلاة، وذلك لأننا كنا مجرد ضيوف نستخدم الكنيسة البروتستانتية، أما النساء المصريات فكن يتصرفن وفقا لعاداتهن كما كن يفعلن أحيانا في مصر؛ فإذا حضرن للمساعدة، يجلسن في مكانهن مكتوفات الأيدي ينتظرن من يخدمهن؛ أما الطفلان فكانا يتحركان بحرية هنا وهناك دون رقابة أو توجيه من الكبار ولا أحد يحاول أن يبذل محاولة لتقويم سلوكهما، لذلك كانوا يعتبرونني أمًّا مزعجة لأنني لم أسمح لطفليَّ بالخروج عن حدود الأدب أو التصرف بطريقة غير لائقة.

بعد ذلك حصلت الجمعية القبطية على خدماتها، فقامت الكنيسة القبطية بشراء المبنى واستأجرت العقار لمدة 99عاما، ورغم أننى نشأت مسيحية كاثوليكية إلا أننى، بعد زواجي من بطرس كنا نذهب معا إلى الصلاة في الكنيسة القبطية، حيث لم أجد أي اختلاف بين المذاهب الدينية، فكل شيء يتم ترديده ثلاث مرات في الصلوات الكاثوليكية، نسمعه على الأقل عشر مرات في الصلاة القبطية، أما فيما يتعلق بالعقيدة فالاختلاف بسيط في بعض التفاصيل وليس فى الأمور الجوهرية .

وبعد سنواتٍ حضر قس جديد إلى كنيستنا، وكان بطرس وقتها مرشد مجلس الأبراشية، واكتشف القس الجديد أن بطرس لم يتزوج بطريقة شرعية طبقا لطقوس الكنيسة القبطية، ولأننى لم أكن قبطية في حياتي! كان هذا يعني أن بطرس لا يصح له أن يستمر في منصبه كمرشد لمجلس الأبرشية بعد ذلك، لأن زواجنا قد تم دون إجراء المراسم القبطية الصحيحة، وهذا الأمر يعد خطيئة، لذلك، كان من المفترض أن يتم تعميدي كقبطية ثم بعد ذلك نتزوج حسب الطقوس القبطية، ورغم أننى كنت أجد كل هذه الإجراءات غير ضرورية، إلا أننى قلت لبطرس : " برغم أنني كاثوليكية، إلا أن هذه المراسم لن تغير من عقيدتي الدينية كثيراً، ولكن إن كانت الضرورة تتطلب ذلك فلا بأس من تحقيقها "، لذلك قررنا أنا وبطرس أن يتم تعميدي، وبالفعل، تزوجت من بطرس بعد تعميدي مرة أخرى فى عام 1991 ، وتلك المرة تم الزواج وفقا للشعائر القبطية .

في ذلك الوقت تطورت واتسعت الكنسية في مدينة دوسيلدورف، بالإضافة إلى تزايد عدد الكنائس القبطية الموجودة في ألمانيا، وتعتبر الكنيسة القبطية من أقدم الكنائس المسيحية إن لم تكن أقدمها جميعا، فقد أسسها

ماركوس في عام 61 ميلادية، وللمزيد من المعلومات عن هذا الموضوع يمكن زيارة الموقع التالي على الإنترنت : www.coptic.net.

أتيحت لي في عام 1992 فرصة مقابلة رئيس الكنيسة القبطية؛ قداسة البابا شنودة بطريرك الإسكندرية عندما كرَّمته جامعة بون ومنحته شهادة الدكتوراه الفخرية، وقد قام بزيارة كل الكنائس القبطية في ألمانيا، وتمت الإشادة بجهوده في المصالحة والتقريب بين الجماعات الدينية البارزة، وقد أثرت شخصيته فينا كثيرا؛ إذ كان البابا شنودة يتمتع بشخصية (كارزمية) جذابة ويتمتع بذكاء شديد، وقد استقبل النساء الألمانيات ورحب بهن في الكنيسة القبطية بكل سرور، وفي ذلك الوقت كانت دراسة الاختلافات بين المذاهب المسيحية المختلفة تستهويني، ولعل فكرة الخلاف الرئيسية بين المذاهب المسيحية كانت تتمثل في شخص السيد المسيح عليه السلام؛ فالبعض يقول عنه إنه إله وإنسان ـ في ذات الوقت ـ وهذه مسألة شائكة، بينما آخرون يتفقون على أن المسيح أظهر نفسه بطريقتين مختلفتين، وقد ثار هذا الجدل لأول مرة في مجمع نيقية Council of Nicaea في عام 325 بعد الميلاد .

وأنا شخصيًّا لم أفهم كل التفاصيل الخاصة بهذا الأمر، وربما يكون الأمر حقيقة بالنسبة لمعظم المسيحيين، وعلى كل حال، وبعد إثارة الكثير من الجدل حول هذا الأمر داخل مجمع خلقيدونية Council of Chalcedon عام 451، انتهى الأمر إلى حدوث انشقاق ديني؛ حيث انفصلت كنيسة الإسكندرية وكل الكنائس الشرقية عن الكنيسة الكاثوليكية، وربما كانت هناك أسباب سياسية ومسائل عقائدية وراء هذا الانفصال، ومنذ ذلك الوقت والأقباط لهم كنائسهم الخاصة .

ومنـذ عـام 1988 عـاد التقـارب مـرة أخـرى بـين الكنيـسة الكاثوليكيـة والكنيـسة القبطيـة، ولمزيـد مـن المعلومـات يمكـن الرجـوع إلى موقـع : www.coptic.net/EncyclopediaCoptic.

مـع بدايـة الفـتح الإسـلامى، كـان الأقبـاط ضـحايا التمييـز الطـائفي في مصر، ولكن اعتنـاق الإسلام كـان يتم بهـدوء ودون اضـطرابات، وبشكل سلمي هـادئ؛ وجـدير بالـذكر أن المسلمين كـانوا يـدفعون ضـرائب أقـل مـن اليهـود والمسيحيين، وبالتـالي فإن الكثير منهم قد اعتنـق الإسـلام لأسـباب ماليـة، أمـا اليـوم فيـتم تطبيـق نفـس معـدل الـضرائب علـى الجميـع بـصرف النظـر عـن الإنتمـاءات الدينية .

يشكل الأقبـاط حوالي 10٪ من مجموع سكـان مصر ويعيش معظمهـم في محـافظتى أسيوط والإسكندرية، ويتمتع الكثير منهم بالرفـاهية أكثـر من عـامة المصريين؛ وذلك لأن الأقبـاط يهتمـون بـالتعليم؛ فمستوى تعلميهم أعلـى، ممـا يرفع من مستوى معيشتهم .

في عــام 1981، أبعـد الـرئيس الـسادات البابـا شـنودة إلى ديـر وادي النطرون، وقد قال البابا شنودة رأيه السلبي عن السادات خلال رحلتـه التى قام بها إلى الولايات المتحدة، أما القس صمويل، الذي أقام علاقات ودية مـع الـرئيس الـسادات، فقـد كـان مـن المفـروض أن يـصبح " بطريـرك "، ولكـن الكنيسة القبطية لم توافق على هذا التغيير، لأن البطريرك – شأنه شـأن البابـا فـى رومـا – لا يمكنـه أن يتخلـى عـن المنـصب البابـاوي، وعليـه أن يظـل يخـدم الكنيـسة طيلـة حياتـه وحتـى وفاتـه، وجـدير بالـذكر، أن القـس صـامويل كـان حاضـرا العـرض العـسكري الـذي اغتيـل فيـه الـرئيس الـسادات في عـام 1981 وأصـابته رصاصـة أودت بحياتـه، وفي عـام 1985 أعـاد الـرئيس مبـارك البابـا

شنودة إلى منصبه، ومنذ ذلك الحين والعلاقات بين الدولة والكنيسة القبطية شهدت تحسنًا من جديد.

عاش المسيحيون والمسلمون جنبا إلى جنب في مصر لقرون طويلة، وكذلك كان الأمر مع التجمعات اليهودية؛ إذ عاش الجميع بسلام تحت مظلة الوحدة الوطنية، ولكن على مدار التاريخ كانت تظهر - من فترة لأخرى - بعض الفتن والقلاقل، والتى مازلت تظهر حتى اليوم، وبرغم ذلك، لا يمكن أن نقول بأن الشعب منقسم على نفسه؛ فالعلاقات الحميمة التى تربط بين المسلمين والأقباط مستمرة برغم ظهور بعض تلك الاضطرابات.

يعتبر القرآن الكريم مصدرا أساسيا للتشريع فى القانون المصري، وبرغم أن الزواج المختلط بين الأقباط والمسلمين غير ممنوع صراحة إلا أنه نادر جدا، وأحيانا نسمع عن قبطي يعتنق الإسلام، ولكن قلما نجد مسلما يرتد عن دينه ويصبح مسيحيا.

تقوم العائلة بدور مهم في الديانتين كما أن الروابط الأسرية تمثل أهمية كبيرة فى حياة المصرين، ويبدو ذلك واضحا في الحياة اليومية؛ فالآباء يأتون في المقام الأول، والإخوة يهتمون بشئون إخوانهم، والآباء يهتمون بأطفالهم بعيدا عن الانتماءات الدينية.

في أولى زياراتي إلى القاهرة، كنت أذهب وحدي إلى الكنيسة الكاثوليكية، أركب الترام، في ذلك الوقت كانت أبوابه مشرعة على الجانبين، أما اليوم فإن عربات المترو محكمة الإغلاق ومتكدسة بالركاب، كنت عادة أجد مقعدًا، وألقى معاملة طيبة واحتراما بالغا، وكذلك الحال داخل الكنيسة، فهناك شخص ينظف باستمرار المقاعد الخشبية لأجلنا، وكنت ألقى دوما معاملة لطيفة ومهذبة من الجميع.

منذ سنوات وتحديدا عام 1976، كنت مع أطفالي بصحبة بعض الأصدقاء في المعمورة بالإسكندرية وذهبنا نسبح بلباس البحر - وهو أمر طبيعي - وفجأة جاء شابان وأرادا التحدث معنا، وبدآ يتحرشان بنا ويحاولان لمسنا، أنا وبنتان صغيرتان (13 و14 عاما) ولكننا استطعنا أن نبعدهما عنا، وكانت تلك أول مرة يتحرش بي شخص، وبالطبع لم نخبر والد البنتين بما حدث معنا على الشاطئ وإلا لن يسمح لهما بالخروج معنا أبدا، في تلك الأيام من الممكن أن تتعرض الانثى لتحرش الشباب أو محاولة لمسها بطريقة تخلو من اللياقة والأدب؛ فهم يتصورون أن كل امرأة لا ترتدي الحجاب يجب أن تكون امرأة لعوبًا، ولكننى وجدت أن أفضل شيء للمرأة التى تكون بمفردها وسط مجتمع ما، ألا تقوم بتركيز عيونها في عيون الآخرين فتلك هى الوسيلة المثلى لمنع القيل والقال، وتجنب أى نوع من أنواع التطاول أو التعدى.

شهدت السنوات الأخيرة ارتداء الكثير من السيدات للحجاب، ويتم إختيار الطرحة " التى توضع على الرأس" بصورة تتناسب مع ألوان الثياب التي ترتديها المرأة حسب ذوقها الشخصى كى تبدو جميلة، كما أن الحجاب قد يبدو مريحا بالنسبة للبعض؛ إذ لا يكون مطلوبا من المرأة أن تهتم كثيرا بشعرها، فما أن تصل الفتيات إلى سن البلوغ حتى يرتدين الحجاب، كما أن هناك حاليا الكثير من السيدات اللاتى يرتدين النقاب الذى يغطي الرأس وكل الجسم ماعدا فتحة صغيرة للعين لترى بها الطريق .

في عام 1993 تقاعدت عن العمل، كما تقاعد بطرس أيضا قبلي بعامين، وتسلمت مبلغا كبيرا من المال هو مكافأة نهاية الخدمة، وأردنا أن نشتري به شقة في الإسكندرية، وبالفعل وجدنا شقة في منطقة جليم على الكورنيش، وكانت هي ما نبحث عنه، ولكن للأسف لم يتم تشطيبها تماما،

ومن ثم كان يجب علينا أن نقوم نحن باستكمال الباقي والإشراف على إتمام التشطيبات.

في مصر من الصعب جداً أن تجد صنايعي (فني) يمكنك الاعتماد عليه، على عكس الحال في ألمانيا، كما أن الكثير من الحرفيين هنا لا يحافظون على مواعيدهم، علاوة على أنهم لا يعملون بإتقان، عكس الحال في أوروبا؛ فبعد كل مرحلة عمل وبعد كل زيارة يأتي فيها الحرفي، من الضروري أن تقوم بعملية تنظيف شاملة بعد انصرافه، وأذكر أنني قد قمت بنفسي بتنظيف الأسمنت من بلاط الحمام ذات مرة، إضافة لذلك عند القيام بأي أعمال صيانة عليك أن تقضى وقتا طويلا في انتظار العامل، أنا شخصيا أذكر أنني انتظرت خمسة أيام لتركيب عداد المياه، لذلك لا يمكن لأحد أن يتمكن من إعداد أي خطط ثابتة عن أي شيء بصورة مسبقة، وبطريقة مضمونة؛ لأنه قد يظهر شيء ما دون أن تتوقعه ليعطلك عن أعمالك، ولقد لاحظنا أن مصر حاليا أصبحت أكثر تعقيدا عن السنوات السابقة، ولكن الأمر مختلف بالنسبة للسائح الذى بالطبع لا يمكنه أن يلحظ ذلك بسهولة .

في عام 1994، انتهى العمل في شقتنا ولم نكن مضطرين للبقاء مع الأقارب الذين زرناهم، كما أن تجهيز الشقة كان يتطلب وقتا طويلا حتى يتم استكمال تأثيث الشقة؛ وذلك لأن معظم الأثاث في مصر لا يتفق مع ذوقنا الأوروبي .

كنا نتردد على مصر بشكل منتظم على مر السنوات السابقة، وشيئا فشيئا بدأت أتعرف على البلد وشعرت بالراحة هنا، كما سافرنا إلى مناطق عديدة وزرنا كل المعابد والمتاحف والأماكن السياحية .

للأسف توفي جميع إخوة بطرس ولم يعد أحد منهم على قيد الحياة،

ولكن يوجد كثير من أبناء الإخوة والأخوات، فإن كانوا متزوجين فإن الزوج والزوجة يعملان، أما بالنسبة لرعاية الطفل فإنهم يعتمدون على مربية – والجدير بالذكر – أن الخادمات مازلن موجودات في مصر مقابل مبالغ مالية زهيدة، ومعظم الفتيات من الطبقة الراقية يذهبن إلى الكليات حاليا، أما فيما يتعلق بأمور العمل، فلكى تحصل على وظيفة جيدة يجب أن تحارب من أجل الوصول إليها، وهذا هو الوضع القائم في كل مكان، أما التعليم فهو مجاني ومعظم الطلبة يعيشون مع والديهم أو في سكن الطلبة.

شهدت السنوات الأخيرة تغيرات كثيرة في مصر، فقد أصبح العمل صعبا جدا؛ وعلى المرء أن يكافح للحصول على فرصة عمل جيدة، وبصفة عامة نجد أن الرواتب منخفضة ولا تكفى للحياة الكريمة، أما بالنسبة للسلع فإن كل شيء متوفر في الأسواق والمحلات: الأطعمة ومواد البقالة والأجهزة الكهربائية والسلع المعمرة والأصناف الفاخرة، أما كل شيء مستورد فهو غالى الثمن، ولكن الكثير والكثير من المنتجات يتم تصنيعها محليا، ويستطيع المرء أن يحصل على هذه السلع وبأسعار رخيصة، أما بالنسبة لنا نحن الأوروبيين، فإن كل شيء هنا يتم الحصول عليه بالمساومة والتفاوض بشأن الأسعار، ولكن المصريين يتذمرون من التضخم؛ فى ظل ارتفاع الأسعار وانخفاض الأجور والرواتب .

لقد عانى زوجى طويلا لأنه لم يكن قادراً على الحياة في بلده، ولكن الأسرة تشكل قيمة مهمة جداً بالنسبة للمصريين، ولكن ظروفنا كانت تتطلب منا أن نعيش في ألمانيا معظم سنوات حياتنا، وعندما اشترينا الشقة في الأسكندرية بدأ بطرس من جديد يخصص وقتا أطول لعائلته، الأمر الذى جعله يشعر بأنه أقرب لجذوره وكانت السعادة تغمره بصورة كلية .

أحيانا نقابل بعض أصدقائنا الألمان في الإسكندرية، وفي الحقيقة، هناك عدداً كبيراً من المصريين متزوجون من ألمانيات، ونجد موضوعات مشتركة لنتحدث فيها.

أنا شخصيا أحب المطبخ المصري، ولكنني لا أجيد كيفية إعداد أطباقه، ولكن عندما نكون في مصر فإننا نتناول كل الأطباق المألوفة هنا، وأذكر منها : الملوخية التى لا أحبها ! ولكن هناك كثير من الأطباق المصرية التى يعد مذاقها أفضل كثيرا من الأطباق الألمانية .

يظل مركز حياتنا في ألمانيا؛ لأن أولادنا يعيشون في أوروبا، أحد أبنائنا يعيش مع عائلته في باريس، فهو متزوج وعنده توأم، غالبا نزوره ونساعده في رعاية أطفاله لأنه هو وزوجته مشغولان تماماً ، فالتاريخ يعيد نفسه .

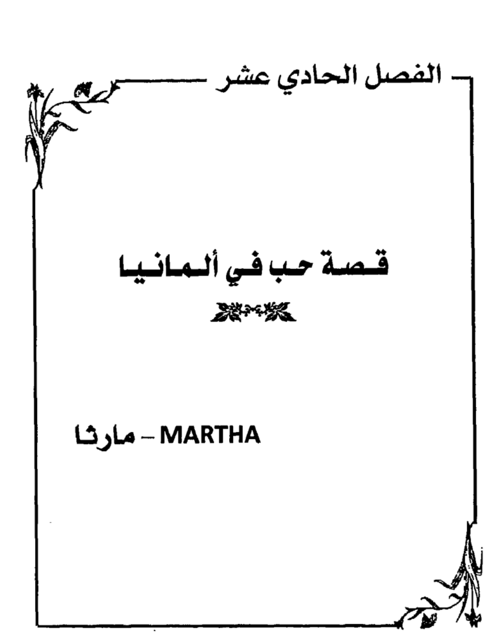
لا يريد أي من أولادنا العودة والاستقرار في مصر، ولكنهم يحبون قضاء إجازتهم هناك، ولكن وطنهم موجود في ألمانيا، ومنذ طفولتهم، لم تلعب مصر أي دور كبير في حياتهم، بسبب إقامتهم بعيدا عنها.

ولهذا السبب في عام 2006، قمنا ببيع شقتنا؛ فأولادنا غير مهتمين بها، وبالنسبة لنا قد تصبح الشقة سبباً لمشكلة، كما أننى قد وجدت أن الرعاية الصحية في مصر ضعيفة للغاية، ولا ترقى لمستوى الرعاية الصحية فى ألمانيا، لذلك يجب أن أعترف أننى لا أحب الذهاب إلى مستشفى ـ هنا فى مصر ـ إن كان بإمكانى تفاديها .

اللغة وحدها تسبب لي الكثير من المشاكل، حاليا نتردد على مصر في الإجازات، نزور بعض أقاربنا وأصدقائنا هنا، كما نحب الذهاب إلى البحر الأحمر، وقد قمنا برحلات جميلة وما زال هناك بعض المناطق التي نرغب في رؤيتها ولكننا نقضي معظم أوقاتنا في ألمانيا .

علـى مـدار سـنوات طويلـة تـأقلم زوجـي علـى الحيـاة في ألمانيـا التـى أصبحت بالنسبة لـه وطنـه الثـانى، ولكـن قلبـه مـا زال معلقـا هنـا بمـصر مثلمـا قلبـي معلـق بألمانيـا، شـأننا فـى ذلـك شـأن الكـثير مـن أصـدقائنا في العـائلات المتعددة الثقافات، إذ يجب علينا جميعا أن نتغلب على الكثيرمن خلافاتنا، و فى ظل توافر التسامح المتبادل والتفاهم المشترك يمكننا أن نحقق السعادة لأنفسنا.

*****



الفصل الحادي عشر

قصة حب في ألمانيا

MARTHA - مارثا

قابلت مارثا Martha في ألمانيا، زوجها يدعى سامي وهو طبيب، مثل ابني أحمد، وكانا قد تقابلا بالصدفة في المستشفى التي يعمل فيها أحمد، ومنذ ذلك الوقت أصبحا صديقين، وتتجمع العائلتان بين الحين والآخر وفي إحدى المناسبات أخبر طارق " وهو ابن مارثا وسامي " أحمد أنه ذاهب إلى الإسكندرية لتعلم اللغة العربية، فقال له أحمد : "سوف تقابل أمي فهي هناك" وبالفعل قابلت طارق عام 2005 في الإسكندرية في كلية الآداب، كانت لغته العربية أفضل من لغتي؛ ويرجع السبب فى ذلك إلى أن اكتساب لغة جديدة يعد أمرا يسيرا على الشباب، ثم التقيت بباقي الأسرة عند أحمد في زيارتنا التالية إلى ألمانيا.

وعندما سمعت مارثا عن فكرة كتابي أعلنت على الفور أنها تحب أن تشارك فيه؛ أخذت تروى لى حكايتها بينما كنا نتنزه سويا في قرية صغيرة اسمها " لورساكسوني "، وكنا نغلق المسجل أثناء مناقشتنا لبعض التفاصيل، وضحكنا كثيرا ونحن نتكلم؛ فهى تتمتع بروح الدعابة وخفة الظل.

تبلغ مارثا من العمر 58 عاما، وهي بذلك تعتبر أصغر النساء اللاتي شاركن بقصتهن في هذا الكتاب .

تعيش مارثا مع زوجها المصري في ألمانيا، وهى سيدة متوسطة الطول، ورشيقة القوام، شعرها أحمر متموج، تجدله أحيانا، وأحيانا أخرى تقوم بربطه إلى الوراء بشكل معقوص وتثبته بدبوس، وحين تتحدث تبدو واثقة من نفسها وحين تتهادى فى مشيتها يفيض جسمها بالحيوية والنشاط ... وها هي قصتها :

تقابلت مع زوجي سامي في حفلة عام 1979 في مدينة باديبيفينسين Bad Bevensen (وهي مدينة صغيرة في لينينبيرج هيث Lunenburg Heath)، وكنت أبلغ وقتها 27 عاما، وأعمل " مساعدة فنية طبية " في أحد المستشفيات، بينما كان سامي يبلغ من العمر 28 عاما، ويعمل طبيباً مقيماً في مستشفى آخر، ويبدو أن تلك اللحظات ـ التى شهدت بداية تعارفنا ـ قد أبت أن تنصرف دون أن تلقى بظلال الرومانسية على قلبينا؛ لقد اشتعل الحب من أول نظرة حين تلاقت الأعين، وقتها شعر كلانا أنه ينتمى إلى الآخر، وأدركنا أن هذا اللقاء لن يكون الأخير لذلك اتفقنا على أن نتقابل ثانية وهكذا كانت الأيام والأسابيع التالية لهذا اللقاء شاهدة على الكثير من لقاءاتنا المتعددة، وبعد ذلك بفترة قصيرة قدمته لوالديّ اللذين استقبلاه بصدر رحب، وبالطبع حينما أعيد التفكير فى هذا الأمر أجد أننى لم يكن فى مقدورى وقتها أن أعتبره أمراً مسلماً به وخصوصاً أن والديّ يعتنقان المذهب البروتستانتي، وأنا أيضاً نشأت على نفس المذهب، على عكس سامي الذى كان مسلماً تقياً مؤمناً .

وعلى الرغم من هذا الاختلاف الواضح بيننا، فقد استطعنا ـ بفضل الوعى والتسامح ـ أن نتفاهم ونتعايش على الفور، وظل الحال على ما هو عليه حتى يومنا هذا .

قضيت طفولتي في ساكسونيا أنهالت Saxony-Anhalt، وكنت أصغر إخوتي الأربعة، أما أبي فكان مهندسًا ميكانيكياً أقام شركة صغيرة لتصنيع الأوناش، ولكنه تعرض لبعض الضغوط أثناء عمله في ألمانيا الشرقية السابقة؛ إذ كانت تواجهه الكثير من العراقيل التي تصعب عليه الأمور لدرجة أنهم أرادوا أن ينتزعوا منه ملكية الشركة، لذلك قرر أبى عام

1961 أن ينهي أعماله فى الشرق ليبدأ من جديد أعماله فى ألمانيا الغربية، وأذكر أننى كنت فى التاسعة من عمرى حينما فر هارباً عبر برلين Berlin إلى الغرب، شأنه فى ذلك شأن الكثير من الناس الذين هاجروا بنفس الطريقة حتى تم بناء جدار برلين الشهير الذى يفصل بين الشرق والغرب في أغسطس عام 1961 .

كان على أبى أن يبدأ حياته من جديد فى مدينة باديبفينسين Bad Bevensen (ساكسونيا السفلى) وكان عمره آنذاك 49 عاما، في بادئ الأمر وجد وظيفة في شركة سيمنس، ثم بعد ذلك قام بتأسيس شركته الصغيرة الخاصة بتصنيع الماكينات، ووظّف في الشركة نحو 15 عاملا وكانت أمي تساعده؛ إذ كانت مسئولة عن كل ما يتعلق بالأعمال الإدارية والحسابية، أما نحن البنات فذهبنا إلى المدرسة؛ وحين حصلت على الدبلوم التحقت بالجامعة؛ ثم تدربت كمساعدة فنية طبية في هامبورج Hamburg، وبعد تخرجي وجدت وظيفة في مستشفي في باديبفينسين Bad Bevensen، ومثل كثير من الشباب في فترة السبعينيات من القرن الماضي، كنت أمارس العديد من الهوايات فى أوقات فراغي، إذ كنت أهوى التمثيل على المسرح، وبالفعل قمت بالتمثيل على مسرح أستادثيتر ألزين Stadttheater Uelzen (في مدينة ألزين) (Uelzen)، ولكن بعد أن تزوجت وأصبح لدي أسرة، تخليت عن تلك الهواية لقلة وقت الفراغ .

ولد سامي في عام 1950 في مدينة الأسكندرية، حيث نشأ هناك وبعد أن أتم دراسته الثانوية، درس الطب في الأسكندرية، ثم حضر إلى ألمانيا لاستكمال دراسته العليا في الطب، إذ كانت ألمانيا متقدمة طبيا عن مصر في ذلك الوقت، وقد سعى سامي إلى تحديث معلوماته وتدريبه، وذلك من أجل إيجاد فرص عمل أفضل، وبالفعل سرعان ما وجد وظيفة طبيب باطني

مقيم، ثم بدأ يتخصص في أمراض القلب، وفي عام 1991 كانت له عيادته الخاصة فى جرونى Gronau (ساكسونيا السفلى) (Lower Saxony)، وعندما تقابلنا كان طبيبا مقيما في أحد المستشفيات في بادبيفييسين وهو ليس نفس المستشفى الذي كنت أعمل فيه .

ارتوت زهرة الحب اليانعة داخل قلبينا، وأحس كل واحد منا بانتمائه للآخر، وبالطبع أراد سامي أن يُقدمني إلى أسرته، كما أنني كنت أيضاً أتمنى أن أعرف الكثير على بلده مصر، وفي نفس العام 1979 سافرنا معا إلى مصر لأول مرة، وقابلت أسرة سامي، الذى كان ترتيبه الثالث بين إخوته الخمسة؛ له أخت وثلاثة إخوة، وكان والده يعمل كاتبا وخبير خطوط في المحكمة المصرية، علاوة على ذلك فقد كان فنانا في كتابة آيات القرآن الكريم بزخرفة بارعة في لوحات كبيرة، وجدير بالذكر أن هذه الخطوط الزخرفية تحظى بمكانة خاصة فى مصر وفي كثير من البلدان العربية الأخرى، حيث يتم تعليقها لزخرفة الجدران داخل الأبنية والمنازل، وقد تم عرض اللوحات الفنية التي رسمها والد سامي في كثير من معارض الخطوط .

استقبلتني عائلة سامي بدفء وترحاب شديد، لقد كانوا مسلمين متفتحين، تخلو نفوسهم من أى ضغينة أو تعصب، ولقد كان والد زوجى رجلا متسامحا بلا حدود؛ إذ لم أر في حياتي شخصاً أكثر تفهما وأكثر تحملاً لآراء الآخرين مثله، أما والدة زوجي فهي مثل باقي الحموات، في أول الأمر كانت تتوجس مني خيفة، وتتساءل في نفسها: " ترى هل تصلح تلك الفتاة لولدي أم لا ؟ ترى هل ستحسن معاملته ؟ .!... كدت أقرأ هذا التعبير فى عينيها ! ولكن لم يستغرق الأمر سوى عشر دقائق حتى أحبتني وشعرت تجاهى بمنتهى الراحة، وهكذا تفاهمنا معا وأصبحنا متعايشين في ود وسلام حتى يومنا هذا ".

كنت قد تعلمت بعض مفردات اللغة العربية في ألمانيا، استعداداً للذهاب إلى مصر حتى يمكننى أن أتواصل مع أسرة زوجى بمزيد من التفاهم والسهولة وذلك لتيسير كل شيء حولنا فى الحياه بقدر الإمكان، وكان والد زوجى وجميع أبنائه يتحدثون اللغة الإنجليزية، وبمرور السنوات واصلت تعلم اللغة العربية تدريجيا ولا أنسى فضل والد زوجى فى مساعدتى، وفي النهاية استطعت أن أتحدث اللغة العربية بصورة جيدة .

خلال زيارتى الأولى للأسكندرية رأيت بعض المعالم والمناطق السياحية هناك : الميناء والآثار اليونانية والرمانية القديمة، ولكننا قضينا معظم الوقت مع العائلة؛ لأنها كانت تمثل لنا شيئا مهما في ذلك الوقت، وذهبنا إلى القاهرة وزرنا الأهرامات، وكانت تلك هى المرة الأولى التى يرى فيها سامي الأهرامات، ولكننا ـ بعد ذلك ـ في رحلات متتالية رأينا الكثير والكثير من معالم مصر.

كانت العائلة سعيدة بزواجنا، ولحسن الحظ، انهم لم يكونوا قد رتبوا لسامي الزواج بإحدى قريباته أو بفتاة من الجيران، كما كان شائعا في ذلك الوقت، فحتى يومنا هذا هناك الكثير من الأسر التى تقوم بدور جوهرى في ترتيب إجراءات زواج أبنائها، ولكنهم أحيانا يرحبون في مصر بالزوجات الأوروبيات لسبب واحد فقط وهو : أن الزوجة الأوروبية ـ بصفة عامة ـ ليس لها مطالب مالية كثيرة، فلا تطلب حفل زفاف ولا تنتظر هدايا من عريسها أو أسرته، ولا تنتظر مجوهرات ثمينة، كما أنها لا تطالب بشقة كاملة الأثاث، وكذلك ليس لها مطالب في مؤخر الصداق والنفقة بعد الطلاق .

أما النساء في مصر فيطالبن بالكثير قبل الزواج، وغالبا ما يعجز الشباب عن تلبية معظم تلك الطلبات، ولهذا السبب يظل زواج الشباب

معلقا سنوات طويلة حتى يمكن تلبية بعض تلك الطلبات، ولم تكن عائلة سامي لتفكر في أي شيء من هذا القبيل، ولكنهم كانوا يشعرون ببالغ السعادة لأن ابنهم سعيد، بدا ذلك واضحا فى أفق الجو الأسري؛ إذ استقبلوني بسعة صدر، فكل فرد في العائلة كان لطيفا معي، واستمرت العلاقات الطيبة لدرجة أن والد سامى زارنا عدة مرات في ألمانيا بعد زواجنا بسنوات .

وبعد انتهاء إجازتنا في مصر، عدنا إلى ألمانيا ونحن ننعم بالراحة والسعادة، لقد كان من الطبيعي أن يجمع بيننا الرباط المقدس، إذ كان من المستحيل على كلينا أن يفر من هذا الغرام، لذلك قررنا الزواج فى أقرب وقت ممكن وفي عام 1980 تزوجنا طبقاً للقانون الألماني في مكتب زواج رسمي في باديبفنسين، وقبل البدء في الإجراءات الرسمية للزواج قام " أمين السجل" في مكتب الزواج باطلاعى على معلومات وافية حول عواقب زواجنا، إذ قال لي: إن سامي من حقه أن يتزوج عليَّ ثلاث نساء أخريات في بلده، علاوة على ذلك، فإن الشريعة الإسلامية تطبق علي هناك، كما أن حقوق المواريث وكل شيء يتعلق بحقوق الأطفال لا يمكن أن تطبق لصالح المرأة، لقد كانت الصورة ضبابية فى ذلك الوقت؛ إذ كانت هناك زيجات صورية زائفة تجمع بين رجال مصريين وسيدات ألمانيات، وكانت الخديعة تلعب دور البطولة فى تلك الزيجات؛ إذ كن يعاملن بطريقة سيئة عند وصولهن إلى مصر، فعند توافر سوء النية يكون من الطبيعي أن يبتز الرجل زوجته، ليحصل منها على أكبر قدر ممكن من المال، ثم يتخلص منها بعد ذلك بأسرع طريقة ممكنة، عندئذ لا تستطيع المرأة الألمانية ولا حتى السفارة الألمانية فى مصر عمل أي شيء، وعلى الرغم من أن كل هذا الكلام كان كفيلا أن يجعلنى أشعر بالتردد، إلا أننى لم أسمح للخوف أن يتسلل إلى

نفسي، وقد تم الزواج كما رتبنا، فى وجود والديَّ وإخوتي وصديقاتي بالإضافة إلى عم سامي ـ الذي كان مقيما في ألمانيا – وجميعهم شهدوا مراسم توقيع عقد القران في مكتب الزواج المدنى.

بدأنا حياتنا الزوجية ونحن لا نملك شيئا، على عكس كثير من الأزواج المصريين، والطريف فى الأمر، أننى أذكر أن كل ما كنا نملكه كان فقط : طاسة للقلية أحضرها سامي، وسلطانية زجاجية كبيرة أحضرتها أنا، ولكن تدريجيا قمنا بتجهيز منزلنا بالكامل وبالطريقة التي يتبعها كثير من الأزواج في ألمانيا .

عندما انتقلنا إلى شقتنا الأولى في جرنوي Gronau استطعنا أن نشترى دواليب مطبخ مستعملة، وأذكر أن واحدة من أخوات زوجي سامي كان لها تعليق عند زيارتها لنا في ألمانيا؛ إذ قالت إنها لا تقبل أبداً من زوجها أن يقدم لها مطبخا مستعملا، لقد كانت تتحدث باستخفاف عن مطبخي، ولكن المهم فى الأمر أنه أعجبنا لأنه صناعة يدوية، كما أن الدواليب كانت بمنزلة تحفة فنية نادرة، وإلى يومنا هذا ما زلت أحتفظ بذلك المطبخ .

منذ بداية زواجنا قررنا أن نعيش في ألمانيا؛ فسامي لا يريد العودة إلى مصر؛ لأنه رأى مستقبله المهني في ألمانيا بالإضافة إلى أنه كان معجباً بمستوى المعيشة المرتفع وبالثقافة الألمانية وأسلوب الحياة وما يتضمنه من جانب تنظيمي شديد الروعة، أما بالنسبة لي فمسألة الحياة في مصر لم تشغل بالي قط، لأن الحياة فيها نمطية؛ وعلى الشخص أن يختار بين الإقامة فى الريف أو الإقامة فى الحضر، وكلا الاختيارين لهما بعض المساوىء؛ حيث لا يقدر على الحياة في القرية سوى الفلاحين، أما باقي السكان فليس لهم من خيار سوى الحياة في المناطق العمرانية، وبالنسبة للمناطق الريفية لا توجد

بها البنية الأساسية التي تدعم الحياة الطبيعية السوية والتي تتماثل مع مستوى معيشتنا الذى اعتدناه، أما بالنسبة للقاهرة والإسكندرية فهما مدينتان كبيرتان يجمع بينهما الكثير من المظاهر السلبية منها : الضوضاء والزحام ودخان العوادم و التلوث البيئى وما إلى ذلك، وأنا لا أحب المدن الكبيرة في ألمانيا أيضاً وأفضل الحياة في الريف، لذا كان قرارنا المشترك هو العيش في ألمانيا .

سامي يحب نمط الحياة الألمانية ولا يزال يحبها حتى اليوم، ولكني أعتقد أن كثيرا من المصريين "المغتربين عن بلادهم" يعانون من شتات داخلي، يحكمه الحنين إلى الوطن الأم من ناحية، وضرورة الإقامة فى بلاد الغربة من ناحية أخرى .

ولدت ابنتنا ياسمين عام 1981، ثم ولد ابننا طارق عام 1985، وكنت في ذلك الوقت لا أزال أعمل في المستشفى "كمساعدة فنية طبية"، ولكنى بعد مجئ الطفلين بدأت إجازة أمومة حتى بلغ طارق الثالثة من عمره ثم رجعت للعمل مرة أخرى، وكان لزاما علي الخروج فى الصباح الباكر قبل الساعة السابعة لمزاولة العمل، وكان سامي يساعدني ويتولى مسئولية إفطار الأطفال، ويرسلهم إلي المدرسة في الموعد المحدد، وكان جدول حصص المدرسة معلقاً في المطبخ، وبدأ الأطفال – مع مرور الوقت ـ يعتمدون على أنفسهم، لقد كان سامى دائما شديد الإعجاب بدقة المواعيد داخل ألمانيا وهو شئ نادر الوجود في مصر، وجدير بالذكر أن سامي كان يحاكى فى أسلوب تنشئته للصغار الأسلوب الذى كان يتبعه والده مع أولاده، لذلك اتبع سامي نفس طريقة والده في رعاية أبنائه، وبصفة عامة يميل الرجل المصري إلى تفعيل دور المرأة كربة منزل تعمل على خدمة أسرتها .

وكما هو الحال في كثير من العائلات ومع تطور مراحل الأولاد، يكون أمراً طبيعياً حدوث بعض المناقشات الحادة أو الحوارات الساخنة؛ وخصوصاً أن سامى فى قرارة نفسه يشعر بأنه مصري، وبصورة لا إرادية تخضع ردود أفعاله لطباعه المتأصلة بداخله؛ فعلى سبيل المثال، عندما بلغت ابنتنا ياسمين السادسة عشرة من عمرها، أرادت أن تذهب للسينما بمفردها مثل باقي صديقاتها، ولكن سامي رفض ذلك بشدة؛ لأنه كان يعتبره أمرًا غير مقبول تماما، بل ولا يمكن أن يتصوره أحد في مصر، ولكن ياسمين لم تستسلم بسهولة، فعندما بلغت السابعة عشرة اضطر أن يسمح لها بأن تذهب للسينما وحدها .

المجتمع في ألمانيا مختلف تماما عن المجتمع المصري، ومع ذلك فلا يمكن أن نربي أولادنا على عكس ما هو سائد في المجتمع الذي نعيش فيه، وإلا يعد ذلك درباً من دروب المستحيل، وهكذا يجد المرء نفسه يمتثل ـ بصورة تلقائية ـ لعادات وتقاليد المجتمع الذي يعيش فيه .

كنا قد قضينا سنوات زواجنا الأولى في شقة، ثم استأجرنا منزلا عشنا فيه فترة امتدت نحو سبع سنوات، ثم انتقلنا إلى بيتنا الذي نعيش فيه حاليا منذ 16 سنة، والطريف فى الأمر، أننا في كل مرة كنا ننتقل فيها إلى شقة جديدة كنا ننقل معنا المطبخ المستعمل!، ويعتبر موقع منزلنا الجديد جزءًا من رواية خيالية، فهو يبدو فى بياض الثلج، ومن وراءه تبدو سلسلة جبال ساكسونيا السفلى، الأمر الذى يوحى بالطبيعة الرعوية التى لا ينقصها سوى ترنيمه موسيقية تصاحب أنشودة رخيمة عذبة فى أفق يوحي بالرضا والطمأنينة، يا لها من حياة قد يرغب الكثير فى محاكتها ! أليس كذلك ؟

في عام 1991 انتهى سامي من دراسته وتخصص في " أمراض القلب" وافتتح عيادته في جروني .

تكررت زيارتنا إلى مصر بصفة سنوية، وكنا نزور العائلة والأشقاء والأقارب، ودائما كان يدور بيننا الحديث في أمور كثيرة، ولكن لغتي العربية الضعيفة كانت تمثل عائقاً بالنسبة لي ومثل هذه الأحاديث والزيارات المستمرة كانت تجهدني، ولا يمكنني أن أطلق عليها مسمى إجازة، ولكن سامي كان يسعد بسفرنا إلى مصر، وفي نفس الوقت عندما يعود إلى ألمانيا ـ بلده الثاني ـ يشعر بالسعادة الغامرة، لقد اعتاد على الحياة في ألمانيا، وأنا أيضا أسعد بوجودي هناك، لأنني لم أتكيف على الحياة في مصر لأنها ـ ببساطة ـ مليئة بالضجيج المزعج والازدحام الخانق.

أراد سامي أن يربي أبناءنا تربية دينية كالتى نشأ عليها، ولكنني لم أوافق على ذلك لأنني نشأت مسيحية (من أتباع مذهب مارتن لوثر)، وبالتالى تعلم أطفالنا في المدارس المذهب البروتستانتي (حيث يدرس هذا المذهب في المدارس الحكومية في ألمانيا)، وقد حاول سامي في أوقات فراغه أن يشرح للأطفال تعاليم الدين الإسلامي واستمر فترة يداوم على ذلك ولكن العمل أخذه منهم، وبالتالي كان تعليمهم الإسلامي ضعيفا. عندما بلغت ياسمين الثامنة عشرة من عمرها، قررت وبشكل متعمد جدًّا أن تخالف عقيدة أبيها، وأن تخالف أيضاً جميع العادات المصرية وفضلت الحياة في ألمانيا؛ إذ شعرت بأن ألمانيا هي موطنها الأصلي وهي الآن تعمل طبيبة بيطرية بعد أن حصلت على شهاده الدكتوراه، ولديها صديق ألماني ويخططان للزواج قريبا، ولكن كانت هذه العلاقة صعبة جدا على سامي، وخصوصا أنه طلب صراحة من الشاب أن يعتنق الإسلام قبل الزواج، ولكن موضوع الدين لم يكن مطروحا للنقاش بين ياسمين والشاب، ولكن هذا الموضوع كان دوما مثار خلاف وصراع في العائلة، وأكثر من عانى بسبب هذا الموضوع الشائك هو سامى الذى حرص دوما على ممارسة شعائره الدينية وخصوصا منذ وفاة

والده عام 1987 فهو يقوم بأداء الصلاة، وصيام رمضان، والزكاة، ولا يتناول الخمر، كما أدى فريضة الحج مرتين.

أما بالنسبة لطارق فبعد أن أنهى دراسته الثانوية، رجع إلى الأسكندرية وأقام فيها مدة عام ليتعلم اللغة العربية في الجامعة؛ ولأن طارق له شخصية خاصة، فقد كان قادراً على التكيف والحياة مع أقاربه؛ حيث قضى معظم وقته مع أولاد عمه، الذين كانوا يرافقونه في كل مكان وهكذا أتقن اللغة العربية تماماً، وخلال ذلك العام تحول بكل كيانه صوب الإسلام وأصبح مسلما تقيا؛ فهو مواظب على الصلاة والصوم ولا يشرب الخمر، في الأساس كان طارق يهوى دراسة الطب في مصر، ولكنه رسب في مادتي الكيمياء والطبيعة، ومن ثم لم يتم قبوله في كلية الطب في مصر، ولكنه حاليا في ألمانيا، وقد بدأ فى دراسه الطب في جامعة هال، وبعد التخرج في الجامعة يريد أن يستقر في مصر؛ فهو شديد الانتماء لوطنه مصر و يشعر تجاهها أكثر مما يشعر تجاه ألمانيا.

بصفتى أمًا أريد من أولادي أن يتخذوا قراراتهم بأنفسهم، كما أريد سعادتهم، وإن تزوج ابنى طارق فتاة مسلمة فسوف أقبلها في الأسرة بكل حب وترحيب؛ تماما كما رحبت بزوج ابنتي الألماني.

من الطبيعي جدا أن يرغب سامي بشده أن يعتنق أبناؤه عقيدته الإسلامية، لذلك كان اتجاه طارق العقائدى يسعده للغاية، ولكن الأمر مختلف مع ابنتنا ياسمين؛ إذ حاول سامي أن يشرح لصديق ياسمين حقيقه ما بداخله فصارحه قائلاً : " إذا لم تصبح مسلماً سأكون لطيفا معك وسأعاملك بالحسنى، ولكني لن أكون صديقك".

أعتقد أن هذا أمر مخجل، ولكن يجب أن نتقبله، ونتعايش معه، لقد عانى سامي كثيرا من هذا الوضع؛ والسؤال الذى يطرح نفسه :

لماذا يشعر الأبناء " الذكور " بأنهم منجذبون نحو الإسلام ؟ والإجابة عن هذا السؤال بسيطة جدا حسبما أعتقد؛ هناك بعض الأسباب الوجيهة؛ فحرية وحقوق النساء محدودة جدا في الإسلام، كما أن اختيار هذا الدين يتطلب منهن تضحية أكبر من التضحية التى يقدمها الرجال؛ فمثلا طبقاً للشريعة الإسلامية شهادة الرجل في المحكمة تعادل شهادة امرأتين، كما أن المرأة تعتبر أضعف من الرجل، وفي حال عدم زواجها، فإن رعايتها تكون واجبة على والدها وإخوتها الذكور.

والأسرة في مصر مهمة جدًا، علاوه على أن المساعدة الأسرية في نطاق الأسرة تعد أمراً مسلماً به تماماً ـ فعلى سبيل المثال ـ زوجي يحب كل إخوته، ويهتم ويرعى شئون أخته وهذه المسئولية تعتبر جزءا من عقيدته الإيمانية؛ فهو يفعل ذلك دون انتظار أي مقابل، فإن قدم لها مساعدة مادية فلا ينتظر أن تردها إليه. لقد لمس هذا التضامن والتكافل الأسرى شغاف قلبي، ويرجع السبب فى ذلك إلى أننى لم أعهد مثل تلك القيم في بلدى ألمانيا حيث لا تمثل الروابط العائلية والمشاعر القوية للتآلف قاعدة اجتماعية سائدة؛ حقيقة الأمر تتمثل فى أنها استثناء أكثر من كونها قاعدة.

عندما أتيت إلى مصر أول مرة عام 1980 كانت أزياء النساء فيما مضى تختلف كثيرا عن اليوم؛ فكنا نرى الملابس القصيرة والمكشوفة، ولكن منذ ذلك الحين تغير المجتمع المصرى بشكل كبير، وكثير من النساء أصبحن محجبات، بل ومعظم هؤلاء السيدات المحجبات، كن يرتدين الملابس القصيرة والمكشوفة منذ عشرين عام ! كذلك أصبحنا نجد ملصقات معلقة في

محطات الترام والحافلات تشرح " الطريقة الشرعية لملابس المرأة المسلمة "، ولكنى أكاد أجزم أن المرأه اليوم أصبحت ضعيفة الثقة بنفسها وأكثر انطوائية، وخائفة من النظر إلى الآخرين، كى لا يجعلها ذلك تبدو فى نظر العامة معوجة السلوك؛ ولكن ذلك يتعارض مع حقيقة أن كثيراً من الفتيات في مصر يذهبن إلى الجامعة ويعملن في الوظائف العامة.

هذه التطورات المجتمعية من بين الأسباب التي جعلتني لا أحبذ الذهاب إلى مصر كثيراً؛ لقد اختلفت نظرتى عن السابق؛ ففي عام 1980 شعرت من خلال التجربة والاحتكاك بأن مصر بلد رائع منفتح له خلفية ثقافية وحضاريه عالية، أما الآن فقد تغير كل شيء، ولم تظل الأوضاع كما كانت؛ فمثلا ما زالت النساء يرتدين الملابس المكشوفة في حفلات زفافهن ويستخدمن المكياج، ثم بعد ذلك بيوم واحد، يتحجبن ويغطين أنفسهن من شعر الرأس إلى أخمص القدمين وذلك حتى لا يظهر شيء من الجسم، وأنا أجد فى ذلك نوعا من أنواع التناقض، كما أننى ـ على المستوى الشخصى ـ أعرف كثيرات من الألمانيات اللاتى أعتنقن الإسلام لأسباب عملية؛ والأمر لا يتطلب أى إجراءات معقدة؛ لأن إشهار الإسلام يتم ببساطة؛ إذ يتم الامتثال أمام هيئة رسمية (مصلحة حكومية) ويتم من خلال إعلان (اعتراف) بسيط، وليس هناك حاجة لدراسة الدين، على عكس الدين اليهودي؛ الذي يطلب من الشخص أن يتلقى تعاليم وتوجيهات لمدة لا تقل عن ثلاث سنوات، وكذلك الحال مع الديانة المسيحية؛ يتطلب من المرء أن يدرس أسس المسيحية لمدة عامين ـ على الأقل ـ قبل أن تقبله الكنيسة، أما أنا فحينما أتحدث عن نفسى يمكننى أن أقول أن التحول للإسلام لم يرد يوما بذهنى؛ وربما يرجع السبب فى ذلك إلى أننى قد عشت في ألمانيا طوال هذه السنين قانعة بعقيدتى الإيمانية، فلماذا يجب عليّ أن أغير كل شيء؟!..

لم أجد ما يستدعى ذلك ...!!

للأسف توفي والد زوجي منذ سنوات وكذلك توفي والدي، علاقتي بوالدة زوجي كانت جيدة جدًّا؛ وكانت لغتي العربية قد تحسنت تماما وكنت أستطيع التحدث إليها و التواصل معها، ولكن بسبب عدم سفرى إلى مصر كثيرا، فقد تدهور مستوى اللغة العربية لدى بصورة كبيرة ،لأن اللغة ممارسة، لذلك نجد الشخص الذى يستخدم اللغة بصورة عابرة أو سطحية ينساها بسرعة.

عندما كبر الأولاد كنت أسافر إلى مصر؛ فقمت بزيارة القاهرة والصعيد ورأيت أسوان ومعابد الأقصر، وقمت برحلات إلى الكنائس والأضرحة، و لقد أثرت فينا الحضارة المصرية، وبعد هذه الرحلات أحسسنا بأننا اكتسبنا الكثير من مشاهداتنا لتلك الأماكن السياحية و المناطق الأثرية التى يفوح منها عبق التاريخ؛ ففي مصر ثراء طبيعى لابد وأن يلقى بظلاله ليترك انطباعات رائعة أثرت فينا طويلاً.

والآن جاء دور الحديث عن بعض الأمور المنزلية؛ أنا شخصيًّا أحب المطبخ المصري وسامي كذلك يحب بعض الأطباق، لذلك إن أردت أن أوليه اهتماما وأعرب له عن امتنانى أطهو له " المسقعة "؛ فجميعنا نحب تناول هذا الصنف من الأكل، أما بالنسبة لي فأنا أحب الملوخية.

أما بالنسبة للأعياد فقد توصلنا إلى تسوية بسيطة ترضينا جميعا؛ إذ نحتفل بأعياد المسلمين و المسيحيين على حد سواء، وهذه التسوية المتعادلة أضافت عبئاً عليَّ في التجهيز والطهي ودعوة الأهل والأصدقاء !

بعد أكثر من عشر سنين ورثت أموالا عن والدى وبدأت مشروعًا جيدًا، فقد كنت أحلم دوما بأن أدير مكتبة خاصة بي، وقد قمت بإعداد نفسى لهذا

الأمر؛ ففي البداية أكملت برنامجا تدريبيا مدته ستة أشهر؛ تعلمت فيه كل الأشياء الضرورية مثل : الشراء والمحاسبة والإدارة والضرائب وكل شيء مهم لإدارة المكتبة وكذلك خطط الأنشطة التجارية والمبيعات والأرباح والخسائر، وبعدها أدركت أنني لولا تلك الأساسيات النظرية لما استطعت أن أحقق نجاحا فى هذا المجال.

في عام 1996 افتتحت مكتبتي في جرنوي، وأنا الآن بائعة كتب مستقلة وناشطة وعندي موظفة تساعدني وبرغم ذلك، لا أستطيع أن آخذ إجازة طويلة، وهذا السبب هو ما جعلني لا أسافر إلى مصر كثيراً، وهناك سبب آخر هو أنني – فى واقع الأمر ـ لا أجد راحتى في مصر؛ فقد وجدت أن مدينة الأسكندرية مدينة مزعجة لما فيها من ضوضاء وازدحام.

في السنوات الأخيرة ما زال سامي يسافر وحده إلى مصر، يزور أمه وأقاربه وأصدقاءه، ومع ذلك فهو يسعد دائماً بعودته إلى ألمانيا؛ التى يعتبرها وطنه الثاني.

عندما كان والد زوجي على قيد الحياة، كان يصطحب زوجته (والدة سامي) ويزورنا بانتظام مرتين في العام حيث كانا يقضيان معنا أربعة أو ستة أسابيع، وكانا يتواصلان مع والديّ بشكل مدهش و برغم صعوبة الكلام بينهم إلا أنهما كانا مرحين جدًا حتى أن والد زوجي ـ في بعض المناسبات ـ كان يتناول قليلا من النبيذ، وجدير بالذكر أن والداي لم يسافرا قط إلى مصر ولا أعرف لماذا !!؛ أعتقد أن السبب وراء ذلك هو أن والدي كان دائماً مشغولاً بإدارة شركته الخاصة.

لم نندم أبدا أنا وسامي على قرارنا أن نعيش معا في ألمانيا، فالزواج في ظروفنا كان يتطلب تضحية من كلا الطرفين أكثر من الأزواج الذين نشأوا

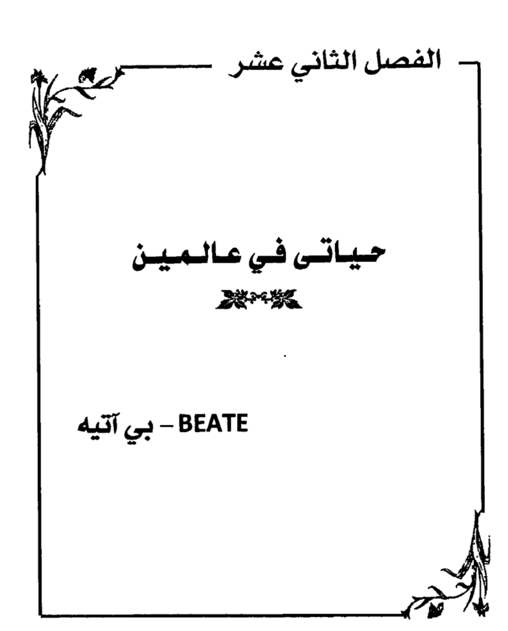
في بيئة ثقافية واحدة، ولكن بالنوايا الطيبة المتبادلة نستطيع أن نتعلم من بعضنا ونتكيف مع أوضاعنا ونعمل جاهدين على تذليل العقبات؛ لقد كان زوجى مثلا حيا للزوج المتعاون؛ فمن خلال إصراره وعزمه على أن يعيش معي في ألمانيا، جعل سامي قراري بالزواج منه أمرا يسيرا بالنسبة لي، بالتأكيد كانت لدينا بعض المشاكل التي تجاوزناها، وأكاد أجزم أننا بذلك قد تفوقنا على الكثير من العائلات المختلطة في مصر.

إن مركز حياتنا هنا في ألمانيا. ولكن سامي لديه جذوره في مصر وبالتأكيد، إقامته فى ألمانيا لم تغير الحقيقة التى تكاد تنطق لتفصح عن نفسها و هى أن مصر بالنسبة له هى " الوطن"؛ لقد كان سامي دائماً يرى أن مصر هى بلاده التى لا يمكنه أن ينسلخ منها، وربما كان شأنه فى ذلك هو شأن كل المصريين الذين يرون الأمور بنفس الطريقة، وكذلك ابننا طارق فهو مفتون بمصر قلبا و قالبا، وأذكر في إحدى المناقشات التى دارت حول الفرق بين البلدين أن طارق قد ذكرعبارة واحدة :

- " إن مصر فيها روح ! "

أعتقد أن مثل تلك العبارة تحمل الكثير من المعانى وتستحق الكثير من التأمل ..... يجب عليَّ أن أعيد التفكير في هذه العبارة طويلاً ......

*****



الفصل الثاني عشر

حياتى في عالمين

BEATE – بي آتيه

هى سيدة مفعمة بالحيوية متوسطة الطول، ذات شعر أسود، ولها طلة شبابية، اسمها بى آتيه Beate ، وتتحدث اللغة العربية بصورة جيدة لافتة للنظر، وهى بذلك تفوقت على الكثير من الأجانب الذين عاشوا في مصر لسنوات طويلة، فعلى الرغم من لهجتها المتأثرة بلغتها الأصلية، إلا أن أسلوبها فى نطق اللغة العربية بدا طبيعياً للغاية، تلك هى الحقيقة التي أكدها بعض المصريين الذين سمعوها.

تم التعارف بيننا حين قابلتها في الإسكندرية أثناء تواجدها مع مجموعة من الألمان، ولقد تأثرت على الفور بأسلوبها العفوي المتفتح، وقدرتها على النفاذ التلقائى السريع نحو الآخرين، قضت بي آتيه Beate مع زوجها معظم سنوات حياتهما في ألمانيا التى شهدت لقاءهما الأول .

تحدثنا باستفاضة ـ في بداية الحوارات التى جمعتنا معاً ـ عن قصتها الشخصية فضلاً عن قصص الأخريات ويبدو أن بي آتيه Beate لديها وجهة نظر إيجابية تجاه الحياة؛ بدا ذلك واضحاً حينما أردفت قائلة : "عندما أفكر في مشاكل الآخرين تزداد قناعتى الشخصية بأننى الأوفر حظا و الأكثر سعادة، بل وأحسب أن حياتى الزوجية كانت بمنزلة الصفقة الناجحة". وفيما يلي قصة بي آتيه، كما ترويها هي؛ وقد أضافت لها بعض الملاحظات الخاصة بها :

التقيت بزوجي عبده في أبريل عام 1971 في مدينة آخين Aachen وكان وقتها يبلغ من العمر 36 عاما، بينما كنت أبلغ أنا 24 عاما، وكنت أعمل في جامعة أخين التكنولوجية، وكان عبده قد تسلم لتوه أول وظيفة له بعد حصوله على درجة الدكتوراة، كلانا سبق له الزواج، لهذا كنا حذرين ومتوجسين من أي ارتباط جديد، لكن ذلك لم يحول دون حدوث الانجذاب والتقارب بيننا وهكذا بدأنا علاقتنا الجديدة التى تطورت سريعا وبشكل مثير للدهشة .

فلنتحـدث الآن عـن حياتنـا الـسابقة قبـل أن تجمعنـا الأقـدار معًـا؛ ولنـستعرض أولاً الجانـب الخـاص بعبـده؛ فقـد ولـد عـام 1935 في مدينـة الإسكندرية؛ وسط عائلته التى تنتمى للطبقة المتوسطة، وكـان ترتيبه الثالث بين ثمانية إخوة، والده رجل أعمال، وكانت والدته صغيرة السن حين تزوجت، ولا أحد من أولادها يعرف عمرها الحقيقي؛ ففي مصر لا تتحدث الغالبية العظمى من النساء عن أعمارهن الحقيقية؛ إذ يعتبرنه سرًّا كبيرا! .

حصل عبده على الثانوية العامة في الإسكندرية، شأنه فى ذلك شأن أخيه الأصغر، وكلاهما أراد بعد ذلك الدراسة في أوروبا؛ و يرجع السبب الأول فى ذلك إلى حب المغامرة و الاسطلاع علاوة على أن الدراسة هناك أفضل من الدراسة في مصر، ولكن كليهما لم يكن قد قرر بعد أي مجال للدراسة سيكون مناسبا لهما؛ فسافرا أولا إلى فيينا Viennaعـام 1955والتحق عبده بكلية الصيدلة، وأخوه بالهندسة الكهربائية وتحمل والدهما مصاريف الدراسة، وكانت المصروفات تصل إليهما عن طريق مكتب البعثات الدراسية في مقر الملحق الثقافي بالسفارة المصرية؛ وفي فيينا أقاما في غرفة مشتركة استأجروها من سيدة لطيفة حسنة المعاملة؛ وعلى الرغم من ذلك، فإن الأمور لم تكن يسيره؛ فقد بدا كل شيء جديداً عليهما فى بلاد الغربة؛ إذ كان لزاماً عليهما أن يتكيفا على ظروف الحياة الجديدة؛ فمثلاً في الشتاء لم يعتادا على برودة الطقس التى تميز المناخ فى أوروبا؛ فكان يجب عليهما إشعال موقد الفحم، وهذا الشيء لم يسبق لهما القيام به فى بلدهم مصر، علاوة على أنهما لم يكونا قد درسا اللغة الألمانية بعد، فاشتروا قاموسا "فرنسي- ألماني" وكانا يبذلان جهدا كبيرا في الدراسة؛ و قد ساعدهما فى ذلك إلمامهما باللغة الفرنسية التي درساها في المرحلة الثانوية، فقد تخرج الاثنان من مدرسة العباسية الثانوية بالأسكندريه قسم فرنسى، و هى نفس المدرسة التى تخرج

منهـا والـدهما وسـبق لهمـا قـراءة مؤلفـات "فيكتـور هوجـو" "وبلـزاك" باللغـة الفرنسية، بالإضافة إلى كلاسيكيات الشعراء العرب من العصور القديمة، وهو أمر ليس مألوفاً أو عادياً بالنسبة لطلاب اليوم، ومع ذلك، كان كلاهما يعانـي قـصوراً شـديداً في مادتــي الرياضـيات والفيزيـاء لحـصولهما علـى شـهادة التوجيهيـة قسم الآداب وكـان الأمـر يتطلـب منهمـا إحـراز تقدم سـريع لـشق طريق الدراسة الصعب وإحراز النجاح.

بعــد انقــضاء العــام الأول مــن دراســتهما بالخــارج واجتيازهمــا للامتحانـات بنجـاح وبتقـدير "مقبـول"، قررعبـده وحـده تغييرمجـال دراسته وترك النمسا، أما أخيه فقد استقر فيها لمزاولة دراسة الهندسة فرع الكهرباء .

تـرك عبـده النمـسا، وعـاد مـع صـديقه أحمـد إلى الإسـكندرية لقـضاء الإجازة الدراسية ثم قررا معاً الرجوع إلى أوروبـا لدراسـة هندسـة البترول التـي تتـيح لهمـا ـ فيمـا بعـد ـ فـرص عمـل في صـناعة الـنفط؛ و كانـت وجهتهمـا التـالية هي السويد .

وفي طريقهمـا إلى الـسويد زارا مدينـة آخـين في ألمانيـا و بعد أن علمـا أن الجـامعة التكنولوجية هنـاك تحظى بسمعة طيبـة كـان قرارهمـا بالبقـاء فيهـا؛ ولكن نظرا لعدم وجود قسم خـاص لدراسة هندسة البترول بهـا اضطرا لدراسـة المنـاجم العـامة، ولم يتطلـب الأمـر منهمـا أن يفكـرا كثيراً، فسرعـان مـا التحقـا بالجـامعة و شرعـاً في دراسـتهما، وخلال العطلـة بـين الفـصلين الدراسـيين كـان مطلوبـا منهمـا الخـضوع لفـترة " تـدريب عملـي " إلزاميـة في منـاجم الفحـم، ويمكننـا أن نتـصور مـاذا يعنـي التـدريب في المنـاجم بالنـسبة لهـذين الـشابين اللذين اعتـادا قضاء الإجازات الصيفية في مدينة الإسكندرية لمده ثلاثـة أشهر لا يعملان شيئا خلالهـا سـوى ملاحقـة الفتيـات واللـهو على الـشواطئ، وفجـأة

وجدا نفسيهما على عمق ثلاثة آلاف قدم تحت سطح الأرض يقومان بأعمال شاقة؛ لقد كان بالفعل عملا مجهدا وعنيفا، وبرغم ذلك فقد كانا يتسمان بالمثابره وقوة العزيمة، ومنذ ذلك الوقت أصيب عبده بمرض "الربو" نتيجة لاستنشاقه غبار الفحم المتصاعد أثناء العمل الشاق .

بالطبع لم تقتصر حياة عبده على دراسته فقط؛ بل كانت له حياته الخاصة، حيث التقى بزوجته الأولى ـ وهي مصممة أزياء ـ عام 1958، وقد شهد عام 1962 زواجهما وفي نفس العام جاء ابنهما أحمد إلى الدنيا، ثم استأنفت زوجته عملها، كما عاد عبده يتابع دراسته وتخرج عام 1965 .

سافرت العائلة الصغيرة إلى مصر عام 1965 و قرر عبده أن يبحث عن عمل ويستقر في مصر بشكل دائم، في ذلك الوقت بدأت أعمال الإنشاءات الخاصة بمشروع نقل معابد أبو سمبل بأسوان و التى قامت بتنفيذها شركة هوختيف الألمانية وكان مطلوب عمال مهرة مؤهلين للقيام بتلك الأعمال، فقدم عبده نفسه للشركة و لكن الراتب الذى عرض عليه كان لا يكفي لإعالة أسرة، لذلك عاد مع زوجته وولده إلى ألمانيا بعد ستة أشهر. و كان له هدف آخر، ألا وهو الحصول على درجة الدكتوراة.

فلما أباح عبده لوالده بهذا الغرض حظى بسروره الكبير ووعده بالمساعدة و الدعم المادى. وهكذا بدأ عبده فى دراسة و عمل الدكتوراه في الهندسة المدنية وعادت زوجته لمزاولة مهنتها، ولكن في عام 1968 فشل زواجهما، إذ لم يحدث بينهما التوافق الذى كان يمكن أن يساعد على استمرار تلك الزيجة، فقد كان لكل منهما عملاً مختلفاً، كما أن وقتهما كان ضيقاً ومحدود، ولم يتفرغا لابنهما أحمد، فقررا أن تتولى رعايته أسرة بديلة، ولكن ذلك لم يكن هو الحل الأمثل، فسرعان ما تفاقمت المشكلات بينهما،

وبدأت إجراءات الطلاق والوصاية على الطفل ولقد استغرقت سنوات طويلة، كان أهم شيء بالنسبة لعبده هو أن يتولى تربية ابنه أحمد، ولكن زوجته أرادت أن تضم ابنها لحضانتها .

تسببت تلك المشاكل التى حدثت له مع زوجته الأولى إلى تحول شخصية عبده على المستوى المعنوى والعاطفي؛ فقد أصبح أكثر حذراً عند الاقتراب من أي امرأة أخرى لدرجة أن أحد أصدقائه كان يردد بأن عبده يحتاج إلى "زوجة ذات مواصفات خاصة"؛ وهذا إن دلّ فإنما يدل على مدى تخوفه من خوض التجربة مجدداً .

أما أنا فقد نشأت بالقرب من مدينة أخين Aachen، وكنت الابنة الوسطى من بين خمسة إخوة، وبعد تخرجي من المدرسة الثانوية حصلت على دورة تدريبية وبدأت العمل في إحدى البنوك، ثم تزوجت في سن العشرين على عكس نصيحة والداي، ولكننى مع مرور الوقت ازددت نضجاً واتضح لى أن رؤية والدي تجاه مستقبلى كانت أكثر مصداقية وعقلانية، واليوم أدركت أننـي وزوجي الأول كنا صغيرين على اتخاذ مثل هذا القرار، وخصوصاً أن علاقتنا لم تكن قد بنيت على التوافق، وعلى أي حال، فقد انتهى زواجنا بعد عامين وانفصلنا بطريقة ودية .

وبعد طلاقي رجعت إلى أخين، وقد كنت محظوظة لأننى استطعت العودة لوظيفتي السابقة في البنك، وبدأت في العمل من جديد ولكننى بعد عدة سنوات أردت تغيير حياتى المهنية، لذلك حين قرأت إعلانا عن وظيفة شاغرة في الجامعة التكنولوجية في أخين، بادرت بتقديم أوراقي وتسلمت الوظيفة، وعملت كمساعدة إدارية في معهد العمليات الهندسية، وجدير بالذكر أن تلك الوظيفة لم تكن شيقة أو مسلية بالنسبة لي، ولكني أحببت

المكان، وكانت علاقتى بالناس طيبة، وبجانب ذلك أتيحت لى فرصة ممارسة الرياضة داخل الصالة الرياضية بالجامعة، و هناك قابلت عبده في أبريل عام 1971 وكنت قد بلغت وقتها 23 عاما، انطلقت شرارة الحب بيننا منذ أول لقاء، وقد أحَس عبده بمشاعر خاصة نحوي، أما أنا فقد كنت متريثة واستغرق تفكيري فترة أطول، ومع ذلك ، استطاع كلانا أن يتناسى تجربة زواجه السابقة، وأدار ظهره للماضى بدافع فطرى ورغبة فى حياة أفضل، وكان قد مضى على طلاقي نحو ستة أشهر تقريباً، لذلك قررت أن أفكر وأدقق في كل شيء قبل الدخول في تجربة زواج جديدة، ولكن بغض النظر عن ذلك، لقد كان الطلاق بالنسبة لعائلتي – فى ذلك الوقت ـ فضيحة كبرى، أما حاليا فقد أصبح للناس رأي مختلف في ذلك الأمر؛ إذ تغيرت نظرة المجتمع عن السابق؛ ولم يعد الطلاق وصمة عارٍ على المرأه كما كان .

فى ذلك الوقت لم يكن والديّ سعيدين بهذا التطور الجديد الذى طرأ على حياتى الشخصية، ويرجع السبب فى ذلك إلى أن عبده شاب أجنبي ومن الناحية القانونية لم يكن طلاقه قد تم بصورة رسمية، بالإضافة إلى وجود مشكلة على حضانة الطفل الذي كان عمره نحو 9 سنوات، وفي خضم هذه الحياة ومشاكلها شعرت أن عبده سعيد بلقائي منذ اللحظة الأولى؛ لقد كانت بوادر الحب واضحة وكانت كفيلة بإضافة مظاهر الحياة المبتهجة على ملامح الماضى التعيس .

في ذلك الوقت ترددت شائعات كثيرة حول العرب، وترددت حكايات رهيبة عن نساء ذهبن إلى هذه البلاد ليجدوا أن الصورة الوردية قد تحولت إلى صورة قاتمة بفعل سوء النوايا والأطماع المادية! إلا أن كل هذه الشائعات والحكايات لم تنل من عزمي ولم تزعجنى، فقد كنا نعيش قصة حب جديدة، وكانت الرومانسية ترفرف فى الأجواء، تلك المشاعر كانت أهم شيئاً بالنسبة

لي؛ إذ كنت مدفوعة لتلبية نداء العاطفة الطبيعية المتأججة بداخلي والتى كنت أفتقدها كثيرا، و حين وجدتها شعرت أننى وجدت ضالتى المنشودة.

وفي يوليـــة عـــام 1971، ســـافرنا لأول مـــرة إلى الإســـكندرية بمـــصر واصطحبنا أحمد معنا؛ وكان قد مضى على تعارفنا نحو ثلاثة أشهر فقط .

وقبل اتخاذ أي قرار، عزمت على أن أتعرف على عائلة عبده وطبيعة بلاده التى لم أكن أعرف عنها شيئا؛ لذلك أقمنا مع عائلة عبده في هذه الزيارة، وبالطبع لم أفهم ماذا قال لهم عني؛ ولا أدري إن كان قال لهم إننا تزوجنا أم لا ؟!، لم أكن على دراية باللغة العربية وبالتالى لم يوجد لدى أي وسيلة لفهم ما يقولون ولم يكن ظاهرا أمامى أى مناقشات تدور بينهم؛ ولكن كان هناك بعض الأمور الداخلية تتم في العائلة، وهى تعدد زيارات الأخوة والأعمام والخالات وأبناء الأخوة والأخوات بصورة مستمرة وبصفة يومية، لم يكن لديّ أدنى فكرة عما يدور حولي، وبالطبع لم تكن لدى القدرة على فهم شيء مما يقولون، ولم أجد من يترجم أو يفسر لي أي شيء . ولكني وجدت شيئا آخر مزعجا؛ إذ إن عبده لم يكن قد أخبرنى عن طبيعة ملابس النساء في بلده، والتى - بالطبع - تختلف كليا عن طبيعة ملابس النساء فى ألمانيا، أو أوروبا بوجه عام؛ لذلك كانت كل الملابس التى أحضرتها معي قصيرة، وأحسست بأنها غير مناسبة تماما لطبيعة المجتمع؛ ففى ذلك الوقت كانت النساء في مصر ترتدي ملابس صيفية بأكمام قصيرة ولكنها لم تكن بنفس القصر في أوروبا، كما كنت منزعجة طوال الوقت لأنني لم أجد من ملابسي ما هو مناسب لأرتديه، وخصوصا أن الجو حار في منتصف الصيف، هذا بالإضافة إلى وجود الكثير من الأشياء التى بدت غريبة فى نظرى، كما أننى - تحت أى ظرف من الظروف - لم أرغب فى ارتكاب أخطاء، بل أردت أن

أترك انطباعات طيبة على المستوى الشخصي، كما أردت أن أكسب تلك العائلة على المستوى المعنوي .

كنا قد سافرنا من ألمانيا إلى مصر كأي شابين متحابين يعيشان جوا من الرومانسية، ولكن لسوء الحظ لم أشعر هنا في الإسكندرية بأي نوع من وهج الحب ولم أستمتع بلحظات سعادة حقيقية، إذ كان عبده منشغلا مع عائلته طيلة اليوم، منذ الصباح الباكر وحتى المساء علاوة على حرصه الدائم لقضاء أطول وقت مع والده المتقاعد، وكنا نزور الأقارب والمعارف وأناسا كثيرين نجلس معهم لساعات طويلة، وكالعادة لم أكن أفهم أي كلمة مما يقولون؛ لقد كانت حواراتهم مبهمة بالنسبة لي .

نشأ الصغير أحمد – بالطبع – وسط هذه الأجواء، وفي مصر كان يفعل كل ما يريد أن يفعله، دون أن يتلقى أى توجيه أو تأنيب أو تقويم لسوكه، أما أنا فقد نشأت في ألمانيا وسط أسرة حازمة، ففي مصر تختلف الآراء والمواقف السلوكية تجاه تربية الأطفال وتنشئتهم عن مثيلاتها في ألمانيا، أما الأطفال فيفعلون ما يحلو لهم، ويصرون دائما على أي شيء يريدونه وإن أخطأوا لا يقومهم أحد بحزم، وكذلك إن أحدثوا ضجيجاً لا يجدون من ينهرهم، وقد كان هذا الوضع بالنسبة لي معقداً للغاية، ومدعاه لتوترى لأنني – بالدرجة الأولى – لا أرغب في ارتكاب أي أخطاء تؤخذ ضدى، ومع ذلك كانت أحيانا تجد المشاكل طريقها بيني وبين عبده، بسبب سوء الفهم واختلاف العادات؛ فلم يكن قد مر على تعارفنا سوى فترة قصيرة .

كان والد زوجى ووالدته يتسمان بالود والطيبة معى، وكانا يبذلان قصارى جهدهما ليشعراني بالراحة، لقد شعرت بالفعل أن كل شخص حولي يحاول إرضائى، وأذكر ذات مرة أن والد زوجى عاد إلى المنزل حاملا

معه زجاجة نبيذ؛ فقد أراد أن يقدم لى التحية بطريقة أوربية خاصة، وكان الحصول على بعض السلع فى هذا الوقت يتطلب الوقوف فى طابور طويل، كما كان يوجد نقص فى بعض المواد على سبيل المثال : ورق التواليت والصابون، تلك الظروف تذكرنى بالأحوال التى كنا نعانى منها فى جمهورية ألمانيا الديمقراطية (ألمانيا الشرقية سابقا)، وعلى الرغم من صعوبة الحياة كان جو المحبة يعم الأسرة، وكانت أصوات الضحكات والنكت تملأ المنزل .

أقمنا مع أسرة عبده في شقتهم القريبة من البحر، وأذكر أننى أردت السباحة ذات يوم، ولكن لم يكن مسموحاً لي ـ بأي حال من الأحوال ـ أن أذهب بمفردي، فهذا الأمر خارج عن المألوف والمعقول فى مصر بصورة كلية لا تحتمل المناقشة، ذهبنا مرات قليلة مع العائلة إلى حي المنتزه؛ إلى شاطئ خاص حيث أمكننى السباحة هناك وأنا أرتدى لباس البحر "البكيني" بعيدا عن عيون المتطفلين، قضت العائلة يومها على الشاطئ فى الكابينة الخاصة بأخت عبده وزوجها تأكل و تتحدث و كان الأطفال وحدهم هم الذين يدخلون الماء ويسبحون، أما الكبار فقد ظلوا على الشاطئ يقضون وقتهم فى الأحاديث وتناول الطعام ..

كم كنت أود قضاء بضعة أيام مع عبده وحدنا، أو على الأقل أن تسمح لنا الظروف بأن نمشى معاً في المساء على الشاطئ من حين إلى آخر، ولكن هذا كان صعباً جداً إذ لم نجد خمس دقائق نقضيها معا، وبعد ثلاثة أسابيع عدنا أدراجنا إلى ألمانيا .

بعد قضاء إجازتنا عين عبده في مشروع كبير لصناعة الألومنيوم في هامبورج Hamburg حيث انتقلنا إليها جميعاً فى شهر ديسمبر فى نفس العام و هذا لرغبتنا فى الاستقرار و لتفادى التنقل الدائم بين البلدين، وعليه

استقلت من عملي في آخين، مع أنني كنت أتوجس خيفة من ترك تلك الوظيفة المضمونة، ومما زاد من تخوفى هو النصيحة المخلصة ذات النية الطيبة التى سمعتها من جميع معارفى والتى كانت تحبذ بقائي وعدم تركى لتلك الوظيفة حرصا منهم على مستقبلى .

ولكننا اتفقنا على أن الحياة العائلية يجب أن تأتى فى المرتبة الأولى، فى البداية، كان عبده يعمل بينما بقيت أنا في المنزل، ولكن بعد ذلك حصل عبده على حضانة أحمد الذى أصبح يعيش معنا، وبدأ يدرس في مدرسته وكان من الطبيعي أن الطفل لم يسمح لي فى البدء أن أتكلم معه كثيراً، ولكننا تدريجيا بدأنا نتعايش معا كأسرة واحدة بصورة اعتيادية .

فارق العمر بيني وبين عبده لم يكن كبيرا؛ مما ساعد على سرعة إزالة الحواجز بيننا، وهكذا بدأنا نتكيف سويا، فقد أحببنا أن نعيش في هامبورج باعتبارنا أسرة واحدة وقد عرفنا أنا وعبده كيفيه التعامل مع بعضنا بشكل جيد وبصورة ناجحة، ولكن سرعان ما ظهرت الاختلافات الثقافية بيننا بشكل أكبر مما توقعناه، فمثلا حينما أتعامل بصورة لطيفة مع أى رجل غريب، تظهر الغيرة على عبده فورا، مما أثار حفيظتى واستنكارى، وذلك لأننى نشأت فى رينلاند Rhineland وسط أسرة منفتحة على الناس ولم اعتاد على أن يفسر أى شخص سلوكى على هذا النحو، وأن تترجم تصرفاتى الودودة مع الآخرين بسوء نية، ولكن في مصر الأمور مختلفة تماما، فمعظم الرجال المصريين غيورون جدا، لذلك ظل النزاع قائماً بيننا حول هذه الأمور وكنا دائما نحاول أن نتوصل إلى تفاهم مشترك واستغرق الأمر فترة طويلة حتى توصلنا إلى تسوية مناسبة .

تعلمت كيف أتكيف مع ما يريده عبده، كما أن عبده أصبح أكثر

تسامحاً، ولكن هذا لم يعني انتهاء الخلافات بيننا بصورة تامة، لقد كانت الخلافات تظهر بصورة دائمة ولكنها كانت تدور حول أشياء صغيرة بل وتافهة فى بعض الأحيان، وكنا نتبادل الرأي حولها وكان يتم تجاوزها بفضل حسن النوايا والتسامح المتبادل.

بعد مرور فترة غير قصيرة أحببت العودة للعمل مجدداً، ولو لعدد ساعات محدودة، ولكن لم يتحقق لى ذلك، فقد ظهرت عليّ أعراض الحمل، وعندما خرجت من عيادة طبيب النساء كنت سعيدة جدا بثبوت الحمل، وكدت أطير فرحاً لدرجة أننى تصورت أنني قادرة على احتضان العالم كله . في ذلك الوقت كنت أبلغ من العمر 25 عاما، قلت في نفسي إنه العمر المناسب، فمع أننا لم نكن وقتها قد تزوجنا بصورة رسمية، إلا أن الحمل لم يزعجني، أما بالنسبة لوالديّ فقد كان الوضع مختلفاً تماماً؛ إذ كانا منزعجين وقلقين عليّ جدًّا .

وللأسف انتهت مدة إقامتنا في هامبورج بعد أقل من عام، وذلك بسبب انتهاء مهمة عبده فى المشروع الذي كان يعمل فيه، فعاد عبده إلى المقر الرئيسى للشركة التى يعمل بها في كولونيا Cologne، وكان لا بد لنا من البحث عن مسكن جديد والانتقال إليه، فاستأجرنا شقة مكونة من ثلاث غرف في بلدة صغيرة قريبة من كولونيا، وعلى الرغم من سكني القريب من والديّ، إلا أنني شعرت بعزلتي عن العالم، فليس عندي هاتف أرضي، لعدم توافر خطوط تليفونية فى هذه المنطقة، ولم يكن قد تم اختراع الهاتف الخلوى "الموبايل" بعد، ولم أكن أملك سيارة؛ لذا كنت أجلس في المنزل طوال الأسبوع، وأحمد يذهب إلى المدرسة في الصباح وأظل وحيدة طول النهار فلا يوجد لدي أصدقاء أتحدث أليهم أو معارف أتواصل معهم ولا أي شيء أفعله لقضاء وقت فراغى، و كاد الملل يقتلنى.

في سبتمبر عام 1972، أنجبت ابنتنا سامية وقد كانت طفلة جميلة هادئة ووديعة، وقد أحبها أحمد، وانشغلت أنا بها.

وأخيراً في مارس عام 1973 تحقق لنا ما تمنيناه دوماً، فقد تم عقد قراننا بصورة رسمية كما أردنا وخططنا وذلك بعد مرور أقل من عام على إنجابى لسامية، وجدير بالذكر أن كاتب السجل بمكتب عقد الزواج المدني لم يترك فرصة ليحذرني من هذا الزواج من أجنبى : حيث ذكر لي عواقب ومخاطر هذا الزواج الذي قد يجلب لي الكثير من المتاعب ولم يدخر وسعاً فى تعريفي بما قد ينتظرني من مشكلات اجتماعية؛ إذ قال لي: إن من حق عبده الزواج بثلاث نساء أخريات في مصر،كما أن حقوقي في مصر ستكون محدودة، لدرجة أنه قال لي صراحة: "انتى لست محتاجة للقيام بذلك" وقد كان ذلك كفيلا بإشعال نار الغضب فى رأس عبده الذى كان على وشك الاشتباك مع كاتب السجل، ولكنه سرعان ما استرجع هدوءه مرة أخرى، وأتممنا مراسم الزواج .

وهكذا تزوجنا أخيرا وأصبحنا سعداء، حتى أن والديّ قد كفّا عن معارضتهما لهذا الزواج. وبعد فترة قصيرة وجد عبده عملا في مدينة دوسيلدورف Dusseldorf، وكم كنا نرغب فى أن ننتقل إلى هناك على الفور وأن نترك تلك البلدة الصغيرة ولكن كان علينا أن نقضى فيها فترة عامين وهى الفترة المقررة فى عقد الإيجار المبرم بيننا وبين المالك، لذلك كان لزاما علينا التحلى بالصبر قليلا، فاشترينا سيارة لكى أقضي بها مصالحى، وبعد ذلك وجدنا بيتا جميلا في إحدى ضواحي مدينة دوسيلدورف، وهوا المنزل الذي قمنا باستئجاره فى بادئ الأمر، وبعد عدة سنوات قمنا بشرائه. في هذه الضاحية توجد حضانات ومدارس ومراكز صحية وقطار سريع إلى مدينة

دوسيلدورف، لقد عشنا جميعا و إلى الآن فى هذا المنزل الذى كان أولادنا يعتبرونه مكانا عزيزا عليهم.

وفي عام 1977 أنجبت ابننا منير، وبذلك اكتملت عائلتنا وأصبحت سعيدة بذلك، اهتممت بالأطفال وبشئون المنزل والحديقة، وكنت أشغل وقت فراغى بأشياء كثيرة؛ فقمت بصناعة مزهريات فخارية وحاولت أن أتعلم اللغة العربية، فالتحقت بدورة تعليم اللغة العربية الفصحى في الكلية، ولكن سرعان ما أدركت أن اللغة العربية الفصحى تختلف اختلافاً كلياً وجزئياً عن اللهجة المصرية الدارجة، لذلك كان كثير من المصريين يضحكون حين يستمعون إلى كلماتي الفصحى، مما أحبطنى، وجعلنى لم أتحفز للدراسة، وفي النهاية تركت هذا الأمر. أثناء هذه الدورة كنت تعرفت على سيدات ألمانيات متزوجات من مصريين و قد حاولن مثلى أن يتعلمن اللغة العربية، والطريف فى الأمر أننى قد قابلت بعضهن بعد ذلك في الإسكندرية، وهناك تحسنت لغتي كثيرا من خلال الاستماع والترديد وبهذا استطعت أن أعبر عن نفسي إلى حد ما، لقد كان تعلم اللغة العربية أمرًا مهمًا بالنسبة لى فقد أعطاني الإحساس بالأمان وأشعرنى بالاستقلالية والاعتماد على النفس وعدم الاحتياج إلى الآخرين وخصوصا في مصر.

كنا نسافر إلى مصر في الإجازات في تلك السنوات، وكنا نقضي معظم وقتنا في شقة والد زوجي، وأخيراً بنينا شقتنا في نفس المنزل الذى يقيم فيه والد زوجي مع عائلته والذي يمتلكونه منذ عدة سنوات، وكثيراً ما انشغل عبده بأعمال الترميمات والتجديدات في الشقة؛ إذ كان يقوم بعمل الإضافات والتغييرات فيها، وذلك أمر شائع الحدوث في مصر؛ فعندما يحتاج أحد الأخوة لشقة يتزوج فيها أو يقيم بها، و شرع ببناء طابق أعلى وهكذا، وذلك هو السبب فى التوسع الرأسي للأبنية .

لقد نشأ عبده مسلماً، أما أنا فقد نشأت مسيحية من أتباع المذهب البروتستانتي (مارتن لوثر)، ولكن اختلاف الديانة والمذاهب الدينية لم يتسبب فى حدوث أي مشكلة بيننا، فقد ساد بيننا وفاق حول كثير من الأمور الدينية، فعبده متسامح، ولم يتأثر بالتعاليم الدينية المتشددة.

في عام 1972 اعتنقت الإسلام؛ عن اقتناع ورأيي الشخصى أن كل أفراد الواحدة يجب أن ينتموا إلى نفس الدين؛ وكما أن الشريعة الإسلامية تنص على أن أولاد الرجل مسلمون بطبيعتهم .

وخلال تلك الفترة كان عبده يعمل في مشاريع في بلاد عربية، فقد تخصص في إدارة ومراقبة المشروعات، والذى ساعده على ذلك هو دراسته لدورات في برامج للحاسب الآلي، وكانت هذه النوعية من البرامج في ذلك الوقت فرعا جديدا من علوم الحاسب وكثير من العملاء لم يقبلوا على معرفتها، ولكن تدريجيا بدأت تتغير العقول وتختلف النظره حول هذه النوعية من البرامج التى يمكن استخدامها للعمل في المشاريع الكبيرة .

وفي بداية الثمانينيات من القرن الماضي تضاءلت طلبات المشاريع في قطاع الإنشاءات الألماني، فبدأ عبده مع صديق مصري في تأسيس شركة خاصة بهما، وحاولا القيام بتنفيذ " مراقبة وإدارة المشروعات " في المنطقة العربية، ولكن المناخ الاقتصادى والسياسى فى هذه المنطقة كانا فى حالة مضطربة، وهكذا لم تنجح الشركة .

فكرنا بشكل جاد في العودة إلى مصر عام 1986، لنعيش قريبا من العائلة هناك، بالطبع لم يكن الحال فى مصر أفضل مما كانَ عليه فى ألمانيا، لكن عبده اعتقد أنه فى الإمكان يمكن أن نعيش هناك بمدخراتنا، وهذا يتطلب منا أن نبيع بيتنا في ألمانيا، أما في الإسكندرية فقد كان لنا فيها

شقة، ولكنني لم أتحمس لهذه الفكرة على الإطلاق، لإنني أعتقد بأنه لا يمكن للمرء أن يعيش في مصر دون مصدر يدر عليه دخلاً ثابتًا كبيرًا، وربما كان يعنى ذلك أن تسوء أحوالنا في مصر أكثر مما لو عشنا في ألمانيا خصوصا بالنسبة لأولادنا، فأحمد وقتها بلغ من العمر أربعة وعشرين عاماً، وترك المنزل ويدأ يستقل بحياته، أما الوضع بالنسبة لطفلي فقد كان مختلفاً تماماً؛ فسامية كانت تبلغ وقتها أربعة عشر سنة، ومنير تسع سنوات، فهل يمكنهما فى مثل هذا السن الصغير أن يتكيفا مع الحياة ومتغيراتها الجديدة؟ ظلت تلك الأفكار تتصارع داخل ذهني طوال ليال عديدة، وتوصلت إلى قرار ـ دون استشارة عبده ـ وهو أننى مضطرة للبحث عن عمل في ألمانيا، والذى ساعدنى على اتخاذ مثل هذا القرار هو أننى كنت مؤهلة؛ فلم أكن وقتها قد تعديت الأربعين عاما، هذا بالإضافة إلى أننى قد تلقيت تعليما جيدا ولدي سنوات خبرة طويلة، ولقد لعبت الصدفة دوراً كبيراً؛ إذ وجدت وظيفة في شركة زيروكس، وبرغم أنها كانت وظيفة مؤقتة لمدة ثلاثة أسابيع فقط، وبرغم أن مهمتي فيها كانت قاصرة فقط على تصنيف الملفات، وهى مهمة بسيطة لم أحلم بمثلها، إلا أننى بذلت فيها مجهودا مضاعفا، وحاولت إنجاز كل مهمة تسند إلي على أكمل وجه، وجدير بالذكر أننى عندما قررت الخروج للعمل، اتخذت القرار بنفسي دون استشارة عبده؛ لأنه في ذلك الوقت كان في مصر، وبعد عودته دارت بيننا مناقشات حامية وحوارات متشنجه حول فكرة عملي، ويرجع السبب فى حدوث هذا الصدام إلى الموروثات الشرقية المتأصلة داخل نفسية الرجل المصري الذى تتحكم فيه طبيعته الذكورية ـ فالزوجة العاملة تعد وضعا اجتماعيا لا يتناسب مع الرجل الشرقي بوجه عام – لأن ذلك قد يعني – فى نظر الآخرين ـ أن الزوج عاجز على أن يوفر لزوجته حياة كريمة، ولكن كان على عبده أن يواجه الواقع وأن يتعامل معه بعقلانية؛ فيوم

عملي يبدأ من الساعة الثامنة صباحاً ويستمر حتى وقت الظهيرة، وبعدها يكون لي حرية التصرف فى وقت فراغي؛ إذ يمكنني أن أخصص جزءًا آخر لأولادي، وحصة أخرى لتلبية احتياجات المنزل وإدارة شئونه، ولقد حاولت جاهدة أن أشرح لعبده وجهة نظري وسبب تمسكي بالعمل، والجميل فى الأمر أنه تفهم الموقف وأخيراً تقبل فكرة عملي، و هكذا أصبح كل شيء في المنزل يمضي فى سلاسة ويُسر بفضل الحس التنظيمي الذى أتمتع به ،وبفضل نشأتى وسط أسرة تجيد تدبير أمورها .

ازدادت مسئولياتي في العمل وتشعبت كثيرا، وذلك لأنني استطعت أن أتكيف مع متطلبات أي مهمة تسند إليَّ، فقد تعايشت مع كل الموظفين في العمل وسرعان ما أصبحت معروفة في كل الأقسام، وتنقلت وعملت في كل الأقسام بمنتهى الإخلاص والنشاط، لقد كان الجانب المعنوى يلعب دوراً هاماً فى طريقة أدائي لمهامي الوظيفية، فعلى سبيل المثال، إذا استأذن موظف بسبب مرض طارئ أو طلب أحد مساعدة إضافية لا أتأخر عن تقديم يد العون، وهكذا ـ وبفضل جهودي والتزامي وطريقتى الحسنة فى التعامل مع الآخرين ـ استمر عملي في الشركة لمدة أربع سنوات تنقلت خلالها بين الأقسام المختلفة .

وفي عام 1990 بدأت شركة زيروكس عملية الاندماج مع شركة ثانية لتصبح شركة جديدة أطلق عليها اسم :XES؛ عندئذ طلبوا مني أن أعمل معهم بشكل دائم في وظيفة مساعدة مبيعات، وكنا نعمل وفقاً لنظام "تقاسم المهام" بمعنى أنني وزميلة لي كنا نتقاسم العمل بشرط أن تكون إحدانا متواجدة باستمرار، ولم يكن لزاماً علينا أن نعمل وفقاً لنظام يعتمد على "ساعات عمل محددة"، وهكذا استطعت أنا وزميلتي أن نتعامل مع أمور العمل بشكل جيد؛ فقد كنا ننظم مواعيد العملاء ونتابع الطلبات، كل ذلك

جعلنى أحببت هذا العمل بصورة حقيقية، ومما ساعد على تمسكي به، هو أن راتبي قد زاد أكثر من ذي قبل، وقد استطعنا بدخلي الثابت أن نواصل أسلوب حياتنا السابقة دون أي حرمان، وبدأت تتطور الشركة وتقيم دوارت تدريبية للموظفين بهدف تطوير الأداء، بالإضافة إلى المناسبات التى كانت تتطلب أحيانا دعوة عائلات الموظفين؛ وحينما أتحدث عن نفسي أجد أننى- على المستوى الشخصي - قد تعلمت الكثير من تلك الدورات التدريبية، التى ساعدتني كثيراً في ترتيب وتنظيم أفكاري، كما تعلمت كيفية التعامل مع المواقف المتناقضة بشكل أفضل، وكيفية اتخاذ القرارات الصائبة، وبذلك استفدت من كل ما تعلمته في هذا العمل- ليس على المستوى المهنى فقط - بل على مستوى الحياة الشخصية والعائلية أيضاً .

في ذلك الوقت بدأت سامية تمر بمرحلة صعبة؛ وهى مرحلة "منتصف المراهقة"، بكل مشاكلها التي تمر بها أى فتاة فى نفس المرحلة العمرية، ولكن الأمر بالنسبة لها كان أكثر حساسية وتعقيداً؛ فباعتبارها ابنة لأب مصري كان عليها أن تخوض صراعات خاصة مع أبيها؛ تلك الصراعات كانت - بالدرجة الأولى - قائمة على اختلاف البيئة والأعراف والتقاليد الموروثة؛ فعلى سبيل المثال وليس الحصر: الذهاب إلى السينما أو صالات الديسكو بمفردها - تعد مسألة مستحيلة في مصر، وفي النهاية كان لزاماً على عبده أن يغير مفاهيمه وأن يظهر شيئاً من المرونة، ولكن ذلك لم يكن أمرا يسيرا؛ ولكن عملى فى الشركة ساعدني كثيراً في التعامل مع تلك المشاكل بشكل أفضل ومحاولة إيجاد التسويات والحلول للنزاعات العائلية الداخلية بصورة عقلانية لا تفسد للود قضية .

كنت ضمن مجموعة مكونة من عشر نساء فقط يعملن في نفس الوظيفة في فروع شركة XES في كل أنحاء ألمانيا، لقد كنا بالفعل فريق عمل

رائع؛ فلم أشهد في حياتي مثل هذا التعاون والتسامح والقدرة على التواصل بصورة جيدة وهادفة، وجدير بالذكر أن علاقات الصداقة التي عرفتها في تلك الفترة ما زالت قائمة حتى يومنا هذا .

بجانب هذا أرسلتني الشركة إلى معارض تجارية دولية سعدت فيها كثيرا، وبصفة عامة، كنت أجد سعادة خاصة في ممارسة عملي، مما ساهم جداً فى زيادة ثقتي بنفسي، الأمر الذى بدوره ساعدنى على نجاح علاقتي مع عبده، إذ كان نجاحي سبباً وجيهاً لفرض احترامه لي، وزيادة ثقته بي بصورة أكبر، الأمر الذى ساهم فى تطور شخصية عبده؛ فبعد أن كان بالأمس السفر مع زميلي بالسيارة محل نزاع أصبح يعطينى اليوم مطلق الحرية، لدرجة أنه قد وافق على سفري وحدي لحضور ندوات مختلفة، ومن ثم فقد استمتعت بالحرية أكثر وأكثر؛ وأحسب ذلك تطورا هائلا.

استمر عبده في العمل بصورة متقطعة في مشاريع في المنطقة العربية؛ وكان – أثناء ذلك ـ يقوم بأعمال إنشاءات وترميمات وتجديدات في بيت عائلته، مما يحتم وجوده لفترات طويلة في مصر، وعندما عاد بعد غياب طويل إلى ألمانيا وطنه الثاني، كنا أشبه بالغرباء لفترة ما، ولكن مع مرور الوقت بدأنا نتآلف سويا من جديد، فعند غياب الزوج عن البيت تستطيع المرأة أن تتدبر أمورها وتعيش حياتها وتقرر لنفسها ما تفعله وما لا تفعله؛ إذ يكون لديها مساحة لا بأس بها من الحرية، ولكن ما أن يعود الزوج إليها تنقلب الآية ويصبح كل شيء في يده، وبمعنى آخر، يصبح الطالب مطلوبًا؛ لهذا ظهرت على السطح كثير من الأمور القابلة للاشتعال، ولكن عبده استطاع أن يتكيف مع تلك المواقف الصعبة بصورة جيدة، أتاحت لكلانا المزيد من التواصل والود تلك الصفات التى اقتنيناها نتيجة الافتراق المؤقت.

منذ بداية زواجنا كان لنا حساب بنكي مشترك، وكنا نتبادل الرأي في كثير من أمورنا المالية، وأعتقد أن ذلك قد ساهم بصوره إيجابيه فى تدعيم الثقة بيننا، ومما ساعد على ذلك أن عبده يتمتع بقدرات هائلة في التنظيم والتخطيط والإدارة، لأن هذه القدرات جزء لا يتجزأ من متطلبات عمله، وكان لا بد لتلك القدرات أن تلقى بظلال ميزاتها على حياته الخاصة، ولهذا السبب لم يكن لدينا أي مشاكل مالية، بل كنا قادرين دائما على أن نعيش حياة رغدة، فبعد مرور سنوات اعترف عبده بأن عملي في ذلك الوقت كانت له أهمية كبرى في حياتنا العائلية، بل وساهم مساهمة فعالة فى تحسين مستوى معيشتنا .

بدأت شركة XES عام 1998 إعادة هيكلتها، وهكذا تلقيت شيك مصرفي بتعويضات نهاية الخدمة، كما أعطوني إجازة لمدة سبعة أشهر، فسافرت إلى مصر وقضيت فيها نحو أربعة أشهر كاملة، في ذلك الوقت كبر الأولاد وأصبحوا يافعين، فلم أكن بحاجة إلى السفر إلى ألمانيا إلا لبضعة أسابيع فقط، وذلك لقضاء بعض الأمور الضرورية ثم أعود لمصر ثانية .

خلال إقامتي في مصر تحسنت لغتي العربية بصورة كبيرة، كما تجرأت على الخروج وحدي، فكنت أستقل التاكسي أو الترام أو أقود سيارتنا الخاصة لقضاء بعض احتياجاتى سواء في التسوق أو الذهاب إلى نادي سبورتنج الرياضي لمقابلة صديقاتي اللاتى تعرفت عليهن في "نادي السيدات الدولي".

منذ ذلك الحين اتسعت دائرة علاقاتى التى اشتملت على المعارف والصديقات من خارج نطاق عائلة عبده، وبدأت أشعر بالارتياح؛ فلقد اعتدت على الحياة هنا في مصر، وهذا لم يمنع من وجود بعض التحفظات

لدي عن ظروف الحياة فيها، فثمة أمور كانت تزعجني في بداية حياتي مثل: الغبار والضوضاء والزحام، ولكنني اكتشفت جوانب إيجابية لم أجدها في ألمانيا، فالناس هنا متعاونون جدا، وكذلك تحظى السيدات الأجنبيات القادمات من دول أخرى بمعاملة متميزة واحترام في كل مكان، ولقد رأيت الناس يتهافتون على تقديم يد العون لمن يحتاجها، فمثلا إذا تعرض إنسان لحادث - أثناء سيره في الشارع - يتدافق نحوه الناس لإغاثته، على عكس الوضع في ألمانيا حيث التباطؤ فى المساعدة .

كانت تتردد في ذهني أفكار كثيرة عن تحرر المرأة واختلاف النظرة بين المجتمعات الشرقية والمجتمعات الأوروبية، وأتساءل أيهما أفضل ؟! فمثلا هل يعتبر ذهاب المرأة إلى السوق وحدها بالسيارة ثم عودتها إلى منزلها محملة بأكياس الأغذية والمشروبات هو التقدم الحقيقي؟!، أم أن الوضع في مصر هو الأفضل؟! إذ يذهب الزوجان معاً إلى التسوق، وتمشي الزوجة بجوار زوجها فى هدوء وترشده إلى السلع التى يجب أن يضعها في عربة التسوق، ثم يتولى الزوج كل شيء بعد ذلك؛ ليعبأ ويحمل كل ما وضعه في سلة المشتريات .

أذكر أن عبده كان مشغولا أغلب الوقت أثناء تلك الشهور التي قضيناها في الإسكندرية في عمل الترميمات والتجديدات، إذ كان يجب عليه أن يتأقلم من جديد على نمط الحياة في مصر؛ فطريقة تفكيره وحياته التي اكتسبها في ألمانيا لم تنجح هنا فى مصر، فأكبر مشكلة واجهته خلال عمله في المقاولات والترميمات هي أن يجد أناسًا يحترمون مواعيدهم ويتقنون عملهم، فبعض العمال بعد أن ينتهي من مهمته في الإصلاح يترك وراءه الكثير من مخلفات أعماله "القاذورات"، رغم أن الإتقان والنظافة بعد انتهاء العمل تعد أمرا ضروريا للغاية؛ حيث إن نظافة العامل جزء لا يتجزأ من كفاءته فى

العمل، وعموما، بدأ عبده يتعرف على الكثير من الحرفيين المهرة الذين يتقنون عملهم ويهتمون بالنظافة بعد الانتهاء من العمل .

عندما رجعت إلى ألمانيا بدأت أبحث عن عمل مرة أخرى، وكنت لا أزال محتفظة بعلاقتي مع كثير من الأصدقاء في شركة زيروكس، ومن خلال تلك الاتصالات التحقت بالعمل في عام 1999 . في هذه المرة اشتغلت في المبيعات مباشرةً، وكان من مهام عملي؛ زيارة العملاء والتفاوض معهم لتسويق منتجات كل ما يحتاجه العميل من لوازم مكتبية، وتطلب مني ذلك أن أكون على دراية كاملة بالسلع التي أبيعها حتى أقدم المشورة المفيدة للعميل بالإضافة إلى أنني كنت مسئولة أيضا عن الحسابات وتحقيق أهداف مبيعات محددة، وكانت بالنسبة لي مسؤولية كبيرة ومرهقة .

في قسم المبيعات، كان يتم تحفيز الموظفين بالحوافزو الجوائز والمكافآت نظير أداءهم للأعمال الجيدة، والجدير بالذكر، أننى قد نلت بعض تلك الجوائز، لأننى كنت أعمل نحو 25 ساعة في الأسبوع، واستمر عملي في شركة زيروكس سبع سنوات كاملة؛ كانت من أجمل سنوات حياتي وتم تكريمي فيها وتكللت جهودي بالنجاح .

تم إعادة هيكلة الشركة مرة أخرى عام 2005، وكنت في ذلك الوقت قد بلغت من العمر 58 عاما، ولم أعد أفكر في العمل مرة أخرى، بالإضافة إلى أننا فى ذلك الوقت بدأنا نعيد التفكير في قضاء وقتا أطول في مصر، وكان عبده ـ في ذلك الوقت ـ قد بلغ السبعين من عمره، فأخذنا نعيد ترتيب حياتنا مرة أخرى، إذ كنا نقضي شهرين في فصل الربيع والخريف في مصر، أما باقي العام فكنا نقضيه في ألمانيا .

في عام 2006 اكتشفت فى نفسي جانب آخر من هواياتى المحببة،

وهـو شـغفى بالـسياحة؛ فالتحقـت بـدورات تدريبيـة كـي أصـبح مرشـدة سياحية في دوسيلدورف، وفي هذه الدورة تعلمت الكثير عن التـاريخ والعمـارة لمدينة دوسيلدورف، ورغم ذلك لم أبدأ بعد فى عملى هذا، ولكننـي أريـد أن أبدأه قريبا.

حالياً يعيش كل أولادي في ألمانيا؛ فقد تزوج أحمد ولديه أطفال، ونحـن نعشق بيتنـا والتجول في حديقته، فمن الصعب أن تجد بيتـا في مصر ملحقـاً به حديقة ولو فرضنا وجود الحديقة التابعة للمنزل هنا فالخدم وحدهم هم الذين يهتمون بها وليس أصحاب المنزل .

أما فى ألمانيا فغالباً ما نتنزه ونركب الدراجات كما نقضي أحيـانا بعض الوقت في الريف ،علاوة على رحلاتنا إلى أماكن مختلفة طالما تـسمح ظروفنـا بـذلك، هـذا بجانـب حبنـا للانتقـال بين مـصر وألمانيـا. أمـا عبـده فمازال يواصل علاقته مع بعض زملاء الدراسة، المصريين والمتزوجين من ألمانيات على مدى السنوات السابقة و إلى الآن. نتقابل جميعا فى فترا متقطعة و نقـوم أحيانـابرحلات جماعيـة، أذكـر منهـا علـى سـبيل المثـال رحلتنـا الأخـيرة فـى عـام 2007 إلى الاقـصرو أسـوان و بحـيرة نـاصـر علـى سفينة سياحية فاخرة.

أمـا إذا تحـدثنا عـن المطبخ المصرى فـلا يـسعنى سـوى أن أقـول أننـى أحبه كثيرا، ودائما ما بهرتنى الاختيارات المتنوعة من الخضر والفاكهة، ومن أفـضل الأطبـاق الـشهيرة في مـصر : الملوخيـة والكـشري والفـول والفلافـل "الطعميـة"، بالإضـافة إلى الكـثير ممـا يحتويـه مـن أطبـاق اللحـوم المتنوعـة والغنية بما يحتويه .

لقد تغيرت الظروف في مصر كثيرا عما كانت عليه في أول زيارة لنا عـام

1971؛ ففي تلك الفترة كانت الأطباق الرئيسية محدودة جدا كما كانت معظم المنتجات محلية، أما الان فقد توافرت الكثير من السلع المستوردة، حتى الأجهزة الكهربائية من النوعيات الممتازة يتم الآن تصنيعها في مصر، وهناك حقيقة تكاد تفصح عن نفسها وهى أن الفرد يستطيع أن يعيش حياة مريحة وكريمة في مصر إن كان له دخل شهري ثابت ومرتفع.

و على الرغم من تضاعف التعداد السكاني في السنوات الأخيرة؛ (فى عام 1950 كان يبلغ عدد سكان مصر حوالي 20 مليون نسمة يتعدى الآن ما يزيد عن 80 مليون نسمة) تتوافر كثير من المواد الغذائية، وهو أمر يصعب على تصديقه .

وبقدر معرفتي ودرايتي بالأمور فى مصر؛ أستطيع أن أقول: إن التعصب الديني مسألة أصبحت تثير القلاقل، كما أن لدي انطباع خاص بأن هذا التعصب فى تصاعد مستمر وبشكل كبير؛ ففي الماضي القريب كانت النساء المسنات والنساء من الريف هن وحدهن اللاتى يغطين رؤوسهن، أما اليوم فقلما تجد فتاة لا ترتدى الحجاب ،حتى يبدو الأمر أنه أصبح موضة وليس رمزا دينيا .

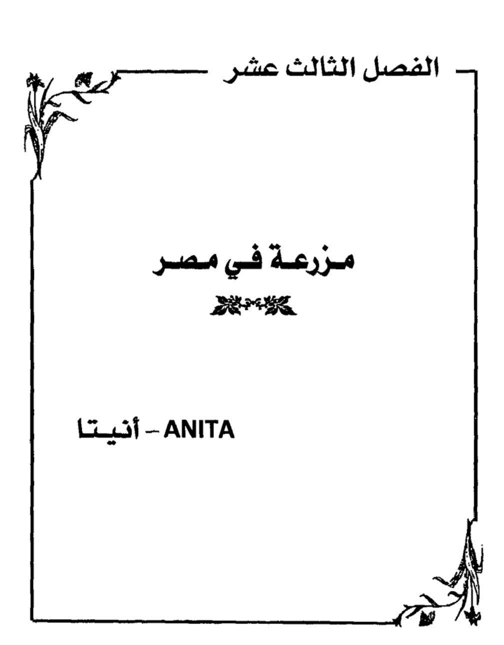
لقد تغير المشهد العام في المدينة كثيرا، فأصبحت الشوارع مزدحمة مما يؤدي إلى وقوع الكثير من حوادث الطرق، ربما يرجع السبب فى ذلك إلى حدوث تغير جذرى فى الاتجاهات السلوكية للمصريين، ويبدو ذلك واضحاً إذا ما أمعنا النظر فى التعبيرات المكفهرة المرتسمة فوق الوجوه؛ فلم يعد المرء يجد أناسا تبدو عليهم آثار الراحة والتفاؤل والسعادة كسابق العهد، لقد كادت البسمة تختفي لتحل محلها مظاهر العبوس .

أما أنا فحينما أتحدث عن تجربتى لا أشعر بالندم قط حيال زواجي

من عبده، لقد كان هذا الزواج سبباً فى أننى قد عشت حياة جديدة أكثر ثراء وتنوعاً، وأعتبر أن الحظ كان بجانبى إذ كان مقدراً لي أن أخوض تجربة لم تتح للكثيرات، تلك التجربة التى أتاحت لى الفرصة أن أرى ألمانيا من منظور آخر، فما أن أصل إلى ألمانيا حتى أبدأ سلسلة من انتقاداتي الكثيرة حول نمط الحياة هناك، لدرجة أن الأمر يستغرق مني بضعة أيام كي أعتاد على تلك الاختلافات، فرغم كل شئ لابد لي أن أتأقلم على حياتي هنا كما أقلمت نفسي على حياتي في مصر.

بيتنا فى ألمانيا سيظل قائما وعامراً بأولادنا وأحفادنا المترددين عليه دائما، ولكن على مدار تلك السنوات الطويلة أستطيع أن أقول: إن مصر هى عشقي الأول، رغم أننى في بداية حياتي فيها كان من الصعب على جداً أن أتكيف مع كثير من الأمور والمواقف، ولكن في النهاية كان النجاح حليفى نجحت لأن الحياة فيها جديرة بأن أعيشها، وستظل مصر بالنسبة لي هي وطنى الآخر.

*****



الفصل الثالث عشر

مزرعة في مصر

ANITA - أنيتا

أنيتا Anita سيدة جميلة، يفوح منها عطر الحياة؛ ذات شعر ذهبى فاتح وعيون عسلية، عندما تتحدث تتسابق الكلمات من بين شفتيها بصورة تجعل من يستمع إليها يجد صعوبة فى متابعتها وفهمها، أما زوجها محسن فلا يبدو أنه مصري على الإطلاق؛ فعيناه الخضراوان وملامحه الأوروبية تجعله أشبه ما يكون بالألمان، وقد تعرفت عليهما عن طريق أصدقاء لى في الإسكندرية، وعندما بدأت إعداد هذا الكتاب، اقترحت على إحدى صديقاتي أن أصوغ قصتها ضمن هذا الكتاب .

كانت أنيتا وزوجها محسن قد اشتريا قطعة أرض، وبفضل عملهما الشاق الذى استمر لسنوات طويلة، حولاها إلى مزرعة فاكهة جميلة، وبالنسبة لي كانت تلك هى المرة الأولى التى أشهد فيها مثل هذه التجربة التى مرت بها صديقة لي والتى من خلالها استطاعت أن تحول الحلم إلى حقيقة ملموسة على أرض الواقع .

كنا قد تلقينا دعوة لزيارتهما في تلك الحديقة رائعة الجمال؛ والتى يمكن أن نطلق عليها "جنة عدن " الصغيرة من فرط روعتها؛ فهى مزروعة بالأشجار الكبيرة ونخيل البلح وأشجار الموز والبرتقال وشجيرات الورد، وأستطيع أن أقول إننى على المستوى الشخصي لم يسبق لي أن رأيت مثل هذه المساحات الخضراء الجميلة التى تسر الناظرين فى أى مكان آخر فى مصر.

أنيتا وزوجها يعيشان في منزل داخل تلك الحديقة الغناء، وهو منزل فسيح، ويوجد به العديد من الشرفات، وبه سلالم تؤدي إلى سطح واسع مرصع بالفسيفساء الملونة الرائعة، ويطل على مشهد بديع للنجوم المتلألئة في سماء الليل .

خلال زيارتنا القصيرة إلى المزرعة في خريف عام 2007 سردت لي أنيتا حكايتها وها هى كما جاءت على لسانها :

قابلت زوج المستقبل في عشية رأس السنة عام 1959، وكنت أبلغ وقتها من العمر نحو 20 عاما، أما محسن فقد كان يبلغ من العمر 22 عاما، وأستطيع أن أقول إنه كان حبا من النظرة الأولى، ولقد اجتاحنى هذا الحب كالعاصفة التى تأتى دون مقدمات أو سابق إنذار؛ حيث لعبت الصدفة المحضة دورها الجوهري؛ أذكر أننى وصديقتى كارين Karin ـ فى تلك الليلة ـ قد قررنا قضاء حفل رأس السنة في بيت إحدى الصديقات، فتوجهنا إلى محطة قطار كولونيا Cologne لنقابل صديقة لنا كنا على موعد معها في محطة القطار كى تصطحبنا إلى الحفل، وبينما نحن فى انتظارها دقت الساعة العاشرة مساء ولم تأت الصديقة وطال الانتظار، كانت ليلة رأس السنة الجديدة، وبالطبع كانت المحطة تعج بأفواج متدافعة من المسافرين من المحطة وإليها، ولكننا لم نر صديقتنا؛ وبينما ونحن واقفون في المحطة قابلنا أخي كلاوس Klaus بالصدفة، ولم يكن هو الآخر قد قرر أين سيقضي ليلة رأس السنة الجديدة، فتبادلنا الآراء، وفجأة اقترح كلاوس قائلاً : "سنذهب جميعاً إلى أخين Aachen"، ولم أدر وقتها لماذا اختار أخى هذا المكان بالذات دون غيره، وهكذا، ركبنا القطار المتجه إلى أخين، ومن هناك أخذنا تاكسيًا إلى بار "كونجو"، وكان أمراً عبثياً وغريباً؛ فالمسافة قصيرة بين المحطة والبار، ويمكن أن نمشيها، ولكن كلاوس أصر على أن نستقل تاكسيًا، وبدأت الاحتفالات الصاخبة لرأس السنة، وبسرعة اندمجنا في الرقص وقضينا وقتا ممتعاً، في ذلك الوقت كان محسن متواجدًا في البار يحتفل هو الآخر مع أصدقائه، وكان يراقص امرأة هولندية على نحو جامح وبصورة طائشة، حتى أنهما أسقطا شجرة عيد الميلاد على الأرض وسقطا فوقها، وبعد كل هذه النشوة المفتعلة المتهورة ! توقف عن الرقص مع تلك المرأة، وبدأ يرقص معي، وبرغم ارتفاع الإيقاع الصاخب الذى كان يملأ الأجواء المحيطة

بنا، شعرنا أن عقارب الساعة قد توقفت وأن العام الجديد قد أبى أن ينصرم دون أن يعلن عن أطروحة العشق الواعد الجديد، وحين دقت الساعة معلنة عن قدوم بداية العام الجديد ارتفعت دقات قلبينا لتعلن هى الأخرى عن قدوم الحب الجديد الذى ظهرت أعراضه على كل منا بمنتهى القوة؛ في ذلك الوقت تحدثنا، وشعرت بميل غريب نحوه، لقد كاد قلبى يقفز من صدرى ليحتضن قلبه، وتصورت لحظتها أن العام الجديد هو الذى يحتفل بنا بدلاً من أن نحتفل نحن به، فخاطبت نفسي قائلة: " لابد أن هذا هو زوج المستقبل"، في تلك اللحظة شعر محسن بنفس مشاعري، وكأن حرارة الحب قد اشتعلت فى قلبه هو الآخر؛ وكأن سهام الحب قد وجدت طريقها السريع الممهد إليه وأصابته فى مقتل، منذ تلك الليلة بدأنا نشعر أن جسور التوافق قد شيدت لتصل بيننا، وأن ثمرة الحب قد سقطت من علياء فوق رؤوسنا، وما كان علينا سوى أن نلتقطها لنتذوق حلاوة شهدها .

ولد محسن ونشأ في مدينة القاهرة لأسرة ثرية وعريقة، فوالده كان يعمل مهندسًا في مصلحة الري وتخطيط المدن، أما والدته فكانت تنحدر من الأسرة الملكية المصرية التي جاءت مع الإمبراطورية العثمانية إلى مصر، وجدير بالذكر أن محسن لم يكن طالبا متميزا، ومع ذلك فقد كان يملك إرادة قوية تجعله قادرًا على تحقيق طموحه؛ حيث عزم على الدراسة في ألمانيا، ومما شجعه على ذلك أن مصاريف الدراسة لم تمثل أي عائق أمامه، إذ وعده والده بأن يتكفل بكل مصاريفه في الخارج إذا ما استطاع محسن النجاح في الثانوية العامة، عندئذ زاد حماس محسن وتوهج طموحه وعزم على الاجتهاد في الدراسة كى يحقق لنفسه النجاح ويلبي رغبة والده، والطريف فى الأمر أنه كي يلزم نفسه بالاجتهاد في المذاكرة لجأ إلى تصرف غريب ! إذ قام بحلق حاجبيه لكي يمنع نفسه من الخروج ويركز أكثر في المذاكرة، ولقد نجحت تلك الحيلة التى أراد بها

الانتصار على نفسه؛ وهكذا التزم محسن وجلس في المنزل يذاكر مثل شخص أصابه مس من الجنون، وفي النهاية تكللت جهوده بالنجاح في الثانوية العامة (البكالوريا)، ووفى والده بالوعد وقام بتسديد جميع المصروفات الدراسية، وهكذا سافر محسن عام 1957 إلى ميونخ Munich، وقد أحب تلك المدينة وقرر ألا يتركها؛ ثم التحق بمعهد جوته Goethe ليدرس اللغة الألمانية كي يسهل عليه الدراسة في الجامعة التكنولوجية في رينيلاند ـ ويستفاليان Rhineland-Westphalian في مدينة أخين، ثم بعد انتهاء الفصل الدراسي الأول قام بتحويل أوراقه إلى كولونيا حيث استكمل دراسته للحصول على درجة علمية في هندسة الكهرباء.

أما بالنسبة لي، فقد نشأت في رينيلاند Rhineland في بير Buir، وهي قرية صغيرة يبلغ تعداد سكانها نحو ألف نسمة، وسط أسرة كان ترتيبي فيها الرابعة بين إخوتي الخمسة ـ لي شقيقة واحدة وثلاثة إخوة، وكان والداي يملكان مخبزًا كبيرًا في المدينة وكانا يتمتعان بكرم وسخاء وتعاطف يظهرانه نحو الآخرين؛ حيث كان منزلنا لا يخلو أبداً من الفقراء والمحتاجين والأيتام، ولقد كنت الابنة المفضلة والمحببة والمقربة لأبي، وكنت باستمرار أقضي معظم أوقاتي مع إخوتي خارج البيت، ولكنني كنت مصدر إزعاج لأمي ودائما ما كانت رعونتى تثير حفيظتها بل وهلعها؛ وذلك لأننى كنت فى أغلب الأحوال أعود للبيت وبنطلوني متسخ وركبتاي مخدوشتان من أثر السقوط على الأرض؛ وكنت فى ذلك أسلك مسلك الصبية رغم أننى كنت فتاة يافعة جميلة المظهر وحسنة الخلق.

لقد كانت أمى سيدة جميلة شقراء مثلي تماماً، ولكن لأسباب غير معروفة كانت تصبغ شعرها باللون الكستنائي، وحتى يومنا هذا لا أدرى

ماذا كان السبب الحقيقى وراء ذلك، ولكن أختى وأخى الأصغر كان لهما شعر داكن، أما بقيتنا فكنا من ذوات الشعر الأشقر.

عندما قابلت محسن وأدركت أنه قدري في الحب ومستقبلي فى الارتباط، أردت أن أخبر أمي بمشاعري المتأججة تجاهه، ولكن كيف كان فى مقدورى أن أفعل هذا ؟ وكيف يمكن أن أفاتح أمى الكاثوليكية المتدينة جداً فى مثل هذا الأمر؟، ولقد حاولت جاهدة ولكننى لم أجد سبيلاً إليها، أما أبي فكانت علاقتي به قوية، ولم أجد صعوبة في أن أتحدث معه، صحيح أنه هو الآخر كاثوليكي متدين إلا أنه متسامح جدا ومتساهل معي للغاية، لذلك بدأت أشاور نفسي عن أفضل الوسائل التي يمكن أن أفاتح بها أهلي بصورة جدية، ومما سهل الأمر أنه كان مسموحا لنا وقتها بأن نستقبل أصدقاءنا في المنزل وندعوهم إلى حفلات أعياد الميلاد، لقد كان لهما وجهة نظر متحضرة منطقية؛ إذ كانا يعتقدان بأن مقابلة الأصدقاء في المنزل – تحت مرأى ومسمع منهما – أفضل من مقابلتهم في أي مكان آخر، ولهذا رتبت الأمر مع إخوتي بأن يقوم أحدهم بدعوة محسن – باعتبار أنه صديقه – إلى حضور حفل في البيت، وفعلا نجحت الخطة، وحضر محسن في الموعد المحدد لحضور حفل بسيط أقمناه في بيتنا، وقد استقبله أبي وتحدث معه، ورحبت به أمي بل وأعجبها – فقد كان وسيماً له طلة آسرة – وكان انطباع باقي إخوتي بأن محسنًا شاب لطيف دمث الخلق، ولم تعرف أمي – فى البداية – أننى قد سبق وتعرفت على محسن في مناسبة سابقة "عشية الاحتفال بليلة رأس السنة"، وظنت حتى نهاية الحفل بأن هذه كانت المرة الأولى التى نتقابل فيها معاً، ولكن بعد ذلك انكشف السيناريو المفتعل!، إذ لم يستطع أخي كلاوس الذي دعا محسن إلى البيت أن يكتم السر حتى النهاية؛ فقد اعترف لأمي أن محسن قد حضر الحفل من أجلي فقط، فغضبت أمي فى البداية

ولكن بعد ذلك هدأت ثورتها، فلا غرابة فى ذلك وخصوصاً مع شخص مثل هذا الشاب اللطيف الذى يمتلك جاذبية من نوع خاص!

بعد ذلك أصبح محسن وكأنه واحد من أفراد عائلتنا، فقد انسجم تماماً مع والدي، لدرجة أنه بدأ ينادي والدي بـ "بابا" مثلما كنت أفعل أنا وإخوتي، وتطورت علاقتنا بسرعة حتى اتضح للجميع أننا نريد الزواج والارتباط الأبدى، ولقد تعامل والدي مع الأمر بمنتهى التفهم وسعة الأفق ورحب بالفكرة، وهكذا صارت الأمور سريعاً، وتزوجنا عام 1960 في مكتب زواج مدني في مدينة بورBuir، ولأن عائلتنا معروفة في المدينة؛ حيث جميع سكانها يشترون الخبز من مخبزنا، انتشر موضوع زواجي بمحسن فى سرعة البرق، وبدأ يتردد على الألسنة وأصبح مثار حديث أهل المدينة، الذين راحوا يتندرون علي بعبارات سمجة وتعليقات سخيفة عن زواجي إذ قالوا: "أنيتا ستتزوج من إفريقي"، وبدأت تتلاحق من أفواههم تفاصيل قصص المعاملة السيئة التي مرت بها الفتيات اللاتي تزوجن في بلد عربي، غير أن كل تلك القصص والحكايات لم تنل من عزمنا، بل زادت من إصرارنا على الزواج .

أقمنا أنا ومحسن في البداية مع والديَّ، وفي عام 1960 أنجبت ابنتنا منى، وأذكر أننى حينما كنت أصطحب ابنتي في عربة الأطفال كان أهل القرية يتلصصون على الطفلة من تحت أغطيتها ليروا لون بشرة الطفلة إن كانت سوداء أم لا؛ ويرجع السبب فى ذلك إلى عدم المعرفة والجهل بالأمور؛ فأهل قريتي لا يعرفون أي شيء عن مصر سوى أنها بلد إفريقي مغمور ونامٍ .

أكمل محسن دراسته وانتقلنا إلى دورين Duren، واستأجرنا شقة ولقد بدأ عمله في شركة سيمنس في مجال البناء والتشييد، وكنت أصطحب صغيرتى مُنى وأذهب إلى بيت أبي لأقيم مع عائلتى أثناء غيابه، إذا ما دعته

ظروف عمله للسفر؛ إذ لم يكن هناك داع أن أبقى وحدي في المنزل، فإذا رآني الناس قد عدت لمنزل أسرتى أطاحت برؤوسهم الأفكار وأخذوا يتشدقون بالشائعات حولي ويرددون عبارات سخيفة قائلين:

- " ها هى أنيتا قد عادت إلى منزل والديها ؟ ".

إذ لم يتصور الناس أن زواجنا يمكن أن ينجح ويدوم، وربما كان السبب وراء ذلك هو أنهم لم يدركوا طبيعة العلاقة المتينة التى تربط بيننا، وأنهم لم يدركوا بأننا أسرة سعيدة تعيش في سلام ووئام .

بدأت أعمل من جديد في أحد المكاتب، تماماً كما كنت أفعل قبل زواجى، وكنت أترك ابنتى مُنى في حضانة للأطفال، كما أننى أحضرت لها مربية فى المنزل، أما فيما يتعلق بأحوالنا المادية فقد كانت متيسرة للغاية؛ فمحسن يعمل في شركة سيمنس، كما أن والده - كما وعده من قبل - كان يلبي جميع متطلباته، وكانت له مساهمة جوهرية فى مساندته، كنت أنا ومحسن وابنتنا مُنى عائلة صغيرة ناشئة طبيعية جداً وواعدة، وشهد عام 1965 ولادة ابننا أحمد .

في السنوات الأولى من زواجنا لم نفكر في السفر إلى مصر، وفي تلك الفترة تقاعد والد زوجي عن عمله، ولكنه لم يتقبل فكرة التقاعد عن العمل، فأخذ يسعى ويجتهد بحثا كي يجد وظيفة مناسبة، وتحقق له ذلك إذ تلقى عقدا للعمل فى وظيفة كاستشاري بالمملكة العربية السعودية، وكانت وظيفته تلك ذات حيثية كبيرة، وهى تخطيط مدينة الرياض، لقد كان رجلاً نشيطاً يحب السفر ويزورنا باستمرار في ألمانيا، وكان ينزل عادة في فندق هوتيل أكيسلسيور Hotel Excelsior في كولونيا Cologne، ولم يكن يسافر بمفرده، بل كان أحياناً يصطحب معه وفودًا من رجال الأعمال من المملكة

العربية السعودية، وذات مره حضر بصحبة أمير من العائلة المالكة وبتلك المناسبة قام الفندق برفع علم المملكة فوق البناية، وفي تلك المناسبات كان محسن يقوم بأعمال الترجمة لتلك الوفود، ووفقا للبروتوكول كانت تأتي إليه سيارة ليموزين فخمة أمام مسكننا في القرية لتنقله إلى الفندق، وكان مشهد السيارة الفارهة يثير ضجة كبيرة وسط سكان القرية، ولم نكن لنسلم من كلام الأطفال الذين كانوا يرددون في شارعنا: "ها هو يقوم ثانية بالترجمة للشيوخ العرب!".

كان والد زوجي يحب اللغات، إذ يمكن أن نعتبره عبقريا لغويا؛ لأنه كان يتحدث ست لغات أجنبية بطلاقة، وفي إحدى المرات التى حضر فيها إلى ألمانيا، ذكر لنا بأنه سيتعلم اللغة الألمانية، وقد حدث بالفعل، وفي زيارته التالية لنا كان فعلا قد بدأ يتكلم ويقرأ باللغة الألمانية، لم تكن اللغة تشكل عقبة أو مشكلة بيني وبين والد زوجي، فأنا لا أعرف اللغة العربية ولكنه كان يتفاهم معي باللغة الإنجليزية .

عاشت والدة زوجي في مصر خلال تلك السنوات، ولم ترغب في السفر أو الإقامة فى السعودية بسبب القيود المفروضة على النساء هناك، ولكنها زارتنا في ألمانيا، وكانت تأتي مع زوجها لتقضى معنا بعض الوقت .

أذكر أول زيارة حضرت فيها إلى ألمانيا عام 1965، وقتها عرفنا أنها قادمة إلينا عن طريق مطار فرانكورفت Frankfurt airport، فانتظرناها في المطار، أنا شخصيا سبق لي أن رأيت كثيرا من النساء المصريات سواء في المطار أو في الأفلام، وكن يرتدين الملابس الطويلة وأحيانا يغطين رؤوسهن، ولكن يجب أن أعترف أن تلك كانت المرة الاولى التى أرى فيها سيدة مصرية بهذا المظهر؛ بينما كنت وزوجى فى انتظار والدته، فجأة نظر محسن في صالة

الوصول وقال: "ها هي أمى قد وصلت !" فالتفت لأبحث عنها، وفى مخيلتي انطباع ثابت لصورة المرأة المصرية، ولكن ما حدث فاق كل توقعاتى؛ إذ لم أجد أمامي أحداً بالصورة التى تخيلتها، حاولت النظر طويلا والتدقيق في السيدات القادمات، ولكن عبثا، لم أجد أي مصرية أمامي، ولكنه عندما أشار إليها لم أصدق عيني، فتحت فمي من الدهشة مثل طفلة ساذجة، فقد كانت سيدة في منتهى الأناقة؛ ترتدي بدلة لونها أزرق فاتح وحذاء بكعب عالٍ وتتزين بمجوهرات كثيرة، وكل شيء فيها مهندم ومتناسق الألوان من شعر رأسها وحتى أخمص قدميها؛ فهى ذات شعر أحمر متوهج، وعيناها خضراوتان، قلت في نفسي: "يا إلهي تلك السيدة تبدو مثل باريسية حسناء قادمة من فرنسا"، عندئذ شعرت بأن ملابسي دون المستوى، وألجمت الدهشة لساني، فلم أنطق بكلمة لدرجة أن بعض الكلمات العربية التي أعرفها اختفت من ذاكرتى ولم يستطع لساني أن ينطقها؛ الموقف برمته قد أصابنى وقتها بالحرج، ولكنها بادرت وعانقتني بحرارة واحتضنتنى وقبلتني كثيراً، ثم جلست معي في استراحة المطار، وأخرجت من حقيبتها علبة من القطيفة الفاخرة أحضرتها من أجلي وقدمتها لى، وعندما فتحتها وجدت بداخلها طقم مجوهرات مرصع بالياقوت أقل ما يوصف أنه رائع مؤلف من " أقراط وسوار وقلادة وعقد وخاتم " بالإضافة إلى المزيد من المشغولات، لقد كنت منبهرة بالسخاء البالغ، والحفاوة التى استقبلتنى بها تلك السيدة الحسناء فلم تسعفنى وقتها الكلمات ولم أنطق ولو بكلمة واحدة، فلم يسبق لى أن تعرضت لمثل هذا الموقف فى حياتى .

لم نكن قد سبق لنا أن سافرنا إلى مصر لرؤية والد زوجي ووالدته، لأنهما كانا يفضلان أن يأتيا إلينا في ألمانيا، وأذكر أننا ذات مرة أثناء إحدى زياراتهما لنا ذهبنا إلى المطاركى نصحبهما في سيارتنا القديمة ماركة

"أوبل"، وفي طريقنا من المطار بدأت السيارة تصدر صوتا مزعجا، وعلى الفور بادرت والدة محسن قائلة لزوجها :

ـ "الولد يحتاج سيارة جديدة".

وما إن قالت تلك العبارة حتى تحققت على الفور، وبسرعة تم شراء السيارة، وبعد يومين كانت لدينا سيارة جديدة، وفي مرة أخرى عندما أخذناهما من المطار، وكان الأطفال معنا، ساعتها راحت ابنتى مُنى تحدث الجلبة والضوضاء مثلما يفعل الأطفال حين يرغبون بشدة فى الحصول على شيء، حين رأت حذاء جلد أحمر اللون في إحدى المحلات الفخمة بالمطار، وقد كان ثمنه مرتفعًا جداً، لم أكن أفكر يوماً أن أشتري شيئا بهذا السعر الفاحش، ومع ذلك أصرت والدة زوجي على أن تحقق للطفلة رغبتها، لقد كان الاثنان في غاية الكرم معنا ومع أطفالنا، وربما كان السبب فى ذلك هو عدم تواجدهما معنا باستمرار، لذلك كانت الأمور تمضي على أفضل ما يكون.

وحين نتحدث عن الاختلاف العقائدى يمكننى أن أقول أن الدين لم يكن له أي دور بارز في حياتنا اليومية، فمحسن رجل مسلم، ولكنه متحرر جدا، لم يطلب مني يوماً أن أعتنق الإسلام وكذلك الحال مع أسرته؛ فلم يحاول أحد منهم أن يفاتحنى فى هذا الأمر؛ لذلك لم أجد سببا يجعلنى أغير ديني، أما بالنسبة للأولاد فلم يتم تعميدهم في المسيحية، وعندما كبروا وتفتحت مداركهم العقلية وبدأوا يتساءلون عن أشياء لها علاقة بالدين والعقائد والشرائع السماوية، كنا نجيب على تساؤلاتهم ولكننا لم نحاول أبداً أن ننشئهم على أي دين؛ فقد تركنا لهم الأمر ليفسروا ـ بعد ذلك ـ مسائلهم الدينية بأنفسهم.

عندما كبر الأولاد وبدأوا فى الاعتماد على أنفسهم إلى درجة ما رجعت

إلى العمل في المكتب، ولكن كان لى حلم خاص أن أعمل شيئا مستقلا بنفسي وأكون أنا المسئولة عن إدارة أعمالي الشخصية، ولكن كيف يمكننى ذلك وأنا لا أدرى السبيل؛ فأنا حاصلة على الثانوية وقد سبق لى العمل كمديرة مكتب، ولكن لم يكن لدى الخلفية التعليمية التى تؤهلنى لذلك؛ فالتحقت بدورة تدريبية فى "تجارة التجزئة"، وبدأت أستعد لحضور الدروس المسائية، ولم يكن ذلك الأمر سهلاً علي، فى ظل وجود العديد من المسئوليات الأخرى المتمثلة فى رعاية الأطفال وأعمال المنزل في ذات الوقت، ولكني واصلت التدريب بعزيمة و إصرار، واجتزت الاختبار بنجاح وحصلت على الشهادة التى تؤهلنى لما أريد تحقيقه .

كنا قد ادخرنا بعضا من المال، وافتتحنا محل مخبوزات في مدينة دورين Duren، وقتها كان أخي جونتر Gunter قد تولى الإشراف على مخبز أبي، وكان يزودني بالمخبوزات التى أستطيع بيعها فى المحل، وبالفعل بدأت العمل تدريجياً وحققت نجاحاً بفضل الجهد والعناء الطويل والمشقة، وهكذا ذاع صيت المحل واشتهرت مخبوزاته بالجودة و بحلاوة المذاق، ولا أستطيع أن أنسى دور محسن الذى كان يساعدني أحياناً في المحل، وأثناء وجوده معي كان يقدم العديد من العينات المجانية للزبائن، صحيح أنها كانت دعاية جيدة، ولكنها كانت تؤثر على الأرباح .

لقد عشنا في دورين Duren حياة هانئة تمتعنا فيها بالأمن والاستقرار لسنواتٍ طويلة؛ فالأطفال يواظبون على الذهاب إلى المدرسة، ومحسن يعمل فى مجاله، أما أنا فلي محلي الخاص الذى أعمل به، وبعد فترة بدأنا في بناء بيت جديد في بير Buir، وتطلب هذا الأمر أن أسافر إلى المحل بصفة يومية، صحيح أننا كنا مشغولين جداً، ولكني أحببت حياتي وتفاصيلها وكنت أشعر حيالها بمنتهى الرضا والقناعة والسعادة .

في عام 1975، تعرضت لحادث سيارة مؤسف أثناء قيادتي لسيارتي وأنا في طريقي إلى المدرسة مصطحبة معي أطفالي، وكانا جالسان في المقعد الخلفي، وكان عمر أطفالي في ذلك الوقت " 15 سنة و10 سنوات "، ويجب أن اعترف أن الخطأ كان خطئي إذ لم أكن منتبهة للطريق، فاصطدمت السيارة ونحن الثلاثة بداخلها؛ ولقد أصبت إصابات خطيرة وفقدت الوعي، وقد نقلتني الشرطة على الفور بطائرة هليكوبتر إلى مستشفى في كولونيا، وتم نقل الأطفال بواسطة سيارة الإسعاف إلى مستشفى في بيرجهم Bergheim، لم تكن إصابة الأطفال بالغة إذ كانت عبارة عن بعض الخدوش والرضوض، أما أنا فقد بقيت في وحدة " العناية المركزة" لعدة أيام حتى تحسنت حالتي واستعدت الوعي، ولكن إصابتي كانت بالغة، إذ تعرضت لكسور في الضلوع والفقرات العنُقية بالإضافة إلى بعض الجروح القطعية والرضوض والخدوش، وعندما أفقت كان السؤال الأول الذى قفز فوق لساني هو:

- "أين طفليّ؟.. هل هم بخير؟"

ولقد أكد لي كل من كان متواجداً حولي أنهم بخير، ولكن لم يطمئن قلبي إلا عندما رأيتهم، وكنت أداوم على سؤال محسن عن الولدين، ولكني بعد ذلك تعرضت لانتكاسة؛ فقد أصبت بحمى، وارتفعت درجة حرارتي بصورة مخيفة أثارت حفيظة الأطباء وحيرتهم، ولكن خطرت على بال محسن فكرة سديدة، إذ أحضر ولديَّ (أحمد ومنى) إلى المستشفى كي أراهما، وعندما رأيتهما بدأت أشعر بالتحسن وتماثلت بالفعل للشفاء، بعدها حدثوني عن أمر فقداني للوعي وكيف أنهم اضطروا إلى نقلي بالطائرة الهيلكوبتر حرصاً على حياتي.

ورجعت إلى المنزل، ثم بعد فترة خرجت كي أعمل في المكتب نصف

الوقت، فلم يكن فى مقدورى أن أستمر للعمل فى محل المخبوزات لأن ذلك كان يتطلب مني بذل الكثير من المجهود وقيادة السيارة ذهاباً وإياباً من المنزل للمحل والعكس، ولكن الجانب المضئ فى الأمر هو أننى قد توافر لدى المزيد من الوقت الذى يمكننى أن أقضيه مع أسرتى، فى ذلك الوقت قام محسن بتغيير مكان عمله، كان يقود سيارته بصفة يومية متجها إلى مستوصفات "عيادات" المدينة فى ديوسبرج Duisburg ولم تكن المسافة بعيدة، ولكن كان عليه أن يجد طريقه وسط الزحام المرورى .

في عام 1972، ذهبت مع أسرتى إلى مصر للمرة الأولى، أما بالنسبة لمحسن فقد كان غيابه عن مصر قد طال؛ إذ كانا والداه وأقاربه يزورننا في ألمانيا طيلة تلك السنوات، هذا بالإضافة إلى أن محسن لم يكن لديه رغبة حقيقية في السفر إلى مصر، ولكننا ذهبنا في إجازة إلى مصر تلبية لرغبة والد زوجي، فى ذلك الوقت كانت والدة زوجى قد توفيت، فقضينا إجازتنا في بيت العائلة في رأس البر، وهى مدينة تقع شرق الأسكندرية، ولقد تعجبت من مشهد تلك الأحجار الكثيرة الملقاة على جانبي الطريق، ولقد أزعجنى هذا المشهد فى بداية الأمر؛ ولكني فهمت بعد ذلك أن تلك السمة متأصلة في مصر، ففي البداية كنت أعتقد أن هذا بسبب الحرب!! ولكن الحرب كانت قد نشبت منذ سنوات عديدة، لقد ذهبنا إلى شاطئ " الجربي " في رأس البر للسباحة مع الأطفال، وجدير بالذكر أنه في ذلك الوقت كان يمكن أن ننزل للبحر كى نسبح ونحن نرتدى لباس السباحة "المايوه" بدون أن نسبب أي حرج، ودون أن نتعرض لأى مضايقات .

ثم سافرنا إلى القاهرة وزرنا أخت محسن هناك، وكان زوجها يشغل منصب "مدير مستشفى"، وكانت تعيش في رفاهية، وسط عديد من الخدم؛ وكانت حياتها تعج بمظاهر الثراء، وكل شئ حولها كان متواجدًا بوفرة، على

سبيل المثال وليس الحصر، عند إعداد المائدة لتناول الطعام يتم وضع أطقم كاملة من الفضة والصيني الفاخرة، وكأن هناك وليمة مقامة أو احتفال، ولكن تلك الحياة الرغدة لم تكن لتعبر عن طبيعة الحياة فى مصر؛ إذ كانت هناك مصر أخرى يظهر فيها بوضوح التناقض الصارخ الذى يضع الثروة والرفاهية فى كفة ويضع الفقر المدقع والاحتياج والعوز فى كفة أخرى، وأذكر جيدا تلك الواقعة البسيطة التى حدثت لنا أثناء تواجدنا فى رأس البر، حين نفد زيت الطهي من عندنا ونزل محسن لشراء الزيت، وكان المحل الذي اشترى منه الزيت في بناية صغيرة متهالكة، وكل شيء في المحل كان يغطيه الغبار، وأذكر تلك اللحظة التى امتدت فيها يد البائع البائس إلى زجاجة سوداء، مسحها بخرقة سوداء، وراح يعبئ الزيت في الزجاجة من برميل معدنى في آخر المحل، في البداية ظننت أن هذا الزيت يستخدم لإنارة المصابيح، ولم أتصور أنه للطعام الآدمى، ورغم هذا الثراء الفاحش والرفاهية لبعض عائلات الطبقة المتميزة في مصر، إلا أن هناك النقيض الآخر، حيث الحياة التى تمضي فيها الأمور بطريقة بدائية جدا .

بعد مرور عامين، وتحديداً في عام 1974، تعرض والد زوجي لحادث سيارة طائشة في أحد شوارع المملكة العربية السعودية، وتوفيّ إثر جراحه البالغة، وكان يبلغ وقتها 94 سنة، ولقد حزنت عليه كثيراً؛ فلقد كان رجلاً لطيفاً سخيا حسن المعاملة مفعم بالطاقة والحيوية، ويتمتع بلياقة بدنية عالية وذكاء حاضر وسعة أفق، مما جعله مستمرا في مزاولة العمل حتى آخر يوم في حياته .

في عام 1985، لعبت الصدفة دوراً هاماً فى أن أكتشف فى نفسي هواية جديدة؛ وكانت البداية حين التحقت ابنتي مُنى بدورة تدريبية لصناعة الفخار، ولكنها ـلسبب ما ـ لم تتمكن من الذهاب، فقررت أن آخذ

مكانهـا، وبدأت في التـدريب، ولقـد راقنـي المكـان والعمـل الإبـداعي، وكانـت باكورة إنتاجي "زهرية وقاعدة لمصباح "، وكنت أستخدم فرناً لحرق الفخار وبدا لي أن عملي مقبولاً، وبعد أن انتهت هذه الدورة ظللت أصنع الأواني الفخاريـة بنفـسي، وقـد اشـتمل إنتـاجى علـى عديـد مـن القطـع الجميلـة، وبالمصادفة سمعت أن هنـاك معرضـاً سيتم افتتاحـه فـى كيربـن Kerpen، فقمت على الفور بالاتصال مع منظم المعرض، ونجحت بالفعل فى أن أعرض أعمالي هناك، ولقد لقي المعرض نجاحاً عظيماً، وعلى الرغم من أنني كنت مبتدئة، إلا أنـي حصلت على الجـائزة الثانيـة بالإضـافة إلى أننى استطعت بيع بعض أعمالي، وبهذا المال الذي حصلت عليه من بيع تلك القطع الفنية استطعت أن أشتري فرنا خاصاً بي كي أستخدمه لعمل الفخار.

وقـد سـاهم نجـاحى هـذا فـى أن يجعلنـى أضـاعف جهـودي في المعـرض الـذي أقيم في العـام التـالي، الأمـر الـذى جعلنـى أفـوز بالجـائزة الأولى، ثـم بعـد ذلك تغيرت الأوضاع ولم أستمر فى صناعة الفخار ولكنى اتجهت باهتمامى إلى الرسم، ولقد تغيرت حياتنـا كثيراً، وخصوصاً بعد أن بـدأ الأولاد يقضون أوقاتهم خارج المنزل، كما أننا كنا نقضى جزءًا من السنة فى مصر، وهكذا أصبحت هواية الرسم مصدر سعادة بالنسبة لي .

لقد كان هنـاك حلم يراود محسن باستمرار إذ كـان يرغـب في امتلاك مزرعـة تحتـوى علـى أشـجار الفواكـه، والخـضراوات، والـورود، والأزهـار، والأشـجار الباسـقة، وقـد أعجبتنـي الفكـرة وبـدأت أتـصور كيـف يمكـن أن نطورهـا معًـا ونعمـل علـى تحقيقهـا، ولقـد رأيـت وقتهـا أن أسـبانيا سـتكون أفضل مكان لإقامة بستاننا؛ حيث كنا نقضي إجازتنا مع الأطفال ـ بصورة منتظمة ـ على ساحل كوستا برافا Costa Brava في سيتجيس Sitges في أسبانيا، وكنت قد تعلمت اللغة الأسبانية في معهد لغات لتعليم الكبار، فى

ذلك الوقت علم محسن أنه سيرث عن أمه قطعة أرض وكان يريد بيعها، ولكنه للأسف لم يستطع تحويل تلك المبالغ إلى خارج مصر؛ إذ كانت القوانين واللوائح المصرية وقتها تحول دون ذلك، ولكننا بعد محاولات كثيرة وتفكير طويل قررنا أن نحقق حلمنا في أن يكون لنا مزرعة في مصر.

في عام 1987، حان وقت البدء فى تنفيذ هذا الحلم وتحويله إلى حقيقة؛ حيث عثرنا على ضالتنا المنشودة! وكانت قطعة أرض صحراوية موجودة على الجانب الغربي من نهر النيل، وكان بالفعل قد تم شق الترع والمصارف التى تمر عبرها المياه من نهر النيل مباشرة إلى الصحراء، الأمر الذى جعل الزراعة ممكنة في ذلك الجزء، هذا بالإضافة إلى وجود بعض المرافق الأخرى مثل : الطرق المهدة ومحطات توليد الكهرباء، أراد محسن أن يتفرغ لهذا المشروع فحصل على إجازة من عمله لمدة عامين، واصطحب أحمد إلى مصر وقام بشراء عشرين فداناً في منطقة النوبارية في الصحراء الغربية، وهى تبعد حوالي 150 كيلومترا عن القاهرة و100 كيلومتر عن الإسكندرية .

عندما وصل محسن وأحمد إلى الأرض لم يجدا سوى أرض جدباء، فبدأ محسن في بناء كوخ خشبى وقام بتوظيف طاقم عمل ورئيس عمال تتمثل مهمته فى الإشراف عليهم، ولكى يقوموا باستصلاحها كان عليهم أن يبدأوا بتقسيم الأرض إلى أجزاء ويشقوا الترع وقنوات الري، وبعد الانتهاء من ذلك، أحضروا الشتلات وقاموا بزراعتها، وفي نفس الوقت خطط محسن لبناء بيت من الحجر، وقد استغرق بناؤه ثلاثة أشهر، وعندما وصلت هناك لأول مرة لأرى تلك الأرض وجدته ما زال يعيش في الكوخ الخشبي، ولكن كان لديه كهرباء وماء، وكان الحمام والمرحاض في مبنى منفصل عن المنزل، ولكن كل شيء كان على ما يرام، ولكننى بسبب شدة حرارة المناخ، أصبت بطفح جلدي، ولم أسلم من لدغات الناموس الذي كان يحاصرني في كل مكان، لقد

كان وضعاً صعباً علينا للغاية، وبعد سبعة أشهر انتقلنا إلى المنزل الذي تم بناؤه بالحجر، وعندما انخفضت حرارة الجو وتحسن الطقس بدأت ظروفي الصحية تتحسن بصورة تدريجية .

بدأت زراعتنا تتطور شيئاً فشيئاً، وعلى الرغم من أن الأمور لم تسر كما كنا نريد، الا أننا تجاوزنا بعض المشاكل وتخطينا العقبات وانتصرنا على الفشل؛ إذ كان لزاما علينا مواجهة العديد من المشكلات فمثلا : أشجار اللوز التي كنا نتوقع أن تنتج حصادا جيدا لم تنمُ بصورة ناجحة بل ظلت ضعيفة وأصابها الضمور وفي النهاية حتى كان علينا اقتلاعها من جذورها، ولكي نحمي الأرض من هبوب الرياح القوية، قمنا بزراعة أشجار الجازولين الصغيرة (التى تسمى أيضاً بأشجار بايونير) ومازالت تلك الأشجار موجودة في البستان إلى يومنا هذا، وقد كانت تنمو بشكل سريع؛ إذ كان ارتفاعها يصل إلى 30 مترا (100 قدم)، وكانت تزودنا بالظل الكثير وعندما تطول كثيراً كنا نسقطها ونبيع خشبها لتدر علينا ربحاً وفيراً .

كان أي شخص يستطيع المشي في بستاننا، فقد كان سايس المزرعة يقوم بدعوة أي شخص ليمتطي الخيل ويتجول في البستان، ولقد كان البستان يكسوه العشب الضار ـ الذى يرتفع قرابة النصف متر ـ يحتاج إلى إزالة بصفة مستمرة كى لا يصيب المزروعات بالضرر لذلك لم يكن من السهل علينا أن نسير ونحن نرتدى الأحذية العادية، وكنا نحرث الأرض بشكل مختلف عن أغلب فلاحي البساتين الأخرى؛ حيث كنا نزرع الأرض بأنواع مختلفة بدلاً من الاكتفاء بزراعة نوع واحد فقط، وتطلب ذلك منا تأدية عمل كثير وبذل مجهود مضاعف، ولكن النتيجة جاءت أكثر جمالاً مما لو كان هناك نوع واحد فقط من المزروعات، لقد قمنا بزراعة الأشجار، ونباتات الموز، وشجر التين، بالإضافة إلى فصائل عديدة من الزهور والورود، ولقد أعطت أشجار الموالح،

البرتقال والكريب فروت، عائدا ماديا أفضل، وكانت كل هذه الفواكه تُحمل مباشرةً على عربة نقل في موسم الحصاد على شرط أن تسير بين الحقول دون أن تفسدها، ليتم أخذها بعد ذلك إلى القاهرة، حيث يوجد هناك تجار الجملة الذين يستطيعون شراءها منا ليبيعوها فى الأسواق الكبيرة، وجدير بالذكر أننا كنا نستخدم الأسمدة العضوية لتسميد أغلب أراضى المزرعة، أما بالنسبة لكل النباتات التالفة ـ مثل نباتات الموز ـ فكان يتم تقطيعها ونثرها في الحقول مرة أخرى كى نزيد من خصوبة التربة، بالإضافة إلى أننا كنا نروي الأرض كاملة بأسلوب " الري التدريجي المتدفق " عبر القنوات الصغيرة، ولهذا الغرض قمنا بوضع نظام كامل لهذه القنوات وهذا النظام يعتمد على أن تنفتح تلك القنوات الواحدة تلو الأخرى، ولقد كان الفراعنة القدماء يتبعون نفس هذه الطريقة لرى حقولهم، وكان يتم غمر الأرض بالماء كل عدة أيام من نهر النيل من القناة الكبيرة، وكان القليل من الماء يتبخر بهذه الطريقة بشكل أكثر من الأسلوب التقليدي لعملية الري بالتقطير.

أما بالنسبة لمياه الشرب فقد كنا نحصل عليها عن طريق بئر حفرناه على عمق 22 مترًا، حيث تقوم محطة الضخ بإرسال المياه إلى خزان الماء الموجود على سطح منزلنا، وبالطبع كنا نقوم بإرسال عينة من الماء كي يتم تحليلها واختبارها كيميائياً في ألمانيا، وكان هذا شيئا مهما .

كان عام 2007 هو أول عام حصدنا فيه أرباحا جيدة وفيرة من البستان، ولقد شعرنا بالفخر والزهو لأننا نجحنا في تأسيس كل شيء .

كانت إجازة محسن قد انتهت عام 1989، وكان يجب علينا العودة إلى ألمانيا، فاتفقنا مع ناظر العمال على أن يتولى الإشراف على البستان أثناء فترة غيابنا، وفي السنتين اللتين تولينا فيهما إدارة شئون المزرعة بذلنا فيها

قصارى جهدنا ولم نسترح يوما، لذا كانت متعتنا حقيقية عند عودتنا إلى الوطن "ألمانيا"، وقتها رجع محسن للعمل مجدداً في المستشفى، وبدأ يسافر بصورة يومية من بيور إلى ديسبيرج، ثم بعد ذلك قمنا ببيع بيتنا عام 1995، وانتقلنا إلى شقة في ديسبيرج، ولكن فى ذلك العام عاني محسن من متاعب صحية في القلب وأجريت له عملية جراحية، ولكن ما أسعدنا هو أنه لن يكون مضطرا لقيادة السيارة كثيرا كما كان يفعل فى السابق، ولقد ورث محسن عن أبيه حب العمل إذ ظل يعمل حتى عام 2002 حين بلغ سن التقاعد 65 عاماً .

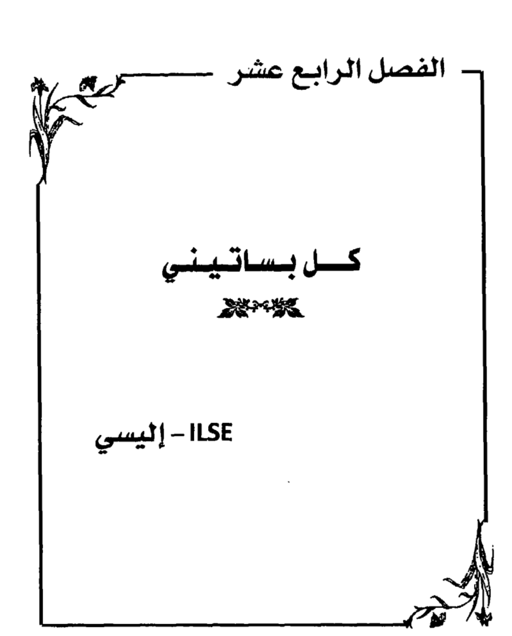
منذ عام 1989 أخذنا نتردد كثيراً على مصر؛ حيث نقضي شهر الربيع في البستان لنرعاه لمدة أربعة أسابيع، وهى مدة إجازتنا السنوية، ولسوء الحظ لم تكن الرياح تأتى دوماً بما تشتهى السفن، وذلك بسبب عدم التزام بعض نظار البستان وعدم أمانتهم أو كفاءتهم، أما حالياً فيعمل معنا رجل على درجة من الكفاءة وملتزم جداً وقادر على إدارة كل شئ بنجاح.

بعد أن تقاعد محسن بدأنا نعيش نصف وقتنا في مصر، والآن يبلغ عمر محسن 70 عاماً أما أنا فأبلغ حالياً 68 عاماً، ومع تقدم العمر أصبحنا نعانى من متاعب صحية كثيرة، لذلك فإننا نسافر باستمرار إلى ألمانيا لأن مستوى الرعاية الصحية في مصر لا يكاد يقترب من المستوى النموذجي الموجود في ألمانيا، ولقد تركنا شقتنا في ديسبرج Duisburg عام 2007، وانتقلنا مرة أخرى إلى دورين Duren حيث نعيش هناك فى شقتنا الجميلة المجهزة بكل شيء نحتاجه، كما أنها قريبة من أولادنا الذين كبروا وتزوجوا وأصبح لدينا الآن أربعة أحفاد؛ ويا لها من حياة رائعة !.

لقد كان محسن قادراً على تحقيق أحلامه، وعلى الرغم من المتاعب

التى صادفتنا في البداية والكثير من المساعى التى كان علينا أن نخوضها والتى أصابتنا أحيانا باليأس والإحباط وأوقعتنا فى فخ الفشل، الا أننا في النهاية استطعنا أن نتوج قصة حياتنا بالنجاح الباهر وأن نصنع " جنة صغيرة "على أرض الواقع لنعيش فيها، لذلك لا أتصور أن فى مقدورنا يوما أن نتخلى عنها، تلك الجنة الصغيرة هى ثمرة عملنا الذى نعده بمنزلة وليدنا الذى احتضناه دوماً، ورأيناه ينمو شيئاً فشيئاً أمام أعيننا، ولقد تحقق لنا ما سعينا إليه وخططنا له، فتلك الأرض ليست قطعة أرض عادية، ولكنها بالنسبة لنا كنز حقيقي لم نعثر عليه، ولكننا صنعناه، وقيمته المعنوية لا تقدر بثمن لأنه مثل حي لكل أصحاب الطموح، وكل من يرغب فى أن يقطف ثمار النجاح .

*****



الفصل الرابع عشر

كل بساتيني

ILSE – إليسي

هى سيده متوسطة الطول، شديدة النحافة، تدعى إليسي Ilise ، يتسم مظهرها بالاحتشام؛ وعادة ترتدى الثياب الطويلة أو البنطلونات.

اعتنقت إليسي الإسلام بعد زواجها وهي حاليا مسلمة مؤمنة تقية، ورغم ذلك، تجدها متسامحة تجاه الأديان الأخرى، كانت إليسي السيدة الوحيدة ـ بين كل النساء اللاتي ورد ذكرهن في هذا الكتاب ـ التي ترتدي الحجاب، ترى هل يوجد لديها – بجانب ذلك – ما يجعلها مميزة عن الأخريات ؟! أعتقد أن ذلك سوف يتضح من خلال قراءة قصتها التى روتها لي بكل صراحة وحيادية و نزاهة، بينما كانت كلماتها ممتزجة بالعاطفة الشديدة، وكان التأثر البالغ يبدو على قسمات وجهها.

وقعت أحداث قصتها منذ زمن طويل وتحديدا فى قريتها التى تقع جنوب ألمانيا، وذلك بعد أن تمت خطبتها لزوج المستقبل؛ معظم تلك الأحداث لا زالت تلقى بظلال الحزن عليها و ما زالت تؤثر فيها حتى اليوم؛ لقد كانت أحداثاً غريبة ومؤسفة بل ويصعب على المرء تصديقها..وها هى قصتها:

قابلت زوجي عام 1962 في قريتنا التي ولدت ونشأت فيها، وهى نفس القرية التى ولدت ونشأت فيها أمى، وقد كنت مرتبطة بالقرية، فقد قضيت فيها سنوات شبابي، كما أن لي فيها أقارب كثيرين: عمات وخالات وأعمام وعمات وأبناء عمومه، أهل القرية أناس مترابطون ومتكاتفون فيما بينهم.، وقد كانت لى خالة مفضلة لدى وكنت أحبها ومتعلقه بها؛ ولا أستطيع أن أنسى فضلها، فقد علمتني أموراً كثيرة كان أكثرها يعتمد على المهارة اليدوية، وقد كنا نصنع معاً عديدًا من المشغولات اليدوية، وكانت أغلبها مصنوعات خزفية، ولقد زاد ولعي بكل المشغولات اليدوية، ولكن للأسف توفيت خالتي المحبوبة وعمري 12 عاما، أما أمي فكانت لا تعرف شيئا عن

المشغولات اليدوية سوى شغل الإبرة " التريكو"، ولا تجيد من التريكو إلا شغل نوعين فقط من الملابس: جاكت صغير وقبعة أطفال صغيرة، وكانت أمي دائما ما تقوم بشغل هذين النوعين: (الجاكت وقبعة الأطفال)- بصورة مستمرة - لكل أطفال العائلة والمعارف في القرية، ولقد كان لها رأي جيد بشأني؛ إذ كانت تقول عني دوما: "أليسي الصغيرة تلك ماهرة حاذقة " و بما أنني ماهرة، إذن فلابد - أيضاً - أن أجيد القيام بكافة ما يطلب مني أداؤه، وهكذا لم تدخر أمي وسعاً في أن تكلفني عديدًا من الأشياء منها : الأعمال المنزلية ومهام الإصلاحات، وأعمال التسوق التي كانت تتطلب مني الذهاب إلى السوق بصفة يومية، وكان ذلك يعني الركض - طيلة النهار- من محل البقالة إلى المخبز ثم إلى محل الجزارة وغيره .. وعندما كبرت سمحت لي بركوب الدراجة، كما أضافت إلى واجباتي مهامًا جديدة، منها أن أقوم بجز الأعشاب باستخدام "جزازه العشب " اليدوية؛ وهي آلة بدائية تحتاج إلى بذل الكثير من الجهد وقوة عضلية كبيرة، على أية حال، كانت أمي تحب أن تجعلني أقدم لها كافة ما تريد، وهكذا كنت دائماً مشغولة بتلبية طلباتها، ولكني كنت راضية بذلك واستطعت أن أتدبر أمري، لقد كنت دوما قادرة على تحمل المسئولية؛ فمنذ طفولتي وأنا أهتم بحديقة بيتنا الصغيرة، فصاحب البيت الذي نعيش فيه كان يسكن الطابق الأول مع عائلته، بينما كنا نحن نسكن الطابق الثاني، ولقد خصني أنا وأختي بمساحة صغيرة من حديقته كي نهتم بها ونزرع فيها ما نريد، و أذكر أنه أهدانا - ذات مرة - بعض شتلات الورد التي زرعناها في حديقتنا، و قد تفتحت براعم الورود وكانت جميلة ولكنها - للأسف - لم يفح منها أي عطر، ولقد كان لديه ابنة اسمها صوفيا Sophie، وقد كانت - حين ولادتي - فتاة يافعة في مرحلة المراهقة، وعندما كبرت قليلاً وبدأت أدرك ما حولي، شهدت أيام زواجها

وإنجابها لطفلين، والطريف فى الأمر، أننا لا زلنا نتواصل ونتقابل من حين إلى آخر حتى يومنا هذا .

كانت إحدى خالاتي تملك حديقة رائعة، وكنت أحب زيارتها في أوقات فراغي كى أساعدها وكانت تملؤنى الحماسة أثناء قيامى بأعمال البستنة، ولقد تعلمت منها الكثير عن النباتات والزهور.

كانت بستانية القرية تسكن بجوار حديقتنا، وقد كان من الطبيعي أن يعرفني الجيران هناك نظرا لزياراتي المنتظمة لها، وعندما كنت أتسوق لأمي كنت أهوى قطف النباتات الصغيرة وقد أحبتني البستانية و كانت ـ من حين لآخر ـ تعطيني وردة صغيرة أو أي نبتة أخرى كى أزرعها في حديقتي.

أما أبي فهو من ولاية سيلسيا Silesia (وهي مقاطعة ألمانية سابقة في الشرق، وجاء إلى جنوب بادين South Baden للدراسة، وبعد أن أنهى امتحاناته في طب الأسنان، استقر في قريتنا الصغيرة عام 1936، تزوج والدتي، كان والداى يعتنقان المذهب البروتستانتي (اللوثرى) ولكنهما لم يكونا متدينين بالمعنى التقليدى.

كان والدي يعمل طبيب أسنان و كان – بحكم مهنته ـ يعرف كل أهل القرية والقرى المجاورة، وقد كان من محبى الطبيعة، وكان يهوى التنزه فى المروج الخضراء و الاستمتاع بالهواء الطلق، وكثيرا ما كنت أرافقه خلال تلك النزهات، وأحيانا كنا نركب دراجاتنا ونذهب إلى وادي جلوتر Glotter Valley حتى نصل إلى حيث المنحدر الشديد، عندئذ ننزل من على الدراجات لنكمل طريقنا سيرا على الأقدام حتى نصل إلى مزرعة كنا نشترى منها الحليب المخيض الطازج الذى يحتوى على حبيبات الزيد الحلوة ذات الطعم الشهى .

في ألمانيا كانوا يعلموننا الدين بالمدارس، وكانت المعلمة تحثنا دوما على أن نذهب إلى الكنيسة يوم الأحد من كل أسبوع، كنت قد بلغت ـ في ذلك الوقت ـ ثماني سنوات، وحين قلت لأمي بأنني أريد الذهاب إلى الكنيسة يوم الأحد، اندهشت ولكنها لم تعلق بشيء، ثم ذهبت في يوم الأحد التالي إلى الكنيسة مع إحدى صديقاتي، وفي الأسبوع الثالث أردت الذهاب إلى الكنيسة مرة أخرى، ولكنها لم تحبذ تلك الفكرة، إذ لم تعتقد أن هناك أي ضرورة لذهابي، ولكني ـ رغم ذلك ـ ذهبت، وفي الأحد الرابع كررت علي مسامعها أنني أريد الذهاب للكنيسة، فجاء رد فعلها مزعجا بالنسبة لي، وتعاملت معي بأسلوب فظ لم يتناسب مع حداثة سني، فلم أكرر طلبي مرة أخرى، وامتنعت عن الذهاب للكنيسة.

ومرت السنوات، وحين بلغت الرابعة عشرة من عمري دعتني إحدى صديقات العائلة ـ وكانت تدعى العمة فاليرى ـ Valerie للسفر إلى سويسرا في العطلة الصيفية، كانت تلك الصديقة روسية الأصل ولكنه تحمل الجنسية السويسرية وميسورة الحال جدا، وكانت تزور عائلتي باستمرار.

واحدة من بنات عمي كانت ابنتها (بالمعمودية) وحين عرفت بأنني من المفترض أن أزور عمتي فاليري Valerie لم أسلم من لسانها؛ إذ راحت تلمح بعبارات لم أدرك وقتها المقصد من ورائها مثل : " أرى أن عمتنا فاليرى قد دعتك لزيارتها أتمنى أن تستمتعى بوقتك لديها ! " وكان الزمن كفيلا بأن يوضح لى ما كانت تقصده .

كانت تلك العمة تعيش حياة رغدة في سويسرا، وكانت دائما ما تدعو ابنة عمتي (والتى كانت ابنتها بالمعمودية) لزيارتها وكنت أحسبها مدللة للغاية، وبعد أن وصلت إلى هناك، اختفت الصورة الوردية لتحل محلها صورة

رمادية !؛ إذ كان عليّ أولا أن أساعد في إقفال المنتجع الشتوي، ثم قيل لى بعد ذلك أن نستعد للانتقال إلى المنزل الصيفي؛ وهناك كان علينا أن نقوم ببعض الإصلاحات والتجديدات؛ وكان لزاما على أن أعمل مثل العبيد دون أن أتذمر، بينما عمتي واقفة كالمتفرجة تنحصر مهمتها فى إصدار التعليمات فقط، وأذكر ذات مرة أننا كنا نتناول مربى البرقوق والكريمة المخفوقة، وقد لاحظت وجود بعض الديدان الصغيرة في المربى ساعتها أحسست بالغثيان؛ فلم أعتد مثل تلك الأشياء المقززة؛ حيث كان بيتنا عنواناً للنظافة؛ إذ كانت والدتي تراعى قواعد الصحة العامة، لم يلاحظ أحد غيرى وجود تلك الديدان في المربي، إذ كانوا يأكلونها دون وعى منهم، وحين لاحظت عمتي ارتباكي وتوقفى عن الطعام، أخبرتها بوجود الديدان الصغيرة في مربى البرقوق، فغضبت منى ونهرتنى، بل وأجبرتني على أن أكمل طعامي؛ حتى أنها قالت لى :

- حتى الآن لم نسمع عن أحد قد مات بسبب تناوله لطعام به مثل تلك الديدان الصغيرة، ساعتها أيقنت أننى يجب أن أحتمل ما لم يسبق لى أن تحملته .

مرت السنوات وأكملت دراستي بأحد المعاهد الثانوية الألمانية، وأردت أن أتجه لدراسة الفن، لكن أمي أقنعتني بأنني لن أجني مالاً من وراء الفن؛ لقد اقتنعت بأن أصبح " فنية أسنان " كى أعمل مع والدى، وخاصة أننى أتمتع بمهارة يدوية، وهكذا تركت الدراسة وبدأت معه فترة تدريب كى أتأهل للعمل؛ فقد كان ذلك مدعاة لسرورى.

ثم تغير كل شيء فجأة بعد أن تُوفي والدي بسرطان القولون رغم صغر سنه، و كان ذلك في عام 1961، لقد حزنت على فراقه و شعرت بأنني أفتقده

كثيرا، وما زاد الأمر سوءًا هو رد فعل أمي حيال وفاته؛ كان والدي قد اشترى قطعة أرض ـ قبل مرضه ـ و أراد أن يشيد فوقها بيتا، ولكن القدر لم يمهله، وقد سيطرت فكرة استكمال البيت على تفكير أمي وبدأت تفكر في تنفيذ الموضوع مهما كلفها الأمر، وبالطبع لم يكن من المعقول أن يتم البناء بعد رحيل والدى وانقطاع الإيراد الشهري، لذلك لم تتورع أمي فى أن تطلب منى أن أتوقف عن التدريب وأتجه للبحث عن وظيفة أعمل بها كى تدر علينا عائداً شهرياً أعلى، وقتها لم أفكر كثيرا، ولكننى مع مرور الوقت أدركت أن رؤية أمى للأمور كانت تتسم بقصر النظر؛ إذ كان من الأفضل لو أننى أكملت تدريبي لأصبح " فنية أسنان "، فى تلك الحالة، كان يمكن أن أحصل على راتب أفضل لو كان من الممكن أن ترجئ مخططها الخاص ببناء البيت، فالأرض – على أية حال من الأحوال – لم تكن لتهرب منا، وهكذا لم أجد بديلا، فاستسلمت لرأيها وبدأت رحلة البحث عن عمل، وبمساعدة أحد زملاء والدي، وجدت وظيفة في مؤسسة التأمين الصحي للأسنان، وكذلك عملت أختي التى تصغرنى بثلاث سنوات، وكان مطلوبا منا تقديم كل ما نكسبه إلى أمنا والاحتفاظ لأنفسنا بمبلغ زهيد، لقد كانت أمي صارمة جدا معنا نحن البنات، إذ لم تسمح لنا بالخروج إلى السينما أو الرقص ما لم يرافقنا واحد من أبناء عمومتنا ليحرسنا على الرغم من بلوغى 21 عاما.

ورغم كل تلك العقبات التى كانت تعترض طريقى قابلت يونس(زوج المستقبل) فى الوقت المناسب؛ كنا نسلك نفس الطريق إلى محطة القطار، وكنا نركب نفس القطار، ومِن هنا جاءت المصادفة، وتعارفنا أثناء سيرنا معا لمسافة قصيرة، كانت أمى سيدة متشددة، وبالطبع لم تسمح أن يكون لى صديق.

كان يونس شاباً وسيماً ساحراً، وقد ولد ونشأ في الإسكندرية بمصر،

كان والده رجل أعمال، وكان يتمنى أن يدرس ابنه الاقتصاد في السودان، في البداية امتثل يونس لرأي والده وسافر بالفعل إلى هناك ولكنه عاد بسرعة؛ لأنه لم يحب هذا البلد، كما أن تلك الدراسة لم تستهوه؛ إذ كان يتمنى أن يصبح طبيباً، وكان رأيه أن يكمل تعليمه في ألمانيا، وعندما توفي أبوه، ترك أموالا لأولاده، واستطاع يونس ـ بهذه الأموال التى ورثها عن أبيه ـ أن يسافر إلى ألمانيا ويبدأ دراسته، ولقد درس يونس الطب في مدينة فيريبرج Freiburg وعاش هناك أيضاً وفي وقت فراغه كان يسعى لتحسين اللغة الألمانية لقد كان يونس شابا طموحا مجتهدا؛ عمل في عدة وظائف لكي يدبر مصاريف معيشته؛ منها "مساعد دهان"، وبهذه الطريقة اكتسب الخبرة الكافية وأصبح دهاناً ممتازاً يجيد كافة أعمال البياض و تشطيبات المنازل. ذات مرة استقل قطارًا متجهًا إلى قريتنا الصغيرة ليتنزه هناك، فأعجبته كثيرا وأحب أن يعيش فيها لدرجة أنه بحث عن غرفة ليعيش في قريتنا.

كنا نتقابل كثيرا في الطريق إلى القطار، لقد أعجبنى منذ أن رأيته للوهلة الأولى أحببته كثيراً ولكنني كنت خجولة وكانت مشاعرى مغلفة بالبراءة العذرية، وتوالت لقاءاتنا التى لعبت فيها الصدفة المحضة دوراً جوهرياً، وبعد فترة امتدت بضعة أشهر، سألني:

- أين أذهب في وقت الغداء؟

فأجبته قائلة:

- أحيانا أذهب إلى وسط المدينة مع إحدى زميلاتي، فطلب منى أن أقابله في المقهى، لم تواتنى الشجاعة كى أرفض؛ إذ كانت رغبتى الداخلية تدفعنى لقبول دعوته، والتقينا، وقد ترك هذا اللقاء لدىَّ انطباعاً لطيفاً؛ إذ كان يونس مؤدباً جداً معي للغاية، ولفترة طويلة لم ننادِ بعضنا البعض

بالاسم الأول، فقد كان يناديني رسميا بلقب "فراولين" وتعنى "الآنسة" واستمرت لقاءاتنا بانتظام لعدة أسابيع ونحن في الطريق إلى القطار.

بعد أن انتهينا من بناء بيتنا، سمع يونس أن أمي لديها غرفتان للإيجار، فسألني أولاً ثم سأل أمي عن صحة تلك المعلومة، وهكذا استأجر يونس بالفعل غرفة وانتقل ليعيش في بيتنا، وقد وجدته أمي شابا دمث الخلق ظريفاً ومؤدباً ولطيفاً، إذ كان يجاملها أحيانا، وخاصة عندما يقابلها وهى آتية من عند مصفف الشعر" الكوافير"، وبلغت درجة إعجابها به أنها قالت عنه ذات مرة:

- " لا أمانع أن يكون زوج ابنتي شابا مثله، ولكن لا بد أن يكون ألمانيا!".

ولم تكن أمي متحفظة فقط ولكنها كانت أيضاً متحيزة ومتحاملة ومتعالية مثل الكثيرين من أهل القرية، ولكنى لم أدرك ذلك سوى فى وقت لاحق.

في ذلك الوقت لم نكن - أنا ويونس - على علاقة حميمة، بل كنا كالعادة نتقابل بالصدفة ونتحدث معا أو نمشي سويا لمسافة قصيرة، ولكننا وقعنا فى الحب وأظهركلانا للآخر عواطفه الخالصة، وبالتالي أصبح الأمر واضحاً بأننا نريد الارتباط الأبدى؛ وكان الزواج هو الحل الأمثل، وحينما ذاع الخبر، ذهلت أمي وكل أقاربي، بل أصيب سكان القرية بالفزع؛ إذ كان للخبر وقع الصاعقة التى هبطت من السماء وقالوا :

- "ستذهب مع مصري..!"

واعتبروا زواجي منه أمراً فظيعاً.

كان يونس شديد الحرص على سمعتى لدرجة أنه قبل ارتباطنا ترك الإقامه فى منزلنا، لأنه لم يشأ أن تكون علاقتنا وأمر ارتباطنا عرضة للقيل

والقال ومثاراً للإشاعات، وقد احتفلنا بخطوبتنا عام 1963، رغم كل توقعات الآخرين بفشل ارتباطنا، وقد تم الاحتفال في بيت أحد أصدقاء يونس وهو مصري ومتزوج من سيده ألمانية ويقيم في قرية أخرى، في ذلك الوقت كان عمري 23 عاما، بينما كان عمر يونس 27 عاما، وكانت حفلة خطوبتنا محدودة جدا رغم أننى دعوت جميع أصدقائي وأقاربي ولكنهم امتنعوا عن الحضور ولم يلبِّ دعوتي أحد من معارفي أو أقاربي الذين عرفتهم طيلة حياتى، وحتى أمي لم تحضر، وما حدث بعد ذلك كان أسوأ، إذ كان عليَّ أن أمر بفترة صعبة داخل قريتى؛ كانت تقتلني نظرات الناس التى تنم عن الاحتقار، كما سرت حولى شائعات، وكان يزعجنى أن يصفوني بكل سوء، كما لم تدخر عماتي وسعا فى إرسال خطابات مصحوبة بقصاصات من صحف تحكي قصصا مرعبة عن نساء تزوجن من عرب، وقد كان لذلك بالغ الأثر السيىء فى نفسى، إذ قاطعتنى أمي ولم تعد تحادثنى بعد ذلك، ولكننى لم أعد أتحمل تلك القطيعة من الجميع، فبحثت عن غرفة في مكان آخر كى أقيم فيها، وهكذا انتقلت إلى مدينة فريبيرج Freiburg، في البداية أخذتني إحدى عماتي لأقيم معها في منزلها، ولكنى بعد ذلك استأجرت غرفة مفروشة، كنت أشعر بالأسى والإحباط بعد أن خابت ظنوني في كل هؤلاء الناس الذين لم أسبب لهم أي متاعب على الإطلاق، أما يونس فقد استمر يعيش في القرية لفترة، ولكنها – بالنسبة له – لم تكن فترة سعيدة على الإطلاق.

حينما كنت أعيش مع أمي في منزل العائلة، كانت دائماً ما تحتفظ بمدخراتي، أما بعد أن انتقلت للعيش بمفردى، فقد حاولت أن أدخر بعض النقود، وبدأت أشتري كل الأشياء الضرورية لتأسيس منزل الزوجية، وعدني يونس أن يوفر لي شقة وأثاثا، ولكن كان على العروس – وفقا للأعراف المتبعة في مصر – أن تساهم بدفع " مهر " قدر إمكانياتها، وهكذا بدأت أعمل بجنون وكأننى فى سباق مع الزمن؛ فعملت في وظائف كثيرة كي أكسب

أموالا كثيرة وفى أسرع وقت ممكن حتى أدخر النقود اللازمة؛ فمثلا عملت مع فنان كان يصنع لوحات فسيفساء " موزايكو" ضخمة، وكنت أقوم بتنفيذ تصاميمه من الفسيفساء وكنت أذهب معه إلى مواقع الإنشاء، بجانب هذا قمت بحياكة الملابس للآخرين، وشيئاً فشيئاً زادت مدخراتي حتى أصبحت مبلغاً جيداً، ورغم انهماكى فى العمل، كنت أزور أمي في عطلة نهاية الأسبوع على أمل أن تصالحني؛ إذ كان رضاها أمرا مهما بالنسبة لي، ولكنني لم أسمع منها إلا عبارات التوبيخ التى كانت تؤلمني، ولم أجد منها سوى اللوم والعتاب، الأمر الذى جعلنى – شيئا فشيئا – أقلل من زياراتى لها.

كل أقاربي وأصدقائي في القرية – خلال تلك الفترة – تحولوا ضدي وبشتى الطرق حاولوا أن يجعلونى أعدل عن فكرة الزواج من يونس، ولقد أدركت ـ فيما بعد ـ أنهم كانوا مهتمين بي وخائفين عليّ، إذ لم يتصوروا أن زواجنا سوف يكتب له النجاح، وأن حياتنا ستكون سعيدة، في الحقيقة لم أتوقع مثل هذا الرفض الجماعى وتلك المقاومة الشديدة من أمي وأقاربي ومعارفي، ولكني ـ رغم كل ذلك ـ عزمت على تحقيق كل ما أردته وتنفيذ كل خططي، إذ كنت متأكدة من شيء واحد فقط هو أننى ويونس متوافقان ولابد من زواجنا، كانت أختي هى الوحيدة التي ساندتني ووقفت بجانبي، وكان وقوفها بجانبى سببا فى إحراجها لتعانى الأمرين بينى وبين أمي .

لم يتسرب القلق إلى نفسي سوى مرات قليلة طرحت فيها على نفسى عده تساؤلات تتعلق بمستقبلى منها : ترى هل ذهابي مع رجل غريب لا أعرفه يعد تصرفا سليما ؟ ترى هل ارتباطى برجل جاء من بلد غريب مثل مصر، أمر صائب ؟!

كثيراً ما حدثني يونس عن مصر وعن عائلته وحياته هناك، وكثيراً ماحاولت أن أتصور ما ينتظرني هناك، ولكن سرعان ما اتضح لي أني لم

أعرف أي شيء عن الحياة الحقيقية في الإسكندرية. في ذلك الوقت كنت أفكر طويلا في أبي الذي رحل قبل أن يشهد هذا اليوم، وكم كنت أتمنى لو كان على قيد الحياة كي يذهب معي إلى مصر ونتعرف معاً على كل شيء على الطبيعة، ولكني – للأسف ـ كنت وحيدة، ولا أملك تكاليف الرحلة إلى مصر لكي أتعرف عليها، وبالتالى مثل هذه الرحلة الطويلة المكلفة كانت دربا من دروب المستحيل.

وقبيل أن ينتهي يونس من دراسته تسلَّم رسالة عاجلة من بلده تفيد بأن أمه مريضة جدا، وكان عليه أن يسافر على الفور، وبالفعل تركنى في مدينة فريبيرج، و سافر وحده والحزن يملأ قلبه .

واتفقنا على أن ألحق به بمجرد أن تتوفر معي تكاليف الرحلة، ولكن هذا الأمر استغرق نحو عام، وفي تلك الفترة تعرضت لحادث خطير ـ حيث سقطت من الترام وهو يتحرك، وتم نقلى للمستشفى حيث قضيت عدة أسابيع حتى تماثلت للشفاء، وبعدها سمح لي بالخروج.

وأخيرا في ديسمبر عام 1966، حان الوقت؛ إذ توفر معي مبلغ لا بأس به لشراء كل احتياجاتي :" أوعية، ومفارش أسرة، والصيني، والفضيات، والملابس". كل شيء أحتاج إليه تم شحنه داخل صندوقين كبيرين، كما اشتريت أيضاً سيارة فولكس فاجن قديمة لأخذها معي، وبدأت في وداع أهل قريتي الذين هدأت مشاعرهم تجاهى، فبرغم كل ما حدث فهم عشيرتى .

كانت مشاعرى مختلطة؛ فها أنا أهم بمغادرة وطنى الأم، ولم أكن أعرف متى سأعود إليه، كان الفراق صعبا عليّ جداً، ساعتها بكت أمي وأختي وبكيت معهما كذلك، لقد صالحتنى أخيرا.. صالحتني عند وداعي، ودعت لي بالخير، وتمنت لى السعادة وعندما حانت كلمة الوداع لم تنطقها

لي، فقط قدمت لي أمي ـ لحظة وداعي ـ علبة صغيرة أوصتني بألا أفتحها إلا على ظهر السفينة، وعندما فتحتها بعد ذلك وجدت بها عقداً من اللؤلؤ ورسالة، وهكذا بدأت رحلتي إلى المجهول الذى ينتظرني .

صديقنا المصري الذي احتفلنا في بيته بخطوبتنا أقلني بسيارتي الفولكس فاجن إلى السفينة في جينوا Genoa. أما متعلقاتي الشخصية وصناديقي فقد جاءت في القطار، ثم تم شحنها في السفينة، وبدأت الرحلة التى كانت ممتعة؛ فكانت لي كابينة خاصة، وعلى متن السفينة تعرفت على عديد من الشباب كان معظمهم من اليونان، وسألوني أسئلة كثيرة فأخبرتهم بقصتي، وحين عرفوا أني مسافرة إلى خطيبي كانوا أحيانا – على سبيل الدعابة ـ يغنون مثل الكورس أغنية

ـ " أليسي ستتزوج... أليسي ستتزوج...".

وبعد رحلة دامت ثلاثة أيام في البحر وصلنا إلى الإسكندرية، وطبعا كان يونس على علم بوقت وصول السفينة، لذا جاء مع صديق له يعمل في البحرية، وانطلقا بقارب صغير ليستقبلاني في البحر قبل أن تصل السفينة إلى الميناء، اقترب القارب من سفينتنا، لمحته على الفور، وكذلك أصدقائي اليونانيون لمحوه معي، فقلت لهم:

ـ "ها هو خطيبي قادم "

وأنشدوا مجددا:

ـ " أليسي ستتزوج ... أليسي ستتزوج ...".

سعدنا وسط تهليلهم وفرحهم، ووصلنا إلى الميناء حيث حضرت كل عائله يونس بالكامل إلى الميناء ليستقبلوني. كان في استقبالي عدد هائل من

الناس، لم أتصور كل هذا الصخب، بدا كل شيء حولي غريبا، و بعد ترحيب طويل اتجهنا إلى بيت والدة يونس.

كانت أم يونس تعيش بمفردها مع خادمة تدعى"عزمة"، وهي سيدة مسنه أقامت معها منذ سنوات عديدة، كل أولاد أم يونس تركوا بيت العائلة عدا يونس الذى ظل يعيش مع أمه، وبالطبع كان علينا بعد الزواج أن نقيم معها، وفور وصولى قدمت لي "عزمة" كوبا من عصير الليمون البارد "ليمونادة"، و كان مذاق الليمون الطبيعي رائعاً، يختلف عن ذلك الذى اعتدت عليه فى ألمانيا، ومنذ ذلك الوقت أحببت ذلك المشروب كثيراً.

لم تكن أم يونس في البداية مقتنعة بفكرة زواج ابنها من فتاة ألمانية - شأنها فى ذلك شأن كل أفراد عائلته الذين عارضوا الزواج - فهناك فتيات كثيرات فى سن الزواج، ومن عائلات معروفة في الإسكندرية كان يمكن أن يختار منهن ! وخاصة أن الإسكندرية فى ذلك الوقت لم تكن مكتظة بالسكان، وكانت العائلات تعرف بعضها البعض، كما أن يونس شاب وسيم بهى الطلعة ومتعلم ومن عائلة عريقة، بالإضافة إلى كونه مرغوباً جداً وأمامه فرصة كى يختار ويفاضل بين عرائس كثيرات، ولكن الأمر بالنسبة ليونس كان واضحا ومحسوما تماما كما كان بالنسبة لى وهو أن : كلاً منا ينتمى للآخر، حتى أنه قبل وصولي إلى الإسكندرية جلس مع عائلته و حسم الموقف، إذ أوضح لهم بصراحة بأنه لن يعدل عن رأيه، وهكذا لم يعد أمامهم أي خيار إلا أن يقبلوا قراره، وبدا كل فرد في العائلة يعاملني بشكل جيد، ووجدت الترحاب منذ البداية .

في ذلك الوقت لم نتمكن من الزواج لأننا كنا في شهر رمضان، ومن الأفضل إقامة حفل الزفاف بعد رمضان؛ لهذا انتظرنا أسابيع، وكان هذا

الرأي مناسبا لي، لأني أردت أن أتعرف على هذا الجو الجديد؛ فبدأت أشاركهم صيام رمضان وعرفت ما معنى الصوم، لم أجد الصوم صعبا أو شاقا؛ لأننا كنا في منتصف الشتاء وكانت درجة الحرارة مناسبة، وخلال وقت الصيام يمتنع المسلم عن تناول أي طعام أو شراب من بعد الفجر إلى غروب الشمس، وكان يونس يذهب إلى العمل كل يوم ولا يأتي للمنزل إلا بعد الظهر يتركني مع أمه طيلة النهار، وفي الظهيرة كانت أمه تنام وقت القيلولة، وتطلب مني أن أهش عنها الذباب الذي يضايقها ولا يجعلها تنام من طنينه، وكانت تحكي لي قصصاً طويلة لم أفهم منها شيئا ! وفي كل مرة كنت ألتقط بعض الكلمات التى تتفوه بها، وعندما يعود يونس أسأله عن معاني تلك الكلمات، وكان يترجم لي تلك الحكايات باللغة الألمانية، وشيئاً فشيئاً بدأت أتعلم اللغة العربية عن طريق المصادفة والمرح أكثر مما لو تعلمتها عن طريق الكتب والحفظ.

قابلت جميع أقارب يونس، وكان الزوار يأتوننا كل يوم تقريباً، وكنت أعرفهم رغم أني لم أحفظ أسماءهم جميعاً، كان يونس لديه ستة إخوة، بالإضافة إلى عدد غير واضح من الأعمام والعمات وأبناء وبنات العمومة، وخلال شهر رمضان كانوا يتزاورون بعد الإفطار، وكانت تلك الزيارات تستمر حتى وقت متأخر في الليل وكالعادة لم أكن أفهم شيئا من كلامهم - ورغم ذلك - كنت أجلس معهم بمنتهى الجرأة وأحاول أن أشاركهم الحديث، لقد كانت معظم النساء يتحدثن الفرنسية لأن كثيرات منهن درسن في مدارس فرنسية؛ فكنت أتواصل معهم بطريقة أو بأخرى، وكنت أنا ويونس نتبادل معهم الزيارات أيضاً، ولقد شرح لي يونس طبيعة العلاقات الأسرية؛ فهذه زوجة فلان، وهذا قريب فلانة.. وشيئا فشيئا عرفت كل العلاقات التى تربط بين أفراد هذه العائلة الكبيرة، ولقد أدركت على الفور أن الكيان

العائلى من الأمور المهمة جدا في المجتمع المصري، وقد أعجبتني تلك الروابط الاجتماعية القوية بين أفراد العائلة.

كان يونس يقضي وقتا طويلا معي؛ وكنا نخرج معا نمشي في شوارع الإسكندرية، وقد زرنا المنتزه ، وقصر الملك، وحديقته البديعة الغناء، والميناء، كما زرنا القلعة. وعندما علمت شقيقات يونس أني أحب الخياطة، اصطحبونني إلى شارع فيه محلات لبيع الأقمشة؛ حيث يمكن للمرء أن يشتري كل شيء، وهكذا استطعت أن أمارس هواياتي في مصر.

وبعد أن انتهى رمضان، أردنا أن نتزوج، وبدأنا في الإعداد لحفلة الزفاف التي استنفدت كل طاقاتنا، وكانت دهشة أسرتي الجديدة أنني لم أشتر فستان الزفاف ولا حتى القماش، لذا قمنا معاً - أنا وأخوات يونس - بالبحث عن قماش الفستان ولم يعجبني شيء مما رأيت، فالقماش إما رديء أو ذوقه غريب متكلف يخلو من الرقة، وأخيراً وجدت قماشا أحببته. وبدأت أخيط فستاني من ذلك القماش. وكانت النتيجة رائعة، كنت مقتنعة به ولكن العائلة كانت ترى بأن الفستان عادى و ينقصه الترتر، ولكني لم أرد سوى فستان بسيط، ولكن توصلنا إلى حل وسط؛ إذ خيطت ياقة من نفس القماش وطرزتها بالترتر لكي أسعد أم يونس، وبدأت الاحتفالات بمراسم الزفاف في المنزل بدون ضيوف، وقعت أنا ويونس على عقد الزواج فى حضور المأذون، وكذلك وقع الشهود، وفي اليوم التالي – ونظرا لعدم توافر الإمكانيات المادية - أقيم حفل زفاف كبير في شقة أم يونس القديمه الكبيرة.

ذهبت أولاً إلى الكوافير كى أصفف شعري الذى كان خفيفاً، متوسط الطول، وقد قام الكوافير بعمل تسريحة خاصة لي بعد أن صففه ورفعه إلى

أعلى وثبته بواسطه " أسبراي الشعر"، ثم وضع الطرحة فوق رأسى والتي تشبه فستان زفافي والتى قمت بحياكتها بنفسي، والتى بالطبع لم تنل إعجاب العائلة لكونها بسيطة وقصيرة وتخلو من المظهر الصارخ، وبعد ذلك كنت أشبه بالملكة " ماري أنطوانيت " ملكة فرنسا، وبعد أن استغرق بقائي في الكوافير بضع ساعات، أخذني يونس إلى بيت شقيقته زينب، وارتدينا ملابس الزفاف ومن هناك ذهبنا إلى شقة أم يونس حيث بدأنا حفل الزفاف، كان الفرح والمدعوون رائعين، وكنت أبدو رائعة الجمال، وقد حضر كل أقارب يونس مع أطفالهم، ورغم أن الشقة واسعة وكبيرة وفيها غرف كثيرة وغرفة لاستقبال الضيوف، إلا أنها كانت مزدحمة جداً، ويوجد بها بوفيه مفتوح عامر بما لذ وطاب من الجاتوهات والسندوتشات، بالإضافة إلى أطعمة شهية أخرى، وبعد فترة، وفي الوقت المحدد انطلقنا بالسيارة إلى فندق سان إستيفانو، وهو من أجمل الفنادق في الإسكندرية في ذلك الوقت، وعندما أردت أن أهيئ نفسي في الليل، قابلتني مشكلة كبيرة؛ إذ لم أستطع أن أفك شعري بسبب الإسبراي المثبت، وطلبت من يونس أن يساعدني، ورغم جهودنا المشتركة في حل هذه المسألة، استغرق الأمر ساعة متواصلة حتى استطعنا أن نفكه، ولكن نجم عن ذلك تساقط بعض الشعر، ولم أنس تلك التسريحة لفترة من الوقت !.

في اليوم التالي بعد زيارة العائلة ذهبنا إلى القاهرة لمدة أسبوع، وهكذا بدأ شهر العسل بالنسبة لنا؛ حيث استمتعت مع يونس بمشاهدة كل المعالم السياحية الموجودة في القاهرة : كالمتاحف المصرية، والأهرامات، والجوامع القديمة والمناطق الأثرية، كما كنا نتنزه على ضفاف نهر النيل، وفي الساحات والأسواق العامة.

وبعد رجوعنا إلى الإسكندرية عشنا مع أم يونس، وكان يمكن أن ننتقل إلى شقتنا الجديدة التي كانت جاهزة للسكن، ولكن غياب يونس في ألمانيا لفترة طويلة جعل أمه تريد رؤيته كل يوم، بالإضافة إلى كونها مريضة وتعاني من مشاكل صحية، لذلك لم نرغب في أن نتركها وحيدة، وهكذا تكيفت ـ منذ البداية ـ مع هذا الوضع تماما، وأذكر ذات مرة أنها قالت لابنتها الكبرى: " إن لديّ ثمانية أولاد ولكن واحدا منهم فقط هو الذي يأتيني بدون أي دعوة مني!". كلماتها أوجعتني كثيرا، وكان لها بالغ الأثر في نفسي، مما جعلني أكثر حرصا على مشاعرها .

مع قدوم الصيف أصبح الجو في الإسكندرية شديد الحرارة، وكنا مازلنا نقيم مع أم يونس، وكانت لنا غرفة في شقتها، ولكنها في نهاية الأمر أصرت على أن ننتقل إلى شقتنا الخاصة وفي اليوم الذي بدأنا نُنتقل إلى شقتنا أعدت لنا غداء لنأخذه معنا، وضعت الغداء في قدرين كبيرين ملفوفين بقماش، وخرجنا طائعين إلى شقتنا، وبعد تناول الغداء أخذنا قسطاً من النوم، كما هو معتاد في مصر، وبعد ذلك سأل كل واحد منا الآخر: "ماذا سنفعل الآن؟ وكانت الإجابة :

ـ " سنزور أمنا ".

وهكذا طرقنا بابها بعد ساعات من تركها، فسعدت بمجيئنا، وبرغم أننا أقمنا في شقتنا إلا أننا كنا نزورها باستمرار، ودائما ما كان يمر عليها يونس في الصباح قبل ذهابه للمستشفى، وإذا لم يتمكن أن يمر عليها في الصباح، كنا نذهب معاً إليها في المساء، واستمر الوضع هكذا حتى تُوفيت أم يونس بعد عام، وقد حزنت عليها كثيرا لأنها رضيت بوجودي في عائلتها بمنتهى الحب، ولأنني أحببتها من كل قلبي.

تأقلمت سريعاً على حياتي في الإسكندرية وشعرت بالاستقرار؛ ولكن الشيء الوحيد الذي كنت أفتقده هو الطبيعة الخضراء وركوب دراجتي وسط المروج، فذلك أمر غير مقبول هنا في مصر. لم يكن البحر بعيداً عن شقتنا، وهذا كان أمراً رائعاً بالنسبة لي، برغم أنني لا أستطيع ـ أيضاً ـ السباحة فيه، كنت أحب دائماً أن أتنزه مع يونس.

لقد أصبح لدى الآن الصحراء والبحر، وقد ظننت وقتها أن الجبال سوف تعيد لي ذكرى الأيام الخوالى التى قضيتها فى ألمانيا؛ إذ لم تكن الصحراء بعيدة عني، ولكن الأمر استغرق فترة كي أتعرف على الطبيعة الصحراوية بصورة أفضل .

في نفس الوقت استطاع يونس أن يكمل دراسته في مصر، وقد أصبح طبيباً؛ وفي البداية كان مطلوبا منه أن يعمل في المستشفى براتب ضعيف، فالأمر مختلف فى مصر، ورغم أن الدراسة في مصر مجانية، إلا أن الطبيب المتخرج عليه أن يعمل في الحكومة لعدة سنوات (فترة تكليف) ـ وعلى أية حال ـ لم يكن راتب يونس يكفينا، فبدأت التفكير في العمل مجدداً، فرجعت إلى حياكة الملابس مرة أخرى، فقد كنت أتقنها ويستهويني الاشتغال بها .

وفي عام 1968 تم تكليف يونس بالعمل في الريف في أحد المراكز الطبية في الدلتا، فى قرية تبعد عن الإسكندرية بنحو 120 كيلومترا (75ميلاً)، كانت القرية خالية إلا من وحدة صحية وبعض المباني الأخرى، إذ لم تكن قرية بالمعنى المفهوم، بل كانت مجموعة من بيوت المزارعين، وكان كثير من المزارعين الآخرين يعيشون في المناطق المجاورة، حيث كانت المدينة التالية بعيدة، وكذلك أقرب مستشفى كانت بعيدة .

يوجد بالمستشفى الذى يعمل به يونس سكن خاص بالطبيب، وعيادة

صغيرة، وجناح للرجال، وجناح آخر للنساء، ومختبر، وسكن للممرضات، وكان يونس هو الطبيب الوحيد في المستشفى، وعندما ذهبنا إلى هناك للمرة الأولى عدت بذاكرتي إلى الوراء فقد ذكرتني الأوضاع بالعمة فاليري Valerie والديدان الصغيرة التي كانت توجد في " مربى البرقوق والكريمة المخفوقة " الذى كانت تقدمها لي، كان المنزل يعج بالحشرات والصراصير من كل الأنواع والأحجام، وأذكر تلك المرآة القديمة التي كانت معلقة على الحائط داخل الحمام والتي عندما أمسكت بها لأنظفها اندفعت من ورائها أسراب من الحشرات، ولا أذكر أنني رأيت في حياتي مثل هذه الكمية من الصراصير التي كافحناها منذ الأيام الأولى لنا في هذا السكن، والحمد لله! أن حوائط الغرف كانت مطلية، مما جعلها تبدو نظيفة نوعاً ما، ولم أستطع أن أتخيل كيف كان حال الذين عاشوا قبلنا في هذا السكن .

وبعد معاينة المكان والتأكد من إتمام عملية النظافة، توجهنا إلى الإسكندرية لجمع أمتعتنا لنعود بها إلى هذه القرية، كي نعيش في تلك المنطقة البدائية جداً، والتي تكاد تخلو من مظاهر المدنية، وقد حاول يونس أن يجعل المنزل مريحاً بالنسبة لنا، ولكي نعمل على تحسين المظهر العام قمنا بتعليق بعض لوحات المناظر الطبيعية للجبال التي كنت قد اشتريتها من ألمانيا، ولكي نتخلص من الحشرات نهائيا كان علينا أن نعيد رش المنزل بالمبيدات مراراً وتكراراً باستخدام البخاخات اليدوية؛ فلم تكن البخاخات " الإيروسول " المعدنية المعبأة متوفرة في ذلك الوقت، لقد كانت معركة طاحنة استمرت بيننا وبين الحشرات، كما كان هناك أيضاً براغيث، ولقد أصبت بحساسية من لدغاتها، وكانت الكهرباء متوفرة لمدة أربع ساعات فقط، من فترة ما بعد الغروب، وكان لزاماً علينا في ذلك الوقت أن ننجز كل

الأشياء التى تحتاج للكهرباء، أما الماء فكان يتم رفعه بالطلمبة من البئر إلى الخزان أثناء ساعات توفر الكهرباء فقط .

كان يونس يذهب إلى العيادة في النهار، وهى فترة استقبال المرضى، وأحياناً كان الناس يأتون للمنزل في منتصف الليل يطلبون مساعدته، وكانت من عاداتهم عندما يأتون إلينا أن يصفقون بأكفهم قبل الدخول؛ فهذه العادة متبعة فى الأرياف للتنبيه بوجود زائر، وعادة كان الرجل يأتي إلينا ومعه حماران، حمار يركبه الزائر، والحمار الثاني يركبه الطبيب "يونس"، وأحياناً كان يذهب يونس بسيارتنا لزيارة المريض، ولكن هذا كان يعتمد على طبيعة المكان الذي سيذهب إليه يونس؛ وإذا ما كان الطريق سهلا لقيادة السيارة، ففى ذلك الوقت لم تتوافر في العيادة سيارة إسعاف، وكان هناك طريق ضيق قذر يمر منه الناس إلى حقولهم مع الإبل والماشية والحمير على طول الترعة التي تشق القرية من الوسط، وفي المساء يعودون إلى بيوتهم .

وسرعان ما تعرف أهل القرية علينا وحدثت الألفة بيننا وبينهم، وكانت هناك واحدة من الموظفات بالمركز تقوم بغسل ملابسنا، ولكنني كنت أحب أن أنشرها بنفسي فى البلكونة، وكنت دائماً أبدأ بنشر ملاءة السرير الكبيرة، ثم أقوم بنشر باقي الغسيل دون أن يلاحظني أحد من الجيران والمرضى .

وعلى الرغم من هذه الظروف البدائية، إلا أن حياتنا كانت جميلة للغاية؛ إذ كان الطبيب في القرى المصرية يتمتع بمكانة مرموقة، وكان الناس يتعاملون معنا بمنتهى الطيبة والود، ولا يدخرون وسعاً فى تقديم يد العون لنا كلما لزم الأمر.

في عهد جمال عبد الناصر، كانت المواد التموينية شحيحة جدا، وكانت الظروف الاقتصادية متدهورة؛ ولم تكن السلع متوفرة في المحلات، و كل ما

كنا نحتاجه كان يأتي إلينا من عند المزارعين، وكان يونس يأخذ إجازة كل أسبوعين، وكنا نقضيها في شقتنا بالإسكندرية، ودائماً ما كنا نشتري كل ما نريد من المدينة، وأحياناً كنا نشترى للمزارعين بعض الحلويات، و كانوا بدورهم يعطوننا الخبز الفلاحي والبيض والجبن والزبد .

وكان أقرباء يونس ينتظرون هذه الهدايا التي نأتي بها من القرية، وإذا اشترينا احتياجاتنا من مواد البقالة كانوا لا يقبلون أن ندفع ثمنها، ويصرون على أن ما نأخذه بمثابة الهدية، لذلك كانت سيارتنا الفولكس دائما ما تكون محملة بالخيرات من القرية إلى المدينة والعكس .

في البداية كان أهل القرية يأتون إلينا كي يروا الطبيب الجديد وزوجته الأجنبية، وسرعان ما عرف يونس جميع الفلاحين في القرية وعائلاتهم، أما أنا فبدأت بعمل حديقة لنا، كما قام يونس ببناء سور من سعف النخيل حول الحديقة، وبذلك أصبح لديّ حديقتي الصغيرة الخاصة، الأمر الذى أنعش ذاكرتي وجعلني أشعر بالوطن مجدداً، لقد كانت عائلتنا في الإسكندرية تزورنا دائماً في القرية، على الرغم من أن بيتنا كان غير مؤهل لاستقبال أي شخص، إلا أنهم كانوا يزوروننا فى القرية، إذ كانت النساء تنام داخل حجرة مغلقة، بينما كان الرجال ينامون في الردهة على سرائر يحضرونها من العيادة، وقد كان الأمر مضحكاً للغاية، فالكثيرون منهم لم يعتادوا الذهاب إلى الريف إلا نادراً وفى المناسبات؛ على سبيل المثال؛ فى عيد شم النسيم وهو الاحتفال الخاص بالمصريين الذى يواكب قدوم الربيع والذى يواكب الاحتفال بعيد" الفصح " فى الغرب، وكانوا عادة يحضرون معهم طعامهم، كما كان المزارعون يقدمون لنا المزيد من الطعام على سبيل الضيافة، فكانت هناك وفرة فى الأطعمة، وكان من الطبيعي ألا يوجد في القرية من يتحدث اللغة الأجنبية، لذلك كان عليَّ أن أتحدث باللغة العربية

عندما كنت أريد التعبير عما يجول بخاطري، وشيئا فشيئا وبفعل تلك الظروف تحسنت لغتي العربية .

كان يعيش في حديقتنا رجل يدعى دياب، وكان يبلغ من العمر آنذاك خمسين عاما، سرت حوله شائعة قوية عن أصله ونشأته، إذ قيل إنه هرب من أسرته الكبيرة بعد أن تورط فى جريمة قتل، وكان منظره غريبا ومخيفا؛ إذ كان أحدب الظهر ومعتوهاً، وكان عندما يقترب من المستشفى تطارده المرضات ويطردنه، ولكنه كان يشعر بالألفة تجاهنا، لدرجة أنه بنى كوخاً لنفسه في حديقتنا، وكنا نقدم له الطعام، وكان يقف في الحديقة ويصفق بكفيه إذا احتاج لأى شيء، وكنت أخرج إليه، لأجده مستعداً لالتقاط كل ما أقذفه إليه فى جلبابه؛ سواء كان طعامًا، أو شاياً وسكراً، أو سجائر، وكان يحب الحلوى التي كنا نأتي بها من الإسكندرية، لقد كان دياب بالنسبة لنا بمثابة الحارس الأمين؛ الذى كرس نفسه لنا، وكان المرضى يدعوننا أحياناً لتمضية الأمسيات، فكان دياب يتطوع بنفسه ليمشي أمامنا حاملاً الفانوس "مصباح الغاز" ليضيء لنا الطريق حتى نصل إلى بيت المريض، وكان ينتظرنا خارج المنزل حتى ننتهى من زيارتنا ليصطحبنا ونحن فى طريق العودة إلى منزلنا .

لقد كنا ضيوفا محبوبين لدى كل أهل القرية، وكل واحد كان يدعونا لكي نتناول الطعام لديه، وفى أغلب الأوقات كانوا يقدمون لنا شايًا ثقيلاً، وكنت أشربه بصعوبة، وأذكر أننى مرة أصبت بالإعياء الشديد بعد أن شربته، ومنذ ذلك الحين لم أتناول الشاي مرة أخرى .

كانت دقة المواعيد من بين المميزات التي اكتسبناها من ألمانيا؛ فقد كنا نحافظ على مواعيدنا مهما كان الأمر، وهو أمر غير مألوف فى مصر، إذ كنا

نقوم بفتح العيادة في موعد دقيق " الساعة الثامنة صباحاً "، ولكي نتمكن من ذلك كنا نغادر الإسكندرية في الساعة السادسة صباحاً بعد انتهاء الإجازة الأسبوعية، وعندما نصل لا نجد أي أحد من الموظفين هناك ـ وشيئاً فشيئاً ـ عرف الموظفون طبيعة الطبيب الجديد ودقة مواعيده، وذات مرة أتينا إلى القرية متأخرين بعض الشيء وكان ذلك بسبب هطول الأمطار الغزيرة، حيث انزلقت السيارة وانغرست عجلاتها في حفرة أثناء عودتنا، وقد بذلنا جهدا مضنيًا كي نخرجها من الحفرة، وجدير بالذكر أن المطر فى تلك المنطقة يسقط مرتين أو ثلاثة في العام، وبعد ذلك كان علينا أن نسرع في السير، وما هو إلا وقت قصير بعد هطول المطر حتى تعرضنا للخطر مجدداً، بسبب الوحل الذى يملأ الطرقات، في ذلك اليوم لم يتوقع أحد أننا سوف نصل، ولكننا استطعنا ذلك ونجحنا فى الوصول إلى العيادة، و شيئاً فشيئاً اكتسب جميع الموظفين في العيادة السمة الخاصة بدقة المواعيد والمحافظة عليها.

لقد عشنا في تلك القرية التى تقع فى دلتا النيل لمدة عامين، وأثناء تلك الفترة أصبحت حاملا، وأنجبت أول طفل عام 1970، وقد أرادت العائلة وقتها أن أذهب إلى الإسكندرية كي تتم عملية الولادة هناك، وكانوا على استعداد لتحمل كافة النفقات، ولكنّي رفضت أن أترك هذه البيئة التي اعتدت عليها، وقد أقنعت يونس أن يدعني أبقى فيها لآخر لحظة قبل الولادة، وبعد أن جاءني المخاض أخذني يونس إلى أقرب مستشفى في مدينة دمنهور، والتى كانت تبعد عن القرية حوالي 25 كيلو متراً (15 ميلاً)، ولكن الطريق إليها كان سيئا للغاية، وكنت قد حزمت حقيبتي الخاصة بالولادة، وكنت مسرورة جداً لأننا أخيراً سوف يكون فى مقدورنا الذهاب إلى المستشفى، وأذكر أن يونس كان يتحدث حديثاً طويلاً مع أحد الرجال في الردهة، وكان ذلك الأمر له وقع شديد عليَّ، ساعتها كنت أجلس في الغرفة

وتساءلت فى قرارة نفسي: ما هو الشيء المهم الذي جعل يونس يتركنى ليتحدث كثيراً مع هذا الرجل؟، وعندما بدأنا بالسير شعرت بدوار شديد وأنا في الطريق، وبعد أن وصلنا إلى المستشفى كان الطبيب في عمله ولكنه أتى إليَّ فى الحال، لقد كان هو نفس الرجل الذي تكلم معه يونس في الردهة، وأخذني مباشرةً من المستشفى إلى العيادة، وقد كانت الولادة طبيعية وسهلة للغاية، ساعتها خشيت أن يكون ابني مشوها، فسألت الممرضة فيما بعد إذا كانوا قد نقلوا الطفل أم لا، فأجابتنى أنه كان الطفل الوحيد الذي ولد في الليل، في اليوم التالي جاءت العائلة لزيارتنا وعلم الجميع أن طفلنا جميل جداً، بالطبع لم تتوافر في المستشفى معايير الصحة العامة المتوافرة فى المستشفيات الألمانية، حيث كان في غرفتي حمام به حوض صغير جدًّا كان عليَّ أن أستخدمه لاستحمام الطفل واستحمامي، و بالإضافة إلى ذلك، كان عليَّ أن أقوم بغسل 36 حفاضة أطفال كنت قد أخذتها من والدتي .

أصيب ابني كريم بعد ولادته بإسهال شديد، وكنت كباقي الأمهات ـ اللاتي لم يسبق لهن الولادة ـ قلقة بشأن هذا الإسهال، ولكن طبيب الأطفال والممرضات كانوا يرون أن هذا أمر عادي تمامًا بالنسبة لحديثي الولادة، وأن الطفل سوف يتعافى من هذا فى القريب، كنت قد زرت أمى قبل أشهر قلائل من ولادتي لابنى، ولقد كانت سعيدة للغاية برؤيتنا، وكانت لطيفة جدًّا مع يونس، لذلك حاولت جاهدة أن أنسى صعوبة تلك الأيام التي عشتها معها، وأردت أن أفتح معها صفحة جديدة، ومن جهتى كان عليَّ أن أنسى وأسامح، ومع ذلك لم تقم أمي بزيارتي قط لا في مصر ولا أي مكان آخر، ولكني أثناء وجودى فى ألمانيا قمت بزيارة بعض أصدقائي وأقاربي في القرية والذين تحسنوا معي كثيراً، وأحسست أنهم كانوا قريبين مني كثيرا، بعد أن اقتنعوا بحقيقة سعادتي في زواجي، وبعد أن اتضح لهم أن يونس رجل نبيل دمث

الخلق، ولأنني وقتها كنت حاملاً فقد أهدتني أمي معاطف صغيرة وقبعات للطفل، هذا بالإضافة إلى الحفاضات المصنوعة من القماش التى كنت بحاجة إليها فعلاً في مصر، فقد كان شيئاً مثل البامبرز " الحفاضات الورقية ذات الاستخدام الواحد" حلماً صعب المنال فى ذلك الوقت .

وفي عام 1971، ذهبت مع عائلتى الصغيرة إلى إنجلترا حيث بدأ يونس تدريبه كإخصائي، وجدير بالذكر أننا خلال خمس سنوات انتقلنا خمس مرات بين أسكتلندا وانجلترا، وكان ذلك جزءا من عمل يونس؛ الذى كان يتطلب منه أن يعمل في مستشفيات مختلفة، وكان علينا أن نستأجر دائماً شقة بجوار المستشفى، وكان علينا دوماً أن نقوم بتنظيف تلك الشقق قبل أن نسكن فيها، كثير من تنقلاتنا لم تكن ممتعة، ولكن الجانب الجميل فى الموضوع هو وجود تلك المناظر الطبيعية الخضراء والجبال التى تحيط بنا، في البداية لم يكن لدينا سيارة؛ لذا كنت أذهب إلى السوق بالأتوبيس، وكان عليَّ أن أنتظر ابني كريم حتى ينام ثم أذهب مسرعة إلى السوق الذي كان في القرية المجاورة، ولم يكن لديّ أيضًا غسالة ملابس لذا كنت أغسل جميع الملابس بيدي !، وكنت في هذه الأيام أذهب إلى ألمانيا لأمكث فيها عدة أسابيع كي أنال قسطًا من الراحة، وبعد ذلك أصبح لدينا سيارة وكانت من نوع مرسيدس قديم، وخلال هذه السنوات كان على زوجي أن يعمل كثيراً؛ حيث كان يعمل في ورديات ليلية، وبسبب ذلك لم أكن أراه كثيراً، ولكن ذلك لم يكن سبباً فى إحساسي بالضيق تجاهه؛ حيث كان ابننا كريم يأخذ معظم وقتي، وإلى جانب ذلك كنت مستمرة في الاشتغال بأعمال تتطلب مهارة يدوية، وكنت في بعض الأحيان أعمل فى حياكة الملابس، أو الرسم، وواصلت أداء تلك الأعمال لمدة خمس سنوات .

وفي نهاية عام 1971، أنجبت ابننا الثاني في نفس اليوم الذي سافر

فيه يونس إلى مانشستر Manchester حيث كان لديه مقابلة شخصية للالتحاق بوظيفة، ولكن الرحلة ألغيت بسبب سوء الأحوال الجوية، لذا ذهب يونس إلى مانشستر بالسيارة وكان وقتها ابننا الثاني قد ولد، تصورت في البداية أنني سوف ألد بنتاً، ولم يكن لديّ اسم للمولود الجديد الذى مكثت معه في المستشفى لمدة أسبوعين، وكنت أُسأل كل يوم عن اسم المولود وكنت لا أدري ماذا أجيب، وبعد ذلك قررت أن يكون اسمه نديم، وبعد الولادة تم نقلي إلى جناح أكبر يوجد به نساء كثيرات، وسألوني وقتها فيما لو كنت أرغب في الإرضاع بصورة طبيعية أم لا؛ وعندما قلت نعم قاموا بنقلي إلى غرفة خاصة وكان معي امرأة واحدة فقط وكانت هي أيضاً ترضع وليدها بصورة طبيعية، في الغرفة المجاورة لي كانت هناك سيدات ولكنهن لم يكن يرضعن بصورة طبيعية، حيث لم تكن الرضاعة الطبيعية ـ في ذلك الوقت ـ معتادة في بريطانيا، وكنت قد تركت كريم مع إحدى صديقاتى فى الوقت الذى مكثت فيه فى المستشفى، و قد شعرت بسعادة غامرة حين رأيته بعد أسبوعين وكان عمره وقتها أقل من عامين، وكان كباقى الأطفال فى سنه يخلط بين الأمور، فلم يكن يدرك أين ماما التي غابت عنه طوال هذه الفترة؛ ففي ذلك الوقت كان ممنوعا جلب الأطفال إلى المستشفى .

وفي عام 1975، أنهى يونس تدريبه وأصبح متخصصًا في أمراض النساء، ولقد عرضت عليه وظيفة جيدة في اليمن، لذا انتقلنا إلى مدينة بوريكا Boreika في جنوب اليمن تبعد حوالي 100 كيلو متر (60 ميلاً) من عدن، وهناك عمل يونس في مستشفى يتكون من 80 سريراً تابع لهيئة البترول البريطانية، وكان بيتنا يقع أمام المحيط مباشرةً، وكان يوجد منتزه جميل جدًّا، ويعيش في المكان بعض الأجانب: إنجليز وأسكوتلانديون ونساء أجنبيات مع أزواجهن، وكنت الألمانية الوحيدة وسطهن، ولقد كان يونس

يعمل كطبيب " أمراض نساء" مع أربعة أطباء آخرين، بالإضافة إلى بعض المرضات الإنجليزيات .

لقد كان الصيف هناك شديد الحرارة، أما في الشتاء فكنا نستطيع أن نزرع الخضراوات، وكان بيتنا يتكون من طابق واحد على الشاطئ، وهناك بدأت ـ كعادتى ـ فى عمل حديقة جميلة؛ فقد زرعت السبانخ التى سرعان ما تكاثرت، بالإضافة إلى الطماطم والأعشاب الطبيعية والزهور، أما بالنسبة للأطفال فقد كان يوجد هناك مدرسة لغات صغيرة من الروضة إلى الصف السادس الابتدائي، وكانت تقع فى الجوار.

كان وقتها اقتصاد اليمن مازال ضعيفا حيث لم تتوافر أي ملابس أوروبية يمكن شراؤها، وكذلك بعض السلع مثل : الدقيق الأبيض والصابون وخلافه، كل عام كنا نأخذ إجازة، واستطعنا مرة كل عام أن نحضر معنا 100 كيلو جراما (220 رطلاً) من التموين عن طريق الشحن الجوي، حيث كانت كل عائلة تجلب ما تحتاجه، فمثلا بالنسبة للبريطانيين كانوا يجلبون الصابون والسكر والحلوى لصناعة" الكيك" الانجليزى الشهير، أما أنا فكنت أجلب ألعابا وكتبا للأطفال، بالإضافة إلى مواد التلوين والتطريز والحياكة، ففى كل عام كان الأجانب هناك يقومون بإقامة " سوق خيري " بمناسبة عيد الميلاد الذي يرتاده كثير من الناس؛ من الأجانب وأهالي عدن، في هذه السوق كانت العائلات تقوم بجلب جميع الأشياء التي أتوا بها من أوطانهم في الإجازات كي يبيعوها في هذا السوق الخيري الكبير، لكي تُنفق حصيلة البيع في مشاريع خيرية، ولقد استطعنا فى ذلك الوقت تكوين بعض الصداقات مع أناس ظلوا أصدقاء لنا حتى الآن .

خلال تواجدنا في اليمن عام 1976، اعتنقت الإسلام؛ فقد رأيت أن العائلة الواحدة يجب أن تعتنق نفس الديانة، وجدير بالذكر أننى لم أجد في

اعتناقي للإسلام صعوبة؛ فأنا أرى من وجهة نظري أن الإسلام دين عالمي، وأن تعاليمه وأحكامه مقبولة لدى كافة البشر، وهكذا تعلمت أن أصلي صلاة المسلمين باللغة العربية، وكذلك قرأت القرآن ولكن للأسف كنت أقرأ القرآن باللغة الألمانية أو الإنجليزية فقط، وعرفت أن ذلك لم يكن صحيحاً، ولكن كان لديَّ عذري؛ إذ لم أكن قادرة على قراءته باللغة العربية الفصحى، ولقد حاولت ذلك مراتٍ عدة عندما كان الأطفال يأخذون دروساً في اللغة العربية في مصر، ولكنني كنت دائماً مشغولة ولم يتوفر لدي الوقت الكافي كي أتعلم، أما بالنسبة ليونس فلم يطلب مني اعتناق الإسلام، ولكنني اعتنقت الإسلام بمحض إرادتي، وأنا اليوم أرتدي الحجاب برغبتي وأجد فيه راحة كبيرة .

وفي عام 1980، تسلمت الحكومة اليمنية الشركة مع المستشفى التابع لها من " هيئة البترول البريطانية"؛ وبذلك تغيرت المنظمة بالكامل، وكان يستوجب ذلك منا أن نقوم بحزم أمتعتنا مرة أخرى كي نرحل .

بعد ذلك حصل يونس على وظيفة في " عيادة أنشور" في دولة قطر بالخليج العربي، في البداية كان يعمل كطبيب " أمراض نساء"، ولكن بعد ذلك تم توظيفه كطبيب ممارس عام لأن النساء هناك يفضلن أن يعالجهن طبيبات وليس أطباء رجال، ولذلك السبب ازداد عدد الطبيبات فى دول الخليج فى الوقت الحاضر.

في قطر كانت مشكلتنا الرئيسية هي مدارس الأولاد ـ ففي ذلك الوقت- لم تتوافر مدرسة لغات للمرحلة الاعدادية أو الثانوية، ولهذا لم يكن لنا خيار إلا أن نرسلهم إلى مدرسة في الخارج أو إلى الدوحة التي تبعد عنا 85 كيلو مترا (53 ميلاً)، ولم نرغب فى أن نرسل أبناءنا فى تلك الرحلة الطويلة، لاسيما أن الطرق هناك صعبة وحوادث السيارات خطيرة، وكذلك لم نستطع أن نرسلهم إلى مدارس في الخارج، إذ لم نرد ابتعادهم عنا، فكان البديل

الوحيد هو الانفصال العائلي، كما يحدث لكثير من المصريين؛ فذهبت مع الأولاد إلى الإسكندرية وبقي يونس يعمل في قطر، وهناك في الإسكندرية ذهب الأولاد إلى المدرسة، وفي العطلة الصيفية كنا نذهب نحن إليه في قطر لنقضى هناك مدة ثلاثة شهور، بالإضافة إلى إجازة نصف العام التى كانت مدتها ثلاثة أسابيع فى فصل الشتاء، وكنا نقضيها أيضاً في قطر مع يونس، وفي تلك الفترة حدثت بيننا خلافات في الرأي وتصادم فى وجهات النظر نتيجة للحياة المنفصلة التى لم تكن أمراً يسيرا علينا، حيث كان الأولاد في سن صعبة وخصوصا مع غياب الأب لفترة طويلة، رغم أننا كنا نتواصل بالتليفون مرتين في الأسبوع، ونتبادل الآراء حول كل الأشياء، وكان يونس يرى أنني أدلل الأولاد، ويجب عليَّ أن أكون أكثر صارمة فى تعاملي معهم، وقد كان من السهل عليه أن يقول هذا الكلام وهو بعيد !.

في عام 1997، ترك يونس المستشفى وتقاعد، ثم عرضت عليه وظيفة مغرية، وهي أن يكون طبيبا لشركة تعمل بمشروع كبير في قطر، وفي هذا الوقت كبر ولدانا وأصبحا شابين يعيشان حياتهما يعيشون حياتهم الخاصة معتمدين على أنفسهما؛ لذا ذهبت مع يونس إلى قطر، ولكن في البداية كان يجب علينا حل مشكلة السكن، لذلك فقد اقترح يونس أن نعيش في المخيم الذي يعيش فيه، ولكن الرجال فقط هم الذين يعيشون هناك؛ لذا لم يكن مناسباً لي العيش في المخيم، وقد كان البحث عن سكن أمراً صعباً للغاية، ولكننا توصلنا لحل عملي؛ كان ليونس صديق لديه منزل متنقل "كرفان" خارج المدينة بالقرب من المخيم القريب من المحيط، استأجرناه منه ثم استطعنا تدبير" كرفان آخر" وضعناه بجواره مباشرةً، وهكذا أصبحنا نعيش وسط الصحراء، وقد قمنا ببناء حائط حولنا، وكان عبارة عن أكياس متراصة

ومصفوفة من الرمال، وكان عليّ ـ كالعادة !ـ أن أعمل حديقة هناك، ولقد وجدت أن حياتي هناك مريحة وممتعة، حيث كان يوجد لدينا الماء والكهرباء، كنت أعمل في الحديقة وأزرع فيها كل شيء، ورغبت بعمل مقعد ركني طويل، عليه فخارية فيها الكثير من الزهور، وفى واقع الأمر، كنت أحب أن يكون عندي مثل هذه الحديقة في وسط الصحراء، ولقد كان كل شيء متوفرا لدينا، وكنت أذهب للتسوق بالدراجة، وكان السوق يبعد حوالي نصف ساعة عن مكان إقامتنا، وكنت معروفة في المنطقة وكان لديّ أصدقاء هناك أزورهم ويزورونني.

وأخيراً بعد أن عدنا إلى مصر أحسست بأن الوقت الذي قضيناه في قطر كان هادئا، أما في مصر مع كل هذا الصخب والضجيج والزحام والسيارات والتكدس السكاني كان لديّ قدر أعلى من المشاركة فى الحياة، فعلى الرغم من أنني ـ في بعض الأحيان ـ أفتقد الهدوء، إلا أنني كنت أفضل العيش هنا فى مصر وسط كل هذا الإزعاج .

أما زوجي فقد كان شعوره مختلفا عن شعوري؛ إذ كان يشعر بالراحة في أي مكان يعيش فيه، وكان لديه عمله وكان دائماً يستطيع تكوين صداقات بصورة سريعة، وفي قطر كان لديه قارب صغير نذهب به إلى البحر ونصطاد، وفي شتاء 1985 أذكر أنه ذات مرة اصطاد 85 سمكة في يوم واحد ! وكان من المستحيل أن نأكل كل هذه الكمية من السمك ! لذا عدنا إلى المخيم وقمنا بتوزيع هذه الكمية على الأصدقاء والمعارف، والحقيقة أننى لم آكل في حياتي قط سمكا كالذي أكلته في هذا اليوم .

وبعد مرور عامين، وتحديداً في عام 1999 عدنا إلى مصر، وكان من الصعب على يونس أن يجد عملا، لذلك كان يزور" دار المسنين " مرتين في

الأسبوع، ويتطوع بالكشف على الناس هناك، على الرغم من وجود طبيب مقيم يقوم بهذه الزيارات بصفة يومية، لقد كان هناك كثير من الأشياء التى يقوم بها؛ يتكلم مع كبار في السن، كما كان يقرأ أيضاً كتباً عن طب الشيخوخة، وكنت أذهب معه إلى هناك، وحين أراد طبيب " دار المسنين" أن يعمل حديقة، كنت سعيدة بذلك وعرضت عليه تقديم يد العون، وبالفعل عملت الحديقة، وبرغم من أن النتيجة النهائية لم تكن بالصورة التي تصورتها، إلا أنها كانت جميلة جداً، وكان المسنون المقيمون في الدار يقضون فيها أمتع الأوقات، وكلما ذهبت إلى تلك الحديقة، كنت أقوم بإجراء بعض التعديلات والتنسيقات، وكنت أزور المسنين هناك كما كان يفعل زوجي .

لقد كان لدينا بيت صيفي لم يكن بعيداً عن الإسكندرية، وكنت أضع في البلكونة هناك بعض الزهور والنباتات، لقد كانت " الحديقة " دائماً تعني بالنسبة لي "الحياة" .

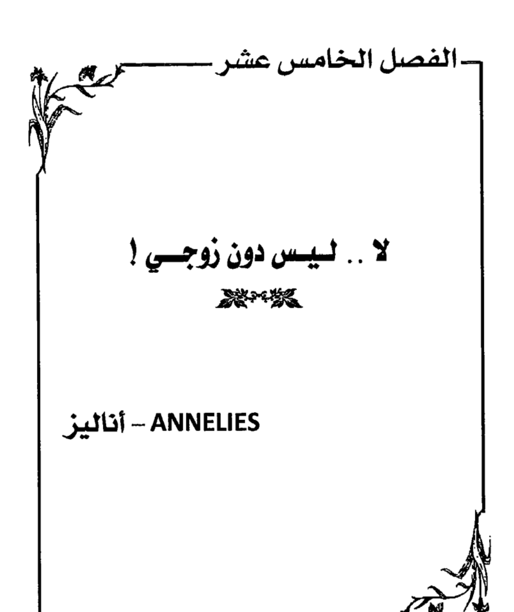
في ذلك الوقت كان قد مرت عليّ سنوات طوال ولم أتعرف على أي شخص من ألمانيا لأني كنت مشغولة جداً مع الأطفال وبشئون العائلة، ولكنى منذ نحو ثمان سنوات تعرفت بالصدفة على سيدة ألمانية قدمتني إلى جمعية اسمها : "جمعية النساء الألمانيات في الإسكندرية "، وتطورت علاقتي مع هذه الجمعية بصورة تدريجية، وفي احتفالات معرض الكريسماس من كل عام كنت أقدم بعض المشغولات اليدوية التي ظلت هوايتي وقدري طيلة سنوات عديدة .

عندما قابلت يونس كنت صغيرة جداً، ولم يكن ـ من السهل عليَّ وقتها ـ أن أخطو أي خطوة جديدة، ورغم أنه كان يحاول جاهداً أن يصف لي كل شيء، إلا أنه كان من الصعب عليّ أن أتخيل المجهول الذى ينتظرني، أما

اليوم وبعد مرور كل تلك السنوات، عرفت أن قراري كان صائباً جدًّا، على الرغم من أن حياتى لم تكن سهلة على الدوام، إلا أنها كانت ممتعة، فقد كنا معاً قادرين على أن نتجاوز الصعاب .

الآن يعيش أحد أولادنا في القاهرة، بينما يعيش الآخر في قطر، ولدينا ثلاثة أحفاد، وبعد أن توفيت أمي كنت أذهب إلى ألمانيا فيما ندر، وكنت أزور أقاربنا وأصدقاءنا الموجودين هناك، و مازالت أختى تعيش في قريتنا الصغيرة، وإذا ذهبت الآن إلى ألمانيا فإنني أذهب فقط للاستمتاع بالطبيعة والمروج الخضراء، وأتذكر الأيام الخوالى، وأذهب كل صباح إلى المخبز لأشتري الخبز الطازج وأتناول طعام الإفطار مع صديقتي صوفي ابنة صاحب المنزل الذي نشأت فيه وسط عائلتى، كنا نستمتع بهذه الزيارة، وكنا نذهب إلى الحديقة لنجلس في نفس المكان الذى كنت أجلس فيه وأنا صغيرة والذى أحببته كثيراً ورغم حبي لحديقتى التى شهدت أيام طفولتى إلا أننى أتركها لكى أعود إلى بيتي هنا في مدينة الإسكندرية ..

*****



الفصل الخامس عشر

لا .. ليس دون زوجي !

ANNELIES – أناليز

عندما تبلورت فى مخيلتى فكره إعداد هذا الكتاب، وبدأت في إجراء المقابلات مع السيدات اللاتى ورد ذكرهن فيه، كان من الطبيعي أن يتساءلن بدورهن عن تجربتي/ بل وكان من البديهى أن يطرحن عليَّ هذا السؤال المركب : " وأنت ماذا عنك وكيف كانت تجربتك ؟ وما الذي جاء بك إلى الإسكندرية ؟..." وربما أراد القراء – أيضا – أن يعرفوا حكايتي؛ لهذا خصصت هذا الفصل الأخير لسرد قصتي .

لقد عشنا في مصر لفترة قصيرة، ولنا شقة في الإسكندرية منذ عام 2004، لكننا نقضى شهور الصيف في ألمانيا.

وطوال سنوات زواجنا – التي دامت أكثر من أربعين عاما – كان هناك سؤال يتردد على مسامعى كثيرا في ألمانيا وفي أي مكان آخر: " كيف حصلت على لقب إسماعيل؟"، ربما انتابتهم الحيره وتساءلوا باندهاش : كيف يمكن لامرأة شقراء ذات عيون زرقاء أن تحمل لقب إسماعيل ؟!! فكانت إجابتي دائما واحدة وهي: " إن زوجي مصري"، وعادة ما يتبع تلك الإجابة تساؤلات أخرى مثل: كيف تعارفتم؟ وكيف كان الزواج من مصري؟ وهكذا .. .. لذا سأحكى لكم الآن قصتي؛ وهى قصة امرأة تبلغ من العمر 65 عاما، تزوجت من رجل مصري لأكثر من أربعين عاماً.

تبدأ قصتي – في سياق هذا الكتاب – بسؤال يطرح نفسه وهو: كيف قابلت زوجي؟ رغم ذلك، أحب أولا أن أروي كيف كانت ظروف نشأتنا في عالمين مختلفين .

ولد زوجى عبد المنعم إسماعيل – ويعرف وسط أصدقائه باسم "منعم" – في القاهرة عام 1932، ينحدر والده – الذى كان أستاذا في جامعة الأزهر – من عائلة ريفية في صعيد مصر، وقد كف بصره إثر حادث تعرض له عندما

بلغ الخامسة عشرة من العمر، ولم يعد قادرا على العمل في الحقول، ولقد كان فتى ذا فطنة و ذكاء، لذلك أرسله والده إلى الكتاب ليحفظ القرآن الكريم ثم التحق بجامعة الأزهر في القاهرة وهناك – برغم إعاقته ـ واصل الدراسة حتى صار أستاذاً. أما " أم منعم " فكانت ربة منزل، وقد جاءت من شمال مصر، وبعد زواجهما أنجبا تسعة أولاد، وكان عبد المنعم هو أكبرهم..

كان التعليم العالي في عهد الرئيس الراحل عبد الناصر مجانياً ومتاحاً للجميع، لذلك استطاع معظم إخوة منعم الالتحاق بالجامعة، وقد تزوجوا جميعا وأنجبوا أطفالا وقضوا حياتهم في القاهرة، وحاليا يوجد خمسة أشقاء فقط على قيد الحياة؛ إذ إن ثلاثة منهم قد رحلوا عن الدنيا .

درس منعم " الهندسة المدنية " في جامعة القاهرة، وبعد أن تخرج من الكلية عمل في الجامعة ثم في الحكومة، وكان أول اتصال له بألمانيا من خلال التعاون المشترك مع شركة بناء ألمانية هي "شركة هوخ تيف Hochtief"؛ وما إن تعرف على زملاء له من ألمانيا، حتى زادت رغبته في السفر إلى ألمانيا، ولكن ذلك لم يكن سهلاً؛ ففي عام 1958 كان الحصول على منحة دراسية وتأشيرة للسفر أمرا صعبا، ولكن منعم يتمتع بقوة الإرادة ولا يستسلم لليأس بسهولة، فقام بالتنسيق مع صاحب العمل الذي يعمل معه، واتفق معه على أن يتعهد له خطيا بأن ينفق على مصاريف دراسته خلال فترة تحضيره للدكتوراه في ألمانيا بدلاً من أن يدفع له راتبا، ومع ذلك فقد اختلفت الظروف تماما، وبدأ وقتها في تسلم الأوراق الضرورية واستطاع السفر إلى ألمانيا، فحينما يتعلق الأمر بالقدرة على حل المشكلات فإن منعم دائماً ما يتمتع بقدرة إبداعية خلاقة .

في مايو عام 1958، بدأ رحلته بالسفينة ثم بالقطار إلى إستوتجارت

Stuttgart، نظراً لوجود بعض زملائه المصريين الذين يدرسون ويعيشون هناك، وعندما دخل منعم إلى ألمانيا قدم جوازسفره، ولكن موظف الجوازات تضايق من جوازه؛ إذ كانت كل البيانات واضحة ماعدا اسمه بالكامل؛ حيث كان مدوناً فى جوازه قائمة طويلة من الأسماء، ولكنها لم تكن واضحة تماما؛ إذ وجد موظف الجوازات صعوبة فى تحديد الاسم الأخير والاسم الأوسط والاسم الأول؛ فالاسم الأول والأوسط هو : عبد المنعم محمد إسماعيل حمودة أحمد، أما الاسم الكامل لمنعم فهو أطول من ذلك : عبد المنعم محمد إسماعيل حمودة أحمد شحاتة أحمد الدالي، ويرجع السبب فى طول الاسم إلى أنه من الطبيعي فى مصر أن يقرنوا الاسم الأول مع اسم الأب واسم الجد والجد الثاني.. إلخ، اسم الدالي هو الاسم الأخير "لقب العائلة"، ولكنه لم يكن مدرجا في جواز منعم، و بالتالي كان إيضاح هذا الأمر للموظف شيئاً صعباً في تلك اللحظات، فكتب منعم اسم إسماعيل على اعتبار أنه الاسم الأخير بدلا من الدالي وظل اسم إسماعيل هو الاسم الأخير طوال هذه السنوات، وقد حدث نفس الشيء مع أخ لمنعم عندما دخل إنجلترا، ولكنه اختار اسم حمودة بدلاً من الدالي، وهكذا أصبح الاسم الأخير " اللقب " لدى كلا الأخوين مختلفاً .

وعندما وصل منعم إلى إستوتجارتStuttgart، لم يكن يعرف أي كلمة في اللغة الألمانية – إذ كان يتحدث اللغة الإنجليزية فقط، ولكنه بدأ فى دراسة اللغة الألمانية قبل حصوله على شهادة الدكتوراه، كما كان مطلوباً منه الحصول على شهادة المعادلة الألمانية أولاً؛ لأن النظام المتبع في الجامعة الألمانية لا يعترف بشهادة البكالوريوس المصرية، ولكن تلك العقبة لم تثنه عن عزمه ولم تسبب له الإحباط، ففى غضون ستة أشهر استطاع أن يكتب رسالته العلمية وقد ساعده في اللغة صديق ألماني، وعليه قُبلت الرسالة وحصل منعم على شهادة المعادلة الألمانية، وبدأ يبحث عن أستاذ ليشرف له

على رسالة الدكتوراه، وبعد فترة قصيرة تم قبوله في كارلسروه Karlsruhe، وهناك قام باستئجار غرفة لدى عائلة لطيفة جداً، وقد ساعدته تلك العائلة كثيراً، وخصوصا صاحبة الغرفة التى كانت تدعى لوتي Lotti ، والتى كان لها الفضل فى تيسير الحياة عليه وإزالة شعوره بالغربة، وزيادة إحساسه بالراحة في ألمانيا؛ إذ ساعدته في اللغة وكانت بمثابة أمه البديلة، وكانت تطهو له الطعام، لدرجة أنه أحب أصناف المطبخ الألماني، وكذلك أعجبته العادات والتقاليد الألمانية، وعلاوة على ذلك، استطاع أن يلتقط اللغة الألمانية ذات اللهجة السليمة من خلال تعاملاته مع الآخرين، وفي تلك الفترة أيضاً أظهر اهتماماً خاصاً بالموسيقى التي لم تكن مهمة بالنسبة له أثناء وجوده في مصر، وجدير بالذكر، أنه بعد مرور عدة سنوات أصبحت " لوتي " Lotti ترعى ابنيَّ حينما نغيب عن المنزل، وكانت لوتي معتادة على أن تصحب معها كلبها الضخم "سيسي"، وقد أحبها ابناي لدرجة كبيرة، وكانا يعتبرونها جدة بديلة، ولكنها– للأسف – توفيت، وما زلنا على صلة منتظمة مع ابنها ميشيل Michael حتى يومنا هذا.

بعد ثلاث سنوات استطاع منعم أن ينتهى من رسالة الدكتوراه، وقد حصل على تقدير" امتياز مع مرتبه الشرف"، وهكذا تحقق له هدفه المنشود في ألمانيا، وكان فى استطاعته حينها العودة إلى مصر، إلا أن منعم كانت لديه أفكار أخرى .

أثناء انشغاله بالدكتوراه، قام بتصميم بعض البرامج الخاصة بالكمبيوتر "Zuse" في معهد كارلسروه للتكنولوجيا Karlsruhe Institute of Technology، وكان هذا أول كمبيوتر رائد حديث و متطور وكان حجمه ضخمًا؛ يتسع له غرفتين ويتألف من خزائن ضخمة تضم كل أنواع الدوائر الكهربائية والأسلاك، وقتها كان يرغب منعم فقط فى أن يوفر على نفسه

مصاريف البرمجة، ولكنه أحس بأنه يحب هذا العمل، وقبل أن يعود أدراجه إلى مصر أراد أن يكتسب خبرة أكثر في هذا المجال، وحاول أن يحصل على تدريب في إحدى شركات الحاسب الآلي، وجدير بالذكر، أن ألمانيا ـ في ذلك الوقت ـ كان بها حوالي ثلاث أو أربع شركات فقط تقوم بتصنيع أجهزة الحاسب الآلي، فاستفسر من أحد المشرفين في "غرفة التجارة والصناعة IHK" عن شركة "آي بي أم" فأجابه : "لست متأكداً، وإنما أعتقد أنهم يصنعون الآلات الكاتبة فقط "، وهكذا لم يوفق منعم في البداية ولم يتم قبوله، في تلك الفتره، كان منعم يعطى درساً خصوصياً في اللغة العربية لأحد المعارف، فأخبره عن رغبته في العمل في مجال" الحاسب الآلي"، الطريف في الأمر أن "تلميذ" منعم هذا كان يشغل منصب أستاذ " بروفيسور"، وكانت له علاقات جيدة مع أعضاء مجلس إدارة شركة "آي . بي . أم"، فبدأ هذا الأستاذ بالتوسط لمنعم لدي الشركة، و هكذا حصل منعم على عمل ـ لمدة ثلاثة أشهر تحت التدريب ـ في هذه الشركة، وبعد انتهاء فترة التدريب عُرضت عليه وظيفة في مركز للحاسب الآلي التابع لشركة "آي . بي . أم"، وظل منعم يعمل فيها مدة أربع سنوات، وقد أعد ـ في البداية ـ برامج في الإستاتيكا (الهندسة المدنية)، وفي ذلك الوقت كانوا لا يزالون يكتبون البرامج بلغة الآلة، وهو أمر يعد اليوم ـ بالنسبة لنا ـ في منتهى الصعوبة والتعقيد، وعليه قد شرع منعم في تطوير برنامج خاص (مترجم للكمبيوتر)، يقوم بتغير المعادلات الرياضية إلى لغة البرمجة، وقام بعرض هذا البرنامج في مؤتمر أقيم في شركة " آي . بي . أم " في هيديلبيرج Heidelberg، وقد استقبل بحماس كبير، وحظي بالنجاح، ثم ظهرت بعد ذلك لغة جديدة للحاسب الآلي وهي لغة فورتران FORTRAN التي تقوم بعمل أشياء مشابهة، ولكن في ذلك الوقت كان برنامج منعم "موبسي "MOPSY" حديثا ومتطورا جدا، وقد لاحظ

رئيس قسم برمجيات الأنظمة في مختبر التطور في بويلنجن Boblingen نبوغ منعم ونشاطه، فعرض عليه منصبا مهماً، وهكذا بدأ منعم العمل هناك في نفس القسم الذي كنت أعمل فيه منذ أربعة سنوات .

أما أنا فقد ولدت عام 1942 في برلين، و كان ترتيبي الثانية بعد أخي يبرجن Juergen، تجند أبي في الحرب، وعقب نهايتها عاد إلينا بعد أن تم إطلاق سراحه من السجون الأمريكية، و بعد اندلاع الحرب أخذتنا أمي وهربت إلى أختها ليزا Lis، كانت خالتي ليزا Lis تعيش في أستوتجارت- ديجارلوخ Stuttgart-Degerloch مع زوجها في فيلا فخمة قديمة، وأثناء الحرب، كانت تلك الفيلا هى الملاذ الذى يلجأ إليه كل من يرغب من أفراد العائلة، لذلك كان الأقارب يترددون على المكان بصفة مستمرة، أما شقتنا في برلين فقد تحطمت تماماً بفعل قصف القنابل، لذا بقينا في أستوتجارت بعد نهاية الحرب.

كان أبي يعمل موظفا في بنك، وبعد الحرب عمل محاسبا في إحدى دور النشر، هذا بالإضافة إلى أنه كان يكتب مقالات في نفس الدار، ولما استطاع أن يعول عائلته من عمله فى هذا المجال، امتهن الصحافة والكتابة بصفة منتظمة، أما أمى فكانت ربة منزل، ولما تحسنت أحوالنا المالية قليلاً انتقلنا إلى أستوتجارت- اوبرا يشين Stuttgart -Oberaichen حيث نشأت هناك.

وبعد الانتهاء من دراستي التحقت بدورة تدريبية كمساعدة مختبر في أسني Isny في ألجيوAllgau، إذ كان من المهم بالنسبة لى أن أقوم بعمل شيء جديد لم يسبقني إليه أحد؛ فمعظم البنات في سني كانت أمنيتهن أن يصبحن معلمات، أما أنا فلم أضع هذا فى اعتبارى، ولم يكن بالنسبة لى محل تفكير، وهكذا بدأت عملي الأول في شركة " أي . بي . أم " في مختبر

التجارب، حيث كان هناك أجهزة ترانزستور يبلغ حجمها حوالي " 8/3 بوصة "، وكان يتم وضعهم معا على سبيل الاختبار: كنت أجده عملاً مملا لم أحبه على الإطلاق، واستطعت أن أنتقل من هذا القسم إلى قسم آخر وهو قسم برمجة الأنظمة الجديد، وكانت هذه هى فرصتى الكبرى، والتى اعتبرها بمثابة ضربة الحظ، وقد بدأت العمل فى وظيفة " مساعدة مبرمج "، وكنت سعيدة بهذا العمل وسط زملائى الذين كانوا جميعا يحملون شهادات جامعية؛ لذا كانوا جميعاً يكبرونى سنا؛ إذ كان عمري في ذلك الوقت عشرين عاما، واستطعت من خلال السرعة والاجتهاد أن أعوض أي نقص في الخبرة، في ذلك الوقت لم تكن هناك كلية رائدة متخصصة في علوم الحاسب، لذلك كان جميع زملائي يعملون فى غير تخصصاتهم العلمية؛ حيث كان منهم من درس الفيزياء أو الهندسة الكهربائية أو الرياضيات، ولكن أي شيء متعلق بالحاسب الآلي يجب أن نتعلمه بأنفسنا من خلال التجربة هذا وبمساعدة الكتيبات الإرشادية.

لقد كان شيئاً مناسباً لي وشعرت بالارتياح فى هذا العمل، و كنت وقتها لا زلت أعيش مع والدي فى منزل العائلة، و بالإضافة إلى عملي كنت أهوى القراءة والموسيقى، وأحب الذهاب لمشاهدة العروض الفنية فى الأوبرا أو المسرح.

كان المكتب هو المكان الذى شهد اللقاء الأول الذى جمع بينى وبين منعم، تلك كانت البداية التى جاءت مثل نسمات الربيع التى تداعب براعم الرومانسية وتجعلها تتفتح، اعتاد منعم على ملاحقة الفتيات الألمانيات له؛ وذلك لما يتمتع به من طلة شرقية أخاذة، ومظهر جذاب، وهيئة فريدة، ففي ألمانيا كان منعم يبدو شابا مثيرا بملامحه المصرية الأصيلة و عينيه السوداوتين

وشعره الأسود الفاحم الذى يكتنفه غموض الشرق وسحره. ولكنى لم أتأثر بذلك، صحيح أنه أعجبني، لكنى لم أفكر أبدا فى ملاحقته أو الجرى وراءه، فقد كنا مجرد زملاء في القسم فقط، وكان منعم يتردد على مكتبي يوميا وكنا نتبادل بعض الكلمات، و لم أنتبه وقتها أنه كان يأتي من أجلي فقط، وبعد نحو ستة أشهر بدأت فاعليات المهرجانات التى تقام في شركة "آي . بي . أم"، و أخيرا اجتمعنا معا، وقد كان لهذا الأمر ترتيباً عجيباً، فأولاً كان يجب عليّ أن أذهب وحدي، وقد كلفني ذلك جهدا كبيراً، فقد اشتريت بطاقتي دخول كى لا يلحظ أحد أني سأذهب للحفل وحدي؛ فقد كان ذلك يعنى أن ينتشر أمر ذهابى بمفردى بين كافة الموظفون بالشركة وبصورة سريعة.

يومها وبعد أن انتصف النهار انتبهت إلى أنه لا توجد لديّ بدلة أذهب بها، فقررت أن أذهب مثل " الملكة كليوباترا " حتى أجذب انتباه منعم، فلبست باروكة سوداء صممتها بنفسي، ووضعت المكياج الذي تصورت أنه يتناسب مع الزي المصري الفرعونى، ما فعلته فى ذلك اليوم كان غريبا وغير مألوف؛ كذلك لم أرتد نظارتى، وهل كانت كليوباترا لتفعل غير ذلك؟!، وعند دخولي الحفل بدون نظارتي ووسط هذا الحشد الكبير من الناس، لم أستطع تحديد مكان منعم، و لولا أن زميلنا " ويلي" Willi عرفني وأخذني إلى مائدتي لتبدلت الأمور تماما، ولكنى شعرت بالسعادة بمجرد أن جلست إلى المائدة مع منعم و زملاء لنا آخرين، لقد كانت أمسية جميلةً قضينا فيها أمتع اللحظات؛ ضحكنا ورقصنا ـ و طبعا رقصت معه فقط، ومنذ تلك الليلة أدرك كلانا وجود تلك المشاعر القوية التى دعمتها عاطفة الحب.

وذات يوم وبعد مرور عدة أسابيع على تلك الأمسية الرائعة، أبرمنا فيما بيننا اتفاقاً مكتوباً وموقعاً، وبالصدفة البحتة ـ وقع فى يدى مؤخراً

واسترجعت ما فيه – وأيقنت بعد مرور كل هذه السنوات ـ والدهشة تغمرنى ـ أننى لو عاد بى الزمن إلى الوراء لم أكن لأضيف أو أغير أي كلمة في هذا الاتفاق – وهكذا ظل هذا الاتفاق نافذاً حتى اليوم ! وها هى بنوده :

سندلفنجن Sindelfingen- في الثالث عشر من شهر مارس عام 1965

تم تحرير عقد الاتفاق هذا بين كلا من:

أناليز ويل و منعم إسماعيل

نتعهد نحن الطرفين بمحض إرادتنا أن نلتزم بالمبادئ التالية :

1. أن يحسن كلانا معاملة الآخر.
2. أن نتعاهد على الإخلاص والوفاء .
3. أن نكون أمناء صادقين معا، " فمن حيث المبدأ يكون الكذب مرفوضًا تماماً ".
4. ألا نهتم بالصغائر وتوافه الأمور.
5. أن يتسامح و يتغاضى كل طرف – برحابة صدر ويسرعة ـ عن أخطاء الطرف الآخر وهذا يشير إلى توافر مبدأ العفو والتسامح بعد أى شجار قد يحدث بيننا .
6. ألا ينتابنا الخوف من المستقبل .
7. أن يسود بيننا التسامح المتبادل؛ فمن حق كل طرف حرية التصرف في وقت فراغه، ولكن في حال التعارض يجب البحث عن تسوية مرضية كى تستقيم الأمور.
8. ألا نهتم بما يقوله الآخرون عنا .

9. أن نلتزم باحترام مبدأ " المساواة فى الحقوق " .
10. ويمكن إضافة المزيد من البنود لهذا الاتفاق بشرط موافقة الطرفين ويمحض إرادتهما.

أناليز ويل   منعم إسماعيل

31 مارس 1965

وطوال فترة تلك الزيجة التى امتدت أكثر من أربعين عاما، كان هناك – بالطبع – القليل من العثرات والعقبات التى واجهناها، واستطعنا التغلب عليها بفضل التزامنا – بصفة عامة بتلك المبادئ.

وقبل خطبتنا في أبريل من نفس العام اصطحبت منعم إلى منزل العائلة كى أقدمه إلى والديّ، وعند لقائه بأبي، خاطبه أبى قائلا :

- " أنت أول مصري في حياتي".

لقد ساد بينهما الإعجاب والاحترام المتبادل، وتزوجنا في أغسطس عام 1965 في مكتب الزواج الرسمي في استوتجارت، وقد سعدت عائلتي لسعادتي، ولكن عائلة منعم لم يكن لديها أدنى فكرة عن زواجه؛ فلم يكن يميل إلى كتابة الرسائل، وظنت عائلته أنه سيأتي مستقبلا إلى مصر، إلا أن عبدالمنعم كانت لديه خطط أخرى وأحب تنفيذها في ألمانيا، وفكر كثيرا بأنه في مصر سيفقد حريته التي اعتاد عليها كجزء من طبيعه حياته اليومية أما في ألمانيا فيمكن للمرء أن يسافر دون قيود، بالإضافة إلى الطبيعة المتنوعة الخلابة، على عكس مصر التى يغلب على طبيعتها مناخ البيئة الصحراوية؛ حيث الجبال والمساحات الشاسعة الممتدة من الرمال في الصحراء المصرية، لذا يمكننا القول بأن منعم أحب هذا البلد قبل أن يقابلني.

بالنسبة لي كنت أجد مصر دائماً بلداً ساحراً، وقد أثارت اهتمامي طويلاً قبل أن يتم بيني وبين منعم أول لقاء، وكنت قد قرأت "كتاباً" يحمل عنوان: آلهة ومقابر وعلماء . تأليف : دابليو.سيريم ، فضلاً عن كتب أخرى تحكي عن مصر القديمة والحديثة.

أما الآن فقد قرأت الكثير عن الإسلام؛ لأنني افترضت أهميته بالنسبة لي، كما أنني اشتريت نسخة مترجمة من القرآن الكريم باللغة الألمانية وقرأتها .

كنت قد تم تعميدي في المسيحية، ومعي شهادة تؤكد أنني بروتستانتية (من أتباع مارتن لوثر)، ولكن في بيت والدي لم تلعب الكنيسة دوراً كبيراً، فلم يكن أي من والديّ متديناً، كما اكتشفت ـ فيما بعد ـ أن جدي كان قد ترك الكنيسة و لم يعد يتردد عليها .

أما منعم فكان من الطبيعي جدا أن ينشأ مسلماً فأبوه عالم أزهري – متخصص في الدراسات القرآنية في جامعة الأزهر الشريف، ربما يظن البعض الآن بأن الدين قد يؤدي بنا إلى مناظرات وحوارات متشددة، ولكن هذا لم يحدث أبداً، بل على العكس، فقد كنا نتبادل الآراء والأفكار بسهولة ـ وقد كان ذلك من دواعي دهشتنا – إذ أدركنا أننا لسنا مختلفين بصورة تامة، وأن وجهات نظرنا ليست متباعدة، و فيما يتعلق بأمور الدين، لم يحاول منعم التأثير عليّ بأي طريقة.

في أول سنوات زواجنا، عملنا معاً كمبرمجين في شركة " آي . بي . أم"، وبعد إجراء المزيد من التوسعات في قسم البرمجيات، توافد على مدينة بوبلنجين Boblingen كثير من الاخصائيين من كل أنحاء ألمانيا، وسرعان ما تقاربنا معاً كفريق عمل واحد، ودائما ما كان يوجد المناسبات للاحتفال

معاً، مثل احتفالات الخطوبة، والزواج، وأعياد ميلاد الأطفال، وقد ظل كثير من تلك الصداقات مستمرة حتى يومنا هذا، وكثيرا ما نتحدث معاً عن أخبار الأحفاد، وحين أرجع بذاكرتي إلى الوراء، أتذكر إحدى تلك الحفلات والتى كان بها سبع سيدات حوامل، و كنت واحدة منهن .

في أكتوبر عام 1966، ولد ابننا أحمد، ولهذا السبب توقفت عن العمل، ولم يكن هناك ما يعرف بإجازة رعاية طفل في ذلك الوقت، ولكن كان مسموحا فقط بالحصول على إجازة لمده ستة أشهر قبل وبعد الولادة، ثم بعد ذلك إما تعود الموظفة إلى عملها، أو تقدم إشعارا بأنها سوف تنقطع عن العمل، وقد كانت العودة للعمل بنظام " دوام كامل" من الأمور الصعبة جداً عليّ، لذا تركت العمل وبدأت في مشروع صغير خاص بي، وبذلك لم أفقد تواصلي مع عملي أبدا.

وبحلول عام 1960، تقدم منعم بطلب للحصول على الجنسية الألمانية، إذ كان يريد البقاء في ألمانيا، وعلى أية حال، كان الأمر يستغرق نحو عشر سنوات قبل الحصول على جواز سفر ألماني، فعندما تزوجنا كان لا يزال مصريا، وكان من الصعب عليه أن يسافر إلى أي مكان بجوازه المصري، وقتها كان يتم تجديد جواز السفر كل ثلاثة أشهر؛ لأن الحكومة المصرية كانت حريصة على أن يعود الشباب المتعلم من الخارج إلى مصر مرة أخرى، ولكن عند حد معين رفضت السفارة المصرية طلب تجديد الجواز وتم سحبه، ولكن منعم تسلم جواز سفر ألماني عام 1966، وهكذا أصبح ـ على الأقل ـ قادراً على السفر والعمل بدون الحاجة إلى الحصول على تأشيرة.

وفي عام 1967، عرضت شركة " آي . بي . أم " على منعم وظيفة في الولايات المتحدة، على أن يظل موظفا لدى شركة " آي . بي . إم " الألمانية،

نظير أن يتقاضى راتبا سخيا يشمل" مصاريف المعيشة " في أمريكا، و لم يتردد منعم فى قبول هذا العرض وبناء عليه كان رحيلنا إلى نيويورك بالسفينة (بريمين) في شهر مايو عام 1967، وكما ذهب معنا صديقانا نوربيرت Norbert وجودرن Gurund، وهما من نفس الشركة، وكنا على متن نفس السفينة، وما زلت أحمل بداخلى ذكريات عزيزة عن هذه الرحلة؛ فكنا إذا ذهبنا للعشاء تأتي إلى الكابينة مربية لتهتم بأحمد، و في النهار كنا نستمتع بالهواء العليل على متن السفينة، ونجلس لنداعب ابننا، ولكنى أذكر أن وصولنا إلى نيويورك كان مزعجا ومثيرا للقلق، حيث تم فتح جميع حقائبنا في الجمرك، كما قام ضابط الجمارك بتفتيش الحقائب، وكان أمريكيًا إفريقياً" طويل القامة .

كان من المفترض أن نذهب جميعا في سيارة أجرة كبيرة إلى مدينة أنديكوت Endicott في ولاية نيويورك، ليبدأ الموظفون في تسلم عملهم في مختبر التطوير، وقد وافق منعم بشهامة أن يقود السيارة، وكان فى البداية يقود بسرعات متقطعة ويتوقف عده مرات، إذ كانت السيارة تعمل أوتوماتيكيا، وكان منعم يضغط على بدال " الفرامل" معتقداً أنها دواسة القابض" الدوبريياج" !، ولكنه بعد ذلك اعتاد الأمر، وسرعان ما غادرنا نيويورك، وقد وصلنا إلى مدينتنا الجديدة بعد حوالي ثلاث ساعات، وقد قضينا الأسابيع الأولى في أحد الفنادق، ثم انتقلنا بعد ذلك إلى شقة مؤجرة.

وخلال هذه السنوات في الولايات المتحدة، ادخرنا مبالغ كبيرة؛ فالحوافز في شركة " آي. بي. أم." كانت كثيرة ومجزية للغاية، ولقد أحببنا الإقامة فى ذلك المكان، كما راقت لنا أيضاً الحياة في شمال ولاية نيويورك، وأقمنا علاقات ودية مع بعض الأصدقاء الأمريكيين وبعض الألمان من أهل الجوار، و في الإجازة كنا نسافر إلى ألمانيا ـ بصورة سنوية ـ لزيارة العائلة

والأصدقاء، وفي نوفمبر عام 1968، ولدت ابنتنا منى في مدينة إنديكوت في مدينة نيويورك ـ الولايات المتحدة الأمريكية.

وفي بداية عام 1969، عدنا إلى ألمانيا وانتقلنا إلى شقة أخرى، حيث كان منعم يعمل وقتها في شركة " أي . بي . أم " في مختبر التطوير في بيبلينجن Boblingen، أما أنا فقد حصلت ـ بعد ذلك ـ على مشروعات برمجة أخرى من الباطن لحساب شركة " آي . بي . أم "، أما بالنسبة لأعمال المنزل فكانت تساعدني فيها خادمة، وكنت أعمل في الشركة في الفترة الصباحية، وبعد الظهر أتواجد في المنزل لرعاية الأطفال، وقد وجدت الراحة النفسية بهذا النظام؛ لأنه بجانب العمل كنت أقضي وقتا طويلا مع أطفالي.

في عام 1970، اشترينا بيتاً في مدينة جيشنجن Gechingen (بالقرب من كالو Calw)، وقد عشنا فيه سعداء فترة امتدت نحو ثلاثين عاماً، وفي نفس العام حصل منعم وكذا الأولاد على الجنسية الألمانية التي كان ينتظرها طيلة عشرة سنوات؛ بالنسبه لابنتنا منى فقد حصلت على الجنسية الأمريكية لأنها ولدت هناك .

وفي عام 1971، كانت هناك وظيفة تنتظر منعم في مصر من شركة " آي . بي .أم "، وكان هذا العرض مغريا جداً، وحقيقة الأمر أنه كان مطابقا لرغباته، لقد أردنا أن نعيش فترة في مصر" وطن منعم "، وعليه ذهبنا إلى القاهرة في رحلة استطلاعية قمنا خلالها بإجراء الاتصالات، وتكوين الأفكار والانطباعات وجمع المعلومات عن بعض الأشياء، كما تفقدنا الأمور الخاصة بمدارس الطفلين، هذا بالإضافة إلى إلقاء نظرة على الشقق لاختيار إحداهما للإقامة هناك.

في ذلك الوقت لم يكن منعم قد رأى أسرته منذ سنوات عديدة، ولم يكن

لديهم أدنى معرفة عن قصة زواجه، كما لم يكونوا على دراية بأنه موجود في مدينة القاهرة، لذلك نصحت منعم بالذهاب لأسرته في اليوم الأول من زيارتنا؛ وقد اندهشوا كثيرا عندما رأوه، وبالطبع سعدوا لرؤيته مجددا، ولكن التصور! ماذا سيكون رد فعلهم تجاه زواجه؟ لم أكن وقتها أعرف ! لكنهم فى مجمل الأمر اشتاقوا لرؤيتى، لذلك اصطحبنى منعم في اليوم التالي وتوجهنا إلى منزل العائلة الكائن بحي الحسين حيث نشأ منعم، ويعتبر حي الحسين من أكبر الأحياء الموجودة في مدينة القاهرة القديمة، وبرغم ذلك كانت هناك بعض البيوت المتصدعة، وما زال هناك الكثير من المنازل القديمة الباقية على حالها حتى يومنا هذا : ذات طوابق عديدة مترابطة بسلالم قديمة، يعيش فيها عدة أجيال؛ الآباء والأبناء والأحفاد جميعهم يعيشون في بيت واحد، و كانت أسرة منعم تعيش في أحد تلك المنازل، وحينما وصلت كان في استقبالي عدد كبير من أفراد الأسرة؛ والد منعم الذي سبق وذكرت أنه قد فقد بصره، وهو فتى صغير ـ تحسس وجهي ببطء ثم قبل يديّ وعانقني، كما قبلتني " أم منعم " وعانقتني أيضاً بكل الحب والود.

بدت الأسرة سعيدة لأن ابنها البكري وجد زوجة صالحة، ولكننا ـ للأسف ـ لم نستطع مواصلة الحديث لعدم معرفتهم باللغة الإنجليزية ،كما أنى لا أعرف اللغة العربية عدا إخوة منعم الذين يتكلمون الإنجليزية، لذلك كان فى مقدورى أن أتحدث معهم، تتابعت حركة دخول وخروج الزوار للبيت فسرعان ما انتشر بين الجيران خبر مجيء منعم، فجاءوا جميعهم لرؤيته، كما رحبوا بنا ترحيبا حارا.

بقينا في القاهرة بضعة أيام أخرى كى ينهي منعم مقابلات تسلم الوظيفة، كما بحثنا عن شقة مناسبة للإقامة، وخرجنا معا وبصحبتنا رجل

من منطقة الحسين يعرفها عن ظهر قلب، و مررنا على المزارات القديمة، ومشينا في شوارعها الضيقة والحارات والممرات الملتوية، وقد أرانى منعم الأماكن التى شهدت سنوات نشأته . ذهبنا – بالطبع – إلى الأهرامات، والمتحف المصري، كل شيء بدا بالنسبة لي جديدا وممتعا للغاية، كما كانت طلعتى لافتة للأنظار لكونى شقراء ذات ملامح أوروبية.

في عام 1971، كانت هناك فئة قليلة من السيدات اللاتى يرتدين الحجاب، كما أن معظم الفتيات كن يرتدين ملابس مثل التي أرتديها في ألمانيا، ففى الصيف كن يرتدين ملابس ذات أكمام قصيرة وفساتين مكشوفة نظرا لحرارة الطقس، بجانب عدد قليل من النساء اللواتي يرتدين أغطية فوق الرأس أو " ما يشبه الحجاب "، وكن يعتبرن غريبات، وقد أوضح لى منعم بأن هؤلاء النساء غالبا يعشن فى المناطق الريفية.

لقد أحببت القاهرة، فالناس هنا يتميزون بالطيبة والتسامح ولديهم استعداد فطرى للتعرف على الآخرين، و كانوا غالبا يبادرون بالتحدث إلينا؛ فالمصريون بطبيعتهم فضوليون ولديهم صفات وسمات كثيره ولكنهم أبعد ما يكونوا عن الخجل والانطواء، وجدير بالذكر أن عدد السياح في ذلك الوقت لم يكن كثيرا كما هو حاليا .

عند رجوعنا إلى ألمانيا، أبلغتنا شركة " آي . بي . أم " أن الوظيفة قد أسندت ـ لسوء الحظ ـ لشخص آخر، وقد شعرنا بالأسف فور سماعنا لهذا الخبر- إذ كنا نتطلع إلى تلك الوظيفة، كما كنا نعلق آمالنا على الحياة بمصر، وبعد ذلك، ما لبث منعم أن حصل على عرض آخر للعمل بالولايات المتحدة، لذلك لم نتردد في قبول هذا العرض، وفي صيف عام 1972 انتقلنا للمرة الثانية إلى مدينة أنديكوتEndicott في شمال نيويورك.

قام منعم بشراء بيت مفروش بالأثاث، وبعد ذلك عاد واصطحبنا إلى الولايات المتحدة الأمريكية حيث أقمنا فى بيتنا الجديد، و كانت علاقاتنا التى إكتسبناها سابقا مع بعض الأصدقاء ما زالت قائمة، وسرعان ما تأقلمنا وشعرنا بالاستقرار هناك، لقد كان أحد أصدقائنا يقيم بالقرب من الجامعة، وكان ذلك سببا فى تعرفنا على أناس متميزين وبعض الأصدقاء المتعين، وهنا يجب أن أذكر أن بعض صداقاتنا الأصيلة استمرت لسنوات طويلة، أما بالنسبة للطفلين فقد التحقا بالمدارس الأمريكية النظامية؛ حيث دخل أحمد الحضانة، و دخلت منى الروضة وكان عمرها أربع سنوات، وكانت فى البداية عنيدة وترفض تعلم اللغة الإنجليزية، وقد استمرت على عنادها هذا عدة أسابيع بسبب ابن الجيران الذى كان يتحدث معها بالألمانية، ولكن هذا الأمر أثار قلقى؛ مما جعلنى أذهب بنفسي إلى المدرسة، وتأكدت من كل شيء، وسرعان ما عرفت أنها لا تستطيع أن تميز بين اللغتين، بل وتتصور أن مفردات اللغه الإنجليزية جزء من اللغة الألمانية، إذ كانت تتعلم اللغة الجديدة بنفسها دون وعي منها، أما أحمد فقد كان في السادسة من عمره وكان يستطيع التمييز بين اللغتين، و في بعض الأحيان كان يأتي إلى المنزل بصحبة أطفال آخرين، وكنت أترجم لأحمد بعض الكلمات باللغة الإنجليزية، وللآخرين بالألمانية، وهكذا مع مرور الوقت تمكن من التواصل بصوره أفضل وأجود.

قضينا في إنديكوت Endicott تلك المرة ثلاث سنوات، و شعرنا بالراحة هناك، كما كان لدينا صداقات عديدة، وبعد فترة وجيزة، استطعت العمل مجددا وحصلت على وظيفة " مبرمجة " في مستشفى، وقد راقت لنا الحياة هناك؛ ففي الصباح يذهب الطفلان إلى المدرسة ويعودان في تمام الساعة الرابعة، لقد كانت المدرسة قريبة؛ لذلك كان الطفلان – أحيانا –

يرجعـان إلى المنـزل سيرا على الأقـدام، وقـد اشـتركنا في أحـد النـوادي ،حيـث كـان يمكننـا أن نـسبح في أي وقـت نـشاء؛ فالمسابح العامـة لم تكـن منتـشرة في الولايـات المتحـدة، أمـا الـذين يعيـشون في مجمـع سكنـي بـه حمـام سـباحة فيمكنهم السباحة فيه. وكـان يوجد في النـادي عديـد مـن الأنـشطة الرياضية مثل : الجودو والباليه، هذا بالإضافة إلى "المخيمات الصيفية" التي يقام فيها أنشطة خلال العطلات، والتى أحبها الصغار، وكانا يمضيان فيها طوال اليوم ويأتيان إلى المنـزل للنـوم فقـط، وكانـا يقـضيان فيهـا معظـم فـترات الإجـازة الصيفية، والتى تمتد فى أمريكا نحو ثلاثة أشهر، وبالإضافة لذلك كنا أحيانا نسافر إلى ألمانيا في الصيف لنقضي فيها عدة أسابيع .

وفي عـام 1974، سـافرنا إلى مـصر لأول مـرة مـع الطفلـين اللـذين كانـا مشتاقين إلى وطن وعائلة والدهما، وهنـاك قابلا جميع الأقارب، عدا والد منعم الـذى تـُوفي عـام 1972 عـن عمـر ينـاهز الثمـانين عامـاً دون أن يـرى الطفلـين، ولكن " أم منعم " وإخوته رأوا أولادنا، وقتها كانـت منى تبلغ من العمر ست سنوات وكانـت تتهيـب مـن كـل النـاس؛ ففـي كـل مرة ينفـتح فيهـا البـاب ويدخل زائر جديد تهمس في أذني وتقول والقلق يتملكها:

- هل يجـب علـى أن أقبلـهم أيضـا؟". فتلـك هـى طبيعـة الأحـوال في مـصر، وخـصوصا فيمـا يتعلـق بالأسـرة والجـيران والأصـدقاء والمعـارف : فهـم يعانقون كل واحد ويقبلونه - وخصوصا الأطفال !- حتى لو كانـت أول مرة يتقابلون فيها.

انتقلنـا بعـد ذلـك إلى الإسكندرية وقـضينا فيهـا أسـبوعين علـى البحـر، وبدأ الطفلان في إقامة علاقات صداقة مع أطفال مصريين من الجيران الذين كانوا يقطنون فى نفس العقار، لدرجه أنهمـا كانـا يلتقطـان بعض الكلمـات

المصرية أثناء اللعب معهم، لقد كانا يتواصلان بشكل جيد لدرجة أنهما استطاعا أن يتعلما معاً " لعبة الورق" رغم حداثة سنهما، فى الوقت الذى وجدت أنا فيه صعوبة فى فهمها و تعلمها .

سرعان ما انقضى آخر عام لنا في الولايات المتحدة، ورجعنا إلى ألمانيا في عام 1975، فى واقع الأمر، كم كنت أود البقاء في أمريكا، وكذلك كانت رغبة الطفلان؛ فهناك كنا نشعر بالراحة ولكن منعم فضل الذهاب إلى أوروبا، فهو مغرم بتنوع الثقافات هناك : فيكفى أن الانتقال من دولة أوروبية إلى أخرى لا يتطلب سوى قيادة السيارة لعدة ساعات فقط ليجد المرء نفسه بعد ذلك وسط ثقافة أخرى وحضارة مختلفة الأمر الذى يزيد من ثراء الحياة وتنوعها، كما أن تعليم أطفالنا كان أمراً يشكل بالنسبة لنا أهمية قصوى، لذلك قررنا أن نلحقهما بالمدارس الألمانية؛ حيث إن نظام التعليم بها كان الأفضل بالنسبة لهم .

وهكذا عدنا أدراجنا إلى جيتشنجنن Gechingen ، وذهب الطفلين إلى المدرسة الابتدائية الألمانية، وقد واجهتنا بعض الصعوبات في البداية، ولكن مع مرور الوقت أصبح كل شيء على ما يرام، فقد التحق أحمد بمدرسة الجيمانيزيوم (مدرسة ثانوية ألمانية) في عام 1977، بينما ذهبت منى إلى نفس المدرسة في عام 1978، أغلب أصدقائنا كانوا لا يزالون يعيشون في نفس المنطقة، وكذلك الحال بالنسبه للطفلين اللذين استطاعا وصل ما كان قد انقطع بفعل إفتراقهما عن أصدقائهما، كذلك عاد منعم إلى عمله في شركة " آي . بي . أم " في قسم التطوير، أما أنا فقد عملت هناك مرة أخرى في البرمجة ولكن بشكل حر، ورغم أنني كنت أنظم وقتي، إلا أن الظروف كانت بالنسبة لى مزعجة على عكس أمريكا؛ فمثلا أوقات عودة الطفلين من المدرسة كانت غير منتظمة؛ إذ كانا أحيانا يحضران للمنزل عند الظهر،

وأحيانا أخرى يأتيان في الساعة الواحدة بعد الظهر، وأحيانا يتأخران لما بعد الواحدة، وأذكر ذات مرة أن أحدهما رجع من المدرسة في الساعة 11 صباحا لأن مدرسة الفصل كانت مريضة، فالمدارس التي تعمل بنظام اليوم الكامل لم تكن موجودة آنذاك، ومعظم الأمهات كن متواجدات في المنزل لرعاية أولادهن، أما النساء اللاتي يعملن خارج المنزل فكن فئة قليلة ذات ظروف خاصة، وهكذا كان العمل خارج المنزل يتناسب معي بصورة معقولة، ولكن بالنسبة لباقي الأمهات فقد كان من الناحية العملية أمراً مستحيلاً، علاوة على ذلك، كانت المحلات تُغلق أبوابها في الساعة السادسة والنصف مساءً؛ لذا لم يكن لدي الوقت الكافي للتسوق، أما في أمريكا فقد كان الأمر مختلفًا؛ إذ كانت المحلات تفتح أبوابها طيلة اليوم، فكنت أذهب إلى السوق في المساء ـ دون عجلة ـ بعد عودة منعم إلى المنزل وخلود الطفلين للنوم .

ومع ذلك، فقد اعتدنا سريعا إيقاع الحياة الجديد، وأصبحنا نشعر بالرضا، إلا أن منعم كان يرغب في إحداث تغيير آخر، ففي عام 1979 قبل عملاً عُرض عليه من شركة " آي . بي . أم " في المملكة العربية السعودية، وفكرنا أن ننتقل جميعا إلى هناك، بالرغم من أن الطفلين لم يكونا راغبين في ذلك، وخاصة بعد أن استطاعا التأقلم نوعاً ما على نمط الحياة فى ألمانيا، وها نحن الآن نرغب في الانتقال مجددا إلى بلدٍ آخر، وبغض النظر عن أي شيء، فقد ذهبت مع منعم إلى مدينة الظهران وبحثنا هناك على بيت ومدرسة لطفلينا، وفي الحقيقة أعجبتنا المدارس الأمريكية هناك، ولكننا بعد ذلك أدركنا أن لدينا مشكلة قانونية، وهي أن المدرسة لا تقبل الأطفال من أب مسلم، و لأنه كالعادة فى السعودية يجب على المسلمين أن يرسلوا أولادهم إلى مدارس عربية مما يعني أن انتقالنا إلى الظهران كان أمرا صعبا بالنسبة لنا كعائلة، لذلك لم نرغب في هذا العرض من أجل مصلحة الطفلين، وفى قرارة نفسى لم أكن

أرغب فى الحياة هناك؛ لأن حياتي هناك كانت ستكون مليئة بالقيود والمحظورات؛ فلن يكون فى استطاعتى أن أقود سيارة أو أعمل فى وظيفة، وبالتالى سوف تصبح حياتى محصورة في مجمع Compound الأجانب فقط .

وبعد فترة قصيرة، انتقل منعم إلى باريس حيث المقر المركزى الرئيسي لشركة " آي . بي . أم " ـ الخاص بالشرق الأوسط، وكانت مهامه الوظيفية تتمثل فى تنظيم المؤتمرات الخاصة بمكاتب الشركة واتخاذ القرارات في المملكة العربية السعودية، وبالطبع تطلب هذا الأمر منه أن يسافر كثيراً، ولكنه كان يقضي معظم ساعات عمله في باريس، وباريس تعتبر قصة مختلفة تماماً عن السعودية ! فقد كانت هناك مدرسة ألمانية، وخلال الإجازات كان يمكننا الذهاب إلى ألمانيا في أي وقت، وقتها حزمنا حقائبنا وذهبنا فى إجازه قصيرة إلى نورماندى Normandy حيث كان الجو ممطراً، ثم انتقلنا بعد ذلك إلى شقتنا الجديدة في إحدى ضواحي باريس، وهناك قضينا عامين، لقد كانت باريس ـ من وجهة نظر ولديَّ ـ من أجمل البلاد التى أحسَّا فيها بالراحة، حيث راقت لهما الدراسة في المدرسة الألمانية، وكوّنا فيها علاقات صداقة استمر معظمها حتى يومنا هذا، أما أنا فلم أعمل خلال تلك الفترة التى امتدت عامين، ولكني التحقت بإحدى المعاهد الفرنسية كى أتعلم اللغة هناك؛ إذ لم تكن درايتى باللغة تتعدى ما درسته أثناء فتره تعلمى بالمدارس، واستطعت أن أتقدم فيها بعد حضورى عدة دورات، كما حضرت عدة دورات في تعلم " أصول الطبخ الفرنسي "، وقد كانت أسرتي سعيدة بذلك لأنني في عطلة نهاية الأسبوع كنت أطهو لهم بعض الأصناف الفرنسية التى تعلمتها، أما فى أوقات فراغى الأخرى، فقد استمتعت بكل شيء في باريس، حيث زرت معالم المدينة، والمتاحف، والمنتزهات، وكل ما كنت أجده مشوقا يسترعى انتباهى، وبالطبع كان يأتي إلينا زوار من ألمانيا، وفي نهاية العامين

كنت قد بدأت أفقد عملي بصورة تدريجية، ولكى أسترجع ما فاتنى، فكرت في دراسة علوم الكمبيوتر باللغة الفرنسية، ولكن قبل أن أنتهي من هذه الأمر، عدنا أدراجنا إلى ألمانيا مرة أخرى.

وعندما أرجع بذكرياتي للوراء أجد أنه كان من الصعب عليّ أن أعيش أوقاتاً غير مستقرة مليئة بالتنقلات، ورغم أن كل ذلك قد تم بهدوء، إلا أنه لم يكن سهلاً، فقد كان منعم يعمل طوال العامين في السعودية، وخلال ذلك الوقت كان يأتي إلى ألمانيا كل ستة أسابيع، وكان لهذا الوضع بالغ الأثر على علاقتنا، لقد كان طفلاي لا يزالان في سن المدرسة، وكنت مطالبة بمضاعفة الجهود لتلبية احتياجاتهما واحتياجات الأسرة، بالإضافه إلى عملي أيضاً، وعندما عاد منعم أخيراً إلى بيته جرت بيننا حوارات شديدة ومجادلات حول أمور عادية، فقد اختلف كل شيء عما كنا نحلم به، وقد كنت اعتقد أن حياتنا في باريس سوف تكون للأفضل، وقد كان من الممكن أن تصبح هكذا، لولا أن منعم كان على علاقة بامرأة فرنسية، وبالطبع لم تمض فترة قصيرة حتى اتضح كل شيء، لقد صدمتني تلك العلاقة وفكرت جديًّا في الانفصال عنه، ولكنني فى النهاية تراجعت وبقيت معه لأنه كان يردد دائماً أنه لا يرغب في الانفصال، كما أننا كنا نضع مصلحة ومستقبل ولديّ فى المقام الأول، حاليا أشعر بالسعادة لأنني تحملت ذلك الأمر وتجاوزته، وقد عادت علاقتنا من جديد، وقد عشنا معا واستمتعنا بأجمل وأروع سنوات العمر.

في عام 1981، عدنا مجدداً إلى ألمانيا وهناك واصل الطفلان دراستهما الثانوية وحصلا على الدبلومات التى تؤهلهما لدخول الجامعة، كما أنهى أحمد الخدمة المدنية مع الصليب الأحمر (بدلا من الخامة العسكرية) ثم درس الطب، أما منى فقد توجهت إلى الولايات المتحدة الامريكية لمدة عام واحد ضمن برنامج تبادل الطلبة، وهناك استطاعت تكوين علاقات مع

صديقات من كاليفورنيا California، وعاشت مع إحدى صديقاتها في سان فرانسيسكو San Francisco، وحيث إنها ولدت في أمريكا وتحمل الجنسية الأمريكية فكان فى استطاعتها الدخول إلى البلد بدون أي مشاكل، كما تستطيع العمل فيها أيضاً، توقعنا في البداية أن منى سوف تدرس في الجامعة الأمريكية، ولكنها قررت فيما بعد أن تدرس "صناعة وتكنولوجيا الإعلان" في كلية التكنولوجيا في أستوتجارت ـ فينهيجن Stuttgart - Vainhingen، وعاشت معنا فترة، وبعد انتهاء الكلية وجدت منى عملاً فى مجال التسويق العالمي في إحدى شركات النشر.

استمر منعم يعمل في شركة "آي . بي . أم"، ومرة أخرى حصلت على وظيفة مبرمجة، وعشنا فترة طيبة في بيتنا سعداء في مدينة جيتشنجين Gechingen، و في عام 1984، أوعز إليَّ أحد المعارف بتدريس دورات في البرمجة، وقد راقت لي الفكرة كثيرا، وبدأت أعطي دورات تدريبية في شركة "آي . بي . أم"، ودورات تدريبية أخرى للكبار في الفصول المسائية، وقد كان هذا فعلاً اتجاهاً جديداً تماماً بالنسبة لي، ولدهشتى وجدت نفسي أشعر بمنتهى المتعة فى هذا المجال؛ إذ كان تدريس هذه الدورات بمنزلة الدعامة الأساسية والحافز الذى دفعنى لتأسيس شركة خاصة بنا اسميتها شركة "إسماعيل للحاسب الآلي بمدينة كالو 'ICC' " وكان ذلك عام 1986، كما قمنا بشراء بيت قديم في كالو Calw، وقمنا بتجديده، وتم تعيين بعض الموظفين فيه، في البداية كانت هذه الشركة ملكا لى، ومنعم كان ما زال يعمل في شركة" آي . بي . أم"، ولكن بعد ذلك بعام واحد حصل على" تقاعد مبكر" والتحق بالشركة وكان يعمل بها دواماً كاملا، وبعد ذلك أصبحنا شركاء في الأعمال مع شركة "آي بي أم"، حيث كنا نسوق منتجاتها من الحاسب

الآلي والبرامج، بالإضافة إلى هذا كنا نقدم دورات تدريبية ونكتب البرامج ونسوق الشبكات.

لقد أدركنا أهمية الخبرة التي اكتسبناها خلال سنوات عملنا فى شركة" آي . بي . أم"؛ حيث لعبت دوراً هاما فى إنجاح عملنا الخاص، ولما راج المشروع قمنا بتوظيف عشرين شخصا، كما قمنا بتطوير البرامج التدريبية، وكنت أسافر للعملاء لتلقينهم التدريب، أما منعم فقد كان يعمل دائماً في موقع الشركة في كالو Calw، حيث كان يتفاوض مع العملاء ويقوم بإعداد البرامج لهم، ولقد كانت بالفعل حياة ممتعة ومليئة بالحيوية والنشاط، وخلال ذلك الوقت عملنا بجدية و شقاءٍ ولكننا كنا سعداء مستمتعين بعملنا.

في عام 1993 حدث ركود في التجارة؛ إذ كنا نبيع القليل من الحاسبات الآلية، كما أن الإقبال على الدورات التدريبية شهد تراجعاً كبيراً، ونتيجة لذلك تكبدنا كثيرًا من الخسائر المادية، وأوشكنا على أن نصفي أعمال الشركة لولا أننا حصلنا على توصية من شركة" آي. بي. أم" بضرورة تطوير برنامج خاص بالاختبارات الإدارية ونتائج اختبارات الإدارة، وبالطبع يكون إتمامها من خلال خدمات ضرورية مثل إدارة قاعدة البيانات والتحديثات، والتى لم نكن نعرفها في ذلك الوقت، إلا أن هذا البرنامج شغلنا لسنوات طويلة وحدد مصير حياتنا، وكانت تلك هى المرة الأولى التى نقوم فيها أنا ومنعم بعمل برمجة في مشروع كبير كهذا، وبعد تجاوز بعض الصعوبات كنا متعاونين جدا، وكان الأمر أشبه ما يكون ببناء مسكن الزوجية إما أن ينتهى الأمر نهاية سعيدة، أو ينتهى بالانفصال، ولكن لحسن الحظ جاءت النتائج إيجابية وكانت السعادة من نصيبنا .

وبعد أربعة أشهر من تاريخ توصية شركة "آي. بي.أم". طرحنا في

السوق أول نسخة من هذا البرنامج، ويتضمن هذا البرنامج إمكانية إنشاء أسئلة اختبار عن طريق مصدر عشوائي بمجرد الضغط على زر، وهذا يحدث عبر الإنترنت ويتم تخزين جميع النتائج فى قاعدة البيانات حيث يمكن استرجاعها في أي وقت، وقد استخدمت شركة "آي . بي . أم" هذا البرنامج على نطاق عالمي في كل المجالات : في الشهادات ومراكز التقييمات... إلخ، كما كان لدينا أيضاً برنامج إدارة البيانات وبرنامج جمع الإحصائيات، وقد قام موظفونا بين سنتي 1994 و2001 برحلات مستمرة إلى جميع أنحاء العالم مع كل معداتنا التكنولوجية ليقدموا ويعرضوا برامج الاختبارات الإدارية التي وضعناها، كما حضرت أنا ومنعم العديد من المؤتمرات في إسطانبول Istanbul، وباريس Paris، وليشبونة Lisbon، ووارسو Warsaw، وطوكيو Tokyo، بالإضافة إلى العديد من المدن الأخرى، ولقد كان أمراً مشوقاً وممتعاً، وظللنا نتابع تطوير برامج الكمبيوتر التي صممناها، وبعد سنوات أعدنا برمجة كل شيء مرة أخرى من البداية وبمنتهى المهارة التقنية، في تلك السنوات كنا نعمل معاً ونسافر معاً، وكنا من الناحية العملية متماثلين ومتوافقين تماماً وكأننا توأم سيامي .

ونظراً لوجود الكثير من العملاء في الولايات المتحدة، فقد قمنا بشراء بيت في ولاية أتلانتا Atlanta، كما أنشأنا شركة هناك، وبدأنا نقضي هناك فترة من العام، وفي نفس الوقت بعنا بيتنا في جيتشنجين Gechingen، وأكملنا الطابق الثاني في بيتنا في مدينة كالو Calw حيث مقر شركتنا هناك، فحينما نكون في ألمانيا ننزل إلى الطابق الأسفل حيث يوجد مكتب الشركة، أما بالنسبة لمكتبنا في أتلانتا فقد كان لدينا موظف واحد يقوم بالترويج لبعض منتجاتنا هناك؛ وقد بدا كل شيء واعداً ومبشراً .

في عام 2001، التزمنا بعقود عمل جديدة أخرى في الولايات المتحدة

وتم التفاوض مع إحدى الجامعات التى أرادت استخدام برامجنا في أنحاء الولايات المتحدة، فى ذلك الوقت كانت برامج الخطط الخاصة بمشروع الطيران جاهزة ومتاحة، وكنا متحمسين للغاية فى المضي قدماً والشروع في تنفيذ هذا المشروع، ولكن حدث أمر غير متوقع؛ إذ تم إلغاء جميع برامجنا الخاصة بـ : "التحليق العالى"، ففي 11 سبتمبر عام 2001 قامت جماعة إرهابية باختطاف أربع طائرات للمسافرين وتوجيه اثنتين منها إلى مبنى التجارة العالمي في نيويورك، وقد سقط نتيجة لذلك آلاف القتلى، وبخلاف تلك المأساة الإنسانية فقد انهارت كل أعمالنا هناك؛ ففي العام التالي لم نتمكن من تجديد عقودنا، ولم نقم بتحرير أي عقود جديدة، كما لم يرد أحد على اتصالاتنا، ولم نتسلم أي رسالة أو اتصال هاتفي أو حتى بريد إلكتروني؛ حيث ساد اعتقاد بأن من بين الإرهابيين بعض المصريين الذين عاشوا في ألمانيا؛ وبهذا أصبحنا في دائرة الاشتباه، ولم يقبل أحد التفاهم معنا؛ كما انقطعت علاقاتنا بالمؤسسة، ويا له من شعور بغيض أن يشعر المرء أنه منقطع عن الآخرين بصورة كلية، ولم يكن فى مقدورنا استيعاب الوضع وتصديق ما يحدث !

ورغم ذلك فقد حاولنا أن ننقذ عملنا، ولم نستسلم حتى عام 2003، رغم أن الأمر كان صعب جداً علينا؛ لقد غرسنا قلبنا وروحنا في ذلك المشروع، ولكننا خسرنا كل شيء، وفي عام 2004 بعنا بيتنا الموجود في أتلانتا Atlanta وتركنا الولايات المتحدة آملين فى وضع أفضل .

وجدير بالذكر أننا خلال العشرين عاماً من العمل في كالو Calw، اندمجنا أكثر وأكثر في الشركة، وعملنا بجدية وبجهد كبير، وكنا مشغولين جداً في بعض الاحيان، فى ذلك الوقت حصل ولدانا على الشهادات وشقّا طريقهم المهنى فى الحياة، وتزوّجا تقريباً فى نفس الوقت، وفي عام 1996 صار لدينا

حفيدان من البنين هما (طارق وسيمو)، وعام 1998 وخلال ثلاثة أسابيع فقط ولدت بنت صغيرة اسمها (بولا)، وولد صبي صغير اسمه (موسى)، وفي عام 2000 جاءت بنت الألفية "مريم"، واليوم أصبحنا سعداء ونحن نلعب دور الجد والجدة مع خمسة أحفاد.

ولكن العائلة لم تكن قد اكتملت بعد!

ففي عام 2002 حدثت المفاجأة الكبرى، فعلا مفاجأة لا يصدقها عقل؛ إذ قدمت إلينا من فرنسا فتاة تدعى إيزيس Isis عمرها عشرون عاماً، وقدمت لمنعم ما يثبت أنها ابنته، وقد ولدت في باريس عام 1982، حيث كان منعم على علاقة مع أمها والتى تدعى كاثرين Catherine، وربما كان اسم إيزيس Isis يوحي بشيء ما له علاقة بمصر!، لقد تُوفيت أمها عام 1993 دون أن تحدثها عن ماهية والدها، وتبنتها إحدى العائلات، وحينما أصبحت فتاة بالغة وبينما كانت تقلب في أوراق أمها، حدثت المصادفة إذ وجدت عنوان منعم.

حينما تحدثت فى الهاتف المنزلى لم أنتبه لفحوى مكالمتها الأولى، كما كان منعم مرتبكاً ولم يعرف كيف يتعامل مع هذا الوضع، ولم يدر وقتها ماذا يقول لي..؟!.، وبعد ذلك بفترة قصيرة قمنا برحلة إلى مصر مع بعض الأصدقاء، وفي مصر وأثناء تواجدنا بمناطق الآثار، بدا أن كل معبد مخصص للإلهة إيزيس Isis يكاد ينطق ليفصح عن إحدى أسراره، كما كانت هناك صور ومراجع لإيزيس في كل مكان، وكان منعم يتجول بين كل تلك النقوش المدونة على الجدران وربما كانت يتساءل ماذا عساه أن يفعل الآن ؟ بالنسبة لي لم ألحظ وقتها أي شيء كما لم ألمس أي تغيير في منعم، كما أن هذه الرحلة كانت ممتعة جدًّا بالنسبة لي وكانت أكثر متعة بالنسبة لمنعم لأنه هو المضيف في بلده وكان يشعر بالمسئولية عن كل شيء.

وعندما عدنا إلى ألمانيا مرة أخرى جاءت مكالمة أخرى من إيزيس Isis، وفي هذه المرة رفعت السماعة للرد عليها، وكان اعتقادى أنها عميلة من العملاء فأعطيت الهاتف إلى منعم، وبعد لحظة علق الهاتف وأخذني جانباً بعد أن تركت فى الحال الكتاب الذى كنت أقرأه فى هذه اللحظة، ثم أردف هو قائلاً إنه يريدني في شيء، اندهشت من تصرفه هذا، وشعرت أننى أمام لغز محير؛ فطوال حياتنا معاً لم يسبق له أن عاملني بمثل تلك الرسميات، وبعد سماعي للقصة بكامل تفاصيلها، أدركت أن هذه الفتاة الفرنسية هى بالفعل ابنته، وعرفت أن أمها قد ماتت، فكرت في الحال أن أقابلها، وكما شعرت ببالغ الحزن عندما علمت بأنها نشأت وسط أسرة تبنتها، فى حين كان يمكن أن نرعاها ونشملها بعنايتنا هنا في ألمانيا، فاتصل بها منعم وحدد معها موعداً لزيارتنا في عطلة نهاية الأسبوع، وقبل أول لقاء مع الفتاة دار حديث طويل بينى وبين منعم حول هذا الموضوع، ولكن الوقت كان قد تأخر على توجيه الاتهامات، هذا بالإضافة إلى أن هذا قد حدث منذ زمن طويل، وكنا في ذلك الوقت ننعم معا بحياة هانئة – فكان ذلك مدعاة كى أسامحه على ما حدث في الماضي، واستطعت بالفعل أن أنقذ علاقتنا من براثن تلك الأزمة، واليوم استطعنا أن يفهم كلٌ منا الآخر وربما بطريقة أفضل مما كنا عليه في بداية حياتنا الزوجية، ولكن الشيء الوحيد الذي لم أصدقه أو أستوعبه حتى الآن هو كيف استطاع منعم أن يخفي عني هذه القصة طوال ثلاثة أسابيع كاملة، مع العلم أننا كنا نسافر معاً ونقضي معاً اليوم بأكمله (24 ساعة)، ونتبادل الحكايات فيما جرى لكل واحد منا، ولكنى أدرك تمام الإدراك أن رد فعلى الهادئ أزاح عبئاً ثقيلاً عن كاهل منعم.

في إجازة نهاية الأسبوع جاء اليوم المشهود الذى ذهب فيه منعم إلى المطار ليصطحب إيزيس Isis إلى أستوتجارت Stuttgart، ومن بين هذه

الحشود المتدفقة من بوابة المطار، تعرف منعم على ابنته، وبعد أن تبادلا النظرات لم يعد هناك أدنى شك في أنها ابنته وأنه أبوها، فى نفس الوقت كنت في المنزل أنتظر بفارغ الصبر، ولم أستطع أن أتحمل مثل هذا الترقب؛ إذ كانت كل لحظة بمنزلة الوخزة الشائكة، وعندما وصلا أخيراً، لم يسعنى إلا أن استقبل إيزيس Isis بالأحضان، والتى بدورها لم تستطع أن تتمالك نفسها وفاضت عيناها بالدموع، لقد كانت مشاعر فياضة امتزجت فيها مرارة الماضى بحلاوة الحاضر؛ فحينما يعثر المرء على أسرته بعد طول عناء يكون الموقف أكبر من درجة إدراكه واستيعابه، ولقد شعرت إيزيس Isis ببالغ السعادة لأننا استقبلناها بهذه الطريقة الودية، وجلسنا ببساطة وتحدثنا طويلاً، و لقد تحدثت عن أمها وحياتها وعن ظروف نشأتها وكيف عاشت هي وأمها وسط ظروف مالية صعبة؛ فلم تتمكن كاثرين Catherine يوماً من تدبير المال الكافى للمعيشة، ولكنها كانت تترفع عن السؤال أو طلب المساعدة من أحد، فى الوقت الذى كانت عائلتها (أمها وأخوها وأختها) تعيش في باريس ولا يعرفون شيئاً عن معاناتها، وقد أحسسنا بالأسى الشديد عندما سمعنا قصتها، وخصوصاً فيما يتعلق بظروف وفاتها بسبب التهاب الكبد "فيرس سي"، إلا أن إيزيس لم تعرف بوفاتها إلا منذ بضع سنوات؛ فعندما توفيت كاثرين كان عمر إيزيس 11 عاماً وقد تبنتها أسرة وعاشت معهم فى المدينة، وقد التحقت إيزيس بالمدرسة واجتازت كل الامتحانات الضرورية، ولكنها لم تشعر يوماً بالراحة الحقيقية مع تلك العائلة التي تبنتها، فلم يعاملوها كما كانوا يعاملون أولادهم؛ لقد كانت هناك تفرقة فيما يتعلق بالمأكل والملبس، وعندما بلغت إيزيس 20 عاما تزوجت من شاب مغربي يدعى عمر، وكان منعم قد تحدث معه من قبل عبر الهاتف، وكان الحديث باللغة العربية، وبدأت الأمور تلتئم حتى قارب سيناريو القصة على الاكتمال.

في اليوم التالي تحدثت مع ابنيّ عن إيزيس، فكان رد فعلهما مغلفاً بالحيرة ولكنهما أرادا أن يقابلا إيزيس في أسرع وقت ممكن، وفي نفس اليوم زرنا منى – التى كانت تعيش وقتها مع أسرتها ـ وتبعد عنا حوالي ساعة، وقد تقبلت عائلتنا وجود إيزيس بمنتهى السعادة وخصوصا الأحفاد؛ لم تكن لهم أي مشكلة في معرفة الخالة الجديدة التي ظهرت فجأة، وقالت منى:

-"كم كنت أرغب بأن تكون لي أخت وأخيرا أصبح وجودها واقعاً".

أما أحمد فقد تقابل مع إيزيس في مناسبات أخرى كأعياد الميلاد وغيرها و بذلك اجتمعت كل العائلة : أحمد مع زوجته وأطفاله ومنى مع زوجها وأطفالها وإيزيس مع زوجها عمر، وحدثت الاتصالات ودار الحوار بأربع لغات مختلفة؛ فأفراد أسرتي يتحدثون فيما بينهم بالألمانية، ولكن زوجة أحمد تركية وتتكلم اللغة التركية مع أبنائها، أما عمر فلا يعرف الألمانية وكان يتكلم مع منعم باللغة العربية، وأحيانا كان يتكلم الإنجليزية أوالفرنسية حسبما يقتضي الموقف، وبعد انقضاء عطلة نهاية الأسبوع أصبحنا جميعا غارقين حتى آذاننا وكأننا سقطنا وسط بحر من المعاجم والقواميس !!! .

وقد كان من الطبيعي أن يتم إعلان هذه الأخبارالجديدة الطيبة على الملأ؛ فقمت بدعوة جميع أصدقائنا لتناول فنجان قهوة، وأثناء الجلسة أخبرتهم بالقصة كاملة، وقد كانوا مندهشين ومبهورين جداً بها، و مازلت أذكر تعليقا لإحدى صديقاتي والتى تدعى آيسولد Isolde التى قالت :

-"إن تلك الحكاية أشبه بالروايات الرومانسية للكاتبة روساميند بيلشر Rosamunde Pilcher !"

في عام 2003، تبنينا إيزيس بشكل رسمي، وبذلك أصبح لديها نفس

الحقوق كباقي إخوتها، فهي فرد من أفراد عائلتنا، وأصبحت تزور إخوتها وتقضي معهم فترات طويلة، فكانت تذهب إلى منى في فصل الصيف وتبقى معها ستة أسابيع، وبدأت تعمل في ألمانيا في إحدى الشركات، كما كانت تزور أحمد أيضاً الذى استقبلها وظلت في ضيافته فترة ثلاثة أشهر، وقد تحسنت لغتها الألمانية بصورة كبيرة بسبب زيارتها المتكررة لألمانيا، وفي صيف عام 2003 أخذناها معنا إلى أمريكا، وفي هذه الرحلة وغيرها من الرحلات كنا نتعرف إليها أكثر، وجدير بالذكر أن إيزيس تشبه أباها كثيراً، و ربما أكثر من ولدينا !!!.

وبعد أن بعنا بيتنا في آتلانتا في عام 2004، استقر مقامنا في شقتنا في كالو Calw، وبدأنا نفكر في أن نقضي فترة الشتاء في مصر، وطوال هذه السنوات كنا نذهب إلى مصر ولكن فقط كسائحين، لقد كان منعم ينظم لنا ولأصدقائنا عديدًا من الرحلات إلى القاهرة؛ حيث كنا نذهب لزيارة الأهرامات، والمعابد في جنوب مصر، وقد زار معظم أصدقائنا مصر، وفي مايو عام 2004 ذهبنا أنا ومنعم بمفردنا إلى مصر، وفكرت على الفور في مدينة الاسكندرية التى تطل على البحر المتوسط والتى كنت أحبها دوماً، وفعلاً سافرنا بصحبة ابنة عم منعم وزوجها إلى الإسكندرية، فى البداية أردنا تأجير شقة ولكننا لم نجد ما يعجبنا، فبحثنا عن شقة تمليك وبالفعل رأينا ثلاثة شقق وكانت الشقة الثانية هى التى وقع عليها اختيارنا بصورة فورية، واتفقنا عليها أنا ومنعم، فقد كانت تطل على مشهد البحر من غرفة النوم، وكان من المفروض أن يقام على هذه الشقة مزاد علني، وتم تحديد موعد المزاد، واستطعنا أن نشارك فيه قبل موعد سفرنا إلى ألمانيا، وتم إجراء المزاد، وكنا قلقين ومترقبين، في البداية كان الحاضرون في المزاد قليلين، وبعد ذلك بدأت القاعة تعج بالمشاركين في المزاد، كان من المفتروض

أن يتولى منعم مباشرة العطاء الخاص بالمزاد، فجلست بعيدا في الخلف، وسمعت اسم "منعم" يتكرر في المزاد مرة وراء مرة، وفجأة انتهى الامر ورأيته يقبل علي مسرعاً، وقبلني وقال:

-"لقد حصلنا على الشقة" .

ثم قال لي فيما بعد بأنه كان هناك مزايد آخر يزايد بسعر أعلى حتى وصل السعر إلى أقصاه، ساعتها نظر منعم للمزايد الآخر، وخاطبه قائلا : "إذا لم أحصل على هذه الشقة فلن أحضرإلى مصر مرة أخرى"، فتراجع الرجل عن إصراره، وهكذا توقف المزاد ورسا العطاء على منعم.

كان علينا في البداية إجراء بعض الترميمات والتجديدات بالشقة، فقامت عائلة منعم بالاتصال بمهندس له خبرة في مجال الترميمات وأرسلته إلينا، وبدأ في عمل الترميمات حتى انتهت بسهولة ويسر في أكتوبر عام 2004، ثم انتقلنا إليها، ولكن أمتعتنا كانت في قبو شقتنا السابقة في أتلانتا، واتفقنا مع المالك بأن يحفظها لنا حتى يتم نقلها إلينا .

وفي مصر بدأنا عملية نقل الأمتعة من أتلانتا إلى الإسكندرية، حيث كانت تتم إجراءات النقل والتحويل عن طريق البريد الالكتروني، والإنترنت، والفاكسات، بالإضافة إلى دعم بعض الأصدقاء هناك في أتلانتا، حيث تم كل ذلك دون الحاجة إلى السفر إلى الولايات المتحده، وقد كان موعد وصول أغراضنا مقرراً في اليوم الأخير من شهر أكتوبر بعد فترة الظهيرة، لذا ذهبنا إلى الشقة وجلسنا وانتظرنا وطال الانتظار ولم يصل الأثاث، ولما شعرنا بملل الانتظار ذهبنا للنوم في حوالي الساعة العاشرة مساءً، على أمل أن يصل الأثاث في وقت لاحق، وقد حدث ذلك بالفعل؛ ففي منتصف الليل رن جرس الباب بطريقة متتابعة و مجنونة؛ فقد وصل الأثاث وفي خلال ساعتين تم

وضع كل شيء في مكانه؛ إذ قام أربعة أشخاص بحمل كل الأشياء التى لا يمكن إدخالها إلى المصعد، وتم وضع و تركيب وترتيب كل الأثاث وا لمصابيح وملاءات الأسرة والبطاطين وجميع أغراض المطبخ، دون أى خسائر تذكر، وفي الصباح جلسنا أنا ومنعم على أريكتنا وتبادلنا الابتسامات لما جرى، ونحن لا نكاد نصدق أن أمتعتنا قد تم نقلها مباشرة من أتلانتا إلى الإسكندرية.

لقد استقر بنا الحال في الإسكندرية وتأقلمنا على هذا الوضع الجديد، وكنا نذهب إلى جميع الأماكن؛ سيرا على الأقدام، أو بالأوتوبيس، أو القطار، أو التاكسي، ولم نحتج إلى سيارة خاصة، الشئ الذى أدهش الكثير من المصريين أن شقتنا تبعد 15 ميلا عن المنتزه والكورنيش، وغالباً ما كنا نتسوق من المحلات الكبيرة، ونتردد على نفس المحلات التى أصبحت اختيارنا والتى أصبحنا عملاء معروفين بها، وعند عودتنا من السفر يسألانا : "أين كنتم طوال هذه المدة"؟ .

اللغة العربية هى لغة منعم الأصلية، ولكنها حتى ذلك الحين لم تلعب دوراً في حياتي، فعندما تقابلنا أول مرة كان منعم يتكلم اللغة الألمانية بشكل جيد، ولكنى تعلمت بعض المفردات العربية مثل : أسماء الخضراوات والفواكه وأنواع اللحوم، و كما أردت أن أتعلم المزيد، لذا التحقت بدورة تعليم اللغة العربية للأجانب في جامعة الإسكندرية، وواظبت على الحضور في فصلين دراسيين، وكان يدرس معي طلاب من اليابان وإنجلترا وكندا والسويد.

كان من الصعب علي أن أذهب أربعة أيام في الأسبوع، وفي كل مرة أظل ساعتين، وأكلف بواجبات دراسيه كثيرة يكون لزاما على أن أقوم بأدائها فى المنزل، لقد كان هذا الأمر ثقيلاً عليَّ، لدرجة أننى كنت قد أوشكت على ترك تلك الدورة لولا منعم الذى وقف بجانبى يساعدني ويعلمني

الكتابة التى كانت جزءًا من منهج الفصل الدراسي الأول، لقد كان الأمر صعباً على باقي الطلاب، أما أنا فقد أتقنته و يرجع الفضل فى ذلك إلى منعم، ورغم صعوبة دراسة اللغة العربية، الا أننى كنت مستمتعة بها، وقد تعلمت الكثير وأنا الآن قادرة على قراءة اللغة العربية وفهمها، وعلى الرغم من أن الكلام ما زال صعبًا جداً بالنسبة لي، فقد كنت أذهب إلى السوق وأقرأ العلامات وكنت أتواصل مع الآخرين من خلال بعض المحادثات البسيطة، وكنت أفضل الكلام مع الأطفال لأنني معهم أشعر بالراحة .

لقد كان منعم سعيدا بالحياة في بلده وكان يشعر بمتعة خاصة لأنه قادر على استخدام اللغة العربية فى التحدث مع الجميع، ولكن سفره الذي دام أكثر من ستة وأربعين عاماً ـ والتى قضى معظمه في ألمانيا وأمريكا وفرنسا ـ كان سبباً فى إحداث الكثير من التغيرات التى طرأت على شخصيته؛ فلم يستطع يوماً أن يكون نموذجاً مصريًا محضاً، ولن يكون أبدا .

وحالياً نحاول كلانا أن نعتاد على العقلية المصرية والأسلوب المصري فى التفكير، وإن كان علينا أن نواجه بعض التصرفات التى لا يمكننا فهمها أو استيعابها، لذلك كثيراً ما نطرح على أنفسنا مثل هذه التساؤلات التى لا نجد لها إجابات ..

- لماذا لا يفي المصريون بوعودهم ؟.!..

- لماذا لا يوجد بينهم من يفكر بالحفاظ على النظافة البيئية ؟..!.

- لماذا لا يكترثون بأمر النظافة داخل المنازل وخارجها ؟.!..

المبنى الذى نقيم فيه (والذي تمّ بناؤه منذ أكثر من ستين عاما) يمتاز بروعة المعمار القديم، ولكنه يكاد ينطق بالشكوى لاجاد من ينظف مدخله

ويلمع أرضياته الرخام وأعمدة مداخله، أما الشوارع فتكاد تئن وتتوارى خجلاً من انعدام النظافة بها، ولكننا اعتدنا هذا الامر، وأصبحنا نستمتع بالبيئة هناك حيث الجو الرائع ومودة الناس وألفتهم .

ففى الإسكندرية يوجد دار الأوبرا التى تقام فيها عديد من الحفلات الموسيقية العربية والعالمية، وفي السنوات القليلة الماضية حضرت بعض حفلات الموسيقى العربية التى استمعت بها وأعجبتني .

وفي إحدى هذه الحفلات قابلنا إحدى السيدات الألمانيات التي كانت تجلس أمامنا مع زوجها المصري، والتى التفتت إلينا وتكلمت معنا من تلقاء نفسها، ومنذ ذلك الوقت أصبحنا أصدقاء وتعارف أزواجنا، وعن طريقها قابلت نساءألمانيات ونساء أخريات من بلدان أخرى، ويجب أن أعترف أننى بدون ذلك التعارف لم أكن لأصدر هذا الكتابٌ حيث أنها فتحت أمامي عالماً جديداً تماماً، وأنا بالفعل ممتنة لها وأدين لها بالعرفان بشأن ذلك الأمر.

وبالطبع كانت لنا لحظات ممتعةً قضيناها مع المصريين من خلال عائلة منعم وآخرين، ولكنى أجد دائماً بعض الصعوبة عند التحدث مع معظم المصريين؛ فموضوعات المناقشة التي يتناولونها مستهلكه؛ قليلة وبسيطة، كما أن الحوارات العامة لا تخرج عن نطاق العائلة والأطفال والأحفاد.. وبعض الأمور العادية .

وجدير بالذكر أن بعض صديقاتي الألمانيات اللاتي يتكلمن اللغة العربية جيداً يقلن نفس الشيء عن الحوار مع المصريين، ولكنى أتمنى أن يتحسن ذلك في المستقبل، وأن نعرف المصريين بشكل أكبر ونتحدث معهم على نحو أفضل .

كلما نكون في مصر نشتاق إلى ألمانيا بعد مرور عدة أشهر، لأن لدينا

هناك دائرة معارف وأصدقاء دامت عشرتنا معا على مر السنين نرغب دوما فى زيارتهم، و بالطبع نرغب أيضا في رؤية أولادنا وأحفادنا بصفة منتظمة، حيث يشكل ذلك الأمر أهمية خاصة بالنسبة لنا، ولكننا حينما نذهب إلى ألمانيا نحب العودة سريعاً إلى مصر وخصوصاً حينما يكون الطقس بارداً وقميئاً .

لنا في الإسكندرية أصدقاء عديدون، ونستمتع بحياتنا هنا كثيرا، ومثل باقي المصريين يشعر زوجي تجاه بلده بالحب والانتماء، ولكنه أحيانا ينتابه شعور بالكآبة؛ إذ يكون من الصعب عليه أن يفهم ويدرك لماذا تبدو الأمور هنا معقدة وصعبة في حين تبدو سهلة وبسيطة في أي مكان آخر؛على الرغم من وجود العديد من المثقفين و الأذكياء الذين يعيشون هنا لكنهم لا يستطيعون تحقيق كل ما يرغبونه، وما يبدو صائباً من وجهة نظرنا .

إن التغيير المستمر الذى ينشأ عن الانتقال الدائم بين مصر وألمانيا يتطلب الكثير من المرونة، فالمرء يدرك قيمة الشيء عندما لا يملكه؛ ففي مصر نستمتع بالطقس الرائع كما نستمتع بطيبة ومودة الناس، ونستمتع أيضا بتناول الفواكه الطازجة وكل الأطعمة الأخرى التي لا نجدها في ألمانيا، وفي ألمانيا نسعد كثيرا بأسلوب الحياة والاكتفاء الذى يتمتع به الناس والاعتماد على النفس؛ هذا بالإضافة إلى نظافة وجمال الطبيعة والمدن الصغيرة، بالتأكيد سوف يظل دائما لدينا مقر وبيت في ألمانيا، ولكننا الآن نحب مصر أكثر من ذى قبل .

وحينما أذهب إلى أي مكان، يبدو واضحاً بالنسبة لي هذا النداء الذى يهتف بداخلي والذى أستمع إلى أصدائه تتردد دوما على مسامعى :

- " لا.. ليس دون زوجي !"

الخلاصة

أكثر ما أدهشني في هذه القصص هي رغبة النساء التلقائية في الكلام عن حياتهن؛ فعندما تحدثن عن كل شيء أحسسن بالراحة؛ إذ كشفن عن مكنون صدورهن، ولم يكن تذكّر كل تلك المعلومات والتفاصيل وبطريقة محبوكة أمراً سهلاً وبسيطاً عليهن، ولهذا طلبت من ابنتي أن تشكر كل من عمل معي ليعيد كتابة تلك القصص بشكل مترابط ومقروء.

القصص التي وردت في هذا الكتاب هي من واقع الحياة ويظهر أنها نموذج مشترك لحكايات كثيرة، وعلى الرغم من اختلاف النساء وتنوع قصصهن، فبينهن أمور كثيرة مشتركة، جميعهن عايشن في محيطهن المباشر في ألمانيا تصرفات الآباء والأصدقاء والأقارب وردود فعلهم الباردة الفجة أو تلك التي أخذت – فى بعض الحالات ـ صورة عدوانية ضد من أرادت الزواج من مصري، وبرغم ذلك تابعن قراراتهن وأصررن على المضي قدما في تجربة الزواج حتى النهاية، ولم يلتفتن إلى التنبؤات التى قالت بفشل تلك الزيجات، وهكذا في النهاية استطعن الفوز بسعادتهن في الحياة ونعمن باختياراتهن.

هناك إحساس مذهل بالتضامن والألفة يجمع بين تلك المجموعة من السيدات؛ حيث لم تكن الصداقة هي الرابط الوحيد الذى جمع بينهن، ولكن إدراكهن الخاص بقدرتهن على التأقلم والتكيف مع كل الصعوبات والعراقيل التى كان عليهم مواجهتها في مصر، فعلى مدار السنوات استطعن بفضل إرادتهن التغلب على كثير من المشاكل والصعاب، وربما كان نقص المواد الغذائية في زمن جمال عبد الناصر هو أكثر الأمور غرابة؛ فقد عاني الجميع منها بدرجات متفاوتة، كما كانت هناك أمور أخرى لم تكن واضحة ولكنها كانت

صعبة؛ فالعائلة تأتي في مصر في المقام الأول، وكثير من النساء لاحظن التأثير القوي للآباء أو الإخوة على أزواجهن، وقد كان ذلك مدعاة لإزعاجهن وقلقهن.

بالنسبة للرجل المصري يأتي الأبوان في المقام الأول، أما في أوروبا، فإننا نرى الأمور بشكل مختلف، فالزوجة والأولاد في المقام الأول .

وهكذا يتضح لنا أن تلك السيدات قد عشن تجارب كثيرة ذات قواسم مشتركة، أكثر من أقرانهن الأخريات اللواتي عشن في ألمانيا فقط أو في بلدان أخرى.

تحدثت معظم الزوجات هنا عن موضوع غيرة أزواجهن، بالطبع هناك رجال غيورون في بلدان أخرى، ولكن الغيرة تمثل في مصر سمة طبيعية سائدة، وتلك هي التقاليد والأعراف الاجتماعية؛ ففي اعتقادهم أن الغيرة تكون بمثابة الدرع الواقي بالنسبة للمرأة، أيضاً من الأمور المذهلة أن نشعر بتسامح الأزواج حينما نتطرق إلى شأن العقيدة الدينية، ولكنني أدعي بأن قدراً معيناً من التسامح يكون أمرا ضروريا في هذا الشأن باعتباره شرطا أساسيا لاقتران الرجل المسلم بامرأة غير مسلمة، أما المسلم المتعصب فهو بالتأكيد لن يفكر- من البداية - في الزواج من امرأة مسيحية.

نحن النساء الألمانيات نعتبر أنفسنا متحررات، ولكن هل في ذلك أي مزايا ؟ يجب علينا أن نفكر ونتصرف بطريقة أكثر استقلالية، فقد يكون ذلك الاستقلال يمثل إرهاقا شديدا علينا؛ إذ إننا نهلك أنفسنا بين العمل والأطفال والمنزل.

معظم الرجال يساعدون زوجاتهم المتحررات- ولكن من الناحية النظرية فقط- فنادرا ما نراهم يقومون بالأعمال المنزلية، فإذا خرجت النساء للتسوق فإنهن يجرون الأكياس الثقيلة بأنفسهم ليدخلونها إلى المطبخ.

في مصر قلما تجد أحداً يتحدث عن تحرير المرأة؛ فالمرأة ـ هنا ـ تعتبر أضعف من الرجل، إذ يساعدها الرجل لأنها لا تستطيع أن تحمل الأوزان الثقيلة. هذا ينطبق على التسوق ولكن العكس، أيضا، فالناس في مصر خدُومين أكثر من ألمانيا. ففي نطاق الأسرة نجد الأخ يرعى أخته، ومن الطبيعي أن يهتم الأولاد بآبائهم.

إذا وقع حادث أو سقط إنسان في الشارع، يتدافع الناس إليه كل يجرى لمساعدته؛ و قد يصبح ذلك عائقا إذا شارك الكثيرون في المساعدة، إذ يبدأون في تبادل الرأي والبحث عما يجب أن يتم.

لقد شهدنا التغيير في المجتمع المصري على مدار سنوات طويلة؛ ففي السابق كانت بلدا مريحا بهيجا وصريحا؛ وقلما كنا نجد امرأة ترتدي حجابا، أما اليوم فهى أرض للنزاعات المتطرفة، ولا يعلم أحد سر ما حدث.

كيف بدأت وتطورت هذه التغييرات هو موضوع يحتمل الكثير من الحوارات والمناظرات، وإننا لا نعرف شخصيا أي فرد يعتنق تلك الآراء المتطرفة، وحتى اليوم هناك معايير تطبق على الأجنبيات، ولكنها مختلفة عن تلك المعايير التي تطبق على المصريات.

ومع ذلك فإننا نراقب التغييرات باهتمام شديد.

أمنيتنا أن يسهم هذا الكتاب في مزيد من التسامح والتفاهم بين الأديان والثقافات.

أناليز إسماعيل

الإسكندرية – فبراير 2009

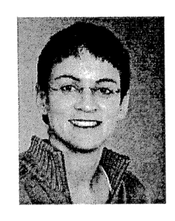
المؤلفتان في سطور



أناليز إسماعيل

Annelies Ismail

ولدت عام 1942 في برلين – في ألمانيا وتزوجت من مصري منذ عام 1965، وعملت لأكثر من أربعين عام في صناعة الكمبيوتر منها 18 عامًا، عملت مع زوجها في شركتهم الخاصة، و بعد حياة حافلة في ألمانيا والولايات المتحدة وفرنسا، عاش الزوجان في مدينة الإسكندرية في مصر منذ عام 2004.

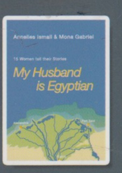


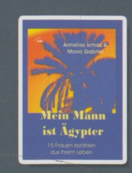
منـى جبـريـل

Mona Gabriel

ولـدت منـى جبريـل في عـام 1968 في إنـدي كـوت – بولايـة نيويـورك- في الولايـات المتحـدة – لأب مـصري وأم ألمانيـة (أنـاليز إسماعيـل) عاشـت هـذه التجربـة الفريـدة لمزايـا وعيـوب تكـوين هـذه العائلـة المتنوعـة، و بعـد دراسـتها للتـسويق والإعـلان عملـت في التـسويق الـدولي في دار نـشر، وهـى تعمـل كاتبـة وصـحفية حـرة منـذ عـام 1997 وتعـيش منى جبريل حـاليا في ليبزج في ألمانيا مع زوجها وطفليها.







الكتاب الأكثر مبيعاً في العالم باللغة الألمانية والإنجليزية والعربية



أناليز إسماعيل
Annelies Ismail



هذا الكتاب

يتضمن السير الذاتية الخاصة بسيدات أجنبيات أزواجهن مصريين ، وكل واحدة منهن تحكي قصة حياتها الشخصية من خلال الواقع الذي عاشته.

فهل استطاعت كل شخصية من هذه الشخصيات أن تتغلب على المشاكل والتحديات التى واجهتها في ظل حياة ذات ثقافة غريبة عليها ؟

هذا ما سنعرفه من خلال قراءتنا لهذا الكتاب .

وقد طُبع هذا الكتاب باللغة الألمانية والإنجليزية، ولاقى نجاحًا باهرًا ، وهذه هي الطبعة العربية نقدمها للقارئ الكريم.

الناشر

العقيد شيرين ثابت

I.S.P.N. 978 - 977 - 472 - 17 - 8